سيرة

لويس ألتوسير

ويدوم المستقبل طويلاً

ترجمة : إياد عيسى

صفحة ٧

لويس ألتوسير
ويدوم المستقبل طويلاً

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن
مبادرة ترجم

ويدوم المستقبل طويلاً...

L'avenir dure longtemps

Louis Althusser

ويدوم المستقبل طويلاً...

لويس ألتوسير

ترجمة: إياد عيسى

صفحة 7

صفحة
7

الكتاب
ويدوم المستقبل طويلاً...
المؤلف
لويس ألتوسير

الطبعة الأولى: 2022
الترقيم الدولي:
978-603-8387-22-1
رقم الإيداع:
1444/3953

© 1992, 2007, Editions Stock / IMEC

Arabic Copyright © 2022 by page-7.com
حقوق الترجمة العربية محفوظة
© صفحة سبعة للنشر والتوزيع
E-mail: admin@page-7.com
Website: www.page-7.com
Tel.: (00966)583210696
العنوان: الجبيل، شارع مشهور،
المملكة العربية السعودية

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of publisher.

تستطيع شراء هذا الكتاب من متجر صفحة سبعة
www.page-7.com

ويدوم المستقبل طويلاً...

1985

لعلّ الدّهشة تأخذكم إذ تجدونني أخرج عن صمتي بعد ما اقترفتهُ يداي، وبعد أن صُودِقَ على قرار منع المحاكمة، وأُعفيتُ من المساءلة القانونيّة تبعًا لما توجبه عبارة منع المحاكمة بصورة تلقائيةٍ.

لكنني كنتُ لأجبر على المثول أمام القضاء لو لم أحصل على هذا الإعفاء، وآنذاك كان تقديم الأجوبة سيصبح فرضًا لازمًا.

هذا الكتاب هو إفادتي التي كنتُ سألزم بتقديمها لو قيّض للأحداث أن تتّخذ منحًى مغايرًا، وجلُّ ما أطلبه اليوم أن تأذنوا لي بتقديم ما كان من الممكن أن يكون حينها جبرًا وإلزامًا.

إنني مدركٌ، بطبيعة الحال، أنّ إفادتي التي أهمّ بتقديمها في هذا المقام لا تراعي الأصول القانونية للمثول أمام القضاء -وهو الأمر الذي لم يجرِ- كما لا تتّخذُ الصيغة الشكليّة الواجبة. مع ذلك، أتساءل في قرارة نفسي ما إذا كان الاستغناء عن هذه المحاكمة وقواعدها القانونية وأصولها الشكلية، سواء أكان ذلك في الماضي أم في المستقبل، سيجعل مما أحاول قوله أمام الرأي العام أكثر وضوحاً وعفويّة في نهاية المطاف. أتمنّى أن يتحقّق ذلك. لكنّه حظّي من الدنيا ما طامنتُ هاجساً كرباً إلا وطارت من القمقم هواجس أخرى لا تنتهي.

الفصل الأول

سأقصُّ عليكم حكاية ما جرى بقدر ما أحتفظُ بتلك الذكرى جليّةً وسليمة حتى في أدقّ تفاصيلها، محفورةً إلى الأبد فيما أتعاطاه من شؤون الحياة وتجاربها جميعها، تلك الذكرى الممتدّة بين ليلتين: الليلة العاديّة التي استيقظت فيها، والليلة الأخرى التي كنت أوشك أن أغوص في دياجيرها. سأقصُّ عليكم حكاية ما جرى: وهاكم مشهد جريمة القتل كما عشتهُ:

نهضتُ واقفًا فجأةً -في ثياب النوم- عند طرف السرير داخل شقّتي الكائنة في المدرسة العليا. كان ضوء باهتٌ من أيام تشرين الثاني -يوم الأحد الواقع في السادس عشر منه، قرابة الساعة التاسعة صباحًا- يتسلّل ليضيء طرف السرير عبر النافذة المرتفعة، التي تؤطّرها منذ أمدٍ بعيدٍ ستائر قديمة جدًّا ذات حمرةٍ امبراطوريّةٍ، وقد أبلتها الأيام وأحالت أشعة الشمس لونها.

ترقد هيلين (Hélène) أمامي مستلقيةً على ظهرها، مرتديةً ثياب النوم أيضاً. كانت تسند عجيزتها على حافّة السرير ممدّدةً ساقيها فوق بساط الغرفة. دنوتُ منها جاثيًا، ثمّ انحنيتُ فوقها وشرعتُ في تمسيد العنق. لطالما دلّكتُ في صمتٍ جسدها: العنق، والظهر، والكشحين. لقد تعلّمتُ هذه المهارة من أحد الرّفاق في الأسر، كان يُدعى كليرك الصغير (le petit Clerc)، لاعب كرة قدمٍ محترفٍ وخبيرٌ في كلّ شيء.

لكنّني هذه المرّة، أخذتُ أدلّك عنقها من الجهة الأماميّة. فضغطت بالإبهامين داخل التجويفين اللذين يحيطان بأعلى القفص الصدري، ثمّ تابعتُ الضغط بكليهما معًا على نحوٍ بطيء، صاعدًا بإصبعٍ جهة اليمين، وبآخر جهة اليسار بشكلٍ مائلٍ،

حتى بلغتُ المنطقة الواقعة أسفل الأذنين، وهي أشدّ المناطق صلابة. كنتُ أدلّكُ على صورة الحرف (V). ولقد شعرتُ بتعبٍ عضليّ كبيرٍ في ساعديّ: لكنني أدرك السبب؛ إذ طالما شعرتُ بالألم في الساعدين جرّاء ممارستي التدليك.

وجه هيلين جامدٌ وهادئ، وعيناها تحدّقان في سقف الغرفة. يتملكني الرّعب بغتةً: عيناها تتسمّران طويلاً، وها هو ذا طرف لسانها يتدلّى على نحوٍ غريبٍ وساكنٍ بين أسنانها وشفتيها.

رأيتُ في الماضي أمواتاً بالطبع، لكنني لم أرَ وجه امرأة مخنوقةٍ قطُّ. على الرّغم من ذلك، أدركتُ أنّها كانت مخنوقةً. ولكن كيف؟ حينها انتصبتُ وصرختُ عاليًا: خنقتُ هيلين!

هرعتُ مسرعًا بأقصى ما أستطيع من قوّةٍ، وقد تملّكني رعبٌ شديدٌ، عبرتُ الشقّة، ونزلت الدّرج الصغير ذي الدرابزين الحديديّ الذي يفضي إلى الساحة الأماميّة المسوّرة بسياجٍ عالٍ، ثمّ توجّهت، من دون أن أتوقّف عن الجري، تجاه المستوصف حيث أعلم أنني سأجد الدكتور إتيان (Dr Étienne) الذي يقيم في الطابق الأول. لم أصادف في طريقي أيّ شخصٍ؛ إذ كنّا في يوم الأحد، والمدرسة شبه فارغة لم تستيقظ من سباتها بعدُ. صعدتُ درج الطبيب قافزًا أربع درجاتٍ فأربع وأنا مستمرٌ في الصراخ: «لقد خنقتُ هيلين!».

كنتُ أقرعُ بشكلٍ عنيفٍ باب الطبيب الذي فتح البابَ أخيرًا؛ فبدا ذاهلًا وهو ما يزال في ثياب النوم بعدُ. واصلتُ الصراخ من دون توقّفٍ بأنني خنقتُ هيلين، ثم جذبتُ الطبيب من ياقة قميص النوم بأن يحضر على عجلٍ لرؤيتها، وإلا فإنّني سأحرق المدرسة العليا للأساتذة، لكنّ إتيان بدا عاجزًا عن التصديق وهو يقول «مستحيل».

على عجلٍ عدنا أدراجنا معًا لنجد هيلين راقدةً أمامنا وما تزال عيناها مسمّرتين، وطرف لسانها متدليًا بين الأسنان والشفتين. يشرع إتيان في فحصها ثمّ يقول: «لقد

فات الأوان، لا يمكن فعل شيء». «ولكن ألا يمكن إنعاشها؟»، أقولُ. «كلّا»، يردّ عليّ.

عند ذاك، يطلب إتيان إليّ انتظاره قليلًا ويتركني وحيدًا. لاحقًا سوف أدركُ أنّه كان على إتيان أن يخبر مدير المدرسة، والمشفى، ورجال الشرطة، وأن يقوم بأشياء أخرى من هذا القبيل.

ألبثُ منتظرًا والرّجفة لا تبارحني.

تتدلّى الستائر الحمراء الطويلة والمهترئة مزقًا على جانبي النافذة فتحاذي الستارة اليمنى منها طرف السرير تمامًا. أتذكّر صديقنا جاك مارتان (Jacques Martin) حينما عُثر عليه في أحد أيّام شهر آب من عام 1964 ميتًا في غرفته الصغيرة الكائنة في الدائرة السادسة عشرة. كان ممدّدًا على سريره منذ عدّة أيّامٍ مع وردةٍ قرمزيّة اللون بساقٍ طويلةٍ تركها فوق صدره: تلك رسالةٌ صامتةٌ إلينا -وقد كان صفيّنا طوال عشرين عامًا-، رسالةٌ من وراء القبور كتذكار بيلويانيس[1]. حينها أجذب ذؤابةً نحيلةً من طرف الستارة الحمراء الطويلة (من دون أن أقطعها) فأضعها فوق صدر هيلين بشكل مائلٍ يمتد من أعلى كتفها اليمنى حتى نهدها الأيسر.

يعود إتيان لاحقًا. الغموض يلفّ كلّ شيء. يُخيّل إليّ أنه قام بحقني بشيءٍ ما. أعود معه إلى مكتبي فأجد رجلًا (لا أعرفه من قبل) يفتّش في كتبي المستعارة من مكتبة المدرسة. يتحدّث إتيان مع المشفى، ومن ثمّ أغرق في عتمة الليل «لأصحو» (وأنا لا أعلم كم أمضيتُ من الزّمن) في مستشفى سانت آن.

---

(1) إشارة إلى الرجل ذو القرنفلة الحمراء نيكوس بيلويانيس (Nikos Beloyannis) 1915-1952: قائد المقاومة والكوادر القيادية للحزب الشيوعي اليوناني الذي أعدم بعد محاكمة سريعة، وقد احتفظ في أثناء فترة محاكمته بقرنفلة حمراء أهديت إليه في أثناء المحاكمة، فتحولت القرنفلة الحمراء إلى رمز ومجاز. (المترجم)

الفصل الثاني

ليغفر القرّاء لي هذا الكتاب الصغير الذي كتبته في المقام الأول من أجل أصدقائي، بل ومن أجلي إن كنتُ أستطيع قول ذلك. وسوف تُدرك أسبابي قريبًا.

علمتُ بعد فترةٍ طويلةٍ من وقوع المأساة أن اثنين من أقاربي (وهما في ذلك لم يكونا الوحيدين طبعًا) كانا يتمنيّان ألا أكون محلًا لمنع المحاكمة الذي صادقت عليه خبرات الطبابة الشرعية الثلاث التي جرت في مستشفى سانت آن خلال الأسبوع الذي أعقب موت هيلين، وأن أمثلَ أمام محكمة الجنايات. لكنّها كانت رغبة حالمة للأسف.

فبناء على تشخيص حالتي بأنّني مريضٌ خطرٌ (اضطراب ذهني، وهذيان حُلمي)، انتفت عنّي أهليّة المثول كخصمٍ في مواجهة دعوى الحقّ العام؛ بحسبان أنّ قاضي التحقيق الذي زارني لم يستطع انتزاع أيّة عبارة مني. إضافة إلى ذلك (ولمّا كان قائد الشرطة قد قرّر وضعي قيد التوقيف، وتحت نظام القوامة) فإنّني لم أعد أتمتّع بحريّتي ولا بحقوقي المدنيّة. لقد أصبحتُ، في حقيقة الأمر، مجرّدًا من جميع الخيارات لأجد نفسي رازحًا تحت ربقة مجموعةٍ من الأصول القانونيّة التي لا يمكنني سوى الخضوع لها إذ لا أملك منها فكاكًا.

لهذه الأصول القانونية مزايا واضحةٌ بحسبان أنّها تحمي المتّهم الذي قُضي بعدم مسؤوليّته عن تصرّفاته، لكنّها أيضًا تخفي مساوئ كبيرة لا يعرفها الجميع.

بالطبع، فإنّني -بعد المعاناة الطويلة التي اختبرتها- في غاية الدّهشة إزاء الموقف المتفهّم الذي اتّخذته الصديقات! وأنا حينما أتحدّث عن المعاناة، لا أتكلّم عن تجربة

الاحتجاز التي عشتها فحسب، بل أتكلّم عمّا أعيشه منذ ذلك الحين، وكذلك عما أراه، وعمّا كنتُ ملزمًا بعيشه حتى آخر أيّامي ما لم أخض في المسألة على نحوٍ شخصيّ وعامّ كي أُدلي بشهادتي. لقد ناب الكثيرون عنّي حتى هذه اللحظة في الحديث، أو الصمت تحدوهم إلى ذلك أنبل المشاعر أو أشدّها وضاعةً! لكنّ منع المحاكمة الذي قيّضته الأقدار لي كان في حقيقة الأمر شاهدة القبر التي سوف أنصبها فوق جثّة صمتي.

إنّ قرار منع المحاكمة الذي صدر في صالحي في شهر شباط من عام 1981 يُختصر، حقيقةً، في المادة الشهيرة ذات الرقم 64 من قانون أصول المحاكمات الجزائيّة الصادر في عام 1838: وهي المادة التي بقيت على حالها رغم محاولات تعديلها التي بلغت اثنتين وثلاثين محاولة خائبة. كانت حكومة موروا[2] قد شكّلت لجنة لتعيد النظر من جديد في هذه المسألة العويصة، التي زعزعت الثّقة في عمل أجهزة السلطات الإداريّة والقضائيّة والعقابيّة كاملًا والتي تتضافر جهودها معًا في مسألة التوقيف هذه على مستوى النظرية والتطبيق وإيديولوجية العلاج النفسيّ. لكن هذه اللجنة لم تعد تجتمع؛ فالظاهر أنّها لم تجد نظامًا آخر أكثر نجاعةً.

بالفعل، يعارض القانون الجزائي منذ عام 1838 حالة انعدام المسؤولية التي تتوافر لدى الجاني الذي يقدم على ارتكاب جريمته وهو في حالة «الجنون» أو «الإكراه» بحالة توافر المسؤولية الواضحة والبسيطة التي نجدها لدى كلّ إنسانٍ «طبيعيّ».

تقودنا حالة توافر المسؤولية إلى مباشرة الأصول التقليدية: حيث الحضور أمام محكمة الجنايات، والمرافعات العلنيّة التي تُواجه فيها مداخلات النيابة العامّة التي تمثّل الصالح العام، وحيث سماع الشهود، ومحامو الدفاع والمدّعي الشخصيّ الذين

(2) بيير موروا (Pierre Mauroy) 1928-2013: سياسي اشتراكي فرنسا، شغل رئاسة الوزراء الفرنسية في الفترة بين 1981 إلى 1984 في أثناء ولاية الرئيس فرانسوا ميتيران، اعتمد سياسة يسارية من بينها كان إلغاء عقوبة الإعدام، وقد استقالت الحكومة لاحقًا لفشلها في كبح التضخم والبطالة. (المترجم)

يترافعون علنًا، والمتّهم الذي يقدّم بنفسه تفسيره الشخصيّ لما جرى. وجميع هذه الأصول الجزائيّة التي تتّسم بمبدأ العلانيّة تُختتم بمداولاتٍ سريّة بين هيئة المحلّفين التي ستنطق بالحكم علناً سواء أقضى حكمها بالبراءة أم بعقوبة الحبس حيث يدرك المجرم على هذا النحو بأنّه عوقب بالحبس المؤقّت الذي «يُفترض» أن يسدّد من خلاله مديونيّته قبالة المجتمع، «ليكفّر» بالتالي عن جريمته.

أمّا في حالة انعدام المسؤوليّة القانونيّة -في المقابل- فلا تتّبع أصول المحاكمات العلنيّة والوجاهيّة أمام محكمة الجنايات. بل يُقضى ابتداء وبشكلٍ مباشر بحجز القاتل في مستشفى الأمراض العقليّة. وبذلك فإنّ الجاني يصبح بدوره «خارج نطاق الإضرار» بالمجتمع، ولكنّه يحتجز إلى مدّة غير محدّدةٍ، حيث يُفترض أن يتلقى العناية الطبيّة النفسيّة التي تستلزمها طبيعة «مرضه الذهني».

فإذا ما بُرّئت ساحة الجاني في نهاية الدعوى العامة المقامة في مواجهته، استطاع آنئذٍ أن يعود إلى حياته ورأسه مرفوع (أقلّه من حيث المبدأ؛ فالرأي العام قد يمتعض من رؤية الجاني مبرّأً، وقد يجعل هذا الأخير يشعر بهذا الامتعاض. لطالما وُجدت في مثل هذا النوع من النوائب أصواتٌ ناعقةٌ تقوم مقام المزاج العامّ المُستاء).

أمّا إذا حكم عليه بالاعتقال أو الحجز في مستشفى الأمراض العقلية (كمأوى احترازي)، فإنّ المجرم أو الجاني يختفي عن مسرح الحياة العامّة: إمّا لوقت محدّدٍ قانوناً في حالة الاعتقال (وهذه المدّة قد تخفّض بما يلحقها من حسومات)[3]، أو لوقتٍ غير محدّد في حالة الحجز في مستشفى الأمراض العقليّة، ويترافق ذلك مع ظرف مشدّد: فالمتّهم يعدّ مفتقدًا لسلامة التقدير، وبالتالي فإنه يفقد حريّة التصرّف القانوني، وقد يفقد الجاني المحتجز (في مستشفى الأمراض العقليّة) شخصيّته القانونيّة إذ يفوّض قائد الشرطة القيام بشؤونه إلى «قيّم» (وهو رجل قانون) يمتلك حقّ التوقيع والتصرف نيابةً عنه. فيما لا يفقد غيره من المعتقلين هذه الشخصية إلا

(3) فالعقوبة قد تخفض تبعاً لمنح المتّهم أسبابًا أو أعذارًا مخفّفةً، كما أن العقوبة قد تنفذ جزئيًا إذا ما تقرر وقف الحكم النافذ «أو ما يعرف بمنح السجين ربع المدّة». (المترجم)

بوصفها «ذات طبيعة جرمية»[4].

وبما أنّ الجاني أو المجرم يُعدّ من «الأشخاص الخطرين» سواء بالنسبة إليه (إذ قد يُقدم على الانتحار)، أم بالنسبة إلى المجتمع (إذ قد يعود إلى ارتكاب الجرائم)، لذلك فإنّه يُجعل في موقفٍ لا يستطيع فيه إحداث الضرر من خلال حجزه في معتقلٍ أو مستشفى الأمراض العقليّة. وكي ندرك حقيقة المشهد جيّدًا علينا أن نلاحظ أنّ كثيرًا من مستشفيات الأمراض العقليّة لا تزال تعدّ شكلًا آخر من أشكال السجون، وذلك على الرغم من التقدّم الحديث الحاصل، حتّى إنّ الأمر يصل إلى تخصيص المرضى «الخطرين» (الممسوسين أو العنيفين) بمناطق حمايةٍ أو عزلٍ تحيط بها الخنادق العميقة وتسوّرها الأسلاك الشائكة، وبقمصان المجانين، وبالجرعات المفرطة من المهدّئات، وهذه الأدوات جميعها تثير في النفس ذكرياتٍ مؤلمةً؛ إذ لطالما كانت مناطق العزل هذه أشدّ سوءًا من سجون كثيرة.

لذلك فإنّه ليس من المستغرب في ظلّ الجمع بين هذين الأمرين: الاعتقال من جانبٍ، والحجز في مأوى احترازيّ من جانب آخر-أن يجعل الرأي العام، غير المطّلع، نوعًا من المماثلة بينهما. على كلّ حال، يبقى الاعتقال أو الاحتجاز في مأوى احترازي هو العقاب الطبيعي للجاني. وباستثناء الحالات الملحّة-ذات الخطورة القصوى كما تُدعى- والتي لا خلاف عليها، فإنّ الاستشفاء لا يمرّ بسلامٍ سواءٌ أكان ذلك بالنسبة إلى المريض الذي يتحوّل الاستشفاء لديه إلى حالة مزمنةٍ، أم بالنسبة إلى الطبيب الذي يُضطرّ هو الآخر إلى العيش في عالمٍ مغلقٍ يَفترض به أن يكون على «درايةٍ مسبقةٍ» تامّةٍ بالمريض الذي يعيش معه في حالةٍ من المواجهة القلقة، وحيث يقوم الطبيب بالسيطرة على المريض في أغلب الأحيان ببلادةٍ في المشاعر وبعدائيّةٍ متنامية.

لكنّ الأمر لا يقف عند هذا الحدّ؛ فالرّأي العامّ يعدّ -بصورةٍ تلقائيّةٍ- أن الجاني

---

(4) وهو ما يفسر اعتبار التجريد المدني عقوبة تكميلية تتلازم مع العقوبة الجنائية حكمًا من دون الحاجة إلى ذكرها في منطوق الحكم الجنائي. (المترجم)

أو المجرم من أصحاب السوابق المحتملين، وهم -تبعًا لذلك- يُعدّون «أشخاصًا خطرين» على الدّوام فيكون من الواجب استئصال شأفتهم من جسد المجتمع «طيلة الحياة». لهذا السبب تتعالى الأصوات المستنكرة التي يقوم بعض أصحابها -لدواعٍ عصبيّةٍ مفرطةٍ- بتعزيز مشاعر الحصر والسخط الاجتماعي؛ فيجعلون من أنفسهم طبقةً مخصوصةً إذ يطالبون بحماية الأفراد والممتلكات، معارضين منح أذونات الخروج[5] أو الإفراج المبكّر[6] إلى المحكوم عليهم من «ذوي السلوك الحسن داخل السجن» قبل انقضاء أجل عقوباتهم. لهذا السبب تلازم عبارة «السجن المؤبّد» كثيرًا من التعليقات، ليس بوصفها بدلاً من عقوبة الموت فحسب، ولكن بوصفها أيضًا العقاب «الطبيعي» على جميع أصناف الجرائم التي تعدّ جرائم شنيعة بسبب اعتدائها على سلامة «الأطفال، والعجائز، ورجال الشرطة». في مثل هذه الظروف كيف يستطيع «المجنون»-وهو الذي يُعدّ أكثر «خطورةً» بكثيرٍ من المجرم العادي لأنّه أكثر الأشخاص الذين لا نستطيع التنبؤ بأفعالهم- أن يتحاشى ردّة الفعل المتوجّسة نفسها طالما أنّ مصيره -وقد أحكمت الطبيعة رتاج عقله- كمصير المدان ذي «العقل السليم؟».

مع ذلك، يلزمنا المضي بعيدًا في بحثنا هذا؛ بحسبان أنّ المجنون المُحتجز الذي تقرّر منع محاكمته يتعرّض -في حقيقة الأمر- إلى كثيرٍ من الاتّهامات التي يوجّهها الرأي العام.

فالذي يحدث في معظم الحالات أنّ المُدان المقرّ بفعلته والذي يمثل أمام محكمة الجنايات يخرج محكومًا بعقوبة مؤقتةٍ بشكل عامٍ: سنتين، أو خمس سنواتٍ، أو

---

(5) الإذن بالخروج (permission de sortir) هو تصريح يمنح لمعتقل في ظل شروط معينة يخوله التغيب عن مؤسسة إصلاحية لمدة محدودة من الزمن تحسم من مدة العقوبة الجاري تنفيذها، ليسمح له بالتحضير لاندماجه المهني أو الاجتماعي أو الحفاظ على روابطه العائلية أو القيام بموجب يتطلب حضوره. (المترجم)

(6) الإفراج المبكر (libération anticipé) أو وقف الحكم النافذ: هو أن يفرج القاضي عن المحكوم عليه بعد أن ينفذ ثلاث أرباع عقوبته إذا ثبت أنه صلح فعلًا. (المترجم)

عشرين، وليس بخافٍ على أحدٍ أنّ عقوبة السجن مدى الحياة –أقلّه حتى وقتنا هذا– قد تتعرّض لحسومات في مدتّها. ومن المفروض أنّ المحكوم عليه خلال مدّة اعتقاله «يؤدّي مديونيّته قبالة المجتمع»، فما أن تُسدّد هذه «المديونيّة» حتى يستطيع –بناء على ذلك– العودة إلى حياته مجدّدًا بشكلٍ طبيعيٍ ومن دون أن يكون في ذمّته –مبدئيًا– أيّ دين آخر. وأنا أقول «مبدئيًا» لأنّ الواقع لا يبدو بمثل هذه البساطة، وهو لا يلتزم أوامر القانون بصورة فوريّةٍ؛ فالخلط واسع الانتشار بين المتّهم والمدان، وعقابيل المصيبة الملموسة إلى أمدٍ بعيد على الصعيد المحليّ والوطنيّ، وصخب الصحافة ووسائل الإعلام الذي يرافق الادعاء العام بحجّة نقل الخبر وإيصال المعلومة –والذي يستمر طويلًا ومن دون مراعاةٍ للنتائج المترتّبة على ذلك–، والشائعات على أنواعها التي لا تطارد –بحماقتها وخبلها– المتّهم البريء الذي أخلي سبيله فحسب، بل وكذلك المجرم المُدان الذي أدّى عقوبته «بشرفٍ واستقامة»، كلّ هذه أمثلة تقف شاهدًا على ما نقول. أخيرًا ينبغي لنا أن نقول إنّ عقيدة «الدَّيْن» و«تبرئة الذّمة» قبالة المجتمع تصبّ–على الرّغم من كلّ شيء– في مصلحة المُدان الذي كفّر عن خطيئته، وفي مصلحة المجرم المُفرج عنه إلى حدٍّ ما. أضف إلى ذلك أنّ القانون يمنح الأخير حق الاحتجاج «بقوّة القضيّة المقضية»(7) حيال كلّ اتّهام آخر يخالف مؤدّاها: فالمجرم الذي أعاد اندماجه في المجتمع، أو الذي شمله العفو، يمكنه أن يرفع دعوى قدح وذمّ حينما يعيّر بماضيه الشائن. والشواهد كثيرة على ذلك. في ضوء ذلك فإنّ العقوبة «تطفئ» الجرم المرتكب، ليستطيع المجرم السابق –بمعاونةٍ من مرور الزمن، والعزلة والصمت– أن يستأنف حياته من جديد. وهاهنا أيضًا لا نعدم الشواهد على رحمة الله تعالى.

لكنّ هذا الأمر لا ينطبق على حالة الجانيّ «المجنون». فمن الواضح أنّه لا يمكن

(7) قوة القضية المقضية (Chose Jugée): مبدأ قانوني يعني المرتبة التي يصل إليها الحكم إذا أصبح نهائيًا غير قابل للطعن فيه بطريق من طرق الطعن العادية، وهو يمنع رفع القضيّة مجدّدًا أمام القاضي. (المترجم)

التنبّؤ لأجلٍ منظورٍ حينما يُحتجز هذا الأخير في مأوى احترازي، حتى وإن كنّا نعلم -أو يُفترض بنا أن نعلم- أنّ كلّ حالة خطيرةٍ من حيث المبدأ هي حالةٌ مؤقّتةٌ وعابرة. والحقّ أنّ الأطباء في أغلب الأحيان، إن لم نقل جميعها، يبدون -حتى بالنسبة إلى النطاسيّ بينهم- عاجزين تمامًا عن التنبّؤ بالشفاء خلال مدّةٍ زمنيّةٍ محدّدةٍ على وجه التقريب. والأجدى ألا نركن إلى التشخيص الأوليّ وأن نبادر إلى تعديله دائمًا؛ لأنّ طبّ الأمراض النفسية طبٌّ تطوّريّ أساسًا: فتطوّر حالة المريض هي التي تجيز وحدها تثبيت التشخيص أو تعديله. وبطبيعة الحال سوف تواكب خطّة العلاج وآفاق التوقّعات عملية التّشخيص هذه، سواء أتمّ تثبيتها أم تعديلها.

هكذا تدأبُ بعضُ الصحافة في سبيل إرضاء الرأي العام، من دون أن تميّز بين «جنون» الحالات الحادّة -ولكنّها حالات مؤقّتة- وبين المرض العقليّ الذي هو قدرٌ من أقدار الطبيعة. هكذا يعدّ المجنون مريضًا عقليًا على الفور، وإذ نقول مريضًا عقليًا فهذا يعني بالطبع مريضًا مدى الحياة؛ وهو لذلك غير قابل للإصلاح، ومحجور للأبد: إنّه «ميّتٌ على قيد الحياة» بحسب التعبير الموفّق للصحافة الألمانيّة.

من الواضح أنّ المريض العقليّ طيلة بقائه محجوزًا يواصل العيش -ما لم يقم بالانتحار-، بيد أنّ ذلك يكون في صمت الملجأ ووحشته. إنّه يبدو كالميّت في عيون أولئك الذين يزورونه في ضريحه، ولكن منْ يزوره؟ من جهةٍ أخرى، لا يمكن أن نعدّه ميّتًا حقيقةً، طالما أنّ وفاته لم تُعلن -وهو الرجل المشهور- (فالغرباء وحدهم لا يلفتون الأنظار بموتهم)، هكذا يتحوّل شيئًا فشيئًا ليصبح أقرب إلى رجلٍ ميّتٍ على قيد الحياة، أو بالأحرى رجلٍ لا يُعدّ ميّتًا ولا حيًّا. وهو إذ لا يستطيع أنْ يُبدي أيّ أمارةٍ من أمارات الحياة، إلا بالنسبة إلى أقربائه أو من يهتمّون لأمره (وهو أمرٌ نادر الحدوث، فحقيقة الأمر أنّ كثيرًا من المحجوزين لا يجدون زائرًا يزورهم أبدًا، وقد كنتُ عاينتُ ذلك بنفسي وفي مستشفى سانت آن وأماكن أُخرى)، وهو إذ لا يستطيع -علاوةً على ذلك- أن يعبّر عن نفسه علنًا في الهواء الطّلق، يُصنّف في حقيقة الأمر -ودعوني أجازف في استعمال هذا التعبير- كبندٍ مألوفٍ من بنود سجلّ

الخسائر الناتجة عن الحروب وكوارث الطبيعة جميعها: إنّه بندُ المفقودين.

فإذا ما تطرّقتُ إلى هذه الحالة الغريبة فالسبب يعود إلى أنني قد عِشتها، وأنا ما أزال -بطريقةٍ ما- أعيشها حتى هذه اللحظة. فعلى الرّغم من أنّني خرجتُ حرًّا منذ عامين من مصحّ الأمراض النفسية، لكنّني -بالنسبة إلى من يعرفون اسمي- رجلٌ مفقود. فأنا لا أُحسب في عداد الأموات ولا الأحياء، وإذا كنتُ لم أوارَ الثرى بعدُ، لكنّني رجلٌ «بلا أثر»، وبحسب العبارة الرّائعة التي يستخدمها فوكو في الإشارة إلى الجنون فإنّني: رجلٌ مفقود.

وإذا كانت شهادة الوفاة، في حال الرّجل الميْت، تُسدل الستارة على حياة المرء إذ يُوارى الثّرى ملحودًا، فإنّ حال المفقود على العكس منها؛ إنّها تجعل الفكر نهبًا لاحتمالٍ فريدٍ لإمكانيّة ظهوره مرّةً أخرى في وضح النهار ذات يومٍ (كما هو الحال معي اليوم، وكما كان فوكو قد وصف نفسه حينما شعر بالشفاء بأنّه «تحت الشمس الساطعة للحريّة البولونيزيّة»). لذلك يجب أن ندرك جيّدًا -وهو أمر نعاينه على الدّوام- أن تمثّل الفكر للمثال النادر في عودة رجل مفقود إلى مسرح الحياة مجدّدًا يخلق نوعًا من الضيق وسوء الفهم حيال هذا الموضوع، فالرأي العام يتوجّس خوفًا من أن يكون الاختفاء ليس بقادرٍ على وضع نهايةٍ حاسمةٍ للوجود الاجتماعيّ لمجرمٍ أو لقاتل مُحتجزٍ. وفي حقيقة الأمر فإنّ القضيّة تتعلّق بالموت وخطر الموت، وهذه مسألة غريزيّة لا فكاك منها.

بالنسبة إلى الرّأي العام، يجب أن تسوّى القضية بصورة نهائيّةٍ في مصحّ الاحتجاز. فالضيق الذي يُكابد بصورةٍ صامتةٍ وشائعةٍ -والذي يترافق مع ضربات القلب الواجفة لمشاعر الخوف- يتميّز فرقًا من فكرة أنّ الاحتجاز لن يكون مؤبّدًا. فإذا ما اتّفق أن ظهر المجنون المحتجز من جديدٍ في وضح النهار -حتى وإن كان ذلك بناء على موافقة أطبّاء أكفاء- فهاهنا يجب على الرّأي العام أن يبحث ويتوصّل إلى تسويةٍ ما بين هذا الظهور الجليّ غير المرتقب، ولكن المزعج أيضًا، وبين الجريمة

الشنعاء الأولى التي ارتكبها القاتل إذ توقظها عودة المجرم الذي «شُفي» كما يقال، وكما يدّعي هو نفسه. والحال أنّ هذا الوضع يتكرّر دائمًا في حالات الأزمات الحادّة. فماذا يستطيع أن يفعل؟ هل يعاود ارتكاب الجريمة؟ هل من الممكن -وهو «المجنون»- أن يعود رجلًا «طبيعيًا»؟ ولكن إذا كان ذلك بالإمكان، ألم يكن كذلك بالفعل في اللحظة التي ارتكب فيها جريمته؟ وسط هذا الرّأي العام الصامت والأعمى -فقد أعمت بصيرته عقائد تلقائيّةٌ برمّتها (يجري العمل على تغذيتها أيضًا) حول الجريمة، والموت، و«الدَّين الذي يسدّد مدى الحياة»، و«المجنون» الخطر الذي لا يمكن التكهّن بأفعاله- ها هي المحاكمة التي لم تنعقد توشك أن تُستأنف، بل وأن تبدأ أخيرًا على الملأ، ومن دون أن يكون للجاني -كما كان حاله من قبل- أبسط الحقوق في توضيح موقفه.

نصل أخيرًا إلى هذه المسألة ذات التناقض الغريب: فالمتّهم بارتكاب الجريمة الذي لم يستفد من قرارٍ بمنع محاكمته سوف يُكابد -بالطبع- تلك التجربة المريرة في المثول العلنيّ أمام محكمة الجنايات. ولكن سوف يكون كلّ شيءٍ -على الأقل- عرضةً للاتّهام. كما سيكون الدفاع والتعليلات الشخصية علنيّةً. إنّ المتّهم بجناية القتل -في هذه الإجراءات الوجاهيّة- يستطيع على الأقل وبصورة قانونيّةٍ الاتّكال على شهادات الشهود، وعلى المرافعات الشفهيّة لمحامي الدفاع وعلى حيثيّات الاتّهام العامّة: وفوق كلّ هذا وذاك، إنّ له الحقّ والامتياز الذي لا يقدّر بثمنٍ في أن يعبّر عن نفسه ويتكلّم عن حياته وجريمته ومستقبله، علنًا وبالأصالة والوكالة. فإذا ما أُدين أو بُرّئ، فهو يستطيع على الأقلّ أن يعبّر عن نفسه بنفسه وبصورةٍ علنيّةٍ، والصحافة مُلزمةٌ -بصدقٍ على الأقل- أن تنقل أقواله وخلاصة الدعوى التي تُقفل القضيّة بصورةٍ قانونيّةٍ وعلنيّةٍ. فإذا ما حُكم عليه ظُلمًا، يستطيع القاتل أن يحتجّ ببراءته، ومن المعلوم أنّ هذا الاحتجاج العلني قد يفضي -في بعض الحالات الهامّة جدًّا- إلى كسب الاستئناف وتبرئة المتّهم. إذ قد تقوم بعض اللجان بتبنّي دفاع المتّهم علنًا. ولكن من خلال جميع هذه الطرق غير المباشرة، لا يكون

المتّهم وحيدًا، ومن دون معونةٍ عامّة: إنّها مؤسّسة علانية الإجراءات والمرافعات التي كان المشرّع الإيطالي بيكاريا (Beccaria) يعدّها -منذ القرن الثامن عشر-، ومن بعده الفيلسوف كانط (Kant)، بمنزلة الضمانة الأسمى لكلّ متّهمٍ.

بيد أنّني أشعر بالأسف لأنّ الوضع بالنسبة إلى الجاني المستفيد من قرار منع المحاكمة مختلفٌ تمامًا؛ فهنالك ظرفان يندرجان في خانة الصرامة الشديدة لطبيعة الأصول القانونيّة يحرمانه من أيّ حقٍّ في تقديم إيضاح شخصيّ. هذان الظرفان هما: الاحتجاز وما يلازمه من إلغاء للشخصيّة القانونيّة من جهة، والسريّة الطبيّة من جهةٍ أخرى.

ماذا تعرف العامّة؟ تعرف أنّ جريمةً قد ارتُكبت، فالصحافة تخبرهم نتائج تشريح الجثّة (لقد قضت الضحيّة إثر عمليّة «خنق»، ونقطة انتهى.)، ثمّ يعلمون لاحقًا، بعد مضيّ بضعة أشهرٍ، بصدور قرار منع المحاكمة بموجب المادة 64 من دون أيّ تعليقٍ آخر.

لكنّ عامّة النّاس يجهلون التفاصيل جميعها: يجهلون حيثيّات تقارير الطبابة الشرعيّة السريّة التي يكون الأطباء -المعيّنون من قبل الجهة الإداريّة- قد وضعوها في هذه الأثناء. وهم يجهلون كلّ شيءٍ عن التشخيص المرضيّ (المؤقّت) المتعلّق بهذه الحالة، وعن تقارير الأطبّاء ومعايناتهم السريريّة الأولى. إنّهم لا يعرفون شيئًا عن تقديرات هؤلاء، ولا عن تشخيصاتهم وتنبؤاتهم خلال فترة احتجاز المريض، ولا عن العلاجات الموصوفة للمريض المُحتجز، ولا عن المشاكل -الفظيعة أحيانًا- التي يجب عليهم مواجهتها، ولا المآزق المُؤرقة التي يحدث أن يقعوا في لججها، ومن دون أن ينقطعوا -في أثناء ذلك كلّه- عن إظهار البشاشة. وهم يجهلون بالطبع ردود أفعال الجاني «غير المذنب» جميعها، والجهود المُحبَطة التي يبذلها في محاولة فهم وتفسير الأسباب -القريبة والبعيدة- لمأساةٍ وجد نفسه مقذوفًا داخلها تحت ضغط قوى اللاشعور والهذيان. أمّا عندما يخرج من المستشفى (بافتراض خروجه...) فإنّ

عامّة الناس لا تدرك أيّ شيءٍ عن حالته الجديدة، ولا عن أسباب حريّته المُستعادة، ولا عن فترة «الانتقال» الرّهيبة التي كان عليه مواجهتها، وحيدًا في أغلب الأوقات، وإن لم يكن يعيش في عزلةٍ، ولا عن مراحل التقدّم البطيئة المُضنية التي أفضت به شيئًا فشيئًا، وبشكلٍ غير محسوسٍ، إلى بلوغ عتبة النجاة والحياة.

إنّني أتكلّم عن الرّأي العام (ما يعني الكلام عن عقائده) وعن جمهور الناس: وقد لا يكون لهذين المصطلحين الدلالة نفسها. لكنّ هذا غير ذي بالٍ؛ فنادرًا ما تجد جمهورًا ما خارجًا عن دائرة نفوذ الرأي العامّ: أي عن نفوذ اعتقادٍ محدّدٍ يهيمن على قضايا الجريمة، والموت، والاختفاء، والشفاء العجيب: إنها عقيدةٌ تجعل جهاز الطب الشرعي، والجزائي، ومؤسساته ومبادئه كلّها في مهبّ الريح.

لكنّني أرغب في الحديث أيضًا عن الأقرباء، والعائلة، والأصدقاء، ومتى كان الأمر كذلك، فسوف أتحدّث عن المعارف أيضًا. فالأقارب إذ يعيشون من جانبهم، وعلى طريقتهم، فاجعةً لا تفسير لها عندهم، وقد قلبت أوضاعهم رأسًا على عقب- يجدون أنفسهم ممزّقين بين واقع فاجعةٍ مروّعةٍ واستغلالٍ تمارسه بعض الصحافة التي تتاجر بأخبار الفضائح من جهة، وبين مشاعرهم من جهةٍ أخرى إزاء الجاني الذي يعرفونه جيّدًا، ويحبونه غالبًا (وليس دائمًا). إنهم لا يستطيعون -وهم ممزّقون على هذه الحال- أن يطابقوا بين صورة القريب أو الصديق وبين صورة الشخص نفسه الذي تحوّل إلى قاتلٍ. كما أنّهم يبحثون أيضًا -وقد أُسقط في يدهم- عن تفسيرٍ لا يقدّمه أحدٌ إليهم، أو تفسيرٍ يجدونه -إذا ما تجرّأ أحد الأطباء على الإدلاء إليهم بفرضيّةٍ ما- سخيفًا جدًّا: «محضُ كلام، وكلام»! فهل يمكنهم أن يقصدوا سوى الأطباء القائمين على تقديم الرّعاية كي يشكّلوا فكرةً أوليّةً عمّا لا يمكن إدراكه؟ آنئذٍ سوف يقعون -وهم متأثرين بهالة الصورة الخارجيّة «لعرفان الطب النفسيّ»، المفخّم بالسريّة المهنيّة- على رجالٍ يعدّون التزام آداب مهنتهم الوقور جوهر القضيّة، وهم غالبًا لا يصبحون واثقين من أنفسهم إلا من أجل تدارك الشكّ المعتمل في دواخلهم -بل وحصرهم- كي يحولوا دون انتقال آثار كربهم الباطنيّ

إلى الآخرين (وهذه هي الحال دائمًا).

عندئذٍ – وفي أكثر الحالات خطورةً وحدّةً، وأشدّها جسامةً أيضًا من حيث تهديدها وعواقبها (كما في حالتي) حيث يستميل المريض بسرعةٍ مشاعر الطبيب والممرّضين – ينشأ «جدلٌ» غريبٌ في العادة بين قلق المريض وبين قلق الأقارب. بالنسبة إلى الطبيب، يجب عليه «التماسك» ومواجهة قلقه وقلق «فريق العلاج» وكذلك قلق الأقارب أيضًا. لكنّ إخفاء أمر هذا التماسك ليس سهل المنال: إذ لا شيء يُربك المريض وأقاربه أكثر من تلك الحرب الملموسة والواضحة جدًّا التي يخوضها الطبيب ضدَّ ما يبدو له –في أغلب الأحيان– المصير المُتاح الذي لا رجعة فيه. أجل، إنّ احتمال احتجاز المريض مدى الحياة قد يخطر في فضاء ما يراود الطبيب من أفكارٍ، كما قد يتراءى في أفق توقّعات الأقارب، وإن كان لأسبابٍ مختلفةٍ.

إنّ عودة المريض إلى مسرح الحياة، واستقراره مجدّدًا كثمرةٍ للجهود الجبّارة التي تركّزت عليه، وعلى تجاوز العقبات –الحقيقيّة أو الاستيهاميّة– التي اعترضت طريقه لا تحول دون أن يقع أقرباؤه –حتى وإن واصلوا تقديم المعونة إليه بصورةٍ حثيثةٍ متواصلةٍ (وهذه هي الحال معي) – فريسة القلق نفسه: هل سيستطيع الخروج من مأزقه فعلًا؟ فقد يحدثُ في بعض الأحيان ألا تعود مؤمنًا في ذلك. وماذا لو «عاود ارتكاب الأمر» وهو ما يزال في المستشفى؟ لعلّه قد يرتكب جريمة قتلٍ، أو يسقط ضحيّة المرض ثانيةً رغم تدابير الحماية المتّخذة بشكلٍ مخصوصٍ؟ فإذا ما أُدخل المستشفى من جديد من أجل معالجة انتكاسته في أزمةٍ حادّة، فهل سيخرج منها فعلًا؟ وإذا ما استطاع النجاة على الرغم من المصاعب كلّها، فأي ثمنٍ لهذا؟ ألن يبقى إلى الأبد موسومًا بندوب فاجعته وعقابيلها؟ ألن يبقى رجلًا عليلًا مدى الحياة (وما أعلمه حول ذلك كثيرٌ!) أو ألن يتردّى في حفرة الجنون بسرعةٍ بما يصدر عنه من هوسٍ متهوّرٍ ومبادراتٍ محفوفة بالمخاطر لا يستطيع أحدٌ –سواء أكان هو أم غيره– السيطرة عليها؟

بيد أنّ أصعب الأمور هو كيفيّة التوفيق بين التفسيرات التي يُدلي بمشاريعها كلّ واحدٌ من لدنه (فكثيرٌ من الأقارب يعني كثيرًا من التفسيرات: كلّ واحد يستعيد في نفسه «ما جرى وانتهى» محاولًا أن يفهم ويحتمل أمرًا لا يطاق) كي يبرّر رأيه الأغبش في مأساة قتل امرأةٍ لا يعرفونها جيّدًا، لكنّهم على الرّغم من ذلك – وبالاتّكال على القرائن والمظاهر الخارجية وسمات المزاج- يكوّنون لأنفسهم فكرةً عنها –مجبرين–، وهي ليست فكرةً مؤيّدةً لها على الدوام (فتقبُّلُ صديقةَ الصديق ليس بالأمر المُستساغ بسهولةٍ دائمًا)، ثمّ كيف يوفّقون بين أفكارهم الخاصّة حول المأساة وبين «تفسيرات» صديقهم التي يقدّمها لهم عن نفسه، هذه التفسيرات الخاصّة، وأحاديث النجوى التي لا تعدو في الأعمّ الأغلب أن تكون بلابل نفس حائرةٍ تبحث على غير هدى –وهو بحثٌ جارٍ في عتمة الجنون على كلّ حال- عن وضوح مستحيل المنال؟

ها هم أولاء الأصدقاء يجدون أنفسهم في وضعٍ شديد الخصوصيّة. فهم غالبًا ما يمتلكون في جعبتهم عن الفترة التي سبقت وقوع المأساة وعن فترة الاستشفاء طويلة الأمد ملاحظاتٍ وتفاصيل نسيها المريض نفسه –إذ سقط أسيرًا في هوّة فقدان الذاكرة الذي يقوم بحمايته كما لو أنّه حاجز دفاعيّ-. إذًا فهم يعرفون أكثر منه بشأن فتراتٍ عديدةٍ، باستثناء لحظة وقوع المأساة نفسها، وهم يتردّدون في إخبار صديقهم بما يعرفونه خشية أن يوقظوا في نفسه هلع المأساة المؤرق وعواقبها، خاصّة التلميحات الخبيثة لبعض الصحافة (في حال كان الرجل من «المشاهير»)، وردّة الفعل لهؤلاء وهؤلاء، وصمت البعض –ربّما- على وجه الخصوص على الرّغم من كونهم من المقربين جدًّا. وهم يعلمون جيّدًا أنّ كلًّا منهم يبحث من طرفه، أو بأيّ شكلٍ عن النسيان (وهذه محاولة بائسة)، كما يعلمون بأنّ أحاديث المناجاة تهدّد – بسبب ردّة الفعل التي تصدر عن صاحبهم- بثلم تضامنهم الأخويّ: والأمر لا يقتصر على رابطة الأخوّة التي تجمعهم بصاحبهم، بل على هذه الرّابطة نفسها التي تجمع بينهم. هكذا لا يعود العبث –في واقع الأمر- مقتصرًا على مصير الصاحب

وحده، لكنّه قد يطال أيضًا –وبلا ريبٍ، ومئةٍ بالمئة– علاقة صداقتهم نفسها.

لهذا السبب –وطالما أنّ في استطاعة الجميع التكلّم نيابةً عنّي حتى هذه اللحظة، وطالما أنّ الأصول القانونيّة تحظر عليّ الكلام العامّ– فإنّني عازمٌ على تبيان موقفي بصورةٍ علنيّةٍ.

وأنا أقدم على فعل ذلك –في المقام الأوّل– من أجل أصدقائي، ومن أجل نفسي إذا أمكن ذلك، كي أزيح بلاطة القبر الثقيلة التي تجثم فوق صدري. نعم، إنّني أفعل ذلك كي أحرّر نفسي بمفردي، وبيديّ هاتين، من دون نصيحةٍ من أحدٍ أو مشورته. ونعم، إنني أفعل ذلك كي أتخلّص من ذلك الوضع الذي جعل حالتي الصحيّة على هذا القدر المُفرط من الخطورة (فقد ظنّ أطبائي أنّني ميْتٌ جسديًا مرتين)، وكي أتخلّص من جريمتي، وأتخلّص أيضًا –على وجه الخصوص– من تلك الآثار الغريبة لقرار منع المحاكمة الذي حظيتُ به من دون أن يكون في استطاعتي –من الناحية الواقعيّة والقانونيّة– أن أعترض على إجراءاته. هكذا وجدت نفسي مُجبرًا على البقاء حيًا وعلى تعلّم العيش في ذلك القبر الذي ألحده لي قرار منع المحاكمة، والصمت والموت العموميّ.

تلك بعضٌ من الآثار الوخيمة لقرار منع المحاكمة، وذلك هو السبب في عزمي على تبيان موقفي بصورةٍ علنيّةٍ من تلك المأساة التي اختبرتها. وأنا لا أريد أيّ شيءٍ آخر سوى أن أزيح بلاطة القبر –الذي دفنني قرار منع المحاكمة فيه حيًّا– كي أضع تحت تصرّف الجميع ما أملكه من معلومات.

بالتأكيد، سوف أكون ممتنًا إذا ما صُدِّقتُ بأنّني أتكلّم هنا بأقصى أمانةٍ موضوعيّةٍ في استطاعة الانسان؛ إذ لا أريد أن أنقل إلى العامّة تجربتي الشخصيّة فقط. لذلك فقد استشرتُ على مدىً طويلٍ، وبشكلٍ دقيق جميع الأطبّاء الذين عَنوا بحالتي، ليس في فترة الاحتجاز فحسب، ولكن قبل هذه الفترة وبعدها أيضًا. كما أنّني استشرتُ أيضًا –بعنايةٍ– كثيرًا من أصدقائي الذين تابعوا عن كثبٍ جميع ما وقع لي،

ليس في فترة الاحتجاز فحسب، ولكن قبل هذه الفترة (وقد قام اثنين منهم بإمساك سجلٍ بالأحداث اليومية الجارية ابتداءً من شهر تموز/ يوليو لعام 1980 حتى شهر تموز/ يوليو لعام 1982). كما أنّني استشرتُ اختصّاصيين في علوم الصيدلة والبيولوجيا الطبّية حول مسائل مهمّةٍ.

وبطبيعة الحال فقد اطّلعتُ على أغلبيّة مقالات الصحافة التي ظهرت في أعقاب قتل زوجتي، من دون أن أقتصر في ذلك الاطلاع على فرنسا فقط، ليطال عددًا من البلدان الأجنبية التي أعرف فيها. وقد وجدتُ -من جهةٍ أخرى- ما خلا استثناءاتٍ قليلةٍ (ذات إيحاءاتٍ سياسيةٍ واضحةٍ) أنّ سلوك الصحافة كان «لائقًا» جدًّا. كما أنّني قمتُ بتجميع «الوثائق» المتاحة كلّها، كما لو أنَّ القضيَّة تتعلَّق بشخصٍ آخر والمقارنة بينها في ضوء ما عشته، وبالعكس -وهو أمر لم يقصد إليه ولم يقدر على فعله أحدٌ ما حتى الآن-. وقد قرّرتُ وأنا بكامل الوعي والمسؤوليّة أنّ الوقت قد حان أخيرًا كي أتكلّم وأبيّن موقفي على الملأ.

لقد قرّرتُ -عن سابق قصدٍ وإصرارٍ- أن أتحاشى جميع أنواع الجدال. سوف أشرع الآن في الحديث: وبطبيعة الحال فإنّني آمل ألا يظنّ أحدٌ أنّ في كلامي ما يلزم أحدًا سواي.

يقولون لي: «سوف تعيد إيقاظ القضيّة برمّتها، فخيرٌ لك أن تغلق فمك ولا تشيع الاضطراب»، ويقولون لي إنّ: «الصمت والإذعان هو الحلّ الوحيد. وما دامت قناعة المجتمع راسخةً على هذا النحو فإنّ تفسيرك لن يغيّر شيئًا». لكنّني لا أؤمن بهذه التحوّطات ولا أؤمن مطلقًا بأنّ «تفسيراتي» ستعيد إشعال الخلاف حول قضيّتي. وخلافًا لذلك، فإنني أؤمن أنني في وضعيّةٍ لا تمكّنني من تبيان موقفي بشيءٍ من الوضوح فحسب، بل ومن جعل الآخرين يتأمّلون في تجربةٍ عيانيّةٍ تنطوي على «اعتراف» نقديٍّ عزّ نظيره (ما خلا الاعتراف الرّائع لبيير ريفيير (Pierre Rivière) الذي كان ميشيل فوكو (Michel Foucault) قد نشره، ولعلّ ثمّة

اعترافاتٍ أخرى لم يرغب أحدٌ من الناشرين قطُّ في الاحتفاظ بها لأسباب فلسفيّةٍ أو سياسية)، إنّها تجربةٌ معاشةٌ في أقسى الصور وأفظعها، وهي تتجاوزني بكلّ تأكيدٍ فلا تقتصر على حالتي الفردية لأنّها تشكّك وتعبث في عدد من القضايا القانونيّة، والجزائيّة، والطبيّة، والتحليليّة، والمؤسساتيّة، وهي في نهاية الأمر قضايا إيديولوجيّة واجتماعيّة، وبالمجمل إنها تتعلّق بأجهزةٍ قد تثير اهتمام البعض من معاصرينا، ويمكن أن تساعدهم في رؤيةٍ أكثر وضوحًا إزاء السجالات الكبرى الحديثة حول القانونِ الجزائيّ، والتحليل النفسي، وطبّ الأمراض العقليّة، والاحتجاز في مصحّات الأمراض العقليّة والروابط بينها التي تتجلّى داخل وعي الأطبّاء أنفسهم إذ أنهم ليسوا في منأىً عمّا تفرزه المؤسّسات الاجتماعيّة بجميع أشكالها من شروط وآثار.

للأسف، فأنا لستُ روسّو (Rousseau). لكنّني من خلال إنجازي لمشروع الكتابة هذا حول نفسي وحول المأساة التي عشتها وما زلت أعيشها، كنتُ أفكّر غالبًا بشجاعته التي لا مثيل لها. لا أقصد أبدًا أنّني أطمح إلى أن أردّد معه ما قاله في مقدمة **الاعترافات** «Confessions»: «لقد صنعتُ مشروعًا لا نظير له أبدًا». لكنّني أظنّ أنّ في استطاعتي أن أوافق على تصريحه بأنّني «سوف أقول جهارًا: هذا ما فعلتُ، وهكذا فكّرتُ، وهكذا كنتُ». وسوف أضيف ببساطةٍ: «ما فهمته، أو ما حسبتُ أنّني فهمته، هو أنّني لم أعد المعلّم بالتأكيد، ولكنّ هذا ما صرتُ إليه».

وألفت انتباهكم إلى أنّ ما يلي لا يُعدّ من قبيل اليوميات، ولا المذكّرات، ولا السيرة. لقد رغبتُ فقط -من خلال التضحية بكلّ شيءٍ آخر- أن أحتفظ بوقع الانفعالات العاطفيّة التي أثّرت في وجودي وأعطته صورته، فها هنا أتعرّف على نفسي، وها هنا أظنّ أنّ من الممكن أن تتعرّفوا إليها.

تتبع هذه المكاشفة نظام التسلسل الزمني أحيانًا، كما تتبع أسلوب الاستباق تارةً وتارةً أخرى أسلوب التذكّر: ليس الهدف من ذلك أن نخلط بين الأحداث، بل إنّ

الهدف -على العكس من ذلك- هو أن نبرز من خلال المقابلة بين هذه الأزمنة ما كوّن على الدّوام العلاقات الرئيسة، والانفعالات المميّزة، التي تشكّلت روحي على ضفافها إذا جاز التعبير.

لقد فرضتْ هذه المنهجيّةُ نفسها عليّ بصورة عفويّةٍ: وليحكم كلٌّ منكم عليها من خلال نتائجها، كما يستطيع -بالطريقة نفسها- أن يحكم من خلال النتائج على سطوة عددٍ من الهيئات القمعيّة التي مارست تأثيرها في حياتي -ولقد كنتُ في الأمس القريب قد دعوت هذه الهيئات بأجهزة الدولة الإيديولوجيّة- وأنا لا أستطيع -فيما يخصّني- أن أستغربها، ولا أن أدّخر جهدًا في سبيل فهم ما وقع لي.

الفصل الثالث

كانت ولادتي في اليوم السادس عشر من شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1918، عند الساعة الرّابعة والنصف صباحًا، في منزل ريفيّ يقع في «غابة بولونيا Bois de Boulogne»[8]، التابعة إلى بلدة «بيرماندريس»، التي تبعد خمسة عشر كيلو مترًا عن العاصمة الجزائر.

نزل جدّي بيير بورجيه (Pierre Berger) مهرولًا -كما قيل لي- من أجل إحضار طبيبةٍ روسيّةٍ كانت جدّتي تعرفها، وقد قامت هذه الطبيبة -التي كانت امرأة صلبة، وحنونة وذات وجه بشوش- بالصّعود إلى منزلنا الذي يقع في أعالي البلدة، وهنالك ساعدت والدتي في عملية الولادة، لكنّها ما إن لمحت رأسي الكبير حتى قالت بصيغة مؤكّدةٍ: «ها هو ذا، إنّه لا يشبه الآخرين»، وسوف تلاحقني هذه العبارة أمدًا طويلًا، بعد تحويرها. فأنا أتذكّر قريبتي الألمانيّة وأختي وهما تردّدان على مسامعي، وأنا على شفير المراهقة: «لوي تيبابار»[9] فقد نحتتا الكلمات الثلاث في كلمة واحدة.

حينما جئتُ إلى هذا العالم كان والدي غائبًا منذ مدّة تسعة أشهر. كان في جبهات القتال في البداية، ثمّ عاد لاحقًا فمكث في فرنسا حتى نهاية خدمته. إذًا، لم أجد لي أبًا يقف حذاء سريري طيلة تسعة أشهر، وقد عشتُ حتى شهر آذار/ مارس من عام 1919 مع والدتي الوحيدة، وإلى جانب جدّي وجدّتي لأمي.

---

(8) غابة بولونيا Bois de Boulogne: أو غابة المرادية أو غابة الأطلس، غابة تقع في بلدة المرادية التابعة إلى ولاية الجزائر العاصمة. (المترجم)

(9) "typapart": الكلمة منحوتة من ثلاث كلمات فرنسية: type à part وتعني رجل وحيد الطرز. (المترجم)

كان جدّي وجدّتي من أبناء العائلات القرويّة الفقيرة التي تقطن في بلدة الفورس (Fours)[10] الواقعة في جبال المورفان le Morvan (من مقاطعة نييفر Nièvre). وقد كانا يغنيّان في الكنيسة أيّام الأحد، فكان جدّي -الذي كان الفتى بيير بورجيه وقتذاك- يتّخذ تلك الكراسي الخشبيّة الموجودة في صدر الكنيسة التي تعلو بوابة المدخل الكبيرة بالقرب من الحبل الذي يُقرع به الجرس- مكانًا له مع فتيان البلدة. أمّا جدّتي -الفتاة مادلين نيكتو (Madeleine Nectoux)- فكانت تقف مع بقية الفتيات بالقرب من الكورس. وكانت مادلين تذهب إلى مدرسة الرّاهبات اللاتي سيكون لهنّ يداً في حصول الزواج؛ إذ وجدن أنّ بيير بورجيه كان فتى مستقيمًا، وأنّه يجيد الغناء. لقد كان متين البنية، وقصير القامة، وكان يبدو منطويًا قليلًا بشاربه الصغير، ووسيمًا. وكما هي العادة في تلك البلاد: تمّ الزواج بسلام. لكنّ أيًّا من عائلة جدّي أو جدّتي لم يكن لديها من الأرض ما يتّسع لإقامة هذين الزوجين الشابين وإطعامهما. فكان عليهما العثور على مكانٍ آخر. كان جدّي في تلك الأيّام -وهي أيّام جول فيري (Jules Ferry)[11] وملحمة فرنسا الاستعمارية- يحلم بمهنة حارس غابةٍ في مدغشقر (Madagascar)! فالرجل الذي ولد قريبًا من الغابات لم يكن راغبًا في مغادرتها. لكنّ مادلين لم تكن تصغي إلى هذا الحديث؛ إذ أنّها حدّدت وجهات نظرها بصورة حاسمة قبل الزواج: «حارس غابةٍ، لا بأس، شريطة عدم الذهاب أبعد من الجزائر، وإلا فلن أتزوّج بك!»، كان على جدّي أن يستسلم لهذا، وتلك كانت المرّة الأولى التي يُذعن فيها، بيد أنّها لن تكون المرّة الأخيرة. كانت جدّتي امرأة عنيدةً، تعرف ما تريد، لكنّها كانت هادئةً على الدّوام ومتعقّلة في قراراتها وأهدافها. وسوف تكون «بيضة القبّان» في هذا الزواج على مدى الأيام.

---

(10) الفورس (Fours): بلدة في مقاطعة نيفر في وسط فرنسا، والمورفان هي منطقة جبلية صغيرة تقع فيها.. (المترجم)

(11) جول فيري (Jules Ferry) 1832-1893: زعيم سياسي ووزير فرنسي، كان من أشدّ أنصار الحركة الاستعمارية الفرنسية، وله تاريخ في النضال الإصلاحي في فرنسا. (المترجم)

هكذا هاجرت عائلة بورجيه إلى الجزائر حيث سيقوم جدّي فيها بوظيفة حارس الغابة في أقصى جبال الجزائر النائية الموحشة، والتي عاد اسمها إلى ذاكرتي حينما تحوّلت تلك الأماكن المرتفعة –في سنوات الستينيّات– إلى ملاذاتٍ وساحات قتالٍ لرجال المقاومة الجزائريّة.

لقد أفنى جدّي صحّته في تلك الجولات التي لا تنتهي على صهوات الخيل ليل نهار. كان محبوبًا من العرب والبربر، وكانت مهمّته حماية الغابات من قطعان الماعز التي تتسلّق الأشجار، وترعى النباتات الطريّة، وكان عليه على وجه الخصوص مكافحة الحرائق التي تستطيع إشعال الغابات. وقد أُوكلت إليه أيضًا مهمّة شقّ الطرقات في الأراضي الوعرة ذات التضاريس القاسية، والإشراف على سير الأعمال فيها. وفي إحدى الليالي التي كان الثلج فيها يغطي مرتفعات الشريعة (Chréa)[12]، خرج جدّي بمفرده راجلًا نحو الجبال يبحث عن فريقٍ سويدي مغامرٍ كان قد تاه فيها. وقد استطاع –من دون أن يعرف أحدٌ كيف أمكنه فعل ذلك– العثور عليهم والعودة بهم مُنهكين –بعد ثلاثة أيامٍ بلياليها– إلى منزل الغابة. ولقد كُرّم جدّي على تفانيه هذا بتقليده وسامًا ما زلت أحتفظ به.

أمّا جدّتي فقد كانت –خلال أوقات العمل والجولات كلّها– تمكث بمفردها، في منزل الغابة المعزول في وسطها ليل نهار. وأنا لا ألحّ على ذكر هذه المسألة من باب العبث. فقد قضى جدّي وجدّتي –إثر انتقالهما المفاجئ من الرّيف المورفاندليّ حيث تسود روح الضيافة القرويّة التقليديّة إلى أقاصي جبال الجزائر النائية الموحشة– قرابة أربعين سنة وحيدين فعليًّا، وذلك على الرّغم من ولادة ابنتين لهما في وقتٍ لاحقٍ. أمّا العلاقات الاجتماعية الوحيدة التي استطاعا التمتّع بها فهي تلك العلاقات المرتبطة بمجتمعات العرب والبربر المحليّة –وهي مجتمعات مختلفة تمامًا عن مجتمعهما– وزيارة التفتيش المفاجئة (زيارةٌ واحدةٌ خلال هذه السنوات جميعًا)

(12) الشريعة (Chréa): بلدة في الجزائر ضمن ولاية البليدة التابعة لدائرة أولاد يعيش. (المترجم)

التي قام بها «مدراء» إدارة الغابات والأشجار الجزائريّة، حيث كان جدّي يخصّ من هؤلاء السيّد م. بيريموف (M. de Peyrimoff) بجوادٍ أصيلٍ وجميلٍ كان يقوم على رعايته والعناية به جيّدًا من أجل هذا السيد فقط. وما خلا ذلك، فلم يكن هناك سوى زياراتٌ نادرةٌ جدًّا إلى القرى المجاورة أو المدن البعيدة وحسب.

لم يكن جدّي يلبث في مكانٍ واحدٍ أبدًا، فقد كان قلقًا للغاية ودائم التذمّر، ولم يكن يهنأ بقسطٍ من الرّاحة أبدًا، فهو دائمًا على عجلةٍ من أمره أو في حالة تأهبٍ. حينما كان يغادر -وهذا غالبًا ما يكون لعدّة أيامٍ وليالٍ- كانت جدّتي تبقى بمفردها. ولطالما حدّثتني عن تمرّد «مارغريت Marguerite»[13]. كانت جدّتي تعيش وحيدةً في منزل الغابة إلى جوار ابنتيها وجماعات العرب الثائرين الذين كانوا يهدّدون باجتياح المناطق القريبة، وقد كانت جدّتي -على الرغم من أنّها محبوبةٌ هي وجدّي من قبل أهالي المنطقة- تخشى وقوع الأسوأ خلال سورات غضب هذه الجماعات طالما أنّها كانت تأتي من مناطق أخرى وبعيدةٍ جدًّا. أمّا في أشدّ الليالي خطورةً فإنّ جدّتي لم يغمض لها جفن، فيما كانت ابنتاها (وأمي إحداهما) تغطّان في نومٍ هانئٍ إلى جانبها. لكنّ جدّتي أبقت -طيلة تلك الليلة- بندقية الصيد مذخّرةً فوق ركبتيها. وقد أخبرتني قائلة: كان في فوهة البندقية رصاصتان من أجل ابنتيّ، وأمّا الثالثة فكنتُ أحتفظ بها في يدي من أجلي. وبحول الصباح، كان التمرّد قد أصبح في مكانٍ بعيدٍ عنّا.

إنني أروي هذه الذكرى الدّفينة التي أخبرتني بها جدّتي بعد مرور وقتٍ طويلٍ جدًّا لأنّها بقيت في ذاكرتي كواحدةٍ من مخاوف الطفولة.

كما أنني أحتفظ بذكرى أخرى روتها لي جدّتي وجعلتني أرتعد خوفًا. ولقد جرت في منزل غابةٍ آخر، يقع في مرتفعات زكّار (Zaccar) التي تبعد مسافة طويلة عن

(13) تمرّد "مارغريت Marguerite": هي ثورة عين تركي التي جرت عام 1901 في قرية صغيرة في أعالي جبال مدينة مليانة، وقد حوّلت فرنسا اسمها من عين تركي إلى مرغريت، وعرفت ثورتها أيضًا بأحداث حمام ريغة. (المترجم)

بليدة (Blida) وهي أقرب المدن إليها. كانت أمي وشقيقتها (البالغتان آنذاك ست سنوات وأربع تقريبًا) تلعبان في الماء في قناة عريضةٍ يجري الماء العذب فيها سريعًا في العراء بين ضفّتين من الإسمنت، ليغور في بالوعة بعيدةٍ قليلًا فلا يعود الماء باديًا للعيان. سقطت والدتي في الماء فسحبها التيار الجاري، وكانت توشك أن تغرق في البالوعة حينما هرعت جدّتي مسرعةً كي تنقذها في اللحظة الأخيرة جاذبةً إيّاها من شعرها.

على هذا النحو كانت مخاوف الموت تسكن في عقلي الطفوليّ، وحينما كانت جدّتي تقصّ عليّ هذه الحوادث المأساويّة المتعلّقة بوالدتي وبموتها، كنتُ أرتعدُ طويلًا من الخوف، وكنتُ أشعر (بتناقضٍ وجدانيٍّ) عفويٍّ كما لو أنّني كنت أرغب في ذلك لا شعوريًا.

لستُ أدري كيف تمكّنت أمي وشقيقتها الشابّة من متابعة دراستهما في ظلّ ما كانت تعيشانه من عزلةٍ، وأحسبُ أنّ جدّتي قد تدبّرت الأمر جيّدًا. لكنّ الحرب اندلعت فجأةً فاستُنفر جدّي على الفور، وقام السيّد بيريموف -بالنظر إلى أنّ جدّي قد أصبح في نهاية خدمته الوظيفيّة- بتعيينه في مركز غابة بولونيا -بمنزل غابتها الجميل- التي تشرف على مدينة الجزائر تمامًا. كان المكان أقلّ عزلةً وكان العمل فيه أقلّ قساوةً. لكنّ المدينة -مع ذلك- كانت تبعد مسافة خمسة عشر كيلو مترًا، وكان من الواجب قطع مسافة أربعة كيلومتراتٍ سيرًا على الأقدام من أجل الوصول إلى الترامواي (في محطّة لا كولون فوارول la Colonne-Voirol) الذي يصل إلى ساحة الحكومة في وسط المدينة، القريبة من باب العود (Bab-el-Oued) التي تعجّ شوارعها الصاخبة بصغارٍ ذوي بشرة بيضاء (من فرنسيين وإسبان ومالطيّين ولبنانيين ومتوسّطيّين آخرين ممّن يتكلمون لغة «الصبير»[14]). لكنّ جدّي وجدّتي لم ينزلا إلى المدينة أبدًا، فيما خلا بعض المناسبات النادرة جدًّا، وقد تعرّفا في واحدةٍ

(14) الصبير le sabir: لغةٌ يتكلّمون بها في بعض مناطق شمال أفريقيا، وهي مزيجٌ من العربية والفرنسيّة والإسبانية والإيطالية. (المترجم)

منها —في المكاتب المحليّة لإدارة الغابات والأشجار- إلى موظّفٍ صغير يُدعى ألتوسير (Althusser)، متزوجٌ وله ولدان: شارل (Charles) —وهو البكر- ولوي (Louis).

عائلةٌ من المهاجرين الجدد مرّةً أخرى! لم أعرف الجدّ ألتوسير، لكنني عرفتُ الجدّة. كانت امرأةً غريبة الأطوار، صلبة مثل نصاب المعول، فظّة الألفاظ وملامحها باردةٌ. نادرًا ما رأيتها، فقد كان أبي لا يحبها كثيرًا، وكان بذلك يبادلها المشاعر التي تحملها له، كما تحملها لنا جميعًا.

مرّةً أخرى تحضرني ذكرى مؤلمة: كانت عائلة ألتوسير قد اختارت فرنسا —في عام 1871- بعد انتهاء حرب نابليون الثالث وبسمارك[15]، ومثل الكثيرين من سكان الألزاس الذين رغبوا في البقاء مواطنين فرنسيين، فقد تمّ «نفيهم» بكلّ معنى الكلمة إلى الجزائر من قبل الحكومة القائمة آنذاك.

مع إعادة نقل الأب بورجيه إلى غابة بولونيا، أصبح في استطاعة والدتي لوسْين (Lucienne) وشقيقتها الشابة جولييت (Juliette) ارتياد مدرسة كولون فوارول. كانت والدتي تلميذةً مثاليّة، عاقلة، وفاضلة —وهو الأمر الذي لم نعد نراه- كما كانت مطيعة أيضًا حيال معلّميها بقدر طاعتها لوالدتها، أمّا خالتي —في المقابل- فقد كانت الفتاة الجامحة في العائلة، والله وحدهُ يعرف السبب في ذلك.

كانت عائلتا بورجيه وألتوسير تلتقيان بين حينٍ وآخر، وكانت عائلة ألتوسير «تصعد» أحيانًا قاصدةً منزل الغابة أيام الآحاد، وكان الأطفال إذ يكبرون على انفرادٍ يجدون الألفة تتشكّل بينهم —بصورةٍ نسبيّةٍ- مع مرور الوقت (وهذا كان يحصل في الواقع لدى الفتيات الأصغر سنًّا بكثيرٍ من الصبيان، وهو تفصيلٌ سوف

(15) إشارة إلى الحرب الفرنسية الألمانية أو الحرب السبعينية التي كانت صراعًا مسلّحًا نشب بين الإمبراطورية الفرنسية الثانية بقيادة نابليون الثالث والولايات الألمانية في الاتحاد الألماني الشمالي بقيادة مملكة بروسيا أيام المستشار البروسي أوتو فون بسمارك والتي انتصرت فيها القوات الألمانية، وبنتيجة الحرب أخذت ألمانيا معظم الألزاس وبعض أجزاء اللورين. (المترجم)

تُدرك أهميّته لاحقًا)، لذلك فقد اتّفق الأهل على زواج الأولاد. لكنني لا أدري السبب وراء اتّفاق لوي -وهو الأخ الأصغر- مع لوسين، واتفاق البكر -شارل- مع جولييت، أو بالأحرى إنني أعرف السبب جيّدًا: كان ذلك انسجامًا مع علاقات التقارب التي بدت واضحةً على الفور، والتي فرضت نفسها. فلوي كان تلميذًا نجيبًا هو الآخر، وكان عاقلًا جدًّا، ونقيًّا جدًّا، وكان مكبًّا على الأدب والشعر: إذ كان عليه الاستعداد لامتحان الدخول إلى المدرسة العليا في سانت كلود. أمّا والدي -البكر- فما إن أنهى دراسته الابتدائية حتى جعلته جدّتي لأبي -من دون مشاورة أحدٍ- يعمل كساعٍ في أحد البنوك، ولم يكن لدى جدّي لأبي ما يعترض عليه؛ إذ لم يكن لدى الأسرة -في الواقع- من المال ما يكفي لدراسة كلا الولدين، كما أنّ جدّتي لأبي كانت تكره شارل، ولدها البكر. كان عمر والدي ثلاثة عشر عامًا حينما جعلته جدّتي يعمل.

أحتفظ بذكريين عن هذه الجدّة العجيبة. الأولى، مضحكةٌ جدًّا لكنّها معبّرة أيضًا. وقد وصلتني عن طريق والدي الذي طالما قصّ عليّ حادثة فاشودة (Fachoda)[16]. فمع بدء قرع طبول الحرب بين فرنسا وإنكلترا التي كانت الغاية منها السيطرة على المعاقل في إفريقيا، لم تستطع جدّتي لأبي أن تتمالك نفسها من الاضطراب: فأوعزت إلى جدي أن يسارع في الحال إلى شراء ثلاثين كيلو من الفاصولياء اليابسة -وهي وصفة جيّدة في أوقات المجاعة- إذ يمكن حفظها على هذه الحال ما لم تكن مسوّسةً، كما يمكن الاغتذاء بها كاللحم، وشراء عشرين كيلو من السكّر. كثيرًا ما فكّرت في هذه الفاصولياء اليابسة منذ أن عرفت أنّها تشكّل الطعام الرئيس في بلدان أمريكا اللاتينية الفقيرة، كما أنّني كنتُ أعشق على الدّوام أن أتناول منها حتى حدود التخمة (وهذه عادةٌ ورثتها عن جدّي لأمي في جبال

---

(16) حادثة فاشودة (Fachoda): حادثة وقعت عام 1898 في بلدة فاشودة (التي تدعى اليوم كودوك وتقع في جنوب السودان) في ذروة التنافس الاستعماري بين المملكة المتحدة وفرنسا في شرق إفريقيا، كادت أن تؤدي إلى نشوب حرب بين الدولتين، لكنها انتهت بالانتصار الدبلوماسي للملكة المتحدة. (المترجم)

المورفان) تلك الفاصولياء الإيطالية اليابسة – بحبّاتها الكبيرة الحمراء– والتي قدّمت طبقًا منها إلى فرانكا كي أفوز بقلبها؛ وهي تلك الصبيّة الصقلية الرّائعة التي سوف أتدلّه في حبّها لاحقًا، ولكن من دون أن تعبّر عن شيء من مشاعرها في المقابل.

أمّا الذكرى الأخرى (وهي في هذه المرّة غير مضحكةٍ على الإطلاق، لكنّها تتعلّق بي) فكانت حين رأيت تلك الجدّة الرهيبة في شقّةٍ تطلّ على شارعٍ عريضٍ محاذٍ للبحر، حيث كان يجري في مدينة الجزائر العرض الكبير للحشود العسكرية – بمناسبة يوم الاستقلال في الرابع عشر من تموز– تحت شمسٍ حارقةٍ، وأمام قوارب الميناء المُزدانة بالأعلام جميعها. بيد أنّني لا أعرف السبب وراء وجودنا في مثل تلك الشقّة الفاحشة الثراء قياسًا إلى أوضاعنا. كان استعراض الحشود قد انتهى حينما اقتربت تلك الجدّة -التي كنتُ أكره عناقها لأنها امرأة مسترجلةٌ، ويبدو تحت أنفها شاربٌ صغيرٌ، ولها شعرٌ واخزٌ في مسامّات وجهها جميعًا- ثمّ قامت من دون أن يبدو على ملامحها أيّ تغيير، ولا حتّى ابتسامة، فالتقطت من ركنٍ مظلمٍ مضرب تنسٍ رخيص الثمن لتقدّمه هديّة لي (كنتُ آنذاك قد بدأت ألعب التنس مع أفراد العائلة). لكنني لم أرَ سوى صلابة قبضة جدّتي وصلابة مقبض مضربي التعيس. لقد شعرتُ بالاشمئزاز: فأنا لا أستطيع -بالفعل- أن أتحمّل تلك النساء المُسترجلات العاجزات عن تقديم أيّة أمارةٍ بسيطةٍ عن الحبّ والعطاء.

اندلعت الحرب إذن. كانت والدتي تشعر بالارتياح إلى وجودها مع لوي (كانت مراهقةً أو على حدود المراهقة حينما التقته، لقد كان عمرها ستة عشر عامًا حين تعرّفت إليه، لكنّها لم تكن قد عرفت أيّ شخصٍ آخر قبله، حتى وإن كان ذلك من باب الصّداقة). كانت -مثله- تعشق الدراسة حيث العقل مناط مجرياتها جميعًا. وخصوصًا أنّها لا ترتبط بالجسد، وفي كنف ما يقدمه أساتذةٌ أكفياءُ -نفوسهم عامرةٌ بالفضيلة واليقين- من رعايةٍ وتعليم. وهذا كان كافيًا لقيام تفاهمٍ عميقٍ بينهما. وهكذا فإنّ الثنائي العاقل والنقيّ -وخصوصًا: النقيّ- اللذين يعيشان في

عالم التأمّلات والأفكار الأثيريّة نفسه، من دون اعتدادٍ بأيّة عواقب متعلّقة بالجسد - الجسد: هذا «الشيء» الخطر- سوف يتواطآن بسرعةٍ على تبادل المشاعر النقيّة وأحلامهما الرّوحيّة الصرفة. لاحقًا، سوف يروي أحد الأصدقاء عن لساني هذه العبارة الرّهيبة التي وجدتُ نفسي مُرغمًا على البوح بها: «من المؤسف وجود الأبدان، والأسوأ من ذلك وجود جنسين من ذكرٍ وأنثى».

كان لوي ولوسين -في نظر العائلة- بمنزلة الخطيبين، وقد جرت الخطوبة في وقتٍ قريبٍ. وحينما استُدعي شارل ولوي إلى الحرب -ليلتحق شارل بقوّات المدفعيّة، ولوي بما سيعرف لاحقًا بالقوّات الجويّة- انخرطت والدتي في سلسلة لا تنتهي من الرسائل البريئة مع لوي، والتي احتفظت بها على الدّوام في رزمةٍ موثقةٍ كانت تثير فضولي. كان الأخوان -بين الحين والآخر- يعودان إلى المنزل خلال الإجازة -كلٌّ بدوره أو معًا-، وكان والدي يعرض على الجميع صور مدافعه العملاقة ذات المدى البعيد، حيث يظهر أمامها منتصبًا على الدّوام.

ذات يوم، في مطلع عام 1917 حضر والدي إلى منزل الغابة في (غابة بولونيا) بمفرده، وأبلغ عائلة بورجيه بأنّ شقيقه لوي قد قضى في سماء فردان (Verdun) في الطائرة التي كان يخدم فيها بصفة مراقبٍ. ثمّ انتحى شارل بأمي جانبًا في الحديقة الكبيرة وهنالك أفضى إليها بعرضه «أن يحلّ لديها في مكانة لوي» (تلك كانت كلمات الخالة جوليت التي روتها لي مرّاتٍ عديدةً). على كلّ حال، كانت أمي شابّة جميلةً وجذّابةً، وكان أبي يحبّ شقيقه لوي حقًّا، وبكلّ تأكيد فقد وشّى كلماته بمنتهى اللطافة الممكنة. كانت أمّي مصدومةً -بلا شكٍّ- إثر علمها بنبأ وفاة لوي؛ فقد كانت تهيم به حبًّا على طريقتها الخاصّة، لكنّها كانت مذهولةً، وحائرةً في أعقاب اقتراح شارل المفاجئ. لكنّ هذا الاقتراح -على الرّغم من كلّ شيء- لا يبعدها عن العائلة، بل عن العائلتين، كما أنّ الأهل لا يستطيعون سوى الموافقة عليه. ولمّا كانت أمّي هكذا، وعلى هذا النحو عرفتها: عاقلةً، وفاضلةً، ومطيعةً، ومحترمةً، لا تملك من أفكار سوى تلك التي كانت تتبادلها مع لوي؛ فقد وافقت

على الزواج.

كانت مراسم الاحتفال بالزواج قد قُرّرت في شهر شباط من عام 1918 حينما يكون شارل في إجازة. في غضون ذلك، كان عامٌ قد مضى منذ أن أصبحت أمي معلّمة في مدينة الجزائر، في مدرسةٍ ابتدائيةٍ بالقرب من منتزه «غالاند Galland» وهنالك –في غياب لوي– كانت قد التقت برجالٍ يمكنها الإصغاء إلى أحاديثهم، ويمكنها التحاور معهم بشأن قضايا نظريّةٍ صرفٍ: معلّمون من الرّعيل الأوّل، من أصحاب الضمير، والإحساس بمسؤوليات مهنتهم ورسالتها، وقد كانوا يكبرونها في العمر بشكلٍ ملحوظ (البعض منهم كان في عمر والدها)، وكانوا يحترمون الفتاة الشابّة غاية الاحترام. كانت سعيدةً جدًّا في تعرّفها إلى هذا العالم –الذي أوجدته لنفسها للمرّة الأولى– والتردّد إليه من دون أن يكون ذلك خارج قاعات المدرسة بتاتًا. هكذا –والوضع على هذه الحال– وصل والدي عائدًا من الجبهة ذات صباح جميل، وأقيمت مراسم الزّواج.

لطالما أخفت والدتي عنّي تفاصيل هذا الزّواج المريع الذي لا أملك عنه –بالطبع– أيّة ذكرى شخصيّةً، لكنّ خالتي –شقيقة والدتي الصّغرى– كثيرًا ما حدّثتني عنه في مناسباتٍ عديدةٍ، بعد انقضاء زمنٍ طويل. فإذا ما تسبّبت لي هذه الحكايات المتأخّرة بالصدمة فإنّ لذلك سببًا. إذ كان عليّ أن أضفي عليها مزيدًا من الرّعب لي كيما أستطيع إدراجها في سلسلةٍ متكرّرةٍ من صدماتٍ عاطفيّةٍ أخرى، تتشابه في قساوتها ومستواها. وسوف نقف على هذه الحوادث قريبًا.

بعد أن أقيمت مراسيم الاحتفال، أمضى أبي بضعة أيّام مع أمّي ثمّ غادر إلى الجبهة، ويبدو أنّها احتفظت بثلاث ذكرياتٍ فظيعةٍ عن تلك الأيّام: لقد اغتصبها الزوج جسديًّا بما مارسه من عنفٍ جنسيٍّ، ولقد بذّر في ليلة قصفٍ ومجونٍ مدّخرات الصبيّة (التي لم تفهم والدي، الذي يغادر إلى الجبهة حيث لا أحد سوى الله يعرف ما إذا كان سيموت هنالك؟ لكنّه كان أيضًا رجلًا شبقًا جدًّا، وقد كانت له –قبل

زواجه من أمّي- مغامراتٌ مع صبيانٍ ذكورٍ -يا للعار!- وكذلك مع سيّدةٍ تُعرف باسم لويز (Louise) -وهذا هو اسمها- كان قد هجرها ما إن تزوّج من دون رجعةٍ ومن دون مواساتها بكلمةٍ، كانت خالتي قد حدّثتني أيضًا عن هذه الفتاة الغامضةُ المسكينة كما لو أنّها تتكلّم عن شخصٍ لا ينبغي أن يُذكر اسم عائلته مطلقًا). أمّا ثالثة الأثافي فكانت حينما قرّر والدي -من دون مشورة أحدٍ- أنّ على أمّي ترك مهنة التدريس -وبالتالي عالمها المُختار- بحسبان أنّها ذات أطفالٍ، وأنّه يريدها ربّة منزل فقط.

على هذه الحال غادر والدي إلى الجبهة تاركًا أمّي في حالٍ من الذهول، منهوبةً ومغتصبةً، وجسدها ممزقٌ، وقد سُلبت بعض القروش التي ادّخرتها بأناةٍ وتروٍّ (ومن يدري أيّة مؤونة يرتبط فيها المال والجنس على هذا النحو الوثيق هنا)، كما أنّها أُقصيت -من دون رجعةٍ- عن حياةٍ عرفت كيف تتدبّرها، وتحبّها. فإذا ما رويتُ هذه التفاصيل فذلك عائد بالتأكيد إلى أنّها ساهمت -بعد فوات الأوان- في تشكيل، وتأكيد وتعزيز ما ارتسم في الجانب غير الواعي من عقلي من صورة *أمّ معذّبةٍ مدمّاةٍ كأنّها جرحٌ*. هذه الأمّ المرتبطة بالذّكريات (التي ستروى هي الأخرى بعد وقتٍ طويلٍ)، والمرتبطة بحلقاتٍ من خطر الموت المبكّر (حيث ستكون النجاة منها بفضلِ معجزةٍ)، سوف تصبح الأمَّ المعذَّبةَ، التي كُتب عليها معاناةٌ مُعلنةٌ، مليئةٌ بالندم، والتي سيذيقها زوجها مرّ العذاب داخل منزلها من أصناف الجروح النّازفة جميعها: سوف تصبح مازوخيّةً، وساديّةً رّهيبةً -لكن من أجل السبب نفسه أيضًا- حيال أبي الذي احتلّ مكان لوي (فهو إذاً جزءٌ من موته)، وحيالي أنا (بحسبان أنّها لا تستطيع تفادي الرّغبة في موتي طالما أنّ هذا الـ«لوي» الذي كانت تحبّه قد مات). أمام هذه الفظاعة المؤلمة لا يفارقني الإحساس بقلقٍ هائلٍ لا قرار له، وبأنّ قوّةً قاهرةً ترغمني على أن أُنذر نفسي لها -جسدًا وروحًا-، وأن أندفع مضحّيًا بنفسي من أجل نجدتها كي أنقذ نفسي من شعور مُفترضٍ بالذنب، وكي أنقذها من عذابها ومن زوجها، كما ترغمني [هذه القوّة] على الإيمان الرّاسخ بأنّ هذه هي مهمّتي

الأسمى، والسبب الأسمى لبقائي على قيد الحياة.

أضف إلى ذلك، لقد رماها أبي -هذه المرّة- في عزلةٍ جديدةٍ لا أمل في النجاة منها، وقد تضاعفت هذه العزلة بمجيئي.

عند ولادتي، عمّدتُ باسم «لوي louis»، وقد كنتُ أعرفه أكثر من اللازم. لوي[17]: اسم كرهته أمدًا طويلًا بكلّ معنى الكلمة. كنت أجده اسمًا قصيرًا جدًّا، مؤلفًا من حرفٍ صوتيٍّ واحدٍ، والحرف الأخير: حرف ألـ«إي i» ينتهي بنبرةٍ حادةٍ كانت تلسعني (سوف أقارنها فيما بعد باستيهام الخازوق). لا شكّ أنّه في كثير من الأحيان كان يلفظ للدلالة عليّ: «وي oui» [التي تعني نعم] فكنتُ أثور منتفضًا ضدّ هذا ألـ«وي» لأنّه كان يعني ألـ«وي» الذي ترغب أمي فيه، وليس أنا. لكنّه كان يلفظ خصوصًا: lui [التي تعني هو، وتلفظ: لوي]، وهذا الضمير الذي يعود على الشخص الثالث كان يرنّ جرسه كأنّه استدعاءٌ لشخصٍ ثالثٍ غفل الاسم، وكان يجرّدني من شخصيّتي، ويلمّح إلى ذلك الرجل الذي يقف خلف ظهري: lui ، كان عمّي «لوي» الذي كانت أمّي تحبّه، وليس أنا.

كان والدي قد أراد هذا الاسم على سبيل إحياء ذكرى الشقيق لوي الذي قضى في سماء فردان، كما أنّ والدتي أرادته خصوصًا، إحياءً لذكرى هذا ألـ«لوي» الذي أحبّته يومًا، والذي لن تتوقّف عن حبّه طالما بقيت على قيد الحياة.

(17) سوف يعمد الكاتب هنا إلى تقطيع الاسم الفرنسي (louis) والتركيز على دلالات بعض حروفه، ومقاطعه الصوتيّة (s...oui...l)، أو طريقة لفظه (lui).. (المترجم)

الفصل الرابع

أحتفظ بصنفين من الذكريات عن الوقت الذي قضيناه في الجزائر (وكان ذلك حتى عام 1930)، وهي ذكريات سعيدةٌ وأخرى لا تطاق في تباينٍ شديد الوضوح. تلك الذّكريات المرتبطة بوالديّ اللذين عشتُ في كنفهما، وبالمدرسةُ التي كنتُ أذهب إليها، وبجدّي وجدّتي من جهة أمّي اللذين لم يبارحا منزل الغابة في (غابة بولونيا) أبدًا.

أبعدُ الذّكريات التي أحتفظ بها عن والديْ (وهي ذكرى «باكوريّة» جدًّا فلا تعدو -بكلّ تأكيد- أن تكون سوى ذكرى دفينة أُعيدَ تركيبها لاحقًا) هي تلك اللحظة المحدّدة التي عاد فيها أبي من فرنسا بعد انقضاء ستّة أشهرٍ على نهاية الحرب. وهاكم ما رأيت، أو ما أظنّ أنّني رأيته. ففي اللحظة التي شعرتُ فيها بالخجل إذ بدا لي نهدا والدتي العامرين الفتيّين، والسافرين تقريبًا؛ فخارتْ قواي، انفتح باب الطابق الأرضي -الذي يطلّ على الحديقة الكبيرة حتى يبلغ المدى البعيد عند التقاء البحر والسماء- وظهر في بروازه -في ذلك اليوم الرّبيعيّ- خيال طويلٌ جدًّا ونحيل، وقد لاح في المشهد خلفه فوق رأسه تمامًا عمودُ دخانٍ طويلٍ ينبعث من المنطاد الألماني ديسموند (Dix-mude) -الذي كان قد سُلّم إلى فرنسا على سبيل التعويض- والذي كان يسقط في تلك اللحظة محترقًا في مياه البحر. لستُ أدري تمامًا متى كان عليّ، أو كيف استطعتُ على وجه الخصوص، أن أركّب أو أعيد تركيب تلك الصّورة، حيث يظهر أبي على خلفية مشهدٍ رمزيّ -شديد الوضوح- عن الجنس والموت في أعقاب كارثة. لكنّ هذا الترابط -وإن كان نتيجةً لما جرى وانتهى- له أهميّته بلا شكٍّ -كما سنرى ذلك- في سلسلة مؤثّراتي الأوليّة.

كان والدي رجلًا طويل القامة (إذ كان يبلغ مترًا وثمانين سنتيمترًا)، يكلّله وجه جميلٌ وطويلٌ، وكان ذا أنف دقيق وتقاسيم بديعة (كأنّه إمبراطور رومانيّ)، يزيّنه شاربٌ رفيع حافظ عليه حتى آخر أيّامه، وكان ذا جبهةٍ عريضةٍ تشي بالذكاء والدّهاء. في الواقع، لقد كان شديد الذكاء حقًّا، من دون أن يقتصر ذلك على ذكاءٍ عمليّ فحسب. من جهةٍ آخر، كان قد أثبت كفاءته في مجال العمل إذ أنّه بدأ العمل في المصرف كساعٍ بسيطٍ يحمل شهادةً دراسيّةً واحدةً، وقد تسلّق درجات السلّم الوظيفيّ جميعها لدى الشركة الجزائريّة التي أُدمجت لاحقًا في مصرف الاتّحاد الباريسيّ، ومن ثمّ في مصرف الشمال. أصبح والدي بمنزلة المدير العام لفروع الشركة الجزائريّة في المغرب، ثمّ تقلّد منصب المدير العام في مرسيليا ذات الموقع الهام، بعد أن تخطّى مرحلةً مزدوجةً، بصفته وكيلًا مفوّضًا بالتوقيع في مرسيليا أوّلًا، ونائب المدير في ليون (Lyon) ثانيًا. لقد جعلته كفاءته وذكاؤه في قضايا المال والأعمال، ناهيك عن خططه التكتيكية وتنظيمه عمليّة الإنتاج -إذ كان يعشق الشخوص إلى ميدان العمل كي يطّلع على سير المشاريع جميعها التي كان المصرف يساهم فيها- يحظى بتقديرٍ عالٍ لدى رؤسائه في باريس، وهو السبب في حصوله على التّرقيات والتنقّلات المتتالية والأسفار (بين الجزائر العاصمة، ومرسيليا، والدّار البيضاء وليون) التي ألقت بأثقالها على عائلتنا الصغيرة، إضافة إلى تبديل المنازل لمرّاتٍ لا تُحصى والتي كانت أمّي دائمة الشكوى بشأنها علانيّةً لكلّ راغبٍ في الاستماع: كانت في حالٍ من التذمّر الدّائم الذي عانيت منه الأمرّين.

كان والدي رجلًا مستبدًّا للغاية في الأساس، ومستقلًّا جدًّا في شؤونه جميعها، حتى -وربّما بصفةٍ خاصّةٍ- فيما يتعلّق بأفراد أسرته، وكان قد فصل بين الأعمال والسلطات بصورةٍ نهائيّةٍ: فأوكل إلى امرأته العناية بالمنزل والأطفال فقط، فيما تولّى هو شؤون المال والعالم الخارجيّ. وكان متصلّبًا على الدّوام بشأن هذا التقسيم. لذلك فهو لم يتّخذ أيّة بادرةٍ تتعلّق بشؤوننا الخاصّة وبتعليمنا. كانت والدتي تتمتّع بالسلطات كلّها في هذا المضمار. في المقابل، لم يكن والدي يتكلّم في المنزل عن عمله

ولا عن علاقاته الخارجيّة أبدًا (ما عدا اثنين من أصدقائه قدّمهما إلينا، وقد اصطحبنا أحدهما في سيارته ذات مرّةٍ إلى جبال الشريعة المغطّاة بالثلوج). قبل ستّة أشهرٍ من وفاته فقط، وداخل منزلٍ صغيرٍ في فيروفلاي (Viroflay)(18) الذي اختاره كي يمضي فترة تقاعده، شرع والدي في الحديث. وهنا، ينبغي التنويه إلى أنّني كنتُ قد استجمعتُ الشجاعة في قلبي فبادرتُ إلى سؤاله –وإن كان ذلك قد تأخّر كثيرًا–، إضافةً إلى أنّ أبي كان يشعر بدنوّ أجله، أو «ساعة الأفول» كما كان يقول. لقد أخبرني –في البداية– بأنّه كان يعلم منذ وقتٍ طويلٍ بما ينتظره في المصرف.

كان أبي قد رفض –حينما كان في مدينة ليون في الفترة الأولى من حكومة فيشي(19)(حتى نهاية عام 1942)– الانضمام إلى جمعيةٍ من المصرفيين التي كانت تناصر الثورة الوطنيّة. كذلك الأمر في المغرب، فحينما أقسم الجنرال جوان (Juin)(20) على أن يجعل محمد الخامس (يلتهم الرّوث بملء شدقيه)، وفي الوقت الذي كانت فيه مجموعةٌ من مدراء البنك المغربي تتملّق المندوب السّامي، كان والدي –وهو الشخصيّة الأهمّ في ذلك البنك آنذاك– قد بقي متمسّكًا بتحفّظه المعلن إزاء ذلك، جهارًا، وعلى مرأى من الجميع ودرايته. وحينما أُحيل إلى التقاعد، كان ما يزال يتمتّع بالكثير من الكفاءات، والتجربة والمؤهّلات كي تقرّر الإدارة العامة في باريس –كما تقتضي الأعراف ومصالحها– أن تُشركه بين أعضاء فريقها. «لكنّني كنتُ أعرف أنّهم لن يفعلوا ذلك مطلقًا، فأنا لست واحدًا من العائلة، كما أنّني لست خرّيجًا من كلّيّة العلوم التقنيّة، ولا بروتستانتيًّا، ولستُ متزوّجًا واحدةً من بناتهم». لذلك فقد اقتصر الأمر على توجيه الشكر إليه وحسب. لكن، وعلى الرّغم من

---

(18) فيرفلاي (Viroflay): هي بلدة في مقاطعة إيل دو فرانس في شمال وسط فرنسا. (المترجم)

(19) حكومة فيشي (Gouvernement de Vichy): وهي الحكومة الفرنسية الموالية لألمانيا النازية التي تشكلت في أثناء الحرب العالمية الثانية برئاسة فيليب بيتان، واتّخذت مدينة فيشي مقرًا لها، وقد أطلقت ما سميت بالثورة الوطنية (la Révolution nationale) كإيديولوجيا رسمية للنظام الفيشي. (المترجم)

(20) جوان (A lphonse Juin) 1888-1967: المندوب السامي لفرنسا الاستعمارية في المغرب. (المترجم)

ذلك، أيّة كفاءةٍ، وأيّ بعد نظرٍ كان له! فحينما سألته -في تلك الليلة- عن رأيه حول الأوضاع الاقتصادية والماليّة، أدلى ذلك الرجل الطّاعن في السنّ -وقد انكمش جسده وضؤل، فيما بقي ذهنه صافيًا- بعرضٍ رائعٍ لم يبحث فيه الوضع الماليّ والاقتصاديّ فحسب، بل والسياسيّ أيضًا، ما جعلني أشعر بسذاجتي قبالة ذكائه، ونفاذ بصيرته، واستشعاره المشاكل والصراعات الاجتماعيّة. أيُّ رجلٍ كنتُ أعيش على مقربةٍ منه من دون أن ألتفت إليه! لكنّه التزم الصمت فيما يتعلّق بشؤونه الخاصّة طيلة حياته، ولم أجرؤ على سؤاله عنها، أو حمله على الكلام بشأنها. لكن هل كان ليجيبني لو فعلت؟ هنا، يجب عليّ أن أعترف -تحديدًا- بأنني كرهتُ أبي زمنًا طويلًا كونه تسبّب في معاناة والدتي وعذابها، كما تسبّب -بالتالي- في معاناتي أيضًا.

مع ذلك، فقد حدث ذات مرّةٍ -وكان ذلك في مرسيليا بعد نهاية الحرب- أن ألفيتُ نفسي إلى جانبه بعد أن حضرتُ للبحث عنه في مكتبه، حينما دخل إليه مجموعةٌ من المساعدين كي يضعوا أمامه بعض ملفّات العمل. كان قد اشتُهر بقراراته الحاسمة على الدّوام. وبعد أن تفحّص الملفّات بصمت وأناة، رفع رأسه وأوعز ببعض الكلمات إلى اثنين من مساعديه اللذين كانا يقفان أمامه في انتظار. ما إن خرجت بضع كلماتٍ من بين أسنانه في شبه رطانةٍ -وإن بدت لي مبهمةً على نحوٍ كلّيٍ- حتى غادر المساعدون الغرفة من دون أن يسألوه شيئًا. «لكنّهم لم يفهموا شيئًا! -لا تقلق؛ سوف يفهمون». هكذا اكتشفتُ -بمحض الصدفة- كيف كان والدي يدير مصرفه. وقد تأكّد لديّ هذا الانطباع لاحقًا حينما التقيت في باريس بأحد مساعديه القدماء: «قلّما فهمنا من أبيك شيئًا، لكنّنا في معظم الأحيان كنّا نغادر من دون أن نجرؤ على أن نطلب منه إعادة عبارته. -ومن ثمّ؟ من ثمّ، كان علينا أن نتدبّر أمرنا!». على هذا النحو كان والدي «يحكم»: إذ لم يكن في الحقيقة يفصح عمّا في نفسه، ولعلّها طريقة في جعل مساعديه يتحمّلون -ما يدركونه- من مسؤوليةٍ مقرّرةٍ، غير محدّدةٍ بجلاء. لا ريب أنّهم كان يعرفون عملهم، ولا ريب

أنّهم قد ترعرعوا في مدرسته منذ زمنٍ طويلٍ، كما لا ريب في أنّهم كانوا يعرفونه جيّدًا كي يفهموا المغزى من إيماءاته. حتى سائقه لم يكن يفهمه على الدوام حينما يتعلّق الأمر بخطّ سيرٍ جديد! هكذا كانت شخصيّة والدي: رجلٌ طيّب القلب لكنه مستبدٌّ إلى درجةٍ محيّرةٍ تتجلّى في غمغمته التي تعلّم الموظّفون لديه -إذ يسدّدها إليهم بجفاءٍ- أن يتوقّعوا على نحوٍ مسبقٍ ما تنطوي عليه من قراراتٍ شبه غامضة. مدرسةٌ قاسيةٌ في طريقة «قيادة البشر» لم يكن مكيافيللي (Machiavel) نفسه يتخيّلها، وقد كان نجاحها مبهرًا. لقد أكّد لي بعض الموظّفين القدماء لدى والدي -الذين التقيتُ بهم بعد موته- طريقته الغريبة في الإدارة ونتائجها، كان راسخًا في ذاكرتهم وكانوا يتكلّمون عنه بإعجاب يبلغ عتبات العبادة: لم يكن له من نظير، كان أحد الـ«تيبابار».

لم أعرف أبدًا في أيّة خانةٍ أضع سلوك والدي في علاقاته مع الآخرين -إن لم نقل مع نفسه أيضًا- إن كان يندرج في خانة الوعي الهادف، أم التردّد الداخليّ، بل والضّعف الباطنيّ حتّى. لقد تراكبت كفاءته وذكاؤه جميعها مع شعورٍ عميقٍ بالضيق جليٍّ وواضحٍ أمام الآخرين، ومع تحفّظٍ -لا يرتبط بمبدأ ما بل بالواقع- قائمٍ على تكتّمٍ متجذّرٍ في بواطن الرّوح. هذا الرجلّ المتسلّط، الذي كان يُؤخذ أحيانًا في نوباتٍ راعدةٍ من الغضب، كان في الوقت نفسه -بلا ريبٍ- مصابًا بنوع من العجز عن الظهور أمام الآخرين يجعله عييًّا في منطقه، وبخوفٍ يقذفه في هوّة التردّد الذي لا يجعله جديرًا باتّخاذ القرارات الواضحة. إضافةً إلى ذلك، كانت هناك -بكلّ تأكيدٍ- قناعةٌ أخرى لا تُفصح عن نفسها، وهي تعود به إلى أصوله الفقيرة. لقد جعل منه هذا التحفّظ الدّفين -في ليون وفي الدّار البيضاء- الشخص الوحيد الذي لم يدخل في لعبة أبناء الطبقة ومراكز النفوذ. فلكم أن تنظروا ذلك المدى البعيد الذي تستطيع الصراعات والتناقضات الطبقيّة أن تصل إليه في نهاية الأمر.

إذا أسهبتُ في الحديث عن هذا الأمر، فهذا عائدٌ إلى أنّ والدي كان قد خصّنا

بالمصير نفسه تمامًا. لقد أوعز إلى والدتي تاركًا لها -على سبيل الحصر- العناية بشؤون المنزل، والتعليم، وحياة الأطفال اليوميّة والمسائل المرتبطة بهذا الشأن جميعها: من ملابسٍ، وعطلٍ، ومسرحٍ، وموسيقى وما أدراني؟ لم يتدخّل أبي مطلقًا -إلّا في حالاتٍ نادرةٍ جدًّا- كي يُظهر لنا مزاجه السيّء بشكلٍ غريبٍ في تمتماته المُختصرة. كنّا نعرف -على الأقلّ- أنّه ساخطٌ، ولكن لماذا؟ لم نعرف السبب أبدًا. لقد كان معجبًا بأمّي حقًّا فيما أوكل إليها من واجباتٍ، وكان يحبّذ أن يردّد في المناسبات -أمام الغرباء على وجه الخصوص- عبارة: «السيّدة ألتوسير العامرة بالنشاط»، التي كان قد استعارها من مديره في الجزائر، السيّد رونجيه (Rongier)، الذي أحسن معاملة والدي؛ فحفظ له هذا الودّ والاحترام. على النقيض من ذلك، لم تنقطع والدتي عن ذمّ والدي من دون وازعٍ أو رقيب، مسترسلةً بصورةٍ طفوليّةٍ وغير واعيةٍ، أمّا والدي فقد تجاهل الأمر برمّته علنًا؛ ما أذهلني (وجعلني أشعر بالخجل أيضًا). لم يكن ينبس ببنت شفة أمامي وأمام أختي. ولقد أرعبتنا لحظات صمته المطبق، عوضًا عن أن تطلق العنان لرغباتنا. لكنّه كان يرعبني في جميع الأحوال.

في بداية الأمر كنتُ متأثّرًا بسطوة والدي. كان ضخمًا ومتين البنية، وكنت أعلم أنّه يحتفظ بمسدّسه في خزانة ملابسه، وأخشى أن يستعمله ذات يوم. كما حصل في تلك الليلة في الجزائر، حينما استشاط والدي غضبًا واندفع يرغي بزعقاتٍ مجنونةٍ مصحوبةٍ بقرقعة قدور الطبخ وقد أخرج مسدّسه. كنتُ أرتعد مما قد يؤول الأمر إليه من عراكٍ جسديّ وإطلاق نار، لكن الصمت ران بعد قليلٍ، خوفًا أو حسن طالعٍ.

كانت تصدر عن والدي في أغلب الليالي -وهو نائمٌ- صرخاتٌ مروّعةٌ كذئب مطاردٍ، أو صوتُ أنينٍ متواصلٍ لقسوةٍ غير محتملةٍ كان يجعلنا نقفز تحت السرير. وكانت أمّي تحاول عبثًا أن توقظه من كوابيسه تلك. لقد أصبح الليل بالنسبة إلينا -أو بالنسبة إليّ على الأقلّ- مبعث الرّعب، وكنت أعيشُ على الدّوام متوجّسًا من

تلك الصرخات البهيميّة التي لا تطاق، والتي لم أستطع أن أمحوها من ذاكرتي أبدًا. في وقتٍ لاحقٍ، حينما اتّخذتُ موقف الدفاع عن أمّي المعذّبة في مواجهته -في آخر تعدٍّ له عليها- وقد أثرتُ بذلك استياءه بما فيه الكفاية، انتصب واقفًا بشدّة، ثمّ غادر مائدة الطّعام قبل إنهاء وجبته، متفوّهًا بكلمة واحدةٍ: «إمّعة!»، وصفق الباب خلفه واختفى في عتمة الليل. تملّكنا حينها قلقٌ فظيعٌ، أو تملّكني وحدي على الأقلّ: لقد ترك والدتي، لقد تركنا نحن (فوالدتي كانت تبدو غير مكترثةٍ): فهل غادر إلى الأبد؟ هل سيعود أم أنّه سيختفي إلى الأبد؟ لم أعرف يومًا ماذا كان يفعل في مثل هذه الأحوال، لعلّه كان يهيمُ على وجهه في طرقات الليل. لكنّه في كلّ مرّةٍ -وبعد انقضاء مدّةٍ من الزّمن كانت تبدو لي أنها لن تنتهي- كان يعود إلى المنزل، ثم يتوجّه بمفرده إلى الفراش من دون أن يتفوّه بأيّة كلمةٍ. كنتُ أتساءل على الدّوام فيما يمكن أن يقوله لوالدتي المعذّبة، وفيما إذا كان يقول لها شيئًا بالفعل. كنت أظنّ أنّه غير قادرٍ على أن يحدّثها بأيّ شيءٍ. هكذا كنّا نجد الرجل نفسه أمامنا، قبل فورة الغضب وبعدها: الرجل العاجز عن التعامل معنا بصورةٍ أخرى سوى أن «يقطّب وجهه» أمامنا في صمتٍ ووضوح. لينقضي الأمر بعدها.

لكنّ هذا لم يكن سوى جانبًا واحدًا من شخصيّته. فحينما كان يجد نفسه بين أصدقائه (الذين عرفنا منهم قلّةً نادرةً) كان يتحوّل إلى شخصٍ متهكّمٍ ولاذعٍ على نحوٍ لا يقاوم. كان يمازح الآخرين ويتداعب عليهم، وكان يكثر من تأويلاته الذكيّة ومناكداته المستفزّة، المشحونة على الدّوام بنوعٍ من التعريضات الجنسيّة، التي يرافقها ابتداه مذهلٌ يجعله يُفحم محاوريه في تهكّمه، تهكّمٌ محرّضٌ وخبيث للغاية: لقد كان رجلًا قويًّا جدًّا فلم يكن لأحد -بالتالي- أن يقدر عليه. كما لم يكن في استطاعة أحدٍ -وأمّه على وجه الخصوص- أن يجاريه في لعبته، ولا أن يصمد أمام هجماته. لعلّ في ذلك طريقةً أخرى من الدّفاع التي يتحاشى بها اضطراره أن يقول ما يفكّر فيه أو يرغب فيه، أو لعلّ السبب في ذلك أنّه لا يعرف حقًّا ما يريد، سوى أنّه يريد إخفاء قلقه وتردّده العميقين خلف تلك الستارة الشفّافة لسخريته الجامحة.

لكنّه كان يعشق -في المقام الأول- أن يعبث على هذا النحو مع زوجات أصدقائه، فيا له من عرضٍ يقدّمه! كنتُ أتألّم من أجل أمي وهي تراه يغازلهنّ على هذا النحو «المخجل» جدًّا. كان يبدو متحمّسًا على وجه الخصوص في حضور زوجة أحد زملائه في العمل -والذي كان من بين الأصدقاء النادرين الذين تعرّفنا إليهم-، كانت تُدعى سوزي (Suzy)، وهي امرأة رائعة الجمال ومشرقةٌ، واثقةٌ من سحرها، وسعيدةٌ بكونها امرأةً مثيرةً على هذا النحو. كان أبي -أمام ناظرينا- يندفع متقحّمًا في تحرّشٍ جنسيٍّ متواصلٍ يجعل سوزي تذوب فيما تشعر به من ارتباكٍ وضحكٍ والتذاذٍ. وكنتُ أتألّم في صمتٍ من أجل أمّي ومن التفكير بأنني سوف أكون على شاكلته بكلّ تأكيدٍ.

وفيما كان هذا الرجل المتسلّط -في الحقيقة- شبقًا إلى حدٍّ بعيدٍ، إذ كان يحب الخمر وشرائح اللحم نصف المشويّة بشدّةٍ تماثل عشقه للنساء. كانت والدتي تسقط مرّةً أخرى -ذات يومٍ جميلٍ في مرسيليا- في غرام رجلٍ يُدعى الدكتور أومو (Dr Omo) -الذي سوف يصطاد بروحانيّته الصرفة سذاجة والدتي-. كان الدكتور يملك منزلًا ريفيّاً جميلًا ينتصب وسط الحدائق المزدانة بالزهور في شمال المدينة، حيث كان يقوم بزراعة الخضروات من أجل نظامه الغذائيّ (والتي كان يضعها في برطماناتٍ صغيرةٍ تحمل اسمه ليبيعها بسعر غالٍ نسبيًّا)، كما كان يبشّر بنظامٍ نباتيٍّ صارمٍ. هكذا أخضعتنا أمّي -من دون أن تشاور أحدًا- أنا وأختي وهي في الوقت نفسه إلى نظامٍ نباتيٍّ خالصٍ استمر لمدّة ستّ سنوات كاملةٍ. لم يعارض أبي في شيءٍ، لكنّه أوجب حصوله على شريحة لحمٍ كلّ يوم. لذلك فقد كنا نتناول الملفوف، والكستناء، واللوز المحلّى بالعسل فنضعها جميعًا أمام عينيه بكلّ جلاءٍ كيما نظهر استنكارنا المشترك له بوضوحٍ، فيما كان يتابع تقطيع شريحته من اللحم بكلّ هدوء. آنذاك كان يحدث أن أستهزأ به، وأن أهاجمه بقسوةٍ شديدةٍ: لكنّه لم يكن يردّ مطلقًا، مكتفيًا بكلمةٍ واحدةٍ وهو يهمّ بالرحيل: «إمّعة!».

بالطبع، كان والدي في بعض الأحيان يحاول أن يورّطني معه. كان يصحبني معه

إلى الملعب في المناسبات، حيث كان يهوى الدخول إليها من دون أن يدفع فلسًا، تحت عين المراقبة الحاضرة لأحد موظّفي البنك ممّن كانوا يسعون إلى زيادة دخلهم قليلًا من خلال العمل في مراقبة بوّابات الدخول. كنتُ مفتونًا في مهارة أبي في «التملّص من دفع الأجرة»، لكنّني لم أكن أجرؤ على مجرّد التفكير في فعل ذلك، إذ كانت والدتي وأساتذتي قد قاموا بتربيتي على المبادئ الكبرى في الاستقامة والفضيلة. لكنّ ما جرى عند دخولنا إلى ملعب التنس كان مثالًا سيئًا ترك في نفسي ذكرى مخيفةً. كان والدي قد دخل من دون أن يدفع كما جرت العادة، لكنّني لم أستطع الدخول وراءه. فتركني والدي وحيدًا. لذلك كان عليّ -فيما بعد- أن أستلهم من فنّه في «التملّص» بصورةٍ جدّيّةٍ. وهكذا صرت أتبعه بعد أن يدخل، ثمّ نجلس لنشاهد المباراة التي تجري في جوٍّ صاخبٍ. لكنني أتذكر في مناسبتين، في سانت أوجين (Saint_Eugène)[21] حينما جرى إطلاق أعيرةٍ ناريّةٍ بين الجماهير. استمرّ إطلاق النار (أيّة إشارةٍ أتلقّى...)، كانت فرائصي ترتعد كما لو أنّهم كانوا يستهدفونني.

من جهةٍ أخرى، أحتفظ بذكرى مروّعةٍ عن تلك الأوقات. كان التعليم في المدارس آنذاك يدرس الحروب الصليبيّة، والمدن المحترقة المنهوبة، وأهليها الذين قضوا بحدّ السيف، كانت الدماء تجري في الشوارع أنهارًا. لقد قضى العديد منهم على الخازوق، كنتُ أتخيّل على الدوام صورة واحدٍ منهم: منتصبًا -من دون الاستعانة بسندٍ ما- فوق الخازوق الذي يخترقه ببطء من دبره حتى يصل إلى أعماق بطنه وقلبه. وآنذاك فقط، كان يسلّم الروح وهو يقاسي آلامًا مبرّحة، فيما دماؤه تسيل على طول الخازوق وفخذيه حتى تبلغ الثّرى. أيّ رعبٍ هذا! آنذاك، كنتُ أشعر أنني أنا الذي يخترقه الخازوق (ولعلّه خازوق لويس الميْت الذي كان يقف خلف ظهري على الدّوام). كما أنّني أحتفظ عن تلك الفترة بذكرى أخرى كنتُ قد وجدتها بين أوراق أحد الكتب، حيث كانت الضحيّة تُحبس في تابوت حديديّ

(21) سانت أوجين (Saint_Eugène): بلدة صغيرة تقع في منطقة البيكاردي في شمال فرنسا. (المترجم)

مزوّدٍ من أعلاه إلى أسفله بمسامير طويلةٍ، حادّةٍ وصلبةٍ، فتخترق ببطءٍ محاجر العينين والجمجمة والقلب. كنتُ أشعر آنّني أنا المُحتبس في التابوت الحديديّ. فأيّة طريقةٍ مروّعةٍ للموت البطيء تلك! لقد بقيتُ أرتجف من ذكراها طويلًا، وأحلم بها طوال الليل. لكم أن تصدقوني إذا أردتم، فأنا لا أمارس هنا -ولا في مكان آخر- «تحليلًا ذاتيًا»، لقد تركت هذه القضيّة إلى أولئك الدّهاة الصغار جميعهم من أصحاب «النظريّة التحليليّة» تبعًا لميزان وساوسهم وتخيّلاتهم الخاصّة بهم. إنني أروي -وحسب- مختلف «التأثيرات» التي وسمت حياتي بخاتمها، في صورتها الأوليّة، وما تفرّع عنها بعد انقضاء الأمر.

ثمّة ذكرى أخرى -وأخيرة- تتعلّق بوالدي: ذلك الرجل العائد من الحرب وبحوزته العديد من الصور عن فرقته في سلاح المدفعيّة، حيث يظهر فيها على الدوام منتصبًا أمام المدافع العملاقة، وأسلحةٍ أخرى ذات رماياتٍ بعيدةٍ. لقد أخذني بهدف التدريب إلى حقل رمايةٍ عسكريّ في القبّة (Kouba)[22]، وهناك جعلني أسندُ بندقيّةً حربيّةً ثقيلةً على كتفي. أتذكّر تلك الصدمة الهائلة التي تلقّيتها في كتفي، وكيف سقطتُ على ظهري وسط ما ولّده الانفجار من ضجيجٍ لا يُحتمل. كنتُ حينها في التاسعة من العمر -وبعيدًا عن الأعلام التي كانت تُلوّح مشيرةً إلى فشلي في إصابة الهدف- كان والدي فخورًا بي، أما أنا فكنتُ -مثلما كنتُ دائمًا- مرتعبًا وخائفًا.

لكنني حينما نجحتُ لاحقًا في امتحانات «المنح المدرسيّة» في عام 1929 (إذ كنتُ تلميذًا متفوّقًا بغضّ النظر عن حلولي في أسفل اللائحة)، سُئلتُ من قبل أبي عن الهديّة التي أرغب بها، فأجبتُه بلا تردّد: «بارودةٌ من عيار 9 ملم من مصنع سانت إيتيان للأسلحة والعجلات»، الذي كنتُ قد التهمتُ «الكتالوج» الخاصّ به (حيث وقعتُ على كثيرٍ من الأشياء التي لم أحظَ بها ولم أشاهدها في حياتي من

(22) القبّة (Kouba): بلدية القبّة هي إحدى بلديات ولاية الجزائر، وهي تقع في أعالي العاصمة الجزائريّة. (المترجم)

قبل، فرغبتُ في الحصول عليها...). هكذا حصلتُ -بلا مشاكلٍ- على بندقيّتي مع الرّصاص والخرطوش، في ظلّ استنكارٍ من والدتي، ولكن من دون أن يناقشني أبي في اختياري على الإطلاق -تلك البندقية التي سيكون عليّ أن أستخدمها ذات يومٍ بطريقةٍ غريبةٍ.

أصبحتُ -في سنٍّ مبكّرةٍ جدًّا- متمرّسًا في جميع أنواع الرّماية: في قذف الحجارة على زجاجات المعلّبات الفارغة، وفي النّقافة أيضًا. وكنتُ أحاول إصابة الطيور، لكنني كنتُ أخفق دائمًا. ما خلا مرّةً واحدةً قمتُ فيها باصطياد الدجاجات التي كانت تأتي لتنقد الحبَّ من حقل جدّي الكائن في بوا دو فيل (Bois_de_Velle)[23]. صوّبتُ من مسافةٍ بعيدةٍ جدًّا (قرابة العشرين مترًا) على ديكٍ أحمر جميلٍ كان يقف بالقرب من سياج الحقل، ثمّ رميته بالنّقافة، ويا للهول: لقد رأيتُ الديك ينتفضُ من الألم -إذ أصبتُه في عينه تمامًا- ثمّ أخذ يضرب التراب برأسه بصورةٍ عنيفةٍ، ليفرّ وصوت فواقه مسموعٌ؛ فمكثتُ -لساعاتٍ- أستمع إلى ضربات قلبي المضطرب خوفًا.

إليكم ما جرى معي بشأن هذه البندقيّة. في بادئ الأمر لم أكن أستعملها إلّا بقصد اختبار مهارتي في الرّمي على أهدافٍ كرتونيّةٍ، فكنتُ أنجح في إصابتها بمهارةٍ. ولكن في أحد الأيام، إذ كنّا في أرضنا الصغيرة المزروعة باللّفت -والتي ظنّ والدي أنّه من الأفضل شراءها في مناطق مرتفعة لا يمكن بلوغها- أخذتُ أعبر الغابات ممسكًا البارودة في يدي، وباحثًا عن بعض طيور الصيد. فجأةً لمحتُ تُرغلةً فرميتها. وإذ سقطتْ، شرعتُ أبحث عنها بين نباتات السرخس اليابسة من دون جدوى. كنتُ مُقتنعًا في قرارة نفسي بأنّني أخطأتُها، وأنّ سقوط الترغلّة كان خدعةً كي تتملّص منّي. وإذ مضيتُ في طريقي، خطرت لي فجأة فكرةُ أنني أستطيع بعد كلّ شيء أن أجرّب قتل نفسي -من دون أن أكون قد فكرتُ في ذلك سابقًا، أو بالأحرى

---

(23) بوا دو فيل (Bois_de_Velle): غابة فرنسية في منطقة بورغون فرانش كومتي (Bourgogne_Franche_Comté) الواقعة شرق فرنسا. (المترجم)

من دون أن أعرف السبب في ذلك-. حينها، وجّهت فوهة السلاح نحو بطني وهممتُ أن أضغط على الزناد في اللحظة التي أوقفني فيها هاجسٌ غريبٌ لم أعرف كنهه أبدًا. وإذ فتحتُ مغلاق البارودة، وجدتُ رصاصةً داخله. كيف حدث أن وُجدت الرّصاصة هناك؟ على الرّغم من آنني لم أضعها فيه. لم أعرف السبب أبدًا. لكنّني أصبحتُ فجأة أتصبّب عرقًا من خوفي. كنتُ أرتجف من قمّة رأسي حتى أخمص قدميّ، وقد لزمني أن أستلقي زمنًا طويلًا فوق التراب -متأمّلاً فقط- قبل أن أعود إلى المزرعة. إنّه الموت مرّة أخرى: لكنّ الأمر يتعلّق بموتي مباشرةً هذه المرّة.

لا أعرف لماذا تُدنيني هذه الذّكرى من واحدةٍ أخرى -جرت فيما بعد- وكانت تبعث في نفسي إحساسًا مماثلًا بالرّعب المروّع. كنّا في مرسيليا، خرجتُ أنا وأمي من شقّتنا الكائنة في شارع سيباستوبول (Sébastopol)، واستعنّا -من أجل توفير الوقت- بطريقٍ مختصرةٍ عريضةٍ، تقوم على جانبيها جدرانٌ عاليةٌ. آنذاك، لمحنا على مبعدة منّا، فوق الرصيف الأيمن، امرأتين ورجل. كانت المرأتان تتعاركان بقسوة. وتزعقان في غضبٍ. كانت إحداهنّ تجرّ الأخرى -المطروحة أرضًا- من شعرها، فيما يقف الرجل على حدةٍ من دون أن يتحرك، متأمّلًا المشهد من دون تدخّلٍ. حينما عبرنا بالقرب منهم، بلغ مسامعنا تحذير واضحٌ جدًّا: «انتبها، إنّها تحمل مسدّسًا!»، لكنّ والدتي تابعت طريقها، متصلّبةً وقد ثبّتت نظرها إلى الأمام، لا تريد أن تسمع أو ترى شيئًا، ومن دون أن تتأثّر بشيءٍ على الإطلاق. لم تبدِ أيّة إشارةٍ، ولم تحدّثني مطلقًا عن هذه الحادثة المأساويّة. أدركتُ بوضوحٍ أنّه كان عليّ التدخّل لكنني كنتُ جبانًا. لقد سادت علاقاتٌ غريبةٌ بيني وبين أمّي، وبين أمّي والموت، وبين أبي والموت، وبيني أنا والموت، علاقاتٌ لم أستوعبها إلّا في وقتٍ متأخّرٍ جدًّا، بعد أن شرعت في تحليلها.

هل حظيتُ بوالدٍ حقًّا؟ لا شكّ في ذلك، فأنا أحمل اسمه، وقد كان موجودًا. لكنّ الإجابة هي: كلّا، بمعنىً آخر. فوالدي لم يتدّخل على الإطلاق في توجيهي

ورعايتي. وهو لم يطلعني أبدًا على ما لديه من خبراتٍ قد تعينني في بداية تلّمسي عوالم الدفاع الجسدي، والمعارك بين الصبية، ومن ثمّ عوالم الرجولة لاحقًا. وبخصوص هذا الجانب الأخير، كانت والدتي هي المعين -مرّة أخرى- بدافعٍ من إحساسها بالواجب، وعلى الرغم من الرّعب الذي كانت تثيره في نفسها شؤون الجنس كلّها. في الوقت نفسه، كان والدي يحاول بوضوح أن يورّطني، ولكن بصورةٍ هادئةٍ على الدّوام: لقد بقي في تلميحاته اللاحقة إلى علاقاتي النسائيّة «مُحتالًا» كعادته السابقة. إذ لم يكن يرغب، بصورة طبيعيّةٍ، في الاستماع إلى حديثي عن النساء اللواتي استطعتُ التعرّف بهن، ولا إلى ما يجري بيني وبينهنّ، لكنني في كلّ مرّةٍ كنتُ أغادره كان يُسمعني، أمام والدتي الصامتة، عبارةً بسيطةً لا تستدعي مني جوابًا ولا ردًّا: «اجعلها سعيدةً»، ولكن إلى من يعود هذا الضمير المؤنّث في كلمة «اجعلها»؟

لعلّه كان يقصد أن أجعل والدتي سعيدةً! سوف يتبيّن لاحقًا أنّه لم يكن يعني ذلك بتاتًا: فوالدي، في الأساس، كان أشدّ ذكاء بكثيرٍ من أن يقوم بأدنى إشارةٍ حول هذه المسألة. لقد كانت والدتي في فتوّتها امرأةً رائعة الجمال. كانت تبلغ من العمر أحد عشر عامًا، وكانت أكثر شبابًا من والدي، وقد انتقلت تلك الطفلة الأبديّة رأسًا من رعاية أبويها إلى رعاية زوجها، من دون أن يكون لها في الحياة أيّة تجربةٍ مع نساءٍ أو رجالٍ على حدٍّ سواء. لم يكن في قلبها سوى ذلك الحنين الأبديّ الوحيد إلى ذكرى لوي، ذلك الخاطب مديد القامة الذي قضى في أجواء السماء، وذكرى أولئك المعلّمين الذين عاشرتهم خلال مهنتها العابرة التي أنهاها والدي بقسوةٍ. وقد كان لها أيضًا في الجزائر العاصمة صديقة وحيدة شابّة في مثل عمرها، ومثل براءتها، وقد أصبحت طبيبةً لكن مرض السلّ قضى عليها فجأةً. كانت تُدعى جورجيت (Georgette). لذلك كان من الطبيعيّ جدًّا -حينما وُلدت شقيقتي- أن تسمّيها أمي على اسم صديقتها المتوفّاة: جورجيت. ليكون للموت اسمٌ جديد.

بكلّ تأكيدٍ، فإنّ والدتي الشقراء، القصيرة القامة، ذات الوجه المتناسق في قسماته،

والنهدين الرائعين -اللذين أتذكّرهما بشيءٍ من التعنّت في ذاكرتي؛ وأقصد من خلال صورها- قد أحبّتني كثيرًا. لقد كنتُ مفخرتها: الولد الأول الذي تنجبه، وهو صبيٌّ. أتذكّر نفسي -حينما ولدت شقيقتي- إذ كنتُ أوليها الرّعاية على مدار الساعة، وألاطفها، ثم أصبحتُ أمسك بيدها -فيما بعد- كي أعبر بها الشوارع مزوّدًا إياها بإرشادات السلوك جميعها، وكي أعتني بها -فيما بعد أكثر- في مناسبات الحياة كلّها. لقد أدّيتُ -من ناحيتي- بكلّ إخلاصٍ هذه المهمّة الموكلة إليّ كطفلٍ ومراهقٍ ارتقى إلى مرتبة الرجال، بل والآباء أيضًا (فلقد جعلتني عيوب أبي أثور غضبًا، إذ كنتُ أشتبه علنًا بما يأتيه من محاولاتٍ في سفاح المحارم، حينما كان يأخذ شقيقتي فوق ركبتيه بطريقةٍ فاحشةٍ في نظري). لقد كان من المفترض بي -كطفلٍ ومراهقٍ أيضًا- أن أنسحق تحت وطأة مهمةٍ بمثل هذه الجسامة النبيلة.

كانت والدتي لا تنفكُّ تشرح لي أن شقيقتي كائنٌ هشٌّ (مثلها من دون ريب) لأنّها امرأةٌ، وما أزال أحتفظ في عقلي بذكرى أخرى فاحشةٍ كانت قد روّعتني وأثارت استنكاري. كنّا في مرسيليا، وكانت والدتي تحمّم شقيقتي، وهي عاريةٌ في مغطس الشقّة. وكنتُ أنا أنتظر دوري، عاريًا أيضًا. ما أزال أسمع كلمات والدتي وهي تحدّثني: «هل ترى، إنّ أختك كائنٌ هشٌّ، وهي معرّضة للإصابة بالجراثيم بصورةٍ أكثر بكثيرٍ من الصبيان»، -ثمّ كانت تقوم بالإشارة إضافة إلى الكلام؛ كي تزيد الأمور توضيحًا- «فأنت تملك فتحتين فقط في جسدك، وأمّا هي فتملك ثلاثًا» كنت أشعر بأنّني أتصبّب خجلًا إثر هذا التدخّل الفظّ لوالدتي في حقل الجنس المقارن.

أدركُ الآن بوضوحٍ أنّ والدتي كانت نهبًا للمخاوف بكلّ معنى الكلمة: كانت تخاف من كلّ شيءٍ، فتخشى التأخّر، وتخشى ألا تملك من المال ما يكفي، وتخشى التيّارات الهوائية (إذ كانت تشعر على الدوام بألمٍ في الحلق، وقد بقيتُ أنا الآخر أشعر مثلها إلى أن رحلتُ عنها لأداء الخدمة العسكريّة)، كما كانت تخشى الجراثيم بشدّةٍ وتخشى عدواها، وتخشى الحشود وصخب الحشود، وتخشى الجوار، وتخاف

من الحوادث التي تقع في الشوارع وفي أماكن أخرى، وفوق كلّ شيء كانت تخشى المصادفات المشؤومة والعلاقات المشبوهة التي يمكن أن تتّخذ منحىً سيئًا: ولنقلها بصراحة، كان أخشى ما تخشاه هو الجنس، والتعرّض للسطو والاغتصاب. ما يعني أنها كانت تخشى أن تتعرّض سلامتها الماديّة للاعتداء؛ فتفقد بذلك تلك الطهارة المُلغزة لجسدٍ ما يزال مشتتًا.

ما أزال أذكر عنها ذكرى أخرى، تفوق حمولتها -في نظري- ما تحمله الذكريات الأخرى جميعها من رعب وفضيحة. إنّها ليست ذكرى دفينةً، تغطيها المؤثّرات اللاحقة، لكنّها ذكرى بعمر الثالثة عشر أو الرابعة عشر، وقد بقيت واضحةً إلى أبعد الحدود، ومُقصاةً كما هي من دون، أن تنضاف إليها أيّة تفاصيل أخرى. وقد يكون من الممكن أو المعقول أن نقول بأنّ مفعولها قد تعزّز -بعد أن وقعت وتمّت- بحوادث أخرى تحمل المضمون نفسه، بيد أنّها -في ضوء ذلك- لم تفعل سوى أن زادت في حدّة ما جعلتني -هذه الذكرى بعينها- أشعر به من عارٍ عظيمٍ وتمرّد ساخطٍ.

كنّا في مرسيليا، وكنتُ على مشارف الثالثة عشر حينها. بدأت ألاحظ -منذ عدّة أسابيع- بأنّني أشعر بشهوات حارقةٍ وقويّةٍ تعتمل في آلتي التناسليّة، وتترافق مع إشباعٍ حادٍّ، ليعقبه -من ثمّ- ارتياحٌ رائعٌ، ثم كنتُ أجدُ في الصباح أغطية السرير وقد تلطّخت ببقعٍ كبيرةٍ وكامدةِ اللون. فهل كنتُ أعرف أنّه احتلامٌ ليليٌّ؟ ليس بالأمر المهمّ: ففي جميع الأحوال كنت على يقينٍ من أنّ الأمر يتعلق بآلتي. ولكنّني ذات صباحٍ -وإذ كنتُ قد استيقظت كالعادة وشرعتُ في احتساء فنجان القهوة في المطبخ- إذا بوالدتي تشخص أمامي في صورةٍ مهيبةٍ ورصينةٍ، وتقول لي: «تعال معي يا بني». ثم أخذتني إلى غرفتي، وقامت بنشر الأغطية -أغطية سريري- أمام ناظري، ثم أشارت لي بإصبعها -من دون أن تلمسها- إلى بقعٍ داكنة اللون، متيبّسةٍ، تلطّخ الأغطية. وقفتْ تتأمّلني لبرهةٍ وقد اختلطت لديها مشاعر الزهو المُحرَج بقناعةٍ أنّها في موقفٍ عظيم الأهميّة، وأنّ عليها أن تتحلّى بأعلى درجات المسؤوليّة،

ثمّ خاطبتني قائلةً: «لقد أصبحت الآن رجلًا يا ولدي!».

كنتُ أقف رازحًا تحت وطأة الشعور بالخجل، والشعور بتمرّدٍ داخليٍّ لا يطاق ضد والدتي. فأن تسمح لنفسها أن تنبّش في أغطيتي، وفي أشدّ شؤوني الحميميّة كتمانًا، في الجزء الحميميّ من جسدي العاري، أي في مكان آلتي الجنسيّة كما لو أنّها تفتّش في سروالي الداخليّ، وبين ساقيّ كي تمسك بآلتي بين يديها ثم ترفعها ملوّحةً بها عاليًا (كما لو أنّها لها)، هي المرأة التي كانت ترعبها شؤون الجنس جميعها، وأن تقوم -إضافةً إلى ذلك- مجبرةً على سبيل الواجب (كما أحسستُ جيّدًا) بتلك الإشارة وتلك العبارة الوقحة -بدلًا عني، وفي جميع الأحوال بدلًا عن ذلك الرجل الذي أصبحتُ عليه قبل أن تتنبّه هي إلى الأمر بوقتٍ طويلٍ وقبل أن يتوجّب عليها فعل شيءٍ حياله- فهذا ما بدا لي أمرًا في غاية الانحطاط الأخلاقيّ والبذاءة. هكذا شعرتُ حينها على الأقلّ، وما أزال أشعر به على هذا النحو حتى الآن. كان الأمر اغتصابًا وخِصاءً بكلّ معنى الكلمة. لقد قامت والدتي باغتصابي وإخصائي، هي التي كانت -بدورها- تشعر أنّ أبي قد اغتصبها (لكنّ هذا شأنٌ خاصٌّ بها، ولا علاقة لي به). قدرٌ عائليٌّ لن نستطيع منه فكاكًا في الحقيقة. أمّا ارتكاب والدتي لهذه البذاءة والاعتداء -والدتي التي كانت تقوم باعتداءٍ مخالفٍ للطبيعة بكلّ جلاءٍ كي تُكمل ما تظنّ أنّه واجبها (لكنّه الدور الذي كان على والدي النهوض به)- فقد كان اللمسة الأخيرة التي أكملت مشهد الرّعب هذا. لم أتفوّه بأيّة كلمةٍ، خرجتُ صافقًا الباب من ورائي، ثمّ مضيت متسكّعًا في الطرقات، ضائعًا، تفترسني كراهيةٌ لا حدود لها.

لقد عانيتُ -في جسدي وحريّتي- من قوانين الرّعب لدى والدتي. أنا الذي كنتُ أحلم أن ألعب كرة القدم مع أولئك الملاعين الفقراء الذين كنت أشاهدهم - من الأعلى، من شقّتنا الكائنة في الطابق الرابع في شارع سيباستوبول- يسرحون ويمرحون في أرضٍ خلاء، وشاسعةٍ. لقد حُرمتُ من اللعب بكرة القدم: «حذارِ من رفقة السوء، فمن الممكن أن تكسِر ساقك!». أنا الذي كنتُ مفتونًا برفقة

الأطفال أقراني، أولئك الذين أستطيع أن أعقد علاقات الصداقة معهم، كي لا أبقى وحيدًا، ومن أجل أن أُقبل بينهم، ويُعترف بي كواحدٍ منهم، وكي أتبادل الأحاديث معهم، والكريّات الزجاجيّة، واللكمات أيضًا، وكي أتعلّم منهم ما كنتُ أجهله عن الحياة تمامًا، وكي أجعل منهم أصدقائي (لكنني لم أحظَ بصديقٍ منهم) ... فياله من حلمٍ محظور!

في أثناء وجودنا في الجزائر العاصمة، جعلتني أمي على الدّوام في رفقةِ سيّدة طيّبةٍ من السكّان المحليين -كانت تقوم بقضاء الحوائج لنا- كي تصحبني إلى مدرسة البلدة التي كانت تبعد عن مكان إقامتنا (في شارع ستاسيون سانيتير Station_Sanitaire) ثلاثمئة مترٍ فقط، يتخلّلها شارعٌ واحدٌ وهادئٌ. كنّا نصل إلى المدرسة في وقت باكر جدًّا كيلا نتأخّر (إذ كان التأخّر أحد هواجس الخوف لدى أمي). وفيما كان الأولاد الآخرون -من الفرنسيين والسكّان المحليين- يلعبون بالكريّات الزجاجية قبالة الأسوار، أو يتسابقون في الجري وهم يطلقون صرخاتهم عاليًا بكامل الطفولة المتحرّرة، كنتُ أصل إلى المدرسةِ على نحوٍ بليدٍ كما لو أنّني أقوم بفرضٍ لازبٍ، برفقة سيّدتي «الموريسكيّة» الصامتة دائمًا، شاعرًا -في قرارة نفسي- بالاحتقار والخجل من امتياز الثراء هذا (على الرّغم من كوننا فقراء في تلك الأيام). وبدلًا عن الانتظار خارجًا حتى تُفتح بوّابة المدرسة، كنتُ أحظى -في ظلّ رعاية زملاء والدتي القدامى- بامتياز الدخول -قبل الآخرين جميعاً- وأن أنتظر وحدي في ساحة المدرسة قدوم المعلّمين. كان واحدٌ من هؤلاء -وهو رجلٌ نحيلٌ ودمثٌ- يأتي إليّ بصورةٍ دائمةٍ ويسألني -من دون أن أعرف السبب وراء ذلك أبدًا-: «لوي، ما هي ثمرة شجرة الزّان؟» فأجيبه: «الزانة» (كما كان قد علّمني)، فيربّت على خدّي ويمضي. وإذ تنقضي هذه الدقائق العشر المريحة ينقضي معها بقائي وحيدًا: إذ يدخل الصبية جميعًا إلى الساحة راكضين وهم يزعقون، ولكن من أجل الوصول إلى قاعات الدراسة، وهذا ما كان يقضي على آمالي في الاختلاط بهم. كنتُ أقاسي -إذا صحّ التعبير- وصمة العار التي تثقلُ كاهلي بأنّني فتى المعلّمين

«المدلّل»، هذه الشعيرة المرهقة التي لم يكن لها من وظيفةٍ سوى طمأنة والدتي إزاء مختلف الأخطار المنتشرة بين الشوارع والطرقات: من رفاق السّوء، والعدوى التي تنقلها الجراثيم، وما إلى هنالك.

كما أنّني أتذكر حادثةً أخرى مؤلمةً. فذات يومٍ، كنتُ ألعب في ساحة المدرسة خلال فترة الاستراحة

بالكريّات مع صبيٍّ يصغرني بكثير. كنت ماهرًا في لعبة الكريّات وأربح دائمًا. لذلك فقد قشّطت الولد الصغير جميع كريّاته. بيد أنّه أراد أن يحتفظ بكريّة مهما كان الثمن، لكنّ ذلك يُعدّ غشًّا! فجأة، ومن دون أن أدري من أين جاءتني تلك الفورة العدائيّة، سدّدت إلى وجهه صفعةً مؤلمةً؛ فانطلق الولد يجري، وجريتُ في إثره في الحال، راغبًا في إصلاح ما لا يمكن إصلاحه بأيّة صورةٍ: في إصلاح ذلك الألم الذي سبّبته له. فقد بدت لي صفعتي -بكلّ تأكيدٍ- أمرًا لا يغتفر.

وطالما أنّني أحتفظ بذكرياتٍ بارزةٍ عن تلك الفترة، هاكم واحدةً أخرى منها: كنّا في قاعة الدّرس، وكان لدينا المعلّم الرّائع الذي كان يحبّني من دون الآخرين. كان المعلّم يقف أمام السبّورة وقد أدار لنا ظهره في اللحظة التي «ضرط» فيها الولد الذي يجلس خلفي تمامًا. حينها التفت المعلّم، ونظر إليّ نظرةً متأسّفة ملآى بالعتب قائلًا: «أهذا أنت يا لوي...» لم أنطق بكلمة بقدر ما ظننتُ مقتنعًا بأنّني الشخص الذي «ضرط». غرقتُ في الخجل كما لو أنّني المذنب حقًّا. وإذ أسقط في يدي، فقد رويت لوالدتي ما جرى. كانت والدتي تعرف المعلّم جيّدًا لأنّه كان قد قام بتأهيلها من أجل مهنة التدريس، وكان يحبّها: «هل أنت متأكّدٌ بأنّك لم تقم بتلك الفعلة المشينة (فقد كانت أمّي لا تجرؤ على التلفّظ بتلك الكلمة)؟ إنّه إنسانٌ رائعٌ، ولا يمكن أن يكون مخطئًا». من دون أن تضيف أي شيءٍ آخر.

كانت أمّي تحبّني بشدّةٍ، لكنّني لم أدرك هذا إلا في وقتٍ متأخّرٍ جدًّا، وفي ضوء ما أقوم به من مراجعةٍ وتحليل. لطالما شعرتُ -في حضورها وغيابها- بصعوبة أن

تكون نكرةً: ألا تكون موجودًا بذاتك ولذاتك. لطالما شعرتُ بوجود مغالطةٍ ما، وبأنّني لستُ الشخص الذي تحبّه حقًّا، ولست الشخص الذي تنظر إليه حقًّا. لكنّني -إزاء صفة التعاسة تلك- لا أحمّل نفسي شيئًا؛ فلقد عاشت أمّي بوصفها الشخص الذي يتحمّل ما جرى له: أي أن يكون لديها طفلٌ لم تستطع منع نفسها من تسميته باسمٍ: لوي، باسم ذلك الرجل الميْت الذي أحبّتهُ، والذي بقيت تحبّه في قرارة نفسها. لا شكّ في أنّها لم تكن تراني حينما كانت تنظر إليّ، لكنّها كانت ترى رجلًا آخر يقف خلف ظهري، في تلك السماء اللامتناهية، المتخيّلة، والموسومة بخاتم الموت أبدًا، ذلك الـ«لوي» الآخر الذي كنتُ أحمل اسمه -ولكنني لستُ هو-، ذلك الميْتُ في سماء فردان هو ما كانت تراه، والسماء الصافية لماضٍ حاضرٍ أبدًا. على هذا النحو، كانت نظراتها تخترقني، فأختفي -ككائنٍ موجودٍ لذاته- في تلك النظرات التي كانت تتخطّاني لتنضمّ في مدى الموت البعيد إلى وجه لويس، الذي لم يكن وجهي، ولن يكون كذلك أبدًا. ها أنا أعيدُ هنا الصياغة والتركيب بين حياتي التي اختبرتُها وبين ما أدركتُه عن هذه الحياة. نستطيع أن نقول ما نشاء -من أدبٍ وفلسفةٍ- عن موضوعة الموت: الموت الذي يعمّ أرجاء الواقع الاجتماعيّ حيث «يستثمر» بوصفه رصيدًا نقديًّا تمامًا-لا يحضر في الصورة نفسها بين الواقع والخيال. في حالتي أنا، كان الموت موتَ رجلٍ أحبّته أمّي أكثر من أيّ شيءٍ آخر، وأكثر منّي. ولقد كان في «حبها» لي، شيءٌ آخر يتعدّاني، ويطبعني بميسمه منذ طفولتي الأولى، ويبقى ثابتًا لأمدٍ بعيدٍ فيما يجب أن يكون مصيري وقدري. لم يعد الأمر يتعلّق بتخيّل ما، لكنّه يتعلّق بحقيقة حياتي نفسها. وعلى هذا النحو نفسه سوف يكون بالنسبة إلى كلّ منّا تخيّل معيّنٌ يتحوّل ليصبح حياته.

في وقتٍ لاحقٍ، عندما كنتُ أعيشُ -في سنّ المراهقة- مع جدّي وجدّتي لأمّي في لاروشُميلي (Larochemillay)، كنتُ أحلم أن أحمل اسم جاك (Jacques): وهو اسم ابني بالمعمودية من سوزي باسكال (Suzy Pascal)، تلك المرأة الشهوانيّة. لعلّه بعضٌ من العبث -أقوم به- في دلالة الفونيمات الصوتيّة: لكنّ لفظ

حرف ج (J) في كلمة جاك (Jacques) يماثل لفظ كلمة قذف (Jet) (القذف المتعلّق بالسائل المنويّ)، أما حرف أ العميق في كلمة جاك (Jacques) فهو يماثل نفس الحرف في كلمة شارل (Charles): اسم والدي، أمّا الفونيم كُ (ques) فهو يماثل بوضوحٍ شديد لفظ كلمة الذيل (queue)، وكلمة جاك (Jacques) توحي بكلمة جاكري (Jacquerie)[24] المتعلّقة بالثورة الريفيّة المقموعة التي أخبرني جدّي عنها آنذاك.

في جميع الأحوال، لقد استحقّيتُ -منذ طفولتي الأولى- اسم رجلٍ لم يتوقّف عن إذكاء مشاعر الحب في مخيّلة أمّي: اسمٌ لرجلٍ ميْت.

---

(24) (Jacquerie): يعود هذا المصطلح إلى القرن الرابع عشر حيث ظهر للإشارة إلى ثورات الفلاحين، والانتفاضات الشعبية عمومًا، التي ميّزت فرنسا بين عامي 1350-1420 -هذه الثورات التي جاءت تعبيرًا عن احتجاج الفلاحين على ظروف حياتهم السيّئة في ظل نظام الحكم القديم. (المترجم)

الفصل الخامس

نستطيع إذاً أن نعيد بناء -بل وربّما فهم- ذلك التناقض، أو الازدواجية بالأحرى، التي وجدتُ نفسي ضمنها منذ البدايات الأولى التي قُدّر عليها أن تبقى حيّةً لا تموت.

من وجهة نظرٍ معيّنةٍ، ومثل أيّ طفلٍ يرضع ثدي أمّه، ويعيش في تواصل جسديٍّ، ونفسيٍّ، وجنسيٍّ مع جسدها، حين تلقمه نهدها، ويشعر بدفء بطنها، وحرارة بشرتها، وملمس يديها، وحنوّ وجهها، وطلاوة صوتها -كنتُ متعلّقًا بوالدتي بصورةٍ جنسيّةٍ وكفلذةٍ منها، كنتُ عاشقًا لها مثل طفلٍ جميلٍ عامرٍ بالصحّة والحياة يستطيع أن يعشق أمّه.

لكنني فهمت في وقتٍ مبكّر جدًّا (والأطفال يدركون على نحوٍ عجيبٍ ما لا يدركه الكبار، بيد أنّ هذا الإدراك الحاصل لا يتحقّق -بالطبع- «على مستوى» الوعي) - بأنّ هذه الأمّ التي أعشقها بكلّ جوارحي كانت تعشق من خلالي رجلًا آخر يقف بعيدًا إلى الوراء منّي، كانت تعشق رجلًا غائبًا بذاته من خلال حضوري الذّاتي، ما يعني أنها كانت تعشق رجلًا يحضر بذاته من خلال غيابي كذاتٍ شاخصةٍ أمامها. رجلٌ لم أدرك إلّا في وقتٍ متأخرٍ فقط أنّه كان رجلًا ميّتًا منذ زمنٍ بعيد. فمتى كان تاريخ «انفراط هذا العقد بيننا» إذا صحّ التعبير؟ من الواضح أنّني أنظر في هذه القضيّة «بعد أن انتهت» من خلال آثارها التي انطبعت لمئاتٍ ومئاتٍ من المرات في مشاعر مؤلمةٍ كانت تتكرّر على الدّوام خلال حياتي: العديد من الأمثلة الثابتة التي لا يمكن الخلاص منها. فكيف جعلتُ أمّي تحبّني، تلك الوالدة التي لم

تكن تحبّني في ذاتي، والتي كانت قد حكمت عليّ ألّا أكون

سوى انعكاسٍ باهتٍ، وظلٍّ لرجل ميْتٍ، بل وأن تجعلني ميّتًا مثله؟ بكلّ وضوحٍ لم يكن أمامي -في سبيل الخروج من هذا التناقض، أو من هذه الازدواجيّة بالأحرى- من حلولٍ أخرى سوى أن أحاول إغواء أمّي (مثلما نقوم بغواية رجلٍ عابرٍ، وغريب) كي تقنع في أن تنظر إليّ لذاتي، وفي أن تحبّني لذاتي. وأنا لا أقصد الغواية بمعناها المألوف فقط حيث يرغب الولد الصغير «بالنوم مع والدته» — بحسب العبارة المعروفة لديدرو (Diderot)[25]-، ولكنّني أقصدها بمعنى أشدّ عمقًا كنتُ قد عقدت العزم عليه على سبيل الضرورة؛ كيما أفوز بحبّ والدتي، وكي أصبح أنا ذلك الشخص الواقف ورائي والذي كانت أمّي تحبّه، ذلك الشخص الماثل في سماء الموت الصافية إلى الأبد: وذلك عن طريق غوايتها بتجسيد رغباتها.

مهمّة ممكنةٌ ومستحيلةٌ! فأنا لم أكن ذلك الآخر، لم أكن في قرارة نفسي ذلك الرّجل العامر بالحكمة والفاضل جدًّا الذي كانت أمي تحلم به من خلالي. وكلّما مضيتُ في الأمر أكثر، كلّما أدركتُ في الواقع رغباتي الخاصّة -بأشكالها المختلفة وحتى العنيفة منها- وأوّلها تلك الرغبة الأساسيّة: ألا أعيش في جزئيّة الموت وتخيّلاته، بل أن أعيش لذاتي أنا، أن أكون ببساطة وقبل كلّ شيءٍ موجودًا داخل جسدي، الجسد الذي كانت أمّي تحتقره جدًّا لأنّها كانت تخشاه (مثلها في ذلك مثل لوي الذي أحبته دومًا).

أحتفظ عن نفسي كولدٍ صغيرٍ بصورة كائنٍ غضٍّ ونحيلٍ، ضيّق المنكبين _منكبين لن يكونا لرجلٍ أبدًا- أبيض الوجه، رازحٍ تحت وطأة جبهةٍ عريضةٍ وثقيلةٍ، وضائعٍ في العزلةِ بين الممرّات البيضاء لمتنزّه عظيمٍ وفارغٍ. لم أكن ولدًا بالأحرى، بل لقد كنتُ فتاةً صغيرةً وهشّةً.

---

(25) دينيس ديدرو (Denis Diderot) 1713-1784: فيلسوف فرنسي وكاتب موسوعي، وكاتب مسرحي وكاتب مقالة. برز بإشرافه على إصدار موسوعة الفنون والعلوم والحرف. (المترجم)

هذه الصورة التي لازمتني زمنًا طويلًا جدًّا، والتي سوف أكتشف فيما بعد آثارها بوضوحٍ؛ بوصفها ذكرى دفينة، كنتُ قد عثرتُ على الأثر المادي لها -بأعجوبةٍ- بعد وفاة أبي في صورة فوتوغرافية صغيرة مجموعة بين أوراقه.

إنّه أنا بالفعل، هذا أنا. كنتُ أقف في واحدةٍ من الممرّات الواسعة لمتنزّه جالاند (Galland) الذي يقع إلى القرب من منزلنا في الجزائر العاصمة. حقًّا لقد كنتُ ذلك الولد النحيل، الأبيض والهشّ، من دون مناكب تُذكر، وبرأسٍ ذي جبهةٍ عريضةٍ جدًّا تغطيها قبّعةٌ شاحبةٌ هي الأخرى. كنتُ أمسك بين ذراعيّ بصعوبةٍ كلبًا صغيرًا جدًّا، لا يكفّ عن الحركة محاولًا التملّص من بين ذراعي (إنّه كلب السيّد باسكال، زوج سوزي). كنتُ وحيدًا في تلك الصورة، ما عدا وجود الكلب الصغير: لا أحد في الممرّات الفارغة. هذه العزلة -كما يبدو- قد لا تعني شيئًا سوى أنّ السيد باسكال كان ينتظر أن يغادر المتنزِّهون. فيكون الوضع كما يلي: إنّ العزلة التي من المحتمل أنّ المصوّر كان يتوخّاها [من أجل التقاط الصورة]، تجمع في ذاكرتي الواقع إلى الخيال: خيالاتي عن عزلتي وضعفي. لأنّني كنتُ في الجزائر *وحيدًا على نحوٍ مطلقٍ*، كما سأكون وحيدًا لزمنٍ طويلٍ في مرسيليا، وليون، ووحيدًا بصورة مفزعةٍ -لاحقًا- بعد وفاة هيلين. لم أحظ بأيّ رفيقٍ طفولةٍ حقيقيٍّ حتى من بين أولئك الذين كنتُ أخالطهم في ساحة الاستراحة تحت عين الرقابة والإشراف -من عربٍ وفرنسيين وإسبان ولبنانيين- وذلك بقدر ما كانت أميّ تحذّرنا بشدّةٍ من رفقة السوء، أي من الجراثيم والمغريات التي لا يعلم مكانها إلّا الله! أقول بوضوحٍ أنّني لم أحظَ *بأيّ رفيقٍ*، فما بالك *بصديقٍ*. بعد انتهاء الدراسة في مدرسة البلدة، وقبولي في ثانوية ليوطي (Lyautey) في الجزائر في عمر السادسة، فإنّني لم أحظ بأيّ رفيقٍ ولا حتى ضمن ساحة الثانويّة. والأسوأ من ذلك، ما أتذكّره في الواقع عن أولئك الصبية الأثرياء الوقحين للغاية، والمتكبّرين المتعجرفين المتهكّمين، الذين لم يرغبوا في رؤيتي أو التكلّم معي، وما أتذكّره عن السيارات الرياضيّة الرّائعة التي كانت تنتظرهم عند بوابة الثانوية مع سائقٍ خلف المقود (ورفيقةٍ مشرقةٍ من بين كثيراتٍ

غيرها). لقد كانت العائلة هي صحبتي الوحيدة: أمي ذات اللسان الطلْق، وأبي الصّامت. ما عدا ذلك لم يكن من شيءٍ يُذكر: وجبات طعام، ونومٌ، ووظائف مدرسيّة أقوم بها في المدرسة وفي المنزل: وأنا مسلّمٌ في كلّ ذلك «بقناعةٍ ورضىً».

لقد كنتُ في المدرسة الابتدائية طفلًا مثاليًا يحبّه المعلمون. لكنّني أصبحتُ -في السادسة من عمري، في ثانوية الجزائر- طالبًا ضائعًا وضعيفًا بالمطلق رغم ما أبذله من جهود. وهكذا فإنّني لن أصبح الطالب الأوّل في صفّي؛ إلّا في مرسيليا بين عامي (1930-1936)، ومن ثمّ في ليون بين عامي (1936-1939 في أثناء التحضير للالتحاق بمدرسة الأساتذة العليا الواقعة في شارع أولم Ulm). لقد أصبحتُ -بفضل أمّي- واحدًا من فريق كشّافة فرنسا، ورئيسًا لفرقة الحراسة فيها بصورة طبيعيّةٍ، ولقد كُرِّمتُ لاستقامتي من قبل أحد القساوسة الفطنين جدًّا: الذي جعلني أشعر بالذّنب عميقًا في قرارة نفسي، ما دفعني إلى النهوض بأوّل مسؤوليّةٍ تلقى على عاتقي. لقد كنتُ إذًا عاقلًا، عاقلًا جدًّا، ومستقيمًا، مستقيمًا جدًّا على النحو الذي كانت والدتي ترغب فيه. أستطيع أن أقول -وأنا واثقٌ من صحّة ما أقول-: نعم، لقد حقّقتُ منذ ذلك الوقت -وكم استمرّ هذا! لقد استمرّ إلى بلوغي سنّ التاسعة والعشرين!!- رغبة أمّي في: النّقاء المطلق.

نعم، لقد حقّقتُ ما رغبت فيه أمّي وما انتظرته من ذلك الرجل الآخر لوي منذ الأزل (فاللاشعور قضيّةٌ أزليّةٌ)، وقد فعلتُ ذلك كي أغويها: الحكمة، والنقاء، والفضيلة، والعقل المحض، والتسامي الروحيّ، والنجاح المدرسيّ، ثمّ أتممتها باتّخاذ مهنةٍ «أدبيّةٍ» (ولقد فضّل والدي أن أتّخذ مهنةً تطبيقيّةً -كما علمتُ متأخّرًا- لكنّه لم يبدِ ذلك أبدًا)، واكتملت غوايتي ببلوغ واحدةٍ من مدارس الأساتذة العليا، ليست تلك التي تقع في شارع سانت كلود (Sant_Claud) -وهي مدرسة عمّي لوي- بل تلك الواقعة في شارع أولم وهي أفضل بكثير. ثمّ أصبحتُ المفكّر الذي تعرفونه، والذي يرفض بحدّةٍ أن تلوّث سمعته في وسائل الإعلام (فأيّ نقاءٍ هذا!)، ثم أصبح اسمي يدوّن فوق الصفحات الأولى لعددٍ من الكتب التي كانت

تقرأ أمّي فيها اسمي بكلّ افتخارٍ: كفيلسوفٍ معروفٍ.

فهل تمكّنتُ بذلك من إغواء أمي حقًّا؟ نعم وكلّا.

نعم؛ لأنّ تحقيق رغبتها كان من خلال الاعتراف بي، لقد كانت سعيدةً بي وفخورةً جدًّا.

كلّا، لأنني -في هذه الغواية- لم أشعر بكينونتي الخاصّة، لم أشعر بوجودي الحقيقيّ، بل لقد شعرتُ بوجودي فقط من خلال التكلّف والتظاهر الكاذب، وداخل هذا التظاهر، وتحديدًا تظاهر الغواية المزيّف المعدود بوصفه تضليلًا وخداعًا (فالطريق قصيرةٌ بين التظاهر الكاذب والتضليل). في ضوء ذلك إنني لم أكسب قلب والدتي، بل لقد قمتُ بغوايتها من خلال التظاهر الكاذب والانخداع.

تظاهراتٌ كاذبةٌ: لأنّه كانت لديّ رغباتي الخاصّة، أو رغبةٌ واحدةٌ خاصّة بي -إذا أردتُ أن أكون في غاية التبسيط-: وهو ما جعل الغواية مستحيلة. لقد رغبتُ في أن أعيش من أجلي، وأن أنضمّ إلى أولئك الصبية الذين يلعبون كرة القدم في تلك الأرض البائرة، وفي أن أختلط بأولئك الصغار -من الفرنسيين والعرب- في المدرسة الابتدائيّة، وأن ألعب في المتنزّهات والغابات مع الرفاق العابرين -من صبيانٍ وبنات- والذين كانت والدتي تمنعنا من الاختلاط بهم «لأنّنا لا نعرف أهاليهم»، حتى وإن كانوا على مقربةٍ منّا، أو يجلسون معنا على المقعد نفسه: كان من المستحيل أن نتحدّث معهم، فمع من كنّا نستطيع الحديث!! لقد كنتُ دائم التذمّر في قرارة نفسي: فكنتُ أتمشّى على الدّوام. لم أستطع الوجود إلّا من خلال رغبة والدتي، وليس رغبتي، فقد كانت هذه بعيدة المنال.

أتذكّرُ ذكرى أخرى بارزةً. كنّا -أنا وأمي وأختي- في غابة بولونيا، بالقرب من شجرة صبّار ذات أشواك كبيرةٍ (شكلٌ آخر من الخازوق) حينما جاءت سيّدةٌ برفقة ولدين صغيرين: صبيّ وفتاة. ومن دون أن أدري كيف قبلت أمي بذلك، شرعنا في اللعب. لم يكن قد مضى وقت طويل حينما صفعتُ الفتاة الصغيرة فجأةً من دون

أن أدري ماذا جرى لي! قائلًا لها: «أنت لست سوى فطيرة أفخاذٍ!» (كنتُ قد قرأتُ هذه الكلمة في أحد الكتب فبدت لي ثقيلة المعنى من دون أن أعرف ما تعنيه فعلًا!). رأينا والدتي تحضر إلينا من مكانها لتجرّنا على الفور بعيدًا عن الولدين وأمّهما ومن دون أن تتفوّه بكلمةٍ واحدةٍ. مرّة أخرى أرتكب فعلًا عنيفًا مثلما جرى في ساحة المدرسة. لكنّ الضحيّة هذه المرّة كانت فتاةً صغيرةً. أتذكّر بأنني لم أشعر بأي خجلٍ، ولا بأيّة رغبةٍ في الاعتذار. فالأمر لا يخلو من فائدة دائمًا!

كنتُ ممزّقًا، لا أمل لي في مواجهة رغبة أمّي وألمي. كنتُ أفعل كلّ ما تشاء، فأساعد شقيقتي في اجتياز الشوارع الخطيرة جدًّا، وأنا ممسكٌ يديها بقوّةٍ، وكنت أشتري في طريق عودتنا من المدرسة فطيرتين بالشوكولا بالنقود التي تكون أمّي قد أعطتني إياها تمامًا فلا يبقى لي منها فلسٌ واحدٌ (وقد استمرّ الحال هكذا حتى سنّ الثامنة عشر!)؛ لأنّ من الممكن التعرّض للسرقة دائمًا، ومن الممكن -وما أدراك!- أن يشتري الطفل شيئًا ضارًّا أو لا حاجة له به: نوعٌ من الاقتصاد المُفرط الذي يجمع بين الخوف من الإصابة بالتسمّم الغذائي والخوف من خطر التعرّض للسرقة. كنتُ أنجز فروضي المدرسيّة في المنزل برزانةٍ، ثمّ كنتُ أنتظر تناول الطعام. لم نكن في الجزائر نخرج من المنزل لاحقًا إلّا من أجل غايةٍ واحدةٍ كانت تنتهي بي -وأنا أمسك بيد شقيقتي المرافقة لي على الدّوام- إلى شقّةٍ يقطنها زوج من الأفراد: زوجٌ ذابلٌ، وهزيلٌ، ومتسامٍ روحانيًّا، ونورانيٌّ. لكنّ هذين لم يكونا زوجًا وزوجته، بل كانا أخٌ وشقيقته (مثلنا)، عازبين، متعاهدين على البقاء معًا أبد الحياة، وقد أولتهما أمّي ثقتها المطلقة (بناءً على نقائهما الواضح): فأختي تتعلّم العزف على البيانو، وأنا أتعلّم العزف على الكمان لنستطيع فيما بعد - نحن أيضًا- أن نعزف الموسيقى كأخٍ وشقيقته. لم أستطع فعل شيءٍ حيال هذه القهريّات. وكيف أستطيع أن أفعل، وكيف أفعل ما أريد أن أفعله؟ لقد ولّد هذا كراهية شديدةً في نفسي تجاه الموسيقى، وقد مكنّ ذلك الفرض الأسبوعيّ الأموميّ (إذ لم يكن والدي يذهب إليها أبدًا) على حضور حفلات الموسيقى الكلاسيكيّة في مرسيليا -فيما بعد- من هذه

الكراهية في قلبي! وكيما أطمئنكم أقول: إنّني الآن أجد متعةً عارمةً إذ أعزف على البيانو (لكنّني إذ أفتقد إلى المهارة الكافية أقوم بالارتجال، وسوف نرى لاحقًا طريقتي في ذلك). حقًّا، ما الذي كنت أستطيع فعله حيال هذه القهريّات الموسيقيّة وسواها؟ لم يكن لديّ من أملٍ ما في ذلك، لا خارج المنزل، ولا داخله على وجه الخصوص: من ناحية أبي. لقد كان الأصدقاء الوحيدون الذين تعرّفتُ إليهم هم تلك الحفنة القليلة من الأصدقاء التي عرّفنا والدي عليهم. بل هم في الحقيقة صديق واحد. إنّه السيّد باسكال، زميل والدي في العمل ومرؤوسه، رجلٌ قليل الشعر، دمثٌ مثل البطيخ، ولكنّه عديم الإرادة أمام زوجته، السيّدة سوزي ذات المزاج الحادّ.

أصيبت أختي بالجدريّ في أحد الأعوام (إذ لطالما كانت هذه الطفلة مريضة)، فطلبت أمّي من عائلة باسكال استضافتي لديهم كي لا ألتقط العدوى (إنّه الخوف مرّة أخرى). هكذا سوف أتعرّف إلى عشّ الزوجين الدافئ الخالي من الأطفال، وعاداتها الغريبة، إلى سوزي تلك المرأة المتألّقة، الشهوانيّة، ذات النهدين السافرين على الدّوام، وإلى دفئها الطاغي، كذلك سوف أتعرّف إلى رتابة السيّد باسكال الضئيل الذي كان يتبع زوجته أينما ذهبت مثلما كان يتبعه الكلب الصغير – وهو قابضٌ على زمامه– في حديقة المتنزّه الفسيحة. كنت حينما آوي إلى فراشي أحلم بالكابوس نفسه على الدّوام: كنتُ أرى مخلوقًا طويلًا يظهر فوق الخزانة على مهلٍ، ثعبانًا طويلًا مقطوع الرّأس (لعلّه مخصيّ؟). مخلوقٌ يشبه دودة أرض عملاقة تنحدر نحوي. كنت أستيقظ صارخًا. وكانت سوزي تهرع إليّ، فتشدّني إلى صدرها الوافر زمنًا طويلًا إلى أن أشعر بالهدوء.

استيقظتُ ذات صباح متأخّرًا، كنتُ أعلم أنّ السيّد باسكال قد غادر إلى عمله. نهضتُ، ثم اقتربتُ بحذرٍ وقد تناهى إلى مسامعي صوت سوزي المنهمكة –خلف باب المطبخ– بعملٍ ما (لعلّها كانت تعدّ القهوة، أو تغسل الأطباق؟). لستُ أدري كيف عرفتُ ذلك، لكنّني علمتُ أنّها كانت عاريةً في المطبخ. تملّكتني رغبةٌ جامحةٌ

لا تقاوم، لا أعرف كيف؟ ثم فتحتُ الباب -من دون أن أتهيّب شيئًا- ومكثتُ أتأمّل المشهد طويلًا، لم أكن قد رأيت من قبل أبدًا جسد امرأةٍ عاريةٍ، ونهديها، وبطنها، وعانتها وعجيزتها الساحرة! أهي غواية الثمرة المحرّمة (من المفترض حينها أنّني كنت في العاشرة)؟ أم تألّقٌ شبقيّ لأعضائها المكتنزة؟ مكثتُ مطوّلًا أستلذُّ في متعة ما أراه. إلى أن رأتني. لكنّها عوضًا عن نهري، سحبتني إليها وعانقتني عاصرةً إياي طويلًا في نهديها وفخذيها الساخنين. فيما بعد لن نتكلّم أبدًا عمّا جرى، لكنّني لن أنسى ما حييتُ ذلك «الالتحام» الحميم الذي لا يضاهى.

في السنة التالية، أصيبت أختي بالحمّى القرمزية (أختي التي تمرضُ دائمًا)، لكن والدتي -ومرّةً أخرى، كيلا ألتقط العدوى- قامت بإرسالي إلى جدّي وجدّتي لأمّي «المعتكفين» وقتذاك في مسقط رأسها المورفاني.

الفصل السادس

جدّي وجدّتي العزيزان! تلك الجدّة النحيلة الطويلة، ذات العينين الزرقاوين، الصافيتين والصّادقتين، الجدّة التي كانت دائبة الحركة تبعًا لإيقاعها الخاص، والكريمة مع الجميع، والتي كانت تحبّني على وجه الخصوص ولكن من دون أن تظهر ذلك. الجدّة التي كانت -في مطلق الأحوال- ملجأ السكينة والسلام. لم يكن جدّي -لولاها- بقادرٍ على متابعة أعماله المرهقة في غابات الجزائر. لقد توجّب عليها تنشئة الفتاتين على مبادئها في العناية بالصحّة والفضيلة، المبادئ الجديرة بأن تجعل من الفتاتين الصغيرتين الجميلتين طاهرتين ومستقيمتين. أمّا جدّي -بقبّعته وشاربه- فقد كان عصبيّ المزاج، قلقًا، دائم التذمّر والشكوى، لكنّه كان رجلًا طيّبًا: هذان هما عائلتي الحقيقيّة، عائلتي الوحيدة، وصديقاي الوحيدان في هذه الدنيا.

لا بدّ من الاعتراف بأنّ تلك المساحات الواسعة التي عشتُ فيها إلى جوار جدّي وجدّتي، أو صحبتهما فيها، كان لديها ما تثير حماسة طفلٍ بقي حتى ذلك الوقت معتكفًا في شققٍ مدينيّةٍ ضيّقةٍ، وعلى الأرجح فإنّ وجود هذين الجدين، والحبّ الذي حملاه لي -وقد بادلتهما بالمثل أيضًا- قد جعل من تلك المنازل، والغابات والحقول التي عاشا فيها جنّة في عيني طفولتي.

كان ذلك، في بادئ الأمر، في بيت الغابة الكبير في غابة بولونيا المطلّ على الجزائر العاصمة كلّها، قبل أن يُحال جدّي على التقاعد، ثمّ -حينما عاد أخيرًا إلى مسقط رأسه المورفاني- في ذلك البيت الصغير في لاروشميلي (في مقاطعة نييفر) إضافة إلى

حديقته وحقوله في بوا دو فيل.

غابة بولونيا! أحمل ذكرى ساحرةً عن منزل غابتها المختبئ داخل بستانٍ كبيرٍ. طبقاته واطئةٌ ومعتدلة البرودة، تعثر فيها على غرفة غسيلٍ مظلمةٍ وغامضةٍ يجري فيها الماء على نحوٍ دائمٍ، واسطبلٍ تنبعث منه رائحة القشّ الأصفر المتّخذ مهادًا للدّواب، وروث الأحصنة العجيب، وتلك الرّائحة المُلفتة لحصانين أصيلين رائعين ينبض كشحاهما الناعمان بالحياة. كنتُ أعتني مع جدّي بحيوانات الركوب الجميلة هذه من أجل رجال الإدارة. فلطالما نظرتُ إلى الأحصنة بوصفها أجمل حيوانات الركوب، وأنّها أشدُّ جمالًا -إلى أبعد الحدود- من أجمل الكائنات البشريّة. أذكر في إحدى الليالي، أنّه حين قامت هذه الحيوانات بإحداث ضجّة عظيمةٍ لم أشعر بالفزع؛ لا شكّ أنّهم سارقو الدّجاج، وقد دبّ الرّعب في قلوب هؤلاء بالضجّة التي أحدثتها الأحصنة الأكثر تيقّظًا من الكلاب.

على مسافة عشرين مترًا من المنزل ينتصب حوض ماءٍ عالٍ ومترامي الأطراف، وإذ كنتُ أتسلّق حائطه كنتُ أرى فيه أسماكًا عجيبةً: فضيّةً، وحمراء، وخضراء وبنفسجيّة، وهي تسبح على مهلٍ في أعماق المياه تحت الأعشاب الطويلة المتمايلة، الليّنة، وذات اللون الدّاكن. فيما بعد، سوف أصادف تلك الأسماك -خلال قراءتي لوركا (Lorca)[26]- حينما تسبح مبتعدةً بين نباتات القصب المنتصب على ضفاف النهر الذي كانت تهرع إليه امرأة متهتّكةٌ بفخذيها البضّين كسمك التورتة.

قرب ذلك المنزل الغابوي كانت توجد مشاتل زهورٍ عجيبة (سقى الله أيّام شقائق النعمان تلك، وأزهار الفريسيا بعطرها النفّاذ المليء بالإيحاءات الجنسيّة، وأزهار بخور مريم الورديّة الخجولة، كاللون الورديّ لآلة سيمون (Simone)

---

(26) فيديريكو غارثيا لوركا (Federico Garcia Lorca) 1898-1936: شاعر إسباني وكاتب مسرحيّ ورسّام وعازف بيانو، يعدّ من أهمّ أدباء القرن العشرين، وقد أعدم من قبل القوميين في بدايات الحرب الأهلية الإسبانية. (المترجم)

الأنثويّة -التي سوف أراها لاحقًا في بلدة باندول (Bandol)[27]- بين أوراقها الخضراء المائلة إلى الدّكنة)، حيث كنّا -أنا وأختي- نأتي إليها في أعياد الفصح لنبحث عن البيض المغطّى بالسكّر -والذي نكون قد أخفيناه سابقًا من أجلنا- فنرى النمل قد سبقنا إلى قضمه. وكانت توجد أزهار الدّلبوث الضخمة المتعدّدة الألوان التي كان والدي يجمع منها باقةً كبيرةً كيما يقدّمها في غيابنا إلى «صبيّةٍ جميلةٍ جدًّا»، تحمل اسمًا بلجيكيًّا، وهي المرأة التي لن نراها في حياتنا أبدًا. وهنالك أيضًا تلك الأرض الواسعة المليئة بأشجار الإيكّي دنيا القادمة من اليابان! يا لأشجار الإيكّي دنيا تلك! كانت تحمل ثمارًا بيضوية الشكل، شمعيّةً وصفراء، وتحتوي في داخلها على نويّاتٍ صلبةٍ عسليّةِ اللون، برّاقتين وناعمتي الملمس كخصية الرجل (لكنّني -بالتأكيد- لم أكن في ذلك العمر أعي شيئًا عن هذا الأمر!)، وقد كنتُ أعبث بهما بين يديّ لمدّةٍ طويلةٍ مستشعرًا لذّةً غريبةً، وأنا واقفٌ منتظرٌ، أرنّق النظر إلى أسفل ساقي خالتي جولييت -الصبيّة العابثة في الأسرة- وقد تسلّقت الأشجار من أجلي كأنّها ماعزٌ كي تقطف الثمار من على الأغصان وتناولني إيّاها، فيما ينساب رحيق الثّمار الرقيق السكّريّ ذائبًا في فمي، وقد تحرّرت نويّاتها المزدوجة الزلقة، أيّة حلاوةٍ وأيّة متعة! لكنّ ثمار الإيكّي دنيا تلك سوف تكون أشهى بكثيرٍ حين ألتقطها مباشرة عن الأرض، إذ تكون -وقد أنضجتها أشعّة الشمس- آخذةً في التعفّن، وممتزجةً برائحة الأرض الحامضيّة القويّة! وإلى البعيد أكثر، كان هنالك أيضًا حوض ماءٍ -لكنّه كان يرتفع بطول قامتي هذه المرّة- ممتلئٌ بالماء الصافي والجاري (لعلّه نبعٌ؟)، وإلى الخلف منه، وراء أشجار السّرو الداكنة كانت دزّينةٌ من قفار النحل تنتظم صفًّا واحدًا حيث كان السيّد كورويت (Kerruet) -المعلّم البريتونيّ[28] سابقًا- يقصدها غالبًا وهو يضع قبّعة القشّ فوق رأسه، ولكن من

---

(27) باندول (Bandol): هي بلدة فرنسيّة تقع في مقاطعة فار، في منطقة بروفانس ألب كوت دازور على ساحل البحر الأبيض المتوسّط. (المترجم)

(28) بريتوني (breton): نسبة إلى منطقة بريتونيا (La Bretagne) الواقعة في الجزء الشمالي الغربي من فرنسا، يحدّها بحر المانش من الشمال وبحر السلتيك والمحيط الأطلسي من الغرب وخليج بسكاي من الجنوب، وتحاذي إقليمي اللوار والنورماندي. (المترجم)

دون أن يلبس غطاءً أو قفّازًا لأنّه كان يعدّ النحل صديقه. بيد أنّ هذا لم يكن يعني أنّ النحل صديقٌ للجميع؛ فقد حدث ذات يومٍ أن اقترب جدّي من قفارها إلى حدٍّ بعيدٍ، وكان يشعر بالتوتّر والقلق؛ فأثار بذلك غضب النحل الذي انقضّ على وجهه مجتمعًا، ولم يكن لجدّي الخلاص إلّا بأن جرى كالمجنون وقفز غاطسًا داخل حوض الماء الكبير. لكنّ المفارقة أنّني لم أشعر بأيّ خوف في تلك المرّة.

أتذكّر -على وجه الخصوص- في آخر تلك الحديقة، في الجانب الأيسر منها، شجرة الخرنوب الكبيرة الدائرية الشكل، ذات القرون الطويلة الملساء التي كانت تذهلني (وكم تمنّيتُ تذوّقها لكنّ والدتي كانت تقول لي دائمًا: ممنوع!). هنالك في تلك الشجرة كنتُ أتّخذ مرصدي غير المتوقّع، حيث كنت أكتشف بمفردي، وأنا واقفٌ على قدميّ، منهكٌ تحت أشعّة الشمس -الشمس الأبديّة والصغيرة في سمائها- تلك المدينة الضخمة، بشوارعها، وساحاتها، وعماراتها، ومرفئها الذي ترقد فيه بواخر كبيرةٌ ذات مداخن بارزة، والذي كان يعجّ بمئات من القوارب المنهمكة في حركةٍ بطيئةٍ دؤوب. وكنتُ أستطيع أن أرى إلى البعيد أكثر، فوق صفيحة البحر الأملس والشاحب أبدًا، عمود الدخان الصغير يتصاعد في الأفق أوّلًا، لتظهر من ثمّ، وشيئًا فشيئًا، صواري السفينة وهيكلها، كما لو أنّها كتلٌ ساكنةٌ بسببٍ من حركتها البطيئة البائسة: إنّها بواخر رحلة مرسيليا-الجزائر التي كانت تُنهي رحلتها -إذا ما استطعتُ الانتظار- بالرسوّ على طول أرصفة الميناء الشاغرة والقليلة، بعد بذل ما لا يُحصى من تدابير الحيطة والمناورة. كنتُ أعلم أنّ واحدةً من هذه البواخر (التي تحمل أسماءً كثيرة من قبيل الجنرال شانزي (Général_Chanzy) وغيرها) تحمل اسم شارل-رو (Charles_Roux)، شارل كاسم والدي (لذلك كنتُ أعتقد جازمًا بأنّ جميع الأطفال حين يصبحون راشدين سوف يغيّرون من أسمائهم كي يُدعوا شارل، فقط شارل ولا شيء سواه!)، وكنتُ أتخيّل أنّها تتقدّم على البقيّة بفضل ألعوبة العجلات الموجودة تحت هيكلها، مندهشًا من عدم تنبّه أي شخصٍ آخر إليها.

كنتُ أتجوّل -لاحقًا- برفقة جدّي داخل الغابات. يا لها من حريّةٍ! إذ لم تكن هنالك محاذير وممنوعات برفقته. وأيّة سعادةٍ! فهذا الجدّ المتأفّف دائمًا -الذي كان الجميع يقولون عنه إنّه رجلٌ لا يمكن معاشرته بسببٍ من طبعه هذا (وقد فعلت ذلك هيلين لاحقًا)- كان يحدّثني بسلاسةٍ كما يحدّث قرينه. وقد كان يريني الأشجار والنباتات جميعها، ويشرح لي عنها، لاسيّما أشجار الأوكالبتوس التي لا تنتهي والتي كانت تسحرني بوجهٍ خاصٍّ: كنتُ أهوى أن ألمس بيدي قشرة لحائها الطويل ذي الشكل الأنبوبي، حيث كانت قممها العالية تتقصّف فجأةً محدثةً صوت عاليًا فتتدلّى حينها، وتبقى معلّقةً أبدًا كما لو أنّها أذرعٌ مشلولةٌ أو أسمالٌ باليةٌ (كتلك الأسمال التي سوف أهوى ارتدائها فيما بعد، أو أسمال الستائر الحمراء الطويلة في غرفة نومي في المدرسة العليا)، كما كنتُ أهوى أوراقها الناعمة جدًّا، والطويلة جدًّا، والمقوّسة المدبّبة، والتي كان لونها يتغيّر مع تغيّر الفصول من الأخضر الداكن إلى الأحمر الدمويّ، وثمارها المزهرة بطلْعها الناعم وعطرها الأخّاذ بوصفه «عقارًا صيدليًّا». وقد كان هنالك أيضًا ذلك الاكتشاف الدائم لأزهارٍ جديدةٍ من بخور مريم البريّة المختبئة على الدوام بين أورقها الداكنة، والتي كان علينا أن نعرّيها من ثيابها هذه كي نقف على ورديّة جسدها الخاص. ونباتات الهليون البرّية، المنتشرة بكثافةٍ كأنّها أعضاءٌ ذكريّةٌ منتصبةٌ، والتي كنتُ أستطيع أن أقرقشها نيّئةً حالما تخرج من الأرض. ثمّ كانت هنالك أشجار الصبّار الرّهيبة تلك، بأشواكها وإبرها القصيرة، والتي كانت تخرج منها في بعض الأحيان وبصورة بطيئةٍ (لعلّها مرّةً كلّ عشر سنواتٍ؟) نبلةً هائلةً مرتفعةً في الهواء تكلّلها زهرةٌ لا يمكن الوصول إليها!

لقد عشتُ سعادة كبيرةً، حرّةً وعامرةً، في صحبة جدّي وجدّتي، حتى عندما كان والداي يصحباني إليهما، إلى فردوس منزل الغابة، وإلى حديقته وغابته العظيمة.

لم يكن الأمر يخلو أحيانًا من بعض الدراما قبل وصولنا. إذ كان ينتصب في أعلى الغابة قبالة الطريق الترابية التي كنّا نتّخذها سيرًا على الأقدام (لمسافة أربعة كيلومتراتٍ) منزلٌ عالٍ، أبيضُ اللون، يقطنه ضابطٌ عاملٌ يُدعى السيّد لوميتر

(Lemaitre) –ويا له من اسم...– مع زوجته وابنه ذي العشرين عامًا وابنتهما الصغيرة. كنّا نذهب دائمًا في أيّام الآحاد: فهو يوم الإجازة بالنسبة إلى أبي ويوم الاستراحة أيضًا بالنسبة إلى السيّد لوميتر. كنّا نشهد على الدوام في تلك العائلة – ونحن في طريق صعودنا نحو منزل الغابة– شجاراتٍ عنيفةً تنشب بين الوالد والابن؛ فحينما كان الولد يرفض البقاء في غرفته كي يحفظ دروسه، كان الوالد يحبسه في الغرفة ويقفل بابها عليه. وقد كان الأمر كذلك في ذلك الأحد: فبينما كان الضابط يبيّن لنا، وهو في سورة غضبٍ شديدٍ، أسباب غياب ولده عنّا إذا بنا نسمع فجأة أصواتاً عاليةً لتحطّمٍ في الأخشاب: لقد كان الولد يهشّم باب غرفته، ثمّ خرج وهو يزعق عاليًا قبل أن يختفي بين أشجار الغابة. في تلك اللحظة، عاد الأب مسرعًا إلى المنزل، ثمّ خرج وهو يحمل مسدّسًا بيده ومضى في أعقاب ولده. ها نحن مرّة أخرى أمام أبٍ غاضبٍ وصياحٍ ومسدّسٍ! لكنّ لدينا في هذه المرّة ولدٌ غاضبٌ يواجه غضب أبيه. والأمّ تلتزم الصمت. في جانبٍ آخر، كانت الفتاة الصغيرة – مادلين (Madeleine)– قد جلست على الدرجة الأولى من الدرج الآخر للمنزل ووجها غارقٌ في الدموع. آلمني منظرها كثيرًا؛ فجلستُ إلى جانبها، وأخذتها بين ذراعيّ وشرعتُ أواسيها. أحسستُ في نفسي بقدرٍ هائلٍ من الشفقة والتضحية كما لو أنّني عثرتُ مرّةً أخرى (بعد أمّي) على سببٍ جديدٍ وحاسمٍ يبرّر وجودي، وعلى المهمّة التي أنذر لخدمتها حياتي بأسرها: مهمّة إنقاذ هذه المعذّبة الصغيرة. من جهةٍ أخرى، وإذ لم يكترث لها أحدٌ سواي، فقد زاد ذلك في حماستي اتّقادًا. عاد الولد، والوالد وراءه يحمل مسدّسه، ثمّ أقفل عليه باب غرفته مجدّدًا، لنغادر نحن مخلّفين وراءنا هذا المشهد العنيف ذي الشجون العائليّة قاصدين برّ السلام في منزل الغابة القريب جدًّا. لقد شعرتُ في هذه المرة أيضًا بخوفٍ كبيرٍ جدًّا، لكنني –إذا جاز القول– شعرتُ بنوعٍ من السعادة الممتعة حينما أخذتُ بين ذراعيّ مادلين الصغيرة

جدًّا (مادلين: اسم جدّتي. آوٍ! من هذه الأسماء...كم كان لاكان (Lacan)[29] محقًّا في إصراره على دور «الدّوال» من خلال حديثه -بعد فرويد (Freud)[30]- عن هلوسات الأسماء).

كان جدّي -بشاربه ولكن بصوته الخفيض أيضًا، الذي لا يتوقّف عن التأفّف والتذمّر في أيّة مناسبةٍ ومع الجميع- رجلًا مختلفًا تمامًا في تعامله معي، وقد كان هذا يذهلني. فأنا -باختصارٍ- لم أكن أخشى أن يتخلّى عنّي، وإذا ما حدث له أن التزم الصمت أمامي فإنّني لم أكن أشعر بأي قلقٍ أبدًا (أيّ اختلاف يميّزه عن أمّي وأبي!). فجدّي لم يكن يصمتُ إلّا توطئةً لحديثه معي، وقد كان -في كلّ مرّةٍ- يُظهر لي عجائب الغابة التي لم أكن قد عرفتها بعد، ويشرحها لي، من دون أن يطالبني بشيءٍ أبدًا، بل على العكس من ذلك، كان لا ينقطع عن إغداق الهدايا والمفاجآت عليّ. هنالك كوّنتُ أفكاري الأولى عمّا يجري لنا عندما نحبّ. لقد فهمتُ الأمر على هذا النحو: فنحنُ -إذ نتلقّى هديّة لا مقابل لها في كلّ مرّةٍ- نتأكّد من أنّنا موجودون حقًّا. ولقد أراني جدّي أيضًا تلك الأسوار المتاخمة لمنزل الغابة، والجدران العالية المبنيّة من الآجر لتأمين مقرّ إقامة الملكة رانافولا (La Raine-Ranavola)[31] التي لم تُشاهد أبدًا. فيما بعد سوف أعرف بأنّ القوّات الفرنسية خلال اجتياحها مدغشقر (Madagascar) أيام الحملة الاستعماريّة كانت قد ألقت القبض على ملكة البلاد لتقوم بنفيها إلى هذه الإقامة الجبريّة، تحت مراقبة شديدةٍ في أعلى المناطق في مدينة الجزائر. وفيما بعد أيضًا سوف أعثر في بليدة بالطريقة نفسها على صورة رجلٍ أسود ضخمٍ يضع نظّارات، ويحتمي على الدّوام بمظلّة ضخمةٍ (حيث كانت الصور هذه

---

(29) جاك لاكان (Jacques Marie Émile Lacan) 1901-1980: محلل نفسي فرنسي ولد في باريس وتوفي فيها، اشتهر بقراءاته التفسيرية لسيغموند فرويد ومساهمته في التعريف بالتحليل النفسي الفرويدي في فرنسا. (المترجم)

(30) سيغموند فرويد (Sigismund Schlomo Freud) 1856-1939: طبيب نمساوي من أصل يهودي، اختص بدراسة الطب العصبي ويعد مؤسس علم التحليل النفسي وعلم النفس الحديث. (المترجم)

(31) رانافولا الثالثة (Ranavola III): هي الملكة الأخيرة لمملكة مدغشقر، حكمت بين عامي (1883-1897) في عهد تميّز بالعديد من الجهود الخائبة إزاء مقاومة الاستعمار الفرنسي. (المترجم)

تباع كبطاقاتٍ بريديّةٍ)، كان يقترب من جميع الأشخاص العابرين مادًّا لهم يده ومخاطبًا إياهم: «أصدقاء، الجميع أصدقائي!». كان ذلك بيهانزين (Béhanzin)[32]، امبراطور داهومي (Dahomey)[33] السابق، المنفيّ هو الآخر إلى الجزائر. بدا لي الوضع غريبًا: ولعلّه كان الدرس الأوّل لي في السياسة.

(32) بهانزين (Béhanzin) 1844-1906: ملك داهومي الحادي عشر، قاد حربين ضد الفرنسيين انتهت بهزيمته. (المترجم)

(33) داهومي (Dahomey): هي مملكة افريقية (تقع في منطقة البلاد المسمّاة حليًا: بنين) وجدت من عام 1600 حتى عام 1904 عندما هزم الملك الأخير بهانزين على يد الفرنسيين لتضم البلاد إلى الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية. (المترجم)

الفصل السابع

شكّلت إحالة جدّي إلى التقاعد -في عام 1925 كما أظنّ- نهايةً لمنزل الغابة (الذي لن أراه مرّة ثانيةً أبدًا) ونهايةً لعجائبه.

آنذاك، عاد جدّي وجدّتي إلى موطنهما الأصيل في جبال المورفان، حيث كانا قد اقتنيا منزلًا صغيرًا في لاروشميلي، وهي قرية صغيرة تقع في منطقة جبليّة تغطيها الأشجار، وتبعد حوالي خمسة عشر كيلومترًا عن شاتو شينون (Château-Chinon)، وأحد عشر كيلومترًا عن لوزي (Luzy)(34). وقد كانت قريةً رائعةً هي الأخرى بالنسبة إليّ. صحيح أنّها كانت بعيدةً عن الجزائر، لكنّنا أمضينا فيها عددًا من شهور الصيف المديدة، حيث كان أبي غائبًا عنّا في معظم الأحيان لبقائه في عمله في الجزائر. لقد توجّب علينا في بادئ الأمر أن نعبر البحر على متن واحدةٍ من سفن الحاكم العام إكس (Gouverneur Général X)... التي كانت تقوم بتأمين خط الرّحلة. مراكبُ بطيئة وغير مريحةٍ، حيث كانت الرائحة الوحيدة المنتشرة في ممرّاتها وحجراتها تشبه الرائحة المنتنة لطبقاتٍ كثيفةٍ من الشحوم، والتي كانت تشعرني بالقيء الذي يتسبّب به دوار البحر حتى قبل أن ينطلق المركب في رحلته. كنت أسقط مريضًا دائمًا على متنها، وكذلك كانت أمّي وأختي، أمّا والدي فلم يكن يمرض أبدًا.

هكذا سوف نكتشف سريعًا مرفأ مارسيليا، وحي الجولييت (la Joliette)(35)،

(34) شاتو شينون (Château-Chinon) و لوزي (Luzy): مدينتان في إقليم مورفان في فرنسا. (المترجم)

(35) الجولييت (la Joliette): أحد أحياء مدينة مارسيليا، الواقع في الدائرة الثانية منها، وهو محاذٍ للمرفأ القديم. (المترجم)

والحقائب، ومخاوف أمّي (فماذا لو سُرقت منّا الحقائب!)، ثم القطار. آهٍ لذلك القطار! لرائحة دفقات الدّخان الكبيرة التي كانت تطلقها المحرّكات البخاريّة، ولتلك الضجة المطواعة لأذرع التوصيل، ونداءات الصفير المديدة طوال الطريق (فما السبب؟ لعلّها من باب التنبيه حين الوصول إلى نقاط تقاطع الطريق مع السكّة الحديدية)، ثمّ الوصول إلى المحطّات، ومغادرة القطار منزلقًا بصورة آمنةٍ وغير منتهيةٍ فوق السكك الحديديّة، على إيقاعٍ موزونٍ لصدمات العبور-المنتظمة والمخمّدة- فوق نقاط التوصيل. وإذ كان الأمر يبدو بكلّ وضوح أنّنا عبرنا فوق مقطع توصيل بشكلٍ قاسٍ جدًّا، كانت والدتي تتصوّر على الدّوام أنّنا تعرّضنا لحادثٍ. لكنّني لم أكن كذلك. فالمناظر غير المألوفة كانت تتوالى في انسيابها من وراء زجاج النوافذ. كنّا نأكل ونحن جاثمين على الرّكب من ذلك الزّاد الذي كانت والدتنا تسحبه لنا من سلّتها، وقد أعدّته بصورةٍ مسبقةٍ قبل مغادرتنا الجزائر. لذلك فإننا لم نعرف أبدًا مباهج الأكل في عربات القطار المعدّة لتناول الطعام: فياله من اقتصادٍ وتوفير!

في بلدة شاني (Chagny)، اتّخذنا طريقًا فرعيّةً: شاني-نيفير (Chagny-Nevers). قمنا بتغيير القطار (مع الانتباه إلى الحقائب!) وصعدنا في عرباتٍ ريفيّةٍ -بمعنىً ما- تجرّها محركاتٌ بطيئةٌ متهالكةٌ. لكنّنا كنّا نقترب على هذا النحو من «ديارنا». سرعان ما رأيت محطّات القطار وميّزت أشكالها، وعلى السفوح القريبة جدًّا من خطّ السكّة الحديديّة (إذ كان القطار بسير ببطءٍ) كنتُ أحاول بأيّ ثمنٍ أن ألمح بين الأعشاب الطفيليّة أولى ثمار الفراولة البريّة التي كنتُ أمنّي النفس بالاستمتاع في تناولها: هل أصبحت ناضجةً الآن؟ وصلنا في الموعد المحدّد أخيرًا: إلى ميلاي (Millay)، وهي محطّةٌ صغيرةٌ لا أهميّة لها، لكنّها ستكون المكان الذي ستبدأ فيه المغامرة الحقيقيّة.

خلف المحطّة، كانت في انتظارنا عربةٌ يجرّها حصان. سوف نستقلّها لأوّل مرّةٍ تحت وابلٍ من المطر الذي سيعمي أبصارنا تمامًا، لكنّ واقية القماش المتعرّجة اتّقاءً

للبرد سوف تحمينا منه–أمّا المرّات اللاحقة فهي ستكون غالبًا تحت شمسٍ ساطعةٍ. كان السيّد دوكرو (M. Ducreux) –الذي سيصبح عمدة بلدة لاروش (Laroche) في عام 1936 في مواجهة السيّد لوكومت (M.le comte)– يقود بسلاسةٍ فرسه الجميلة الكميت، ذات الكفل الصلب الذي يصبح رقيقًا بشدّةٍ، والذي كنت أراقب شقّه الطويل الشحيم بدهشةٍ كبيرةٍ. بعد ستّة كيلومتراتٍ من الصعود نصل إلى مرتفعات بوا دو فيل (Bois-de-Velle) حيث نستطيع هناك اكتشاف منظرٍ هائلٍ من الجبال كثيفة الأشجار (أشجار البلّوط والكستناء والزّان والدّردار والزّان الأبيض ناهيك عن حديث أشجار البندق والصفصاف)، ثمّ يعقبه هبوطٌ قليل الانحدار لكنه طويل جدًّا فتتّخذ الفرس خببها الأصيل، ونصل القرية أخيرًا. وحالما نمرّ أمام مدرسة البلدة (المبنيّة من الغرانيت)، بعد تلّةٍ منحدرةٍ جدًّا في طريقٍ شديد الوعورة يطالعنا «المنزل»، وجدّتي بقامتها الممشوقة واقفةٌ في انتظارنا أمام العتبة.

لم يكن المنزل كبيرًا جدًّا هذه المرّة، لكنّه كان يشتمل على قبوين كبيرين باردين، وسقيفة علوية كبيرة، مرتّبة قليلًا، ومليئةٌ بروايات دولي (Delly)[36] –المقتطعة من مجلّة «صدى الأزياء الصغير Le Petit Écho de la mode»- والتي كانت جدّتي تواظب على قراءتها دائمًا. كما كان المنزل يشتمل على بيوتٍ للأرانب مائلة السقف، وقنّ كبيرٍ مسيّجٍ تتبختر فيه الدواجن بخطوها البطيء المتخايل، لكنّ عيونها تبقى في حالٍ من الترصّد الدائم. وكان هنالك خزّان مبنيّ من الإسمنت من أجل تجميع مياه الأمطار (حيث كانت تسقط فيه بعض القطط أحيانًا فأصاب بهلعٍ كبيرٍ من غرقها (بل وموتها أيضًا)– فيالها من مأساة!). وكان هنالك –على وجه الخصوص– حديقةٌ جميلةٌ منحدرةٌ وذات إطلالةٍ رائعةٍ على جبال التولور (le Touleur): وهي

(36) دولي (Delly): هو اسم مستعار مشترك لأخ وأخت: جان ماري دو لا روزير ، وفردريك دو لا روزير. وهما مؤلفا روايات عاطفيّة شعبيّة كانت قد عرفت نجاحًا كبيرًا بين عامي 1910-1950 في فرنسا وخارجها.. (المترجم)

واحدةٌ من أعلى القمم في جبال المورفان. في تلك الأيام، لم تكن هنالك مياه منقولةٌ بالأنابيب، ولا كهرباء طبعًا، حيث كنّا ننقل الماء بواسطة الدّلاء من عند امرأتين عجوزين تعيشان في الجهة المقابلة لنا، وكنّا نستضيء بواسطة مصابيح الكاز، فآهٍ كم كانت جميلة تلك الأنوار التي كانت تصدر عنها! خاصّة حينما كنّا نحمل المصباح -للانتقال بين الغرف- فتتراقص الظلال على الجدران في حركةٍ مرتعشةٍ على الدّوام: فأيّة طمأنينةٍ كان يجلبها ضوء تلك المصابيح المحمولة!

فيما بعد سوف يحفر جدّي بئرًا بالفعل، بعد استشارة مستكشفٍ للينابيع الذي قام بتحديد المكان المناسب للبئر بالقرب من شجرة الإجاص الكبيرة –بواسطة عصا العرافة التي كان يمسكها بيده–، والعمق الذي تكون المياه عنده. حُفرت البئر بطريقةٍ يدويّةٍ، بعد أن تبيّن وجود طبقةٍ سميكةٍ من الغرانيت ذي اللون الزهريّ! يا له من عملٍ شاقٍّ ودقيق: فقد كان الحفر في طبقة الغرانيت يجري لوضع ألغام فيها، وبعد تفجيرها كان يتعيّن سحب كتل الحجارة، ليعاد من جديد حفر ثقوبٍ أخرى للألغام بعنايةٍ ودقّةٍ. وقد عثرنا على الماء عند العمق الذي تنبّأ به مستكشف الينابيع تمامًا. منذ ذلك الوقت سوف أكنُّ تقديرًا حقيقيًّا لمهارة أولئك الرّجال الذين يحملون بأيديهم عيدانًا من أشجار البندق، وهو ما سوف أنقله لاحقًا إلى الأب روكار (le père Rocard) [37]–مدير مخبر العلوم الطبيعيّة في المدرسة العليا، ووالد ميشيل روكار (Michel Rocard) (الرجل الغريب في نظري، وفي نظر والده أيضًا كما يبدو)- الذي كان يقوم بإجراء تجارب غريبة حول القوّة المغناطيسيّة الطبيعيّة، سائرًا بعيدانه على قدميه في حدائق المدرسة العليا أيّام الآحاد (حيث لم يكن هناك من يلاحظه)، أو على دراجته الهوائيّة، أو ضمن سيّارته، بل وحتى داخل الطائرة! يا لهذا الرجل العجيب، الذي رسّخ مكانة مختبرات العلوم الطبيعيّة في عام

(37) الأب روكار (le père Rocard): هو إيف روكار (Yves Rocard) 1903-1992: عالم فيزيائيّ فرنسي، والمسؤول العلمي عن البرامج التي أفضت إلى بناء القنبلة النووية الفرنسية. أما ولده ميشيل روكار فهو سياسي فرنسي وعضو الحزب الاشتراكي الفرنسي ورئيس الوزراء خلال حكم الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتيران بين عامي 1988-1991. (المترجم)

1936 -التي لم تكن مجهّزة بالمعدّات- حينها استأجر من رئيسه شاحناتٍ عسكريّة غداة دخول طلائع القوّات الفرنسيّة إلى ألمانيا، ليبحث داخل المختبرات الألمانيّة والمصانع الكبرى عن جميع ما يحتاجه. لقدّ أمدّ ذلك مختبره بما يلزم من عملٍ، المختبر الذي أصبح واحدًا من أوائل المختبرات في فرنسا (وفيه عمل لوي كاستلر Louis Kastler[38] الذي حصل على جائزة نوبل). إنّه الأب روكار نفسه، الذي كان يعدُّ «أب القنبلة الذريّة الفرنسيّة» -وهو الأمر الذي لم يتم تأكيده ولا نفيه- ولكنّه اللقب، أو اللقب المستعار الذي جلب عليه العداء السياسيّ من قبل غالبيّة الطلاب في المدرسة العليا. لقد كان روكار أوّل رجلٍ في العالم يضع نظامًا لرصد الانفجارات الذريّة على أساس الانتشار باستخدام القشرة الأرضية وقاعدة التثليث، والذي كان يقوم بتسجيل لحظة وصول الأمواج (وكان روكار قد بنى عددًا من البيوت الصغيرة المريحة جدًّا في عشرين مكانًا، في أكثر المناطق الفرنسية التي لا يمكن الوصول إليها، وقد دعا إليها الدكتور إيتيان (Dr. Étienne) الذي أصابه الذهول حين رؤيتها، وليس أنا). وفي ذلك الوقت، كان يعلم بوقوع انفجار قنبلةٍ ما -وإن كان الانفجار يقع تحت الأرض- قبل أن يعلم به الأمريكيون بربع ساعةٍ، ولم يكن (من باب التواضع) يتفاخر بذلك كثيرًا...كما كنت معجبًا بقدرات «القرصنة» لديه: لقد كان خبيرًا في تذليل معظم العقبات الإداريّة التي كان يحتقرها، وكان يبقي في حوزته أموالًا غير مشروعةٍ نتيجة الفساد الكبير لإدارات المدرسة، وقد قبل أن يدفع عني من هذا الحساب -وهو الرجل الفيزيائيّ- أجرة ضاربة الآلة الكاتبة التي كانت تعمل بدوامٍ جزئيٍّ لمدّة عامٍ كاملٍ عن قيامها بطباعة محاضراتي من أجل الباحثين في عام 1967! وإنّني لن أنسى ما حييتُ هذا الكرم، وأيضًا هذه الحيلة المعتبرة، الحاذقة، الجريئة، التي لا تنطوي على شيءٍ من حضور الأحكام المسبقة. كان الأب روكارد -الأطرش، أو الذي كان يتظاهر بأنّه كذلك في الوقت المناسب-

(38) ثمّة لبسٌ هنا: إذ لم أعثر على عالمٍ فرنسيّ يحمل هذا الاسم، ولعلّ المقصود هو ألفرد كاستلر (Alfred Kastler) 1902-1984: العالم الفيزيائي الفرنسي الذي حصل على جائزة نوبل في عام 1966. (المترجم)

يتمتم مثل أبي حينما يعطي أوامره -وقد كان مساعدوه يقلّدونه (هو الآخر!) في ذلك متّبعين أدنى حركاته ونبرات صوته-، كما كان معلّمًا في «الاحتيال» يتخطّى وقاحات والدي المتواضعة بكثير، لقد كان بالنسبة إليّ -بعد جدّي- ومن دون أن يعلم ذلك أبدًا: الأب الثاني بحقٍّ.

صنع جدّي غطاءً معدنيًا من أجل حافّة البئر المحفورة، وجعل فوقها -على ارتفاع خمسين سنتيمترًا- مظلّةً من التوتياء تحميها عندما تكون مفتوحة الغطاء. وسوف تتساقط فوق هذا الغطاء أيام المواسم حبّات الإجاص الصغيرة، ذات الحمرة الشديدة من ارتفاعات عاليةٍ محدثةً ضجيجًا متقطّعًا وكتيمًا سوف تصل أصداؤه حدود المنزل نفسه -على الرغم من كونه بعيدًا مسافة خمسين مترًا وخلف الأسوار- وسوف تصنع جدّتي من تلك الحبّات التي لا يمكن تقطيعها بالسكين نوعًا من المربّيات العجيبة التي لن أعثر في حياتي على مثلها في أي مكانٍ آخر أبدًا. خلف شجرة الإجاص هذه التي كانت تسمق عاليًا لأكثر من ثلاثين مترًا، وبعد سياجات ودربٍ مرتجلةٍ، كانت أسوار باحة المدرسة البلدية ترتفع عاليًا، ومن هنالك كانت تتناهى إلى مسامعنا أصوات الضجيج الحادّة للتلاميذ المتنعلين قباقيب خشبيّة، في أثناء وصولهم ومغادرتهم في غمرة زعقاتهم العالية الصاخبة، وضوضاء اللعب قبل دخولهم إلى قاعات الدرس، ثمّ كان الصمت يخيّم فجأة في أثناء انتظام صفوف التلاميذ، فيُسمع صفيق المعلّم بيديه، لتصعد -من ثمّ- قباقيبٌ عجولةٌ درجات السلّم الصغير قبل أن يسود صمت القاعات العميق أخيرًا.

وإلى القرب منها، فوق التلّة العالية، كانت مقبرة البلدة تنتصب (حيث يرقد جدّي وجدّتي تحت بلاطةٍ من الغرانيت ذي اللون الرماديّ)، وشجرتان أو ثلاث من أشجار التنّوب النحيلة. بعد ذلك، وعلى جانبي الطريق الموحل يطالعك حيّ الفقراء البائس (لتجد عائلة كاملةً مؤلفةً من امرأةٍ شوّهت الولادات العديدة جسدها، وشيخًا عاجزًا، وكثيرًا من الأطفال يقيمون في غرفةٍ واحدةٍ منتنة الرّائحة). وما وراء ذلك، عند نهاية الطريق المنبسطة، كانت الغابات تنهض أخيرًا،

حيث كنّا نقصد فيها «ينبوع الحب»: عين الماء الرّائعة، التي تغطيها نباتات الدّبق، ومغسل النساء المُرتاد. لقد أمضيتُ نهارًا كاملًا عند مشارف الغابة – بالقرب من النبع – برفقة أمي التي أثارها جدًّا اكتشاف حقل حقيقيّ من فطور الكمأة الفتيّة – التي كانت نادرة الوجود جدًّا في تلك البلاد – وهي ترتفع، على نحوٍ كثيفٍ، بقلنسواتها كأنّها ذكور منتعظةٌ: لقد سحرني ذلك الانتصاب الذي ليس له غاية أو موضوع، أمّا والدتي ذات المشاعر البليدة فقد كانت غير مباليةٍ تمامًا (في ظاهر الأمر على الأقلّ). إنني أدرك تمامًا لماذا أحتفظ بتلك الذكرى حيّةً في مخيّلتي: فأنا في تلك الأيّام لم أكن أعرف الغاية من آلتي التناسليّة، لكنني كنتُ أشعر جيّدًا بوجود غايةٍ ما. أتذكّر ما حدث لي في وقتٍ لاحقٍ، حينما كنتُ أقضي –أيّام المراهقة– بعض الأشهر عند جدّي وجدّتي –كما سوف نرى–: كنتُ أتنزّه بمفردي في آخر الحديقة الواطئة، في مكان لا يمكن لشخص أن يبصرني فيه، حينما شعرتُ بأنّ قضيبي منتعظٌ على نحوٍ ممتع تحت صدريّتي المدرسيّة السوداء، وإذ أخذت مستغرقًا في تمسيده من دون أن أحاول أيّ شيءٍ آخر، شعرتُ بلذّةٍ غامرةٍ طغت على مشاعر العار الناتجة عن ارتكاب المحظور. في ذلك الوقت لم أكن أعلم أيّ شيءٍ عن ملذّات الاستمناء التي سوف أكتشفها ذات ليلةٍ بطريق المصادفة، فيتملّكني سحر هذا الأمر وأنا في سنّ السابعة والعشرين! كنتُ أشعر بانفعال كبير في قرارة نفسيّ يجعلني في ذهولٍ عن العالم.

كانت الغابات المغايرة في أنواعها (إذ كان يوجد الكثير من نباتات السرخس الجميلة ونباتات الوزّال التي كانت تُرى مقطوعةً في بعض الأحيان في أماكن خلاء حيث ستنهض إحدى المزارع) أكثر وعورة، كما كانت مزيّنة بينابيع المياه الصافية والجداول المليئة بسرطانات النهر والضفادع. لكنّها وإن كانت أشدّ وعورةً، فقد كانت ذات جلالٍ وديعٍ، حيث يمكن لأشعّة الشمس أن تتراقص ببطءٍ بين وريقاتها. لقد كانت غابةً مختلفة تمامًا عن غابات الجزائر! لكنّ جدّي –وبوصفه ابن منطقة المورفان– لم يمانع في اطلاعي على أسرارها مثلما كان يفعل في السابق. لذلك

فقد علّمني طريقة القطع الصحيح لسيقان أشجار الكستناء الجيّدة (آهٍ! يا لناميا تها الطريّة، ونسغها القويّ...) المستخدمة في صناعة هياكل السلال القرويّة، وعلّمني كيف تصنع هذه السلال في القبو. كما علّمني تمييز سيقان الصفصاف الفتيّة التي يتعيّن صنع ضفائر منها توضع بين أقواس التدعيم. لقد علّمني كلّ شيء، عن الغدران وسرطانات البحر والضفادع، وأيضًا عن البلاد وأهلها الذين كنّا نلتقي بهم فيتحدّث إليهم باللهجة المحلّية.

في تلك الأيام كانت منطقة المورفان منطقة شديدة الفقر، حيث كانت تعيش فقط على تربية الأبقار البيضاء من فصيلة الشاروليز (Charolaise)، والخنازير بشكلٍ خاصّ...وكان يوجد فيها الكثير من أطفال الإعانات الحكوميّة الذين يعيشون في مؤسساتها. أضف إلى هذا كميّاتٍ من البطاطا، وقليلًا من القمح، والشعير، والحنطة السوداء (التي كانت تنمو فيها بكثافةٍ إلى جانب أشجار الكستناء)، والكستنة، وطرائد الصيد التي من بينها الخنازير البريّة الشتويّة، وبعض الفاكهة، وصلّى الله وبارك.

فوق إحدى الروابي، داخل القرية، تنهض كنيسةٌ حديثةٌ بلا زخارف أو أبّهة، وأمامها يرتفع النصب التقليدي الرّهيب لقتلى حرب الأعوام 1914-1918، الذي تغطيه أسماءٌ لا تعدُّ ولا تحصى، والتي سوف ينضاف إليها لاحقًا -كما في كلّ مكان- قائمةٌ بأسماء قتلى الأعوام 1939-1945، ثم أسماء بعض المعتقلين، ثمّ قائمة بضحايا حربي الفيتنام والجزائر، حصيلةٌ محزنةٌ تُظهر بوضوح كيف أفنت هذه الحروب شباب الريف وفتوّته. كان خادم الكنيسة أحد المقاتلين القدماء في حرب عام 1918، وكان يتلو القدّاس، الذي كنتُ أساعد فيه كطفل في جوقة الكنيسة، وكان يعلّمنا تعاليم الدين المسيحيّ -الذي سوف أتبعه لاحقًا- في غرفةٍ صغيرةٍ تكون مدفّأةً في أيام الشتاء بمدفأةِ حطبٍ صغيرةٍ كانت تشتعل احمرارًا. كان الخوري، غير المبالي، وذو القلب الطيّب، والصدر الواسع حيال ارتكاب الآثام، وخصوصًا حيال اختبار الشهوات الجنسيّة، وارتكاب أفعالها أيضًا، ومن دون أن

يكون به ذلك الفضول المَرَضِيّ المرافق لعمليّة الاعتراف، والذي كان يوحي للأطفال بالطمأنينة على الدّوام، بغليونه الدائم في فمه المتشقّق-يجسّد السماحة عينها: وصورة «الأب» الطيّب مرّةً أخرى.

لقد أحسن التخلّص من مسألةٍ عويصةٍ على نحوٍ جيّدٍ، فالبلاد كانت لا تزال خاضعةً لحكم الطبقة الأرستقراطيّة من دون مشاركة الكونت الذي كان قصره العالي المبنيّ في القرن السابع عشر يحتجب وراء أشجار معمّرةٍ وعالية جدًّا. كان الكونت واحدًا من كبار المُلاك العقاريين، إذ كان يملك أكثر من ثلثي أراضي البلدة، التي كان عمدتها بحكم القانون، وكان يحكم السيطرة على غالبية الفلاحين، ومزارعيه، وأيضًا على غالبيّة المزارعين بطريق المحاصصة في ذلك الوقت. وكان الكونت يموّل ويدير مدرسة مجانيّة للفتيات عن طريق زوجته -الكونتيسة الشامخة ذات المحيّا اللطيف والتي كنت قد رأيتها مرّة واحدة داخل مسكنها الرائع ذي الأثاث الذي أبلاه الزمن-. في تلك الأيام كان العداء قد بلغ أوجه بين حزب الكونت وحزب المعلّم، الذي كان هو الآخر رجلًا في غاية الكرم. لكنّ الهزيمة آن أوانها: فهذا هو قانون التركيبة [الاجتماعيّة]. ولقد تدبّر الخوريّ الشجاع و«السياسيّ» الطيّب الأمر جيّدًا إذ لم يكن قد ناصب العداء أحدًا في البلاد.

كان جدّي يحدّثني في سائر الأمور عندما كنّا نحثّ الخطى باتجاه الغابات، أو حينما كنت أرافقه إلى عمله في الحديقة المليئة بنباتات توت الأرض الواطئة، ويجميع ما أعرفه من أشجار مثمرةٍ من كلّ الأنواع، ناهيك عن نبات الحمّيض الذي لن أنسى حموضته الشديدة التي كانت تلذع لساني. (لاحقًا، حينما رغبتُ ذات مرّةٍ في المدرسة العليا أن أقدّم إلى أفراد عائلة شاتوليه (Châtelet) -الذين حدثوني عن الحمّيض مرّة أخرى- سمكًا نهريًّا مع أوراق الحمّيض، وإذ ذهبتُ لشراء الحمّيض من شارع موفتارد (Mouffetard) [39]سائلًا تجار الخضروات

(39) موفتارد (Mouffetard): هو شارع في الدائرة الخامسة في باريس، وهو واحد من أقدم أحياء باريس وأكثرها حيوية. (المترجم)

والحشائش جميعًا عنه حين لم أجده لديهم، كان جوابهم الوحيد الذي استرعى انتباهي -قرابة الثلاثين مرّة!-: «لو كان لدينا منه، ما كنّا هنا». لقد علّمني جدّي كلّ شيءٍ، من بذر الحبوب، إلى الزراعة، والقلع، وتطعيم الأشجار المثمرة، بل وحتى صناعة السماد العضويّ الذي كنّا نجمعه من وراء بيوت الخلاء من قذارات أهل البيت. ذلك المرحاض الخشبيّ الضيّق، الذي كان بابه الخشبيّ يلامس الأنف عند إغلاقه، والذي ليس له نافذة تطلّ على الخارج! كنت أبقى فيه وقتًا غير محدّدٍ، ممسكًا بمجلّة دوللي في يدي، وأنا جالسٌ فوق حوضٍ خشبيٍّ، ومؤخرتي معلّقةٌ في الهواء، والرائحة المبهجة تنبعث من الأرض، والأوراق المتعفّنة، والبول والبراز العائد لرجالٍ ونساء! كان ذلك المرحاض يطلّ على بيلسانٍ كثيفٍ بثماره التي كانت والدتي قد منعتني عنها بكلّ حزمٍ (سمٌّ رهيبٌ!). وسوف أعلم فيما بعد أنّ الألمان كانوا يصنعون منه حساءً شهيًّا...أزهار البيلسان المدوّخة التي كانت تسكرني وسط روائح البول والبراز والزبل.

لقد علّمني جدّي كيف أسلخ جلد الأرانب بضربة واحدة على رقبتها من أسفل إلى أعلى، وأن أقطع بالساطور فوق قرمةٍ من الخشب أعناق البطّ الذي كانت أجساده تستمرُّ في الجري بضع دقائق بعد ذلك. لم أكن أشعر بالخوف وأنا برفقته. أمّا جدّتي فحينما كانت تشرع في قصّ الشريان السباتيّ للدجاج مُدخلةً في حلقومه ذراعي المقصّ الطويل والحادّ فإنّني لم أكن أشعر بالزّهو حيال هذا الرعب، أو حيال هذا المشهد منه.

كنتُ أشعر بالفرحة الغامرة حيال كلّ هذا، وإن كنتُ أقرّ بأنّ ذلك كان يجري في أيّام الصيف، إذ كان يتوجّب علينا -وقد انتهت الإجازة- أن نعود إلى الجزائر. مع ذلك، فإنّني لم أكن قد بلغتُ بعد قمة الدهشة والسعادة.

ففي أحد الأيام، غادرتُ برفقة جدّتي وأمّي وأختي إلى فور (Fours)[40] حيث

---

(40) فور (Fours): قريةٌ صغيرةٌ تقع وسط فرنسا، في مقاطعة النييفر، منطقة البورغون. (المترجم)

كانت والدة جدّتي لأمي، الأمّ نوكتو (Nectoux)، تعيش في غرفةٍ واحدةٍ بمفردها على نحوٍ موحشٍ هي وبقرتها في الغرفة نفسها، بعد أن ترمّلت منذ أمدٍ بعيدٍ. كانت هذه المرأة -هي الأخرى- عجوزًا مخيفةً، منتصبة القامة، قاسيةً وكانت فوق ذلك صامتةً لا تتفوّه إلا ببعض التعابير بلهجةٍ عتيقةٍ لم أكن قد سمعتها من قبل. لكنّني أتذكّر جيّدًا تلك الحادثة التي أذهلتني كثيرًا حينما كانت الجدّة تقود بقرتها السمينة المطيعة إلى المرعى بالقرب من الجدول الصغير. كنتُ ألهو برفقة اليعاسيب الملوّنة التي كانت تتنقّل من زهرةٍ لأخرى (وخصوصًا «أزهار المرج» ذات الرائحة الزكيّة الفوّاحة). حينما لمحت، في لحظةٍ واحدةٍ، والدة جدّتي التي لم تكن تبارح مطلقًا عكازها الكبيرة المعقّدة (التي كانت تستخدمها من أجل البقرة، وتستعين بها كمتّكأٍ خلال سيرها) تنخرط في سلوك غريب للغاية. إذ انتصبت بقوّةٍ، من دون أن تأتي بكلمة، ثم خرجت دفقةٌ قويّةٌ، في ضجيجٍ عالٍ، من تحت تنّورتها السوداء الطويلة. كان نهرًا صافيًا يجري تحت قدميها. استغرقني الأمر بعض الوقت كي «أتأكّد» من أنّها كانت تتبوّل على هذا النحو وهي واقفةٌ تمامًا، ومن دون أن تقرفص مثلما تفعل النساء، وكي أستنتج بالتالي أنّها لم تكن ترتدي سروالًا داخليًّا تحت تنّورتها. لقد أذهلني الأمر: إذًا ثمّة صنفٌ من النساء-الرجال، الذي لا يخجل من جنسه، والذي يصل به الأمر عتبة التبوّل على مرأىً من الجميع، من دون أيّ اكتراثٍ أو شعورٍ بالخجل، وحتى من دون تنبيه أي شخص آخر! فياله من اكتشافٍ...وبما أنّها كانت لطيفةً معي؛ فقد اختلط الأمر كثيرًا: لقد كانت هذه المرأة رجلًا، وأيَّ رجلٍ، رجلًا ينام مع بقرته، ويرعاها، ويتبوّل كالرجال أمام الجميع، ولكن من دون أن يسحب آلته من فتحة السروال، ومن دون أن يتلطّى وراء جذوع الأشجار! لكنّها كانت امرأةً أيضًا طالما أنّها لم تكن تمتلك آلة الرجل، وكان بإمكانها أن تحبّني بقوّةٍ، ولكن بحنوٍّ امرأةٍ طيّبةٍ...لم يكن هنالك ما يجمعها مع جدّتي لأبي. لم توحِ لي تلك الحقبة بأيّ من مشاعر الخوف، لكنّها تركتني أتفكّر مليًّا. وكما هي العادة، فإنّ والدتي لم ترَ شيئًا، ولم تتكلّم في ذلك أبدًا. آه! يا لتلك الأمّ البليدة المشاعر حيال كلّ ما قد

أتعرّض له طرًّا.

في بداية شهر أيلول/ سبتمبر من عام 1928 (حيث من المفترض أنّني كنتُ في عمر الحادية عشر)، عندما أصيبت أختي بمرض الحمّى القرمزية (كانت هذه الصغيرة المريضة على الدّوام، تدافع بذلك عن نفسها -بقدر ما تستطيع- من خلال افتعال المرض العضوي) بادرت أمّي إلى اتّخاذ أقصى التدابير التي تسلّطت على عقلها، وعلى رهاب العدوى لديها. لذلك فقد سألتني -بعد أن استشارت جدّي وجدّتي- إن كنتُ أقبل لا العودة إلى الجزائر، بل البقاء لديهم في لاروشميلي طيلة السنة كلّها. لنتخيّل إن قبلتُ عرضها! بكلّ تأكيدٍ لم أكن أعلم بعد ذلك الخير والنعيم الذي يمكن أن يجود به رهاب والدتي، وخداع النفس.

بالطبع فإنّ سنةً بطولها كانت تعني من حيث النتيجة أيضًا سنةً دراسيّةً أقضيها في المكان نفسه، في مدرسة القرية. وكما نعلم فإنّ المدرسة كانت على بُعد خطوتين من المنزل، وكان يديرها السيّد بوشيه (M. Boucher)، وهو رجلٌ غايةٌ في الرقّة والحزم والكرم، وهو مطابقٌ لآراء أمّي تمامًا التي كانت تعشق أصحاب الضمائر القادرين على طمأنتها. لذلك فقد انتعلتُ القبقاب الخشبيّ الذي كنتُ أحبّه كثيرًا إذ لا يجعلني أبدو غريبًا، وارتديتُ الصدريّة السوداء الملزم بها. وعلى هذا النحو من اللباس كان ولوجي إلى عالم القرويّين الصغار الذين كنتُ أستمع على مدى سنواتٍ طويلةٍ -وقد تملّكتني رغبةٌ عظيمةٌ- إلى عبثهم الصاخب في الساحة، ثمّ أمام عتبة بابنا وهم يصعدون الطريق ببطءٍ، أو يتدحرجون مسرعين على طول الدرب البائسة المنحدرة التي كانت تمرّ أمام منزلنا، مستغرقين في هتافاتهم وتدافعهم وصراخهم العابث وسط القرقعة الدائمة للقباقيب الخشبيّة؛ فقد كانت الأحذية الجلدية في تلك الأيام، باهظة الثمن في هذه البلاد، ولذلك كانت القباقيب تُصنع بصورةٍ يدويّةٍ (حتّى إنّني شرعتُ أنحتُ منها كريّاتٍ خشبيّة باستخدام أدواتٍ رائعةٍ- تلك «الأزاميل» الحادّة التي كانت مطواعةً في يدي). لقد كانت هذه القباقيب الصقيلة، الرائعة، والمتينة في الأقدام تؤلمنا عند كعب أخيل في البداية، ولكن سرعان ما كنّا

نتعوّد عليها. كما أنّها كانت تقينا إلى حدٍّ بعيدٍ من الحرّ والبرد أيضًا، نعم! إنّ الخشب هو الناقل الأسوأ للبرد والحرارة، وليس الجلد.

الدخول إلى المدرسة كان يعني مواجهة عالمٍ مجهولٍ، وأوّل كلّ شيءٍ مواجهة لغة أولاد الرّيف: اللهجة المورفاندية، وهي لهجةٌ مصنوعةٌ من التقلّبات المفاجئة تمامًا بين الحروف الساكنة والحروف الصوتيّة، وخصوصًا من التحريفات المتناغمة في الحروف الصوتيّة والمصّوتات المزدوجة (من خلال التّثقيل، والتركيز المديد على الفونيمات)، وأخيرًا من الصيغ والتعابير الغريبة بالنسبة إلي. لكنّها لم تكن اللغة المستخدمة داخل القاعات بتاتًا؛ حيث كان المعلّم يدرّس اللغة الفرنسية وطريقة النطق التقليديّة الخاصّة بمنطقة إيل دو فرانس (Ile-de-France)[41]، بيد أنّه كانت هنالك لغةٌ ثانيةٌ أخرى: لغةٌ غريبةٌ هي لغة الأولاد الأصيلة، ولغة اللعب العاميّة، لغة الشارع، أي لغة الحياة اليوميّة إذًا. إنّها اللغة الغريبة الأولى التي كان عليّ أن أتعلّمها (ففي الجزائر لم تسنح لي أيّة فرصةٍ من أجل تعلّم لغة الشارع العربيّة؛ إذ كانت والدتي قد حرّمت الشارع عليّ، رغم أنّها كانت قد شرعت في تعليمي اللغة العربيّة «الفصحى»). لذلك كان عليّ أن أتعوّد على هذه اللغة.

بدأتُ العمل على هذه اللغة بشغفٍ، وبسرعةٍ وسهولةٍ لم تدهشني على الإطلاق بقدر ما وجدتُ هذه المبادلة اللغويّة ساحرةً وثريّةً. وسوف تتاح الفرصة لي -بعد ذلك بوقتٍ كثيرٍ- كي أتعلّم الحديث بشيءٍ من اللغة البولونية (لكنني كنتُ أتكلّم هذه اللغة -اليسيرة في لفظها كثيرًا- بلكنةٍ مجانسةٍ أكاد أُعدُّ معها رجلًا بولونيًّا قُحًا)، وألمانيّة المعسكرات[42]، والألمانيّة الفصحى، ناهيك عن إنكليزيّة المدارس الثانويّة التي كنتُ أتحدّثها بشكلٍ رائعٍ، ولكن بلكنةٍ أمريكيّةٍ مستفزّةٍ لا يعلم سوى الله وحده من أين تعلّمتها؟ بكلّ تأكيدٍ، لقد تعلّمتها عن طريق المذياع وقد كانت

(41) إيل دو فرانس (Ile-de-France): منطقة في شمال وسط فرنسا، وعاصمتها مدينة باريس.

(42) شكل من اللغة العامية الألمانية التي كانت تستعمل داخل معسكرات الاعتقال النازية لوصف الحياة داخل هذه المعسكرات، حيث كانت بعض الكلمات الألمانية العاديّة تأخذ معانٍ وإحالاتٍ مخصوصة. (المترجم)

تجعلني أشعر بالمتعة (حيال الغضب الكبير لأساتذتي في اللغة الإنكليزية: طريقةٌ أخرى في اتّخاذ لغةٍ خاصّةٍ بي، تعلّمتها، وتعلّمت لكنتها وتراكيبها بمفردي، كي أنأى بنفسي عن أمثولة أساتذتي وسلطتهم). لقد تعلّمتُ هذه اللغات بسهولةٍ كبيرةٍ جعلتني أتنبّه إلى أنّني -ولا بدّ- رجلٌ «موهوب»، كما يقال، في تعلّم اللغات الأجنبية وتعاطيها. موهوب! إنّ لهذه الكلمة باختصار خاصيّة الأفيون المنوّمة- الأفيون الذي يجعلك تغطّ في سباتٍ عميق. من هنا تبتدأ عداوتي حيال عقيدة المواهب والملكات (سوف يكون لوسيان سيف (Lucien Sève)[43] سعيدًا بذلك، وهو الرجل الذي خاض معارك طويلة الأمد في مواجهة هذه العقيدة -وقد كان محقًّا فيها- لكنّه استعان بالحجج الأخرى جميعها من دون الاستعانة بحججي التي كانت - ويجب عليّ أن أعترف- سياسيّةً إلى حدٍّ بعيدٍ!). لقد تفكّرتُ بعد وقتٍ طويلٍ أنّ تمكّني من تعلّم الكلام، وتحديدًا تعلّم النطق الدقيق لفونيمات اللغات الأجنبيّة، وإتقانها إلى درجة الوقوع في الخطأ حول تحديد أصولي القوميّة، يعود -علاوةً على رغبتي في التقليد أيضًا، وفي الإغواء بالتالي، ولكن أيضًا رغبتي في تحقيق نجاحٍ واضحٍ في الوقت نفسه- إلى مّا كنت أدعوه بنوعٍ من *التربية البدنيّة للعضلات*، من لعبةٍ مسلّيةٍ جدًّا لعضلات الشفتين، والأسنان، واللسان، والحبال الصوتيّة والعضلات الرئيسة في التجويف الفمويّ. لقد كنتُ مغرمًا -في الحقيقة- إلى حدٍّ بعيدٍ في أن «ألعب» بجميع العضلات في جسدي، وكنتُ أستطيع أن ألتقط الحجارة بأصابع قدميّ وأرميها بواسطتها أيضًا، كما كنتُ أستطيع التقاط أشياءَ مختلفةً عن الأرض لأضعها في يدي، أو فوق الطاولة. حتّى إنّني تعلّمت بسرعةٍ كبيرةٍ «تحريك أذنيّ» في جميع الاتجاهات، وتحريك إحداهما بصورة مستقلّةٍ عن الأخرى (وكانت أكبر نجاحاتي حينما أفعل ذلك أمام الأطفال)، وكنت ألعب مثل لاعب كرة القدم (ما عدا اللعب بواسطة الرأس التي كنتُ أشعر أنّها كبيرةً جدًّا وسريعة العطب)، حتّى إنّني اخترعت بمفردي حركاتٍ تؤدّى بواسطة القدم،

(43) لوسيان سيف (Lucien Sève) 1926-2020: فيلسوف فرنسي، شيوعي وناشط سياسيّ. (المترجم)

والنعل. وكعب القدم، والركبة بل وركلاتٍ «مقلوبة» سوف يتاح لي فيما بعد رؤية اللاعبين المحنّكين وهم يؤدونها.

أخيرًا، لقد استطعتُ فيما بعد أن ألاحظ هذه الحالة الفريدة: فمن خلال ممارستي بعض الألعاب وإن كنتُ قد تعلّمتها عن طريق والديّ (كالتنس والسباحة وركوب الدّراجة الهوائية الذي تعلمته مع العائلة) فإنّني كنتُ أتوصّل بمفردي (وبإصرارٍ شديدٍ) إلى بناء تقنيّاتٍ لم يكن أهلي يعرفون منها شيئًا يعلموني إيّاه. عليه، فقد كان أبي يرسل كرة التنس بأن يهوي بمضربه من الأعلى عليها لتنطلق من دون ارتدادٍ، جهدٌ ضائعٌ! لذلك وثمرة للمتابعات الطويلة التي كنتُ أقوم بها للاعبين حقيقيين وصور لاكوست (Lacoste) [44] وتيلدن (Tiden) [45] تعلّمت إرسال الكرة بالطّريقة التي تُرسل بها اليوم، بأن أهوي بالمضرب بحركة دورانيّة من وراء الكتف ثمّ أضرب الكرة بأقصى قوّةٍ ممكنةٍ، وقد أصبحت ماهرًا جدًّا في ذلك. كذلك كان والدي لا يسبح إلا صدرًا، مع أنّه كان يفضّل السباحة ظهرًا بتلك الوضعيّة المميّزة إذ لم يكن يستعمل ذراعيه وساقيه، لكنّه كان يدفع يديه نحو الأمام مجذّفًا بهما على جانبي جسده (لكنّه -وبالمقابل- كان يسبح متقدّمًا بسرعةٍ عاليةٍ) وكان يحافظ بعنايةٍ على بقاء رأسه وأصابع قدميه مرفوعةً خارج الماء ما كان يجعل سباحته تلك غريبة المظهر على نحوٍ يمكن معه تمييزه من خلالها من مسافةٍ بعيدةٍ. والضحك على هذا المشهد! أما أنا -ومن خلال مراقبتي للسبّاحين الحقيقيين وللصور الفوتوغرافيّة- فقد فكّرتُ في طريقة الغطس وتعلّمتها بمفردي تمامًا، وهذا يعني أوّل كلّ شيءٍ المحافظة على الرأس داخل الماء والتحكّم بنفَسي لمدّةٍ طويلةٍ بقدر ما يلزم (نبقاء الرّأس داخل الماء! يا لها من شجاعةٍ وجرأةٍ، إنّه أمر خطيرٌ -كما كانت والدتي تقول- إذ من المحتمل أن نغرق!)، وقد استطعت أخيرًا، بعد أن أضفتُ إلى

---

(44) رينيه لاكوست (René Lacoste) 1904-1996: لاعب تنس فرنسي، كان المصنّف الأوّل عالميًّا. (المترجم)

(45) وليام تاتيم تيلدن الثاني تيلدن (Bill Tiden) 1893-1953: هو لاعب تنس أمريكي يُلقّب (بيج بيل)، يُعدّ واحدًا من أعظم لاعبي التنس على الإطلاق. (المترجم)

هذه الحركة ضربات الساقين والقدمين، أن أتعلّم طريقة السباحة السريعة. هنالك لم أعد أقلّدُ أحدًا، ولم أعد أرغبُ في غواية أحدٍ، إلا بما يقدمه عملي الباهر من دهشةٍ للآخرين. وعلى الأرجح فإنّني كنت قد بدأتُ في ذلك الوقت -إن لم يكن في وقتٍ أبكرٍ- أشعر بالفخر إزاء ابتعادي الواضح والعمليّ عن تقاليد العائلة، «وفي التفكير في جسدي من خلال ذاتي»، وفي الرغبة -على الأقلّ- في أن أتملّك جسدي بنفسي، وفق ما أشاء، وكما لو أنّ ذلك كان بداية الخروج عن قواعد العائلة ومعاييرها.

على هذا النحو شرعتُ أتكلّم اللهجة المورفانديّة بسهولةٍ كبيرةٍ ومتعةٍ عظيمةٍ، وسرعان ما لم يعد هنالك من شيءٍ يميّزني عن أبناء المنطقة. وعلى الرّغم من ذلك فقد ظلّوا خلال فترةٍ طويلةٍ يشعرونني بفظاظةٍ أنّني لستُ واحدًا منهم. أتذكّر، حينما بدأت بواكير الثلج تتساقط فوق ساحة المدرسة التي تغطّت بها، ما كابدتُه من موقفٍ رهيبٍ عندما هشّم الأولاد وجهي برماياتهم من الكرات نحوه، وما أزال أتذكّر تلك الشجرة الصغيرة النحيلة التي سقطتُ عند ساقها، بلا حراكٍ، تحت وابلٍ من ضرباتهم. لم يتدخّل المعلّم الحكيم. لقد أخذتُ نصيبي، ولكن بكلّ قناعةٍ وتسليمٍ، فيما حقّق الأولاد متعتهم وانتقامهم. بعد ذلك، أخذتُ أشعر بأنّ الأولاد بدأوا يألفونني شيئًا فشيئًا. وكم كانت من فرحةٍ!

وأتذكّر أيضًا بتأثّرٍ آخر يومٍ لي في المدرسة في المورفان، حينما ترك الأولاد لي، كامتيازٍ استثنائيٍّ، أن أختار على سبيل التسلية الأخيرة نوع اللعبة التي أرغب بها، وقد اخترت لعبة القضبان التي جعلتني مبارياتها المدهشة منتشيًا، وقد فاز فريقي.

«أولئك الأولاد». كان أوّل واحد بينهم هو الحكم وقائد الفريق. صبيٌّ ضخم الجثّة، أحمر اللون ومتين البنية، شعره أسود وذو همّةٍ عجيبةٍ. كان يُدعى مارسيل بيرودان (Marcel Perraudin) وكانت تجمعه بأجدادي قرابةٌ بعيدةٌ غير واضحةٍ، لكنّه -مثل العديد من القرويّين الآخرين- سوف يلقى حتفه في الحرب فيما بعد. ميّتٌ آخر يدخل في حياتي. في البداية كان يزعجني بشكلٍ متواصلٍ ومن دون

مراعاةٍ لأيّ شيءٍ، وقد كنت أخشاه بكلّ صراحةٍ؛ فهيهات أن أكون له ندًّا في قوّته وشجاعته خصوصًا، لكنّ العراك الجسديّ معه كان هلعي الكبير: إنّه الخوف - الخوف الدّائم نفسه- من رؤية جسدي مثخنًا بالجراح. وفي الحقيقة، فإنّني لم أدخل في عراكٍ جسديٍّ طيلة حياتي، ولا حتى مرّةً واحدةً.

لم يكن لدى الأولاد سوى ألعاب بدنيّة، لكنّ لعبتهم المفضّلة على وجه الخصوص كانت تلك اللعبة التي ينكبّون فيها على حين غرّةٍ، وبشكل جماعيٍّ، فوق أحد الأولاد الذي يتصادف وجوده منفردًا في لحظةٍ معيّنةٍ، فيطرحونه أرضًا في ركنٍ مظلمٍ من ملعب المدرسة المسقوف، ويثبّتونه بإحكام ثمّ يفتحون فتحة سرواله على آخرها ويخرجون قضيبه في الهواء، ثم كانوا جميعهم بعد ذلك يفرّون أشتاتًا مطلقين صيحاتهم العالية. وقد عانيتُ أنا الآخر من نصيبي من هذه اللعبة، وقاومتهم في ذلك بالطبع، لكنّني شعرتُ بمتعةٍ غريبةٍ قد تملّكتني. كنتُ قد تعرّفت أيضًا في المدرسة على أحد أطفال الإعانات الحكوميّة، كان مجهول النسب، وشديد الذكاء، وكان ينافسني على احتلال المرتبة الأولى في الصفّ. كان شاحبًا وضعيفًا (مثلي)، وكان الحديث الهامس عنه يجري في غبطةٍ حول قيامه باللعب «لعبة البابا والماما» مع فتاةٍ من مدرسة البنات، كانت هي الأخرى من أطفال الإعانات الحكومية، وسط الأعشاب العالية في حديقة الكونتيسة. وإذ كان الحديث يجري عنهما ذات يومٍ أمامي، فقد أردتُ التدخل بنيّة طيّبةٍ وعلى نحوٍ قاطعٍ: هذا الأمر مستحيل، إنّهما لم يبلغا بعد السنّ القانونيّة!... هكذا إذ لم يكن لديّ سوى تلك الأفكار الشرعية حول القضيب وشؤونه؛ فإنني لم أفعل سوى نقل أفكار والدتي المُسبقة ومخاوفها. بعد سنتين سوف أعلم أنّ هذا الصبيّ اللامع، والمريض قد قضى إثر إصابته بمرض السلّ. صورةٌ أخرى عن قدرٌ مأساويّ: ميتٌ آخر، شاحبٌ وضعيفٌ مثلي أنا.

أتذكّر ذلك الشتاء الرّهيب في عامي 1928-1929 حيث كان ميزان الحرارة قد هبط دون الدّرجة 35 تحت الصفر في لاروشميلي التي تجمّدت فيها المستنقعات والأنهار جميعًا، حتى مياه الدّلاء الموجودة في المطابخ كانت قد تجمّدت على الرّغم

من قربها من الفرن الموقَد. كان الثّلج قد غطّى كلَّ شيءٍ بطبقةٍ سميكةٍ وكتيمةٍ حتّى إنّنا لم نعد نسمع زقزقة العصافير، ولم نعد نرى منها سوى آثار أقدامها النجميّة فوق الثلوج. أتذكّر تلك المتعة المطمئنّة التي كنتُ أشعر بها إذ أتخيّل المدرسة جزءًا من لوحة الثلج تلك، كم كنتُ أعشق تلك الثلوج التي كانت تغطّي كلّ شيءٍ: كان ذلك يعني الحماية الأسمى بالنسبة إليّ؛ البقاء داخل المنزل الدافئ والآمن، الذي يقيني من كلّ خطر خارجيّ -حتّى إنّ العالم الخارجيّ نفسه الذي تغطّيه الثلوج نفسها كان مشمولًا بعناية الأمن والسلام- وكان يعني اليقين المطلق بأنّه تحت تلك الطبقة الناعمة من السكينة والسلام؛ فإنّه لا يمكن لأيّ مكروهٍ أن يصيبني. هكذا كان العالم الخارجيّ آمنًا كما العالم الداخليّ.

ولكن هل أستطيع أن أضيف تفصيلًا آخر؟ فأنا لم أكن أُدعى في المدرسة لوي ألتوسير، بل كانوا ينادونني باسم جدّي: بيير بورجيه...الأمر شديد التعقيد! لكنّه كان يناسبني كثيرًا.

لقد واظب هذا الجدُّ -مع ذلك- على تعليمي كلَّ شيءٍ عن الحياة وعن العمل في الحقول. وعندما أصبح لديه هكتار ونصف من الأرض مع مسكنين خربين عتيقين كان يضع فيهما أدوات الزراعة، قام حينئذٍ بتعليمي كيف أبذر الحنطة والشعير والشوفان والحنطة السوداء والنَفَل والبرسيم، كما علّمني حصادها بالمنجل والحاصدة، وجعلها في حزمٍ، وجمعها مع سيقان أشجار الكستناء وجدائل القشّ التي يجب ربطها بحركةٍ ماهرةٍ من اليدين، وقلب البرسيم والنفل بواسطة المذراة والمشط تحت أشعّة الشمس الساطعة وجعلها رزمًا حسنة التدوير، وتحميلها بمشقّة (وأيّ ثقلٍ لها!) في عربة الجار الذي كان يتسلّمها عني في الحقل.

كان جدّي يحمل قمحه وشعيره وشوفانه إلى آلة النورج (أو المخباط بالعاميّة)، التي لا يوجد غيرها في المنطقة، والتي كانت تجول على المزارع، وكان الأصدقاء والجيران جميعهم يستعدّون حينها -كلٌّ بدوره- من أجل عيد الدراس الكبير. وقد

صحبني جدّي برفقته في أحد الأيام، لمرّةٍ واحدةٍ، وهنالك اكتشفتُ بكلّ ذهولٍ «آلة الدرس» تلك؛ كتلةٌ عظيمةٌ ملبّسة بالخشب، معقّدة التركيب وذات ضجيج مُصمٍّ، كانت في حركةٍ وقعقعةٍ كلّيةٍ غير مفهومةٍ، وكان صوتها يغلظ تحت تأثير تناوب المحرّكات على العمل بواسطة قشاط جلديّ طويلٍ وخطير لأنّه كان «ينطُّ في مكانه» بفعل آلةٍ بخاريّةٍ أخرى تعمل على الفحم الحجري في أغلب الأحيان. يا له من مشهدٍ مؤثّرٍ! كانت حزم النبات ترمى بواسطة المذراة من أعلى العربات إلى سطح الآلة، وهنالك كان يوجد عاملان مغبّرين يفكّان أربطتها ويلقمونها على عجلٍ إلى الآلة الخشبيّة التي كانت تلقفها بفمها الفاغر، وسط ضجيج جهنّمي لأعواد الشعير المتقصّفة.

كان الرجال يجيئون ويذهبون كأنّهم أشباح في عتمةٍ غريبةٍ في وضح النهار، وقد لفّوا أعناقهم بمناديل حمراء وهم يسعلون ويبصقون، من دون أن يتوقّفوا عن إطلاق الشتائم والصراخ كي تُسمع أصواتهم وسط الضجيج الجهنّمي لأصوات التقصّف، وقد تكدّر الجوّ ببالات القمح والشوفان، وغدا الهواء خانقًا. وعند طرف الآلة وأسفلها كان القمح يجري كالماء في خرير مسموع لكنّه صامتٌ إذ ينصبُّ في أجربةٍ تُحمل باليد. كان الآلة تنفثِ في الهواء نثار القشّ المتكسّر بعد أن تجرّد من حبّه؛ لتتراكم بالات خشنةٌ منه، فيما تفوح رائحةٌ قويّة وعجيبةٌ تمتزج فيها روائح الفحم، والدّخان، ودفقات الماء والزيت والحَبّ، ورائحة قماش أكياس الخيش، فيما تنفذ رائحة العرق -عرق الرجال- عابقةً خلال هذه الورشة الهائلة. وكان جدّي يحاول -وسط هذا الصخب- أن يشرح لي طريقة عمل الآلة، فيما أنا واقفٌ إلى جانبه حينها كان حبّ الزرع خاصّته ينصبّ داخل أكياسه: فأيّةُ روعةٍ وأيّ عمل تشاركيّ ينهض ماثلًا أمام معجزة العمل هذا وثوابه!

عند منتصف الظهيرة كان الجميع يتوقّف عن العمل، فيهيمن صمتٌ عظيمٌ وعجيبٌ -بصورةٍ مباغتةٍ- على أصوات الضجيج كلّها. كانت رائحة الرجال ورائحة عرقهم تجتاح عندئذٍ فضاء الغرفة الكبيرة القائمة في المزرعة، حيث يكون

ربّ العمل الضاحك قد أعدَّ طعامًا وفيرًا. أيّة أخوّةٍ تلك التي كانت تسود في أوقات العمل والراحة، ذلك التربيت القويّ على الظهر، وأصوات المناداة، والصياح من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر، والضحك، والسباب، وألفاظ البذاءة.

كنت أدور بحريّةٍ وسط هذا العالم من الرجال المنهكين والمنتشين من العمل والصراخ. لم يخاطبني أحدٌ منهم، لكنّهم لم يوجّهوا لي أيّة ملاحظةٍ كما لو أنّني كنتُ واحدًا منهم. وقد كنتُ على يقينٍ مطلقٍ أيضًا بأنّني سوف أصبح يومًا رجلًا مثل هؤلاء الرجال.

ثمّ يحدث فجأةً أن تتدخّل الخمرة –وقد ملأت دفقاتها العامرة الكؤوس الكبيرة والحلوق المتلهّفة– لتؤدّي دورًا مساعدًا إذ تولّد ضجيجًا أخرق لأغنيّةٍ تتلعثم في تذكّر إيقاعها وكلماتها، لكنّها تخفق، وتضيع، ثمّ تكتشف في النهاية نفسها وينفجر نشازٌ حماسيٌّ: أغنيةٌ قديمةٌ عن حربٍ وثورةٍ ريفيّةٍ (أغنية عن ثورة جاكري–القريبة في رسمها من: جاك–الاسم الذي كنت في الماضي قد رغبت في أن أحمله) كان رجال الدين والكونتات قد تلقّوا التوبيخ الشديد بسببها. أمّا أنا فقد وجدتُ نفسي فجأة– وبكلّ تأكيدٍ– في صحبة رجالٍ حقيقين تفوح منهم روائح العرق، واللحم، والخمرة، والشهوة الجنسيّة. وإذ بي أمام كأسٍ مغتبطةٍ، مترعةٍ بالخمر تمتدّ نحوي مصحوبة بتحدٍّ مليءٍ بالدعابات الخليعة: سوف يصبح الولد سكّيرًا؟ هل أنت رجل أم لست كذلك؟ وأنا الذي ما عرفت الخمر في حياتي أبدًا (فوالدتي كانت تجده أمرًا خطيرًا، وخصوصًا في عمرك–اثنتا عشرة سنة!)، إذ بي أتجرّعه قليلًا، ويُهلّل بي. ثمّ كانت الأغنيّة تعاد من جديد في غناءٍ مفخّمٍ، وجدّي عند طرف الطاولة الكبيرة يبتسم نحوي.

وقد يكون لي –باسم الحقيقة– أن أدلي باعترافٍ مؤلمٍ: فأنا لم أشهد تلك الأغاني المشوّشة (بالطبع كنتُ قد سمعتها تُغنّى علنًا، كما جرى في يوم انتخابات البلدية

وسط الحشود حينما انتخب السيّد دوكرو، في عام 1936، عمدةً في مواجهة الكونت)، ولا مشهد الكأس المترعة خمرًا داخل تلك الغرفة الواسعة. إذًا لقد كنتُ أحلم، وأتشهّى على نحوٍ مكثّفٍ أن أعيشها. بالطبع، لم يكن وقوعها مستحيلًا على وجه الإطلاق، بيد أنّه من الواجب علي –وباسم الحقيقة– أن أقدّمها كيما أبيّن ما كان يحدث في ذاكرتي: إنّه نوعٌ من الهلوسات التي كانت تحدث في غلواء الرّغبة، رغبتي.

وفي الحقيقة، فإنّني ملتزم على مدى هذه الذكريات المختلطة جميعها بأن أكتفي بالوقائع الدقيقة: بيد أنّ الهلوسات هي الأخرى تدخل في خانة الوقائع.

الفصل الثامن

في عام 1930، عُيّن أبي وكيلًا مفوّضًا بالتوقيع في مقر البنك الذي يعمل فيه في مارسيليا، وكنت آنذاك أبلغ من العمر اثنتي عشرة سنة. أقمنا في الشقّة رقم 38 في شارع سيباستوبول، في حي كاتر شومان (Quatre-Chemins)، وقد سُجّلت بصورةٍ تلقائيّةٍ في ثانويّة سانت شارل (Saint-Charles)، التي لم تكن تبعد عن منزلنا كثيرًا. بكلّ تأكيد إنّ أسماء لوي، شارل، سيمون: هي من قبيل «الأقدار»، مثلما كان الفيلسوف سبينوزا (Spinoza) [46]يقول في دراسته حول القواعد النحويّة العبرية. يا لسبينوزا!

استمرّت الحياة على حالها كما كانت دائمًا داخل المنزل: عزلةٌ كاملةٌ، أمّا في الثانويّة فقد استمرّت المغامرة. كنتُ في الصفّ الخامس حينما دخلتُ المدرسة، وقد اتّخذتُ لنفسي موطأ قدمٍ فيها؛ إذ سرعان ما أصبحتُ في عداد الطلّاب المتفوّقين في الصفّ، وكعادتي كنتُ طالبًا عاقلًا ومجدًّا. وسوف تدور حياتي بأكملها بين الثانويّة (الجميلة رغم قدمها، ولكنّها المدرسة الأولى في المدينة من جهةٍ أخرى) وبين جانب آخر هو خطوط السكّة الحديديّة التي كانت تقود إلى سانت شارل، المحطّة الأخيرة الكبرى. لطالما عشقتُ المحطّات «الأخيرة» حيث تتوقّف القطارات عند مصدّاتٍ عظيمة الكتلة (إذ لم يعد في مكنتها المضيّ أبعد من ذلك). في الجانب الآخر من الطريق، كان ثمّة ملعبٌ رياضيّ. وهنالك كان في استطاعتنا -وتلك كانت أهميّته- في ممارسة بعضٍ من النشاط، ما إن كان المعلّم يتوقّف، تاركًا لنا أن نمضي في لعب كرة القدم.

(46) باروخ سبينوزا (Baruch Spinoza) 1632-1677: فيلسوف هولندي من أهم فلاسفة القرن السابع عشر. (المترجم)

لقد ربحتُ في تلك المرّة، حينما تهيّأت فرق اللاعبين على الفور، ولست أدري لماذا تمّ دفعي كلاعبٍ أماميّ. لقد كنّا نفوز لأنّه كان لدينا صبيٌّ هدّاف كان يغوص بين اللاعبين كما لو أنّه لم يكن يفعل شيئًا في حياته سوى هذا الأمر. كان يُدعى بول (Paul)، وإذ شرعنا في الحديث، تآلفنا وسرعان ما ارتسمت بيننا ملامح صداقةٍ فريدةٍ.

لم يكن بول متفوّقًا في الدراسة مثلي، وهو لن يكون كذلك أبدًا، لكنّه كان يملك شيئًا ينقصني: لم يكن كبيرًا على الإطلاق، لكنّه كان عريض المنكبين ويداه قويّتين، وكان متين البنية وشجاعًا على وجه الخصوص. بدأت أمّي -التي تنبّهت إلى أنّه سوف يكون صديقًا لي- بالتحرّي عن والديه: كان والده يتعاطى التجارة، وأمّه امرأةٌ لطيفةٌ، وبالمجمل كانت العائلة محترمةً، وهي تعتنق الكاثوليكيّة، لذلك فقد اشتعل الضوء الأخضر في إشارة المرور. وقد تعزّزت أواصر العلاقة أكثر حينما جعلتني أمّي أنضمّ إلى فريق كشّافة فرنسا (Scouts de France)[47]، وكان بول قد انضمّ إليها أيضًا: ضمانةٌ أخرى تُضاف. بل إنّ والدتي قد سمحت لي أن أزور بول الذي كان يقيم مع والديه في بناء كان والده يجعل بعضه مستودعًا لبضاعته من زبيبٍ، ولوزٍ، وصنوبرٍ وسواها من سلعٍ لا تزال روائحها تطاردني.

حقًّا، لقد كان حبًّا من أوّل نظرةٍ. لقد أصبحنا شريكين لا يفترقان، وسرعان ما شرعنا في صياغة مشاريع مشتركةٍ. كان بول يقرضُ الشعر على طريقة ألبير سامان (Albert Samain)[48]، وكنتُ أنا أدقّقه. سوف يؤلّف هذا العمل مجلّةً شعريّةً سوف تقلب العالم رأسًا على عقبٍ. وحينما كانت العائلة ترحل -في البداية داخل مارسيليا نفسها- كنّا نواظب على تبادل مراسلات مشتعلةٍ: مراسلاتٍ غراميّةٍ بكلّ

(47) كشّافة فرنسا (Scouts de France) 1920-2004: جمعية فرنسية كاثوليكيّة شبابيّة وذات طابع تربوي عام، تعد الحركة الرئيسة في الحركة الكشفيّة الفرنسيّة، وقد انحلّت في العام 2004 في جمعيّة أخرى. (المترجم)

(48) ألبير سامان (Albert Samain) 1858-1900: شاعر فرنسي من أنصار المدرسة الرمزيّة. (المترجم)

معنى الكلمة.

لقد كنتُ خلال فترةٍ زمنيّة بأكملها -في الصفّ الرّابع والخامس- مُضطَهدًا حقيقيًا من قبل صبيٍّ عظيم الكتلة وقويّ، كان أحمر اللون، وكان يُدعى غيشار (Guichard). كان رجلًا «شعبيًّا»، ذا لغةٍ خاصّةٍ، وسلوكيّاتٍ وأخلاقٍ «سوقيّةٍ»، أو هكذا كانت تبدو بالنسبة إلي. كان فظًّا بطبعه، وكان يهزأ بالمعلّمين، والمراقبين والناظر والمدير، وبكلّ صاحب سلطةٍ باختصار، وكان يبدو أنّه يكره الطلّاب المتفوّقين، وكنتُ أنا -من بينهم- على رأس القائمة. لم يكن ينتهي -كما أتذكّر- عن استثارتي ومضايقتي، في الوقت الذي يُفترض فيه أنّني كنت، وبلا شكٍّ، أستفزّه بما آتيه من سلوكٍ مهذّبٍ -بصورة لا شعوريّةٍ، كما سوف أدرك جيّدًا فيما بعد-، وكان يجرّني إلى العراك، ويتحدّاني في ذلك. لكنّني لم أكن أجدُ مصلحتي مطلقًا في خوض العراك، وخصوصًا قبالة صبيٍّ مثله، هيكلٍ في مراتب الرجال! فعراكه كان قمّة الرّعب في نظري؛ إذ كنت أخشى أن أخرج من مثل هذا العراك وقد تقطّعت أشلاءً إلى الأبد كرجلٍ ميتٍ. ثمّ بدا أن ثائرة الفتى قد هدأت، من دون أن أعرف السبب وراء ذلك، لكنّني سرعان ما فهمت الأمر. فبول -وهو الفتى المغالي في «احتشامه» (بسحر هذه الكلمة في أبصارنا)- قد أسرّ لي في أحد الأيامِ، بأنّه قد خاض عنّي بيديه العاريتين عراكًا في الخارج، فوق الرصيف ضدّ غيشار -لأجلي ودفاعًا عنّي- من دون أن ينبئني بالأمر. لقد تسرّت همومي إذ تحاشيت بذلك هذه المخاطرة، كما تضاعف حبّي لبول.

كنّا نحن الاثنين معًا، دونما انفصال، قائدي «الدّوريّة» في فريق الكشّافة، هو يمثل فصيلة النمور، وأنا أمثّل فصيلة الفهود، وقد كان هنالك ذلك الفتى بيلورسون (Pélorson) -الذي كنّا نناديه بيلو (Pélo)- كقائدٍ للجند، والذي كان ينال بفضل قامته الصغيرة، ولسانه الذليق حظوةً لدى المرشد ذي الأنف الحادّ المشعر. لكنّ بيلو هذا كان زير نساءٍ جليلٍ، وعلى الأقلّ فهذا ما كان يتبجّح به علنًا، الأمر الذي كان يبدو لي في مطلق الغرابة وسط هذه المنظّمة الكاثوليكيّة التي نذرت

نفسها لنقاء الأخلاق.

كنا نغادر في الصيف ضمن أفواجٍ للتخييم طويل الأمد في جبال الألب (Alpes).

في تلك المرّة التي كنّا فيها قرب آللو (Allos) [49] وسط مرجٍ رائعٍ يطلّ على الوديان، كنّا قد أحطنا أنا وبول -كالآخرين- رقعة خيمتنا -وهي بالتالي «حمانا»- بمدماكٍ صغيرٍ من الحجارة يسبقه رواقٌ عالٍ من الجذوع الخفيفة لأشجار البتولا.

كان كلّ شيءٍ يبدو أنّه يسير على خير ما يرام. مع ذلك كان لديّ بين عناصر فرقتي صبيٌّ أكبر منّي سنًّا، لكنّه كان فقيرًا، وهزيل البنية وعليلًا. لم يكن مهذّبًا مثلي، بل كان يتكلّم بطريقةٍ خاصّةٍ ويأتي تصرفاتٍ «سوقيّةً»، كما كان يرفض الانصياع لي بصورةٍ عدائيّةٍ، رغم «توجّب» ذلك عليه. وإذ كنتُ أرزح تحت وطأة شعورٍ ثقيلٍ بالمسؤولية، فإنني ما فتئتُ أحاول أن أعيده إلى جادّة «الصواب». لكنّه هو الآخر كان يرغب في العراك معي كي يتخلّص من الأمر. وإذ كنتُ بعيدًا عن أن أكون الطرف الأقوى ولو لمرّةٍ واحدةٍ، فإنّه لم يكن يردّ عليّ إلّا بالسّباب والوعيد والاستفزازات البذيئة. وإذ بدأت الأمور بيني وبين هذا الصبيّ تتّخذ مثل هذا المنحى فإنني غدوتُ يائسًا من ممارسة سلطتي، كي أنتهي إلى الوقوع في شيءٍ من الكآبة، «للمرّة الأولى» في حياتي إذا صحّ التعبير. وبما أنّ صديقي بول -ولستُ أدري السبب في ذلك- كان يشعر بأنّه مريضٌ هو الآخر -ولعلّها كانت أمعاؤه- فقد قرّر بيلو الانسحاب بنا مؤقّتًا كي نلوذ، معتكفين، في هُريٍ عالٍ من مزرعةٍ مهجورةٍ كانت تبعد عن مكاننا خمسمئة مترٍ. وكان قد أحضر لنا ما نأكله. لكنّنا إذ أصبحنا بمفردنا، في النهاية، فقد تعانقنا عناقًا رقيقًا تجمعنا المحنةُ المشتركة، وشرعنا نبكي لما قيّضته لنا الأقدار. أتذكّر بكلّ وضوحٍ أنني أخذتُ أشعر -في غمرة ذلك العناق- باهتزاز آلتي، لم يكن ذلك بشكلٍ كبيرٍ، لكنّ اختبار هذه النشوة الأخّاذة

---

(49) آللو (Allos): بلدة فرنسية في إقليم ألب بروفانس العليا من منطقة بروفانس ألب كوت دازور الواقعة في الجنوب الفرنسي. (المترجم)

كان أمرًا رائعًا.

كما كان الأمر نفسه يحدث في سياق ما كان يُدعى «رحلةً من الدرجة الأولى»، وهي اختبارٌ مصمّمٌ كي يجعلنا نحظى «بوسامٍ» خاص، وتقدّمٍ في الرتبة. كان الأمر بالنسبة لنا نحن الاثنين (اللذين لا يفترقان) يعني اجتياز مسافاتٍ طويلة سيرًا على الأقدام في الأرياف والتلال المحيطة بمرسيليا، حاملين حقائب الظهر، والقيام بتدوينٍ دقيقٍ لجميع ما يمكن ملاحظته: كحال الطرق، والبيئة الطبيعيّة، والنباتات والحيوانات التي تعيش في المنطقة، والمناسبات والعبارات الخاصّة بالسكّان المحلّيين، وسوى ذلك من أمور. كان الأهل قد شهدوا –تحت الرّعاية المشتركة لكلٍّ من بيلو والمرشد، لحظة مغادرتنا الرّسميّة تقديرًا لجسامة المهمّة المستحقّة، وإذ غادرنا يدًا بيدٍ شرعنا في اجتياز الرّيف الذي سوف يهبط الليل عليه عمّا قريب، فأين المبيت؟

كانت لدينا خيمةٌ بالتأكيد، لكنّ المطر إذ بدأ بالهطول فقد شرعنا نبحث عن ملجأٍ، وقد وجدناه في قريةٍ صغيرةٍ حينما قرعنا باب الخوريّ الذي أتاح لنا مسرحَ أبرشيّته الصغير. تمدّدنا هنالك تحت أغطيتنا وذراع الواحد منّا تلفُّ الآخر. ألم نشعر بالحرارة؟ حرارة المحبّة والحنوّ أقصدُ. من جديد أحسستُ بآلتي تنتصب، وسوف يتكرّر الأمر نفسه في ظهيرة اليوم التالي حينما سقط بول مريضًا إثر مخالطته الجموع، كان يعاني من ألمٍ رهيبٍ في أمعائه، وكان يتلوّى في مكانه، فأخذته مرّةً أخرى بين ذراعي كيما أخفّف من ألمه فشعرتُ من جديد بتلك المتعة الناقصة عينها في أسفل منطقة البطن السّاخنة (كنتُ ساذجًا أجهل أنّه يتوجب عليّ أن أكمل هذه الرغبة، ولن أعرف ذلك إلا من باب الصّدفة وأنا معتقلٌ في عمر السابعة والعشرين!). لم نستطع إكمال هذه «الرحلة» فقفلنا عائدين إلى مرسيليا على متن سيارةٍ أقلّتنا عن الطريق، مجلّلين بالعار والتعب.

كان من الممكن له أن يظنّ أنّني مثليّ الميول، من دون أن أستطيع الاشتباه بكونه

كذلك. ولكنّ ذلك لم يحدث! فقد كان إلى جانب فوج الصبيان دائمًا فوجٌ موازٍ من الفتيات، تحت قيادة مجموعة من «رئيسات الكشّافة». وكانت واحدةٌ منهنّ سمراء اللون، كانت ضخمةً جدًّا في نظري، لكنّها كانت ذات وجهٍ مثاليّ وآسر، كانت شديدة الجمال وكنتُ مفتونًا بسحرها. لكنّ بول وقع في حبّها، وبصورةٍ تلقائيّةٍ استودعني أسراره. كانا يتناجيان ليلًا أمام «نار المخيّم» الكبيرة، التي كانا يلقمانها الحطب. وكان اللّهيب، لهيب نارهما يرتفع عاليًا في عتمة السماء المظلمة.

منذ ذلك الحين سوف أنظر إلى تلك الفتاة على أنّها الفتاة الحبيبة، وسوف أركن في قرارة نفسي إلى هذا الحبّ المَعيش بطريق الإنابة. سوف يتزوّجان لاحقًا، خلال فترة الحرب، في لوينز (Luynes)، قرية والد بول حيث كنّا قد أمضينا نحن الاثنان عطلاتٍ مشوّقةً في عزلةٍ تامّةٍ. في أثناء قدّاس الزواج، جلستُ إلى آلة القَدميّة (L'Harmonium)[50] وارتجلتُ لحنًا على طريقتي. غير أنّ جمال تلك الفتاة ووجهها لن يفارقاني مدى الحياة، وسوف تدركون لاحقًا إذ أقول الآن: مدى الحياة.

ذات صيفٍ، سوف نستأجر من أحد زملاء والدي في العمل، الطابق العلويّ من الفيلا التي يملكها في بلدة باندول. وإذ يستمر والدي مقيمًا في مقرّ عمله في مرسيليا، فسوف نستقرُّ نحن _أي أنا وأمّي وأختي- في باندول. وكان من المقرّر أن تأتي في وقتٍ قريبٍ زوجةُ الزميل وابنتيه لتسكنا في الطابق الأرضيّ من الفيلا. لقد صُعقتُ منذ اللحظة الأولى التي وقعت فيها عيناي على سيمون (Simone)، البنت البكر: كانت بمثل جمال عشيقة بول، وكان لها الوجه نفسه، سمراء اللون وفوق ذلك أصغر منها حجمًا بكثيرٍ: تمامًا على حدّ ما أشتهي. شعرتُ بعاطفةٍ قويّةٍ تتفتّق في أحشائي.

لقد تفكّرتُ في جميع أنواع الحيل كي أستطيع الالتقاء بها، ابتداءً من وقوفنا أمام

---

(50) القدميّة (L'Harmonium): آلة موسيقيّة تشبه البيانو إلا أنها من آلات النفخ لا من آلات النقر. (المترجم)

والدتينا وقد أمسكنا السلّة من مقبضيها المتقابلين، ووصولًا إلى تعليمها مبادئ السباحة مسندًا يداي تحت صدرها وأسفل بطنها، وانتهاءً باصطحابها في جولةٍ (وقد اشترطت والدتي أن يكون ذلك تحت «العين الساهرة» لأختها الصغيرة!) إلى مرتفعات مادراغو (Madrague) -التي تبعد عشرة كيلومتراتٍ عن باندول- وارتقاء تلّةٍ عاليةٍ من الرّمل الناعم الذي كان ينسابُ من تحت أقدامنا. كانت رغبتي فيها تزداد تمكّنًا. وقد فطنتُ ذات يوم إلى أنّني -وقد عدمتُ الجرأة على مداعبتها (إذ كانت الأخت الصغيرة واقفةً في المرصاد، مع أنّني -وبلا شكٍّ- لم أكن أجرؤ أبدًا على عملٍ كهذا حتى في غيابها)- أستطيع أن أجعل خيطًا من الرمال يجري بين نهديها ببطءٍ. وإذ أخذتْ الرمال تهبط فوق صفيحة بطنها وتتجمّع عند قوس العانة، إذا بسيمون تنهض، وتباعد سروالها عن فخذيها وما بينهما لتجري الرمال نحو الأسفل. لقد كان في استطاعتي أن ألمح -في لحظةٍ خاطفةٍ- عند أعلى فخذيها الرّائعين، العاريين، قبضةً من الشعر الأسود الكثيف، وأن أميّز على وجه الخصوص ذلك الصدع الزهريّ اللون لآلتها التناسليّة: وردةٌ زهريةٌ من أزهار بخّور مريم.

لكنّ والدتي تنبّهت سريعًا إلى مشاعري البريئة والمتوقّدة أيضًا. فانتحت بي جانبًا وصارحتني في جرأةٍ منها: كائنٌ ما كان بينكما فإنّ الأمر غير واردٍ، إنّه غير لائقٍ ومنافٍ للأخلاق بحكم فارق العمر بينكما؛ فأنت تبلغ الثامنة عشر من العمر، وسيمون تبلغ التاسعة عشر. وفي جميع الأحوال فإنّك ما تزال صغيرًا جدًّا على الخوض في مسائل العشق والغرام!

لكنّ الأسوأ قد وقع في يومٍ من أيام الشّمس الحارقة، كان الوقت ظهرًا، وكنتُ أعلم أنّ سيمون قد ذهبت إلى شاطئٍ قريبٍ من مادراغو من أجل السباحة. لذلك فقد ركبتُ دراجتي الهوائيّة المعدّة للسباق، وهممتُ في الانطلاق كي ألحق بها، حينما ظهرت والدتي فجأةً خارج المنزل. إلى أين أنت ذاهبٌ؟ كنتُ أعلم بأنها تدرك حقيقة الأمر. لقد أصبح لحاقي الآن بسيمون في خبر كان. لذلك فقد أشرتُ إليها بالاتّجاه المعاكس تمامًا لما أريدُ من وجهةٍ -من دون أن أتردّد للحظةٍ، ومن دون أن

أفهم ردّة فعلي هذه أو أن أستطيع السيطرة عليها-: «أنا ذاهبٌ إلى لا سيوتا (La Ciota)[51]!»، ثمّ أخذتُ أقود الدراجة وأنا أشعر بغيظٍ شديدٍ. أتذكّر ذلك المشهد بكلّ وضوحٍ، كنتُ أبكي في هيجانٍ عظيمٍ وأنا فوق دراجتي.

منذ ذلك الحين فإنّ حادثة اغتصابي («لقد أصبحت الآن رجلًا يا ولدي!»)، وحادثة منعي عن سيمون تَمثلان في ذاكرتي كأمرٍ واحدٍ، وتنصهران في ذلك النفور البذيء الذي أثاره في نفسي -في طفولتي، أو في الذكرى التي أُسقطها على طفولتي- مشهدُ نهدي والدتي وقذالها الأبيض تحت شعرها الأشقر المتجعّد: بذاءاتٌ. شعورٌ بالنفور، والكراهيّة الباطنيّة: إذ كيف كان يمكنها أن تتعامل مع رغباتي على هذا النحو؟ أقول «منذ ذلك الحين»، في لاشعوري بالطبع، وليس في وعيي وإدراكي. فأنا لم أتأمّل بوضوحٍ في تلك الحوادث، وتشابهها، وتراكبها -وفي تأثيراتها التي أصبحت واضحةً جدًّا بعد أن قُضي الأمر- إلّا في وقتٍ متأخّرٍ جدًّا: أي في سياق قيامي بالتحليل والمراجعة.

تتالت مآثري الدراسية خلال مدّة إقامتي في مارسيليا، وقد كنّا اثنين في المنافسة على نيل الصدارة في الصفّ: أنا وصبيٌّ دميم الوجه، متين البنية، ومتفوّقٌ جدًّا في مادّة الرياضيات (بالأحرى لقد كنتُ دون الوسط في هذه المادة التي كانت تشكّل «أمنية والدتي»)، وكان الصبيّ يُدعى فيبدان (Vieilledents) أسنانٌ قديمة/ منازلُ قديمة (فاسم ألتوسير يعني ذلك في اللهجة الألزاسيّة)[52]، يا له من تقابلٍ غريب في الأسماء.

أتذكّر أنّ هذا الصبيّ حاول أن يجعلني أنتسب إلى حركة شبيبة الكولونيل دو لا

(51) لا سيوتا (La Ciota) بلدة فرنسية تقع على بعد 31 كم شرق مارسيليا. (المترجم)

(52) كلمة Vieilledents تتماثل في لفظها مع لفظ مفردتي: (Vieille) وتعني قديمة، (Dents) وتعني أسنان، أما (Althusser) فهي تتماثل في لفظها مع لفظ مفردتي (Alte) و(Hauser) اللتين تعنيان في اللهجة الألزاسيّة منازل قديمة، كما يبيّن ألتوسير ذلك في المتن. (المترجم)

روك (La Roque)[53]، لكنّني لم أخض في ذلك. بالطبع لم يكن ذلك بدافع الوعي السياسيّ، بل بدافع الحذر، مثل والدي.

كنتُ أنتقم منه في مادة الآداب النظريّة، وقد احتفظت بذكرى دائمة الحضور عن صفّي في السنة الثانويّة الأولى. والتي سوف أظنّ فيما بعد –وبناءً عليها– أنّني أمتلك أمرًا مميّزًا على صعيد بنيتي النفسيّة. كان لدينا أستاذٌ عظيمٌ في مادّة الأدب، يُدعى السيّد ريشار (M. Richard). كان رجلًا طويلًا ونحيلًا، شديد الهشاشة ودائم المرض، وكان ذا وجه طويلٍ أبيض، يرزح هو الآخر تحت وطأة جبهته المفلطحة، وكان يشكو على نحوٍ دائمٍ من آلام الحلق الذي كان يبقيه على الدّوام محميًّا بدثارٍ من الصوف يتلفّع به (على غرار والدي، وأنا بصورة تلقائيّةٍ في تلك الفترة). كان رجلًا مجبولًا بالرقّة واللطافة اللامتناهية: وكان ذا روحٍ نقيّةٍ، بعيدًا عن مغوّيات الجسد والمادة طرًّا. كان الصورة المضاعفة عن أمّي وعنّي أنا بالذّات (وقد فطنتُ إلى هذا الأمر في هذه اللحظة عينها التي أكتب فيها هذه الكلمات). كان يعلّمنا عن كبار الأدباء والشعراء في التاريخ، ولكن بأيّة حماسةٍ، ورقّةٍ، وبراعة! كنتُ أتمثّل به كليًّا (فقد كان مناسبًا في كلّ شيءٍ)، وسرعان ما أصبحتُ أحاكي أسلوب كتابته، وأستعير حيله في عباراته الدّارجة، وأتبنّى أذواقه وأحكامه، حتى نبرة صوته، وتموجّاته اللطيفة، لتتحوّل مقالاتي إلى مرآةٍ تنعكس فيها ملامح شخصيّته بدقّةٍ. لقد تنبّه على الفور إلى ملكاتي، ولكن أية واحدةٍ منها؟ لا شكّ أنّني كنتُ تلميذًا مجتهدًا، شديد الحساسية، ومسكونًا بقلقٍ دائمٍ –إذا جاز لي القول– حيال فعل الصواب. لكنّني أدركت منذ ذلك الحين أنّ القضيّة كانت تتعلّق بأمرٍ آخر شديد الاختلاف.

لقد تمثّلتُ به في البداية للأسباب التي أتيت على ذكرها، المتعلّقة بصورتي وصورة

(53) فرانسوا دو لا روك (François de La Roque) 1885-1930: رجلٌ عسكريٌّ، وسياسيٌّ، ومقاومٌ فرنسيٌّ وقد عُدّ شخصيّة سياسيّة من الصفّ الأوّل في الثلاثينيات بوصفه الرئيس العام لحركة «صليب النار» ومن ثمّ "للحزب الاجتماعيّ الفرنسي". (المترجم)

أمّي، وأكثر من ذلك، بصورة لوي: العمُّ الميْت. ولقد كان السيّد ريشار هو من أقنعني -فيما بعد- بالاستعداد لامتحان مدرسة الأساتذة العليا في شارع أولم، من دون معرفةٍ من أهلي، وحتى والدتي. لقد أدركت -في حقيقة الأمر- أنّه كان يمثّل صورةً إيجابيّةً عن هذه الأمّ التي كنتُ أحبّها، وكانت تحبّني، شخصيّة حقيقيّة أستطيع معها أن أحقّق هذا «الانصهار» الرّوحي الذي كانت والدتي ترغب به، لكنّ طبيعتها «المنفّرة» كانت تمنعني من ذلك.

لكنني لطالما اعتقدتُ (وقد استمرّ ذلك الاعتقاد إلى بداية قيامي بالتحليل والمراجعة) بأنّني كنتُ أؤدّي حيال السيّد ريشار دور الولد المحبِّ المطيع، الولد الذي يعدّ أيضًا أبًا جيّدًا لأنّني -في هذه الحالة- كنتُ أمارس حياله دور «والد الوالد»، ولقد أغوتني هذه الصيغة على الدوام، ورأيتُ فيها كشفًا عن خصالي العاطفيّة. كانت طريقةً أعالج بها على نحوِ متناقضٍ علاقتي بوالدي الغائب من خلال إعطائي أبًا متخيّلًا، ومن خلال تصرّفي كأبٍ له أيضًا.

وبالفعل لقد وجدت نفسي في الوضعيّة نفسها في مواقف كثيرةٍ متشابهةٍ، شاعرًا بالانطباع العاطفيّ نفسه الذي يجعلني أتصرّف حيال معلّميّ كأنّني معلّمهم، المعلّم الذي يتوجّب عليه -إن لم يكن تعليمهم كلّ شيءٍ- فأقلّه أن يأخذ بيدهم، كما لو أنني كنتُ أشعر بقوّةٍ أنّني أسيطر، وأشرف، وأنتقدُ، لا بل وأتحكّم بسلوك والدي، وعلى وجه الخصوص بسلوكه حيال أمّي وشقيقتي.

للأسف! فإنّ هذه التركيبة الجميلة -التي كانت مناسبةً إلى مستوىً معيّنٍ- سوف تتكشّف عن أنّها تركيبةٌ أحاديّة الجانب إلى حدٍّ بعيدٍ. لقد أدركتُ -ولكن في وقتٍ متأخرٍ جدًّا- أنّني كنتُ غافلًا عن العنصر الأهمّ في ذلك، عن ألاعيبي، عن تقليد صوت الأستاذ، وحركاته وملامح كتابته وجمله المراوغة، وعاداته المستحكمة، والتي كنتُ بفضلها لا أستطيع السيطرة عليه فحسب، بل إنّها كانت تمنحني الوجود أيضًا. لقد كانت خدعةً رئيسةً باختصار، أي التظاهر بأنّني ذلك الكائن

الذي لا أستطيع أن أكونه، أي ذلك الافتقار إلى الجسد الذي لا يخصّني، وبالتالي فهو افتقارٌ إلى آلتي التناسليّة. إنني أدركُ الآن (ولكنّ الوقت قد تأخّر كثيرًا) أنّني لم أكن أستعملُ تلك الألاعيب على هذا النحو - أي تمامًا مثل «محتال»- وأستغلّها كي أدخل إلى عالم «والدي» إلّا من أجل غواية أستاذي، وأن أجعله يحبّني باستعمال تلك الألاعيب حصرًا. فماذا يعني هذا؟ يعني أنّني لم أكن أمتلك وجودًا خاصًّا بي، وجودًا مطابقًا لهويّتي، وأنّني كنتُ أشكّك في نفسي إلى درجة الظنّ بأنّني كائنٌ غير ملموسٍ، والإحساس بأنّني من ذلك الصنف العاجز عن إقامة علاقات عاطفيّة مع أيّ شخصٍ آخر، وأنّني كنتُ أختزل تلك العلاقات في أن أكون محبوبًا، وأن أحبّ (فأن تحبّ يفضل أن تكون محبوبًا)، وأن أحولّها بالتالي إلى ألاعيب من الغواية والخداع. الغواية باستخدام الطرق الاحتيالية، وباستخدام الخديعة في آخر المطاف.

فأنا إذ لم أكن صاحب وجودٍ حقيقيٍّ، لم أكن في الحياة إلّا كائنًا محتالًا، وكائنًا فارغًا، وميتًا لا يقدر أن يحبّ وأن يكون محبوبًا إلّا باستعمال الطرق الاحتياليّة والخدع المستعارة من أولئك الذين أرغب في أن أكون محبوبًا من قبلهم، وأسعى إلى حبّهم من خلال إغوائهم.

إذن لم أكن في قرارة نفسي مجرّد شخصٍ بارع في تحريك عضلاته وتسخيرها فحسب -على المستوى الواعي من الإدراك-، لكنّني كنتُ أيضًا -على صعيد اللاشعور، وبطريقةٍ شيطانيّةٍ- بارعًا في غواية الآخرين وتضليلهم، على الأقلّ أولئك الذين كنتُ أرغب في أن أكون محبوبًا من قبلهم. كنتُ أتوقع من هؤلاء - عبر هذا الحبّ الزّائف-اعترافًا بالوجود، بوجودي الذي كنتُ أشكّ فيه على نحوٍ مفزعٍ ومتواصلٍ مأخوذًا بقلقٍ أصمّ لم يكن ينفذ إلى طبقات الوعي عندي إلّا حينما كنتُ أفشلُ في محاولات إغوائهم.

لم أفطن إلّا منذ وقتٍ قريبٍ جدًّا إلى «حقيقة» هذه المراجعة من خلال التفكّر في هذه المغامرة العجيبة. لقد كنتُ طالبًا متفوّقًا جدًّا، وكان المعلّمون قد تنبّؤوا لي

بمستقبل فكريّ عظيم. ولهذا السبب جعلني معلّمي أتقدّم بالفعل إلى المسابقات الوطنية من أجل «المنح المدرسيّة»، معتقدًا أنّني سوف أكون في المراتب الأولى. بيد أنّني إذ نجحتُ فيها، حللتُ في المراتب الأخيرة منها، فيا للهول! وبالمثل أيضًا، قام السيّد ريشار، والأساتذة جميعًا -كلٌّ فيما يتعلّق باختصاصه- بتقديمي من أجل امتحانات المسابقة الوطنيّة العامّة، وكذلك إلى الامتحان نفسه المتعلّق بالسنة النّهائيّة. لكنّني في كلّ مناسبةٍ منها، وعلى الرغم من قدراتي الواضحة -أي قدراتي التي يقرّ بها أساتذتي- لم أجنِ شيئًا من التميز. وأنا الآن لا أستطيع أن أفسّر السبب وراء هذه النتيجة الحاسمة إلا بأنّ علاقات التماهي -والغواية إذن- التي استطعت أن أقيمها مع أساتذتي، قد بلغت هذه الدرجة التي باتوا معها -ورغمًا عن أنفسهم- يبالغون في تقدير قيمتي الحقيقيّة.

فهؤلاء -وقد اعتادوا أن أكون لهم «والد الوالد»، أو بالأحرى «والد الوالدة»، أقصد قيامي بغوايتهم من خلال تقليد شخصيّاتهم وأساليبهم تحديدًا- سوف يتعرّفون على أنفسهم بوضوح كبيرٍ في مرآة نفسي بما يسقطونه عليها، سواء أكانت صورةً يصنعونها عن أنفسهم، أم صورةً يعبّرون فيها بشكلٍ لاشعوريٍّ عن أشواقهم أو آمالهم. وها هنا مردّ تلك الإخفاقات التي كنتُ أُمنى بها أمام المحكّمين الذين لم تسنح لي فرصة إغوائهم! إذًا، فإنّ ألاعيبي، التي كانت ألاعيب «من فمك أدينك» والتي لم تكن تُؤتِ أُكلها إلّا في سياق علاقات الغواية التي كنتُ قد استطعت فرضها في غفلةٍ من المعنيين بها، لم تعد صالحةً، بل لقد أصبحت تتسبّبُ بالفشل والإخفاق. يا للهول! لقد أربكني هذا الأمر طويلًا، إذ لم يكن في استطاعتي أن أدرك «مقدار الوقت اللازم انقضاءه كيما أدرك حقيقة هذا الأمر».

الفصل التاسع

شكّل تعيين والدي في مدينة ليون من قبل مصرفه اغترابًا جديدًا في العائلة، كان يعني عذابًا ومنفىً جديدًا بالنسبة إلى والدتي، وكان يعني بالنسبة إليّ دخول مدرسة بارك (Parc)، في الصفّ التحضيري لمسابقة الالتحاق بالمدرسة العليا.

كان التحضير يمتدّ إلى ثلاث سنوات، بل وأربع أيضًا. وكان الفتية الأغرار يُحصرون في السنة الأولى، وأمّا الآخرون ففي السنة الثانية.

كنتُ ضائعًا في تلك المدرسة بكلّ معنى الكلمة، فأنا لم أكن أعرف أحدًا، وكنتُ أجدُ أمامي ثلّةً من الأولاد المتمرّسين في سائر أصناف الحيلة والوسيلة، وكانوا يحيون فيما بينهم تقاليد جماعيّةً، وتتكرّس في أرواحهم عقيدة المهاجرين «الأوائل» (وهم قلّة نادرةٌ في مركز المقاطعة تلك). بالنسبة إليّ، كان عليّ أن أعيش عزلةً شديدةً، زاد في مرارتها تلك القناعة بأنّني لا أعرف شيئًا، أيّ شيءٍ، وأنّه كان عليّ أن أترقّب كلّ شيءٍ، ومن دون مساعدةٍ من أحدٍ.

كنتُ أحتفظ في ذلك الوقت بدفتر يوميّات (بناءً على توصيةٍ من السيّد غيتون (Guitton) المقبل على ذكره قريبًا)، وكنتُ في كلّ يومٍ أفتح صفحتي منه مستلهمًا عبارة «إرادة القوّة» التي كنتُ قد التقطتها في مكانٍ ما، عبارةٌ كانت لي عوناً في التصميم على الخروج من هذا الفراغ، وفي أن أثبت نفسي بفرط إرادةٍ محضةٍ لم يكن في استطاعتها أن تحلّ محلّ الفطرة والطبيعة. وإلى جانبه كانت تندرج اعترافات العشق المطوّلة التي كنتُ قد كتبتها من أجل سيمون (Simone)، والتي لم أجرؤ أبدًا على إرسالها لها.

(إنّه أمرٌ مستهجنٌ)، هكذا أجابتني خالتي -وهي أملي الوحيد- إذ كنتُ قد سألتها عمّا إذا كنتُ أستطيع أن أرسل إلى سيمون كتاب شعر فحسب ومن دون أيّة كلمةٍ أخرى.

كان جان غيتون (Jean Guitton) أوّل أستاذٍ أصابني بالذّهول. كان خرّيج المدرسة العليا، وفي الثلاثين من عمره، وكان ذا رأسٍ كبيرةٍ الحجم (كالقبّة الرومانيّة)[54] فوق جسدٍ ضئيلٍ وهزيل. كان يتنفّس عذوبةً وطيبةً وذكاء، وأيضًا قليلًا من المكر الذي كان يجعلنا نقع في التناقض دائمًا. كان مسيحيًّا متحمّسًا، من أنصار شوفالييه (Chevalier)[55]، والكاردينال نيومان (Nweman)[56]، والكاردينال ميرسييه (Mercier)[57]، وكان يشرح لنا في كلّ محاضرةٍ فلسفيّةٍ أنّ المسيحيّة تلتقي معها، وأنّ اتجاهات فكريّة متنوّعة تندرج في تاريخها. كان من الجدير به أنّ يُكرّس مستشارًا خاصًّا ليوحنّا الثالث والعشرين (Jean XXIII)[58]، أو بول السادس (Paul XI)[59]. كان يعدّني أنا وهيلين في مرتبة «القدّيسين»، وقد أثبت أنّه واحد من هؤلاء أيضًا؛ حينما قاطع حلقةً تلفزيونيّةً – كانت تبثُّ بعد مقالة جان دوتورد (Jean Dutourd) [60]المتعلّقة بوفاة هيلين- مجاهرًا بأنّه كان يمنحني كامل ثقته المطلقة، وأنّه سوف يقف في صفّي دائمًا وفي أحلك الظروف. إنّني أكنّ له

(54) المقصود قبة البانثيون في روما والتي كانت تعدّ أكبر قبّة في العالم القديم. (المترجم)

(55) جان باتيست بيير أنطوان دو مونيه شوفالييه دو لا مارك (Jean-Baptiste Pierre Antoine de Monet, chevalier de Lamarck) 1744-1829: هو عالم الأحياء الشهير الذي رسم الخطوط الأوّليّة لنظريّة التطوّر وصنّف العديد من النباتات والحيوانات. (المترجم)

(56) جون هنري نيومان (Johan Henry Newman) 1801-1890: شاعر ولاهوتيّ وفيلسوف وكاهن أنجليكاني، تحوّل فيما بعد ليصبح كاردينالًا كاثوليكيًا وكان شخصيّة مهمّة ومثيرةً للجدل في تاريخ إنكلترا الدينيّ في القرن التاسع عشر. (المترجم)

(57) ديزيري جوزيف ميرسييه (Désiré-Joseph Mercier) 1851-1926 كاردينال بلجيكي في الكنيسة الكاثوليكيّة الرّومانيّة وباحثًا شهيرًا، وعالمًا تومانيًا. (المترجم)

(58) ليوحنّا الثالث والعشرين (Jean XXIII) 1881-1963: هو بابا الكنيسة الكاثوليكيّة الحادي والستون بعد المئتان، وهو من أكثر البابوات شعبيّة في التاريخ المعاصر. (المترجم)

(59) بول السادس (Paul XI) 1897-1978: بابا الكنيسة الكاثوليكيّة بعد يوحنا الثالث والعشرين، وهو مدافعٌ عن بول السادس (Paul XI)الحياة والأسرة. (المترجم)

(60) جان دوتورد (Jean Dutourd) 1920-2011: روائيّ فرنسيّ. (المترجم)

تقديرًا لا متناهيًا على الموقف الذي أبداه في ذلك الحين، والذي أعدّه بكلّ بساطةٍ *عملًا شجاعًا أمام الملأ.*

سرعان ما كلّفنا بإعداد حلقة بحثٍ حول موضوع لا أذكره الآن. لم أكن أعرف «كيف نعدّ حلقة بحث»، كما أنّني لم أكن أعلم الشيء الكثير عن الفلسفة (إذ كان أستاذ الفلسفة في مارسيليا غير موهوبٍ). وهكذا فقد شرعتُ في نوع من الكتابة اللامارتينيّة: بكائيّاتٌ شعريّةٌ لا دقّة فيها ولا استدلال. كانت العلامة 7 القاسية من أصل 20 علامتي العادلة، وقد أُرفقت بالتعليق المناسب: «عدم إصابة الهدف على الإطلاق»، لقد انهرتُ تحت وطأة هذه العقوبة الأولى، وقضيتُ الليل أفكّر مهمومًا بها.

مضى الوقت سريعًا منذ محاولة الكتابة الأولى هذه. كنّا نكتب في قاعة الدراسات الكبيرة التي يعمل فيها -بعد الدروس، أو في الأوقات الفاصلة بينها- سائر الطلاب الأقدمون، هؤلاء المحنكون المتمرّسون في أصناف الحيل والمناورة جميعها. كان غيتون قد أعطانا موضوعًا للبحث بعنوان «الواقع والخيال»، وقد عصرتُ نفسي عصرًا من دون جدوى محاولًا أن أستخرج من رأسي بعض الأفكار المشوّشة، لأجد نفسي ضائعًا من جديد حينما تقدّم مني طالبٌ قديمٌ وهو يحمل في يده بعض الأوراق، قائلًا: «خُذْ، خذ هذه فقد تساعدك. وعلى أيّ حال، فإنّها الموضوع نفسه».

حقيقة الأمر أنّ غيتون كان قد أعطى الموضوع نفسه في السنة السابقة، وقد أعطاني الطالب القديم -بنيّة خبيثةٍ- التصحيح النموذجيّ الخاصّ بالسيّد غيتون. صحيحٌ أنّني قد تصبّبتُ خجلًا، لكنّ يأسي كان أشدّ وأمضى. لذلك فقد سطوتُ على تصحيح المعلّم، من دون تروٍّ أو تفكّر، فحافظت على الجوهر منه (على الفقرات، والمسائل، والنتائج)، فعالجتها بأفضل ما أستطيع وبأسلوبي الخاص، أي بما كنت قد التقطته بالفعل من أسلوب غيتون، وكتابته المفهومة. وحينما أعاد لنا

غيتون الأوراق علنًا، أخذ يغدق عليّ الثناء الصادق والدّهش: إذ كيف استطعتُ في زمنٍ قليلٍ جدًّا أن أحرز مثل هذا التقدّم! لقد أخذت المرتبة الأولى بعلامة 17 من أصل 20.

حسنٌ، لقد كان الأمر بالنسبة إليّ شديد الوضوح: لقد نسختُ تصحيح غيتون، وإذن؛ لقد زوّرتُ نصّه، وقنصتُه احتيالًا، وانتحلته. يا لها من حيلةٍ كبرى، وخديعةٍ ارتكبتها كيما أنال حظوةً عنده. لكنّني وقعتُ في حيرةٍ من أمري: فكيف أمكن ألّا يفطن إلى حقيقة الأمر! هل كان يحاول أن ينصب لي فخًّا؟ لأنني كنتُ أظنّ أنّه مدركٌ لكلّ ما جرى. لكنّه -كما توهّمتُ- أراد لسماحةٍ في نفسه أن يخفي الأمر علي. سوف أخبره بالحقيقة بعد زمن طويلٍ -لعلّه ثلاثين سنة- حينما جاء يحدّثني حديث المعجب بتلك الورقة الاستثنائية، ولّما يبارحه الذهول بها بعد. لم يكن الشكّ قد خامره لحظةً في أنّني خدعته، كما لم يكن راغبًا في ذلك أيضًا!

فأنا حينما كنتُ أقول بأنّ المعلّم لا يُضارُّ من رؤية صورته المنعكسة، حتّى إنّه لا يتعرّف عليها في أغلب الأحيان، فلعلّ ذلك يعني ما تمنحه تلك الصورة من لذّةٍ واعيةٍ أو غير واعية حينما يرى نفسه في شخص تلميذٍ مُصطفى...

ولكن ما هي الفائدة التي حصلتُ عليها من وراء ذلك؟ لا شكّ أنّه هنالك ذلك الامتياز في تبوّئي صدارة الصفّ ثانيةً، وفي التنعّم بتقدير زملائي الصغار -قبل الحصول عليه عند الأقدمين جميعًا-، وفي اندماجي في الصفّ. ولكن بأيّ ثمنٍ لذلك! كان الثمن خديعةً معتبرةً لم تنقطع عن تكدير عيشي. لقد أصبحتُ مرتابًا في أنّني لم أنجح في اتّخاذ موطئ قدمٍ إلّا مقابل ما ارتكبتُ من حيلٍ، واستعاراتٍ غريبةٍ علي. لكنّ القضيّة لم تعد تتعلّق -في هذه المرّة- بألاعيب يمكنني أن أعدّها من قبيل براعة الكاتب عندي، بل هي تتعلّق *بخديعةٍ وسرقة*، وقد أظهرتا بكلّ وضوحٍ أنّني لا أستطيع إثبات نفسي إلّا بما أقدّمه من خديعةٍ أصيلةٍ على حساب طبيعتي الأصيلة، من خلال الالتفاف الدنيء على فكر معلّمي، واستدلاله أيضًا، وكلماته،

أي بالالتفاف على شخصٍ آخر أرغب في أن يراني في مظهر من يقوم بغوايته. لقد اختلطت عليّ مشاعر الإحساس بالذنب إلى حدٍّ بعيدٍ، فعدم الوجود لم يعد مشكلةً إجرائيّةً، بل أصبح مشكلةً أخلاقيّةً. ومنذ الآن فصاعدًا، فإنّني لن أعود أشعر بأنّني كائنٌ غير موجودٍ فحسب، بل وبأنّني مُدان بعدم الوجود.

لقد استفدتُ بالطبع، ولم يقتصر الأمر على أنّ غيتون أخذ يميّزني عن الآخرين، بل لقد تنامى بيننا -ابتداءً من مقالتي- حبٌّ نقيٌّ، وإعجابٌ مطلقٌ كالذي نجده بين الزملاء في العمل. لقد أصبحتُ نصفه الآخر، ومحضني ثقة الاطّلاع على أعماله، بل لقد صحبني إلى باريس حيث كان عليّ أن أفنّد المادية على نحوٍ فلسفيّ (مستعينًا برافيسون (Ravaisson)[61]) أمام مجمع من المتديّنين، علاوةً على أنّ غيتون قام باستئناف النقاش بعدي إذ وجده على شيءٍ من الجمود.

إلى ذلك، لقد تعلّمت من غيتون (الذي كان مربّيًا رائعًا، وإن لم يكن فيلسوفًا كبيرًا) مزيّتين -ذات طابعٍ كونيٍّ تحديدًا- كان لهما الإسهام الكبير في نجاحي لاحقًا: الأولى هي الكتابة في غاية الوضوح، ومن ثمّ فنّ التأليف (وهو بدعة دائمًا) وأن تكتب في أيّ موضوعٍ -بصورة قبليّةٍ ومثل الاستنباط من عدمٍ- بحثًا متينًا ومُقنعًا. فإذا ما كنتُ قد نجحتُ في مسابقة المدرسة العليا، وتاليًا في إجازة التدريس الفلسفيّة، فالفضل في ذلك يعود إلى السيّد غيتون، وأنا مدين له بذلك. ومردّ هذا أنّه لم يضع بين يدي (ولذلك لم أكن في حاجةٍ إلى بذل الجهود المضنية في سبيل تحصيلها) تلك المعرفة بالحيل الاعتباطيّة، بل لقد عرّفني تمامًا على تلك الحيل الكفيلة بجعلي أُقبل في الجامعة، وعند أعلى مستوياتها (يبدو الأمر كأنّه خديعةٌ، لكنّني في الواقع لم أكن أملك في ذلك الوقت خيارًا آخر).

من الواضح أنّني منذ ذلك الحين قد كوّنت فكرةً عن الجامعة لا تحمل الكثير من التقدير والفخار (تمامًا كالفكرة التي كوّنتها عن نفسي)، هذه الفكرة التي لن

(61) فيليكس رافيسون (Félix Ravaisson) 1813-1900: فيلسوف فرنسي وعالم آثار وباحث أنثروبولوجيّ. (المترجم)

تفارقني أبدًا، سوف تضرُّ بي وتنفعني في الوقت نفسه، وسوف يتبدّى لكم ذلك.

لم يطل بقاء غيتون سوى سنة واحدة، إذ أخبرنا وهو يغادرنا أنّ رجلًا يُدعى السيد لابانيير (M. Labannière) سوف يحلّ مكانه، لكنّنا إذ رأينا جان لاكروا (Jean Lacroix) يفد علينا في السنة التالية، أدركنا أنّ غيتون قد أوقعنا في حيرةٍ غريبةٍ بشأن هذا التبدّل المفاجئ.

لقد عشتُ مع لاكروا -الرجل النزيه، والكاثوليكي «الشخصانيّ»، وصديق إيمانويل مونييه (Emmanuel Mounier)، والفيلسوف المتمكّن من تاريخ الفلسفة- مستعينًا على قضاء ذلك بالحيل التي تلقّيتُها عن غيتون: فكنتُ الأوّل في الفلسفة دائمًا، لكنّني مع ذلك أخذت أتعلّم -وبفضله- شيئًا عن المادّة. كان لاكروا متزوّجًا من فتاةٍ تنتمي إلى أشدّ الطبقات البورجوازيّة في ليون انغلاقًا، وكانت تعدّه الشيطان الرّجيم، وتجعله يشعر بذلك بوضوح. لم يكن لاكروا من صنفها، ولم يكن يقاسمها أفكارها الرّجعيّة. لكنّ حياة لاكروا في سياق التهميش هذا كانت -بكلّ تأكيدٍ- حياة ضنكٍ وشقاء، خاصّةً في ليون. لقد كان رجلًا شجاعًا، فانخرط في المقاومة وقد أيّد بعد انتهاء الحرب سائر القضايا النبيلة.

لكنّ أكثر الرجال روعةً في السنة الأولى في ليون كان أستاذ التاريخ جوزيف هورس (Joseph Hours)، الذي كنّا ندعوه على سبيل التودّد (الأب هورس). كان يكره غيتون من كلّ أعماق قلبه، وكان يقول عنه إنّه ليس رجلًا، بل إنّه امرأة، بل وأسوأ بعد، إنّه «واحدةٌ من الأمّهات». آهٍ! أمي...كان قصيرًا، متين البنية، يُقارب في سحنته وشاربه سحنة أهل لافال (Laval)[62]، وكان مُستغرقًا في العمل السياسيّ، وقد أسّس مع جورج بيدوت (Georges Bidault)[63] صحيفة لوب

(62) لافال (Laval): هي بلدة في غرب فرنسا، وعاصمة إقليم الماين. (المترجم)

(63) جورج بيدوت (Georges Bidault) 1899-1983: سياسيّ فرنسيّ وزعيم المقاومة الفرنسيّة خلال الحرب، ومؤسّس الجريدة اليساريّة الكاثوليكيّة الرّومانيّة المعروفة باسم (لوب "الفجر"). (المترجم)

(L'Aube)، وكان يمثّل شخصيّةً فريدةً بوصفه كاثوليكيًا مؤمنًا، ويعقوبيًا[64]، وغليكانيًا[65] بطبيعة الحال، وكان خصمًا عنيدًا للبابويّة المتطرّفة عند الحزب الأوروبي الذي كان يرى فيه دائمًا إرث الامبراطوريّة المقدّسة (Saint-Empire). لم يكن يزعجه أن نعبّر بصوتٍ عالٍ، بل وفي قاعة الدراسة (وكان ذلك قبل وقتٍ طويلٍ من قيام بعضنا بزيارته في المنزل، وهو الامتياز الذي سوف أحظى به بعد حينٍ) عن آرائنا حول الوضع السياسيّ الفرنسيّ. أتذكّر ما قاله لي في العام 1937: «إنّ البورجوازيّة الفرنسيّة تمقتُ الجبهة الشعبيّة وهي تفضّل منذ الآن هتلر عليها، سوف يهاجم هتلر، وسوف تختار البورجوازية الهزيمة كيلا تلتقي مع الجبهة الشعبيّة». لقد أعجبتني هذه العبارة، لكنّها كانت تستند إلى تحليلٍ دقيقٍ لوضعيّة القوى الاجتماعيّة والسياسيّة، وأيضًا لشخصيّة ومهنة رجال السياسة الذين كان يراقب سلوكهم بعنايةٍ كبيرةٍ. في ضوء ذلك كان يميّز موريس توريز (Maurice Thorez)[66] بين رجال السياسة الجيّدين، وكان يعلّق آماله جميعها لا على أصحاب الحظوة ولامتياز، بل على «شعب فرنسا» الذي كان قد كتب عنه تاريخًا موجزًا، محاكيًا في ذلك -وإن كان بقدر ضئيلٍ- المؤرّخ ميشيليه (Michelet). إنّني أدين «للأب هورس» بآرائي الأولى في السياسة، وألاعيبها، وفي الشيوعية أيضًا، التي كنتُ أختزلها في شخص توريز. كان يحمل في داخله شيئًا ما يذكّرني بجدّي -بهيئته الجسمانيّة، وتذمّره المستمرّ- جدّي الذي اختفى في تلك السنين، تاركًا جدّتي بمفردها في المنزل في لاروشميلي لعشرين سنةٍ أخرى.

في ذلك الوقت شرعتُ في تنفيذ مخطّطٍ كبير عملتُ على صياغته بمفردي. كانت

(64) يعقوبيّة (JacoBinisme): مذهب نادى به الحزب المتطرّف في الجمعيّة الوطنيّة الذي كان يطلق على أعضائه اسم اليعاقبة أو الجبليين والذين كانوا من غلاة الديموقراطيّة والحرب بلا هوادة على التكتّل الأوروبي في أثناء الثورة الفرنسيّة. (المترجم)

(65) غليكانيّة (Gallicanisme): حركة دينيّة نشأت في فرنسا ودعت إلى استقلال الكنيسة الإداري في البلدان الكاثوليكيّة عن سلطة البابا. (المترجم)

(66) موريس توريز (Maurice Thorez) 1900-1964: سياسيّ فرنسيّ، ورئيس الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ من عام 1930 وحتى وفاته. (المترجم)

الكنيسة حينها قد أطلقت –بهدف مواجهة تنامي الاشتراكية– ما كان يُدعى بحركات العمل الكاثوليكي. لم يكن الأمر يتعلّق بحركةٍ جماعيّةٍ، بل كانت حركات مخصوصة تستهدف مختلف الطبقات (الاجتماعيّة-المهنيّة). فكان هنالك شباب العمل الزراعيّ المسيحيّ من أجل الفلاحين (جاك JAC)، وشباب العمّال المسيحيّ من أجل العمّال (جوك JOC)، وشباب الطلّاب المسيحيّ من أجل الطلّاب (جيك JEC). ولمّا لم يكن يوجد لحركة (جيك) أيّة حلقةٍ في ثانويّة بارك، فقد صمّمتُ على جعل واحدةٍ لها، وبدأتُ البحث عن راعٍ دينيٍّ: إذ كانت قواعد اللياقة تجعل من هذا الأمر حاجةً لا محيد عنها. ولمّا كنتُ غرًّا قليل الخبرة والاطّلاع، فقد أخذتُ الطريق ذات يوم صاعدًا إلى فورفيير (Fourvière) وطرقتُ الباب على الأب فاريّون (Varillon) وهو أحد اليسوعيين الشباب. كان طويلًا ونحيلًا، وذا مظهرٍ غريبٍ بأنفه الكبير المستقيم. وبعد أن قبل بالأمر، أخذ يحضر منذ ذلك اليوم اجتماعاتنا التي كانت تضمّ في المقام الأوّل طلّاب الصفوف العليا، أي صفوفنا. وهناك، شرعتُ أنهض بمسؤوليّاتي مرّةً أخرى، ولكن بمفردي للمرّة الأولى. إنّها «إرادة القوّة»! وكنّا –من وقتٍ لآخر– نقوم بالخلوات في دير ترابيستيّ[67] في بلدة دومب (Dombes) –التي كانت تبعد ستمئة كيلومتر عن ليون– وهو ديرٌ قائمٌ وسط مستنقعات كبيرة. وبعد أن استقبلنا –في ذلك الدير– الراهبُ الوحيد الذي كان يملك حقّ الكلام –وكم كان ثرثارًا!– غرقنا في صمت تلك الأبنية الهائلة التي كانت تنتشر منها رائحة منتنةٌ لشمعٍ وصابونٍ عتيق. كنّا ننام في غرفٍ صغيرةٍ ونستيقظ في الليل عدّة مرّاتٍ على قرع الأجراس في مواعيد الصلوات التي يجب علينا الحضور لأدائها. كنتُ مفتونًا بحياة الرهبان، الذين نذروا أنفسهم للعفّة والعمل اليدويّ والصمت. فهذا النذر المثلوث كان يناسبني كثيرًا. وسوف تراودني على الدّوام في وقتٍ لاحق فكرة الاعتكاف في الدير كحلٍّ حيويٍّ لمشاكلي

(67) ترابيست (Trappiste): رهبانيّة كاثوليكيّة عُرفت بأسلوب حياتها المتقشّف المتمثّل في العمل اليدويّ والصمت والصلاة. (المترجم)

المستعصية. فالتلاشي في خفوت الذّكر واللا اسميّةِ: تلك هي حقيقتي الوحيدة، التي لازمتني على الدّوام، كما تلازمني الآن أيضًا، وذلك على الرّغم، بل وخلافًا لشهرتي التي أعاني منها بشكلٍ رهيبٍ. كنّا نعقد في الدير أيضًا حلقاتنا الخاصّة، وأذكر أنّي كنتُ مكلّفًا بإلقاء خُطبةٍ قصيرةٍ حول فضيلة «الاستغراق في التأمّل». لذلك فقد شرعتُ في إلقائها بحماسةٍ دفينةٍ هائلةٍ، مغالٍ في وصف «الانصهار» الروحيّ والقناعات الدينيّة ما جعل الرّفاق جميعًا يُؤخذون بحميًا عاطفتي. للمرّة الأولى أكتشفُ بأنّني أمتلك حجّة البيان المؤثّر، بيد أنّني كنتُ ألجأ بصورةٍ عفويّةٍ – في سبيل تحقيق ذلك– إلى ممارسة نوعٍ آخر من الحيل: تحديدًا إلى الإفراط في الإيقاع اللفظيّ، واستمالة النفوس، والعاطفة المشحونة التي كان يبدو أنّني أرغب في جعل الآخرين يشاطرونني إيّاها بأن أنقل لهم عدواها. لطالما كانت لديّ تلك الرّغبة التي تشتاق إلى «الانصهار»، كما لو أنّه كان عليّ –من أجل أن أصدّق ما أقول وأجعل الآخرين يصدّقونه– «أن أضيف مرارًا وتكرارًا»، وأن أشحن كلماتي ومشاعري بالمزيد الذي يتناسب مع الهدف الذي أتوخّى بلوغه، وأن أمضي مستسلمًا في هذه المغالاة، كما كنتُ أيضًا أتأثّر إلى درجة أن أذرف الدموع، كما لو أنّ البكاء كان واجبًا عليّ أيضًا، وواجبٌ إظهار العاطفة الجيّاشة التي أتوسّل بها أن أستميل المستمعين، وأجعلهم يؤمنون بي خاصّةً. وقد كان من المقدّر ألّا أفهم دلالة هذا السلوك الفريد إلّا في وقتٍ متأخّرٍ جدًّا. لقد تنبّهت في البداية إلى هذا الأمر من خلال عبارة كانت قد قالتها لي ذات يومٍ صديقةٌ قريبةٌ جدًّا إلى نفسي: «أنا لا أحبّك حينما تبالغ في الأمر» (وكما هو واضح فإنّ مبالغتي كانت قد جرت معها أوّلًا)، وحقيقة الأمر أنّني كنت قد أحببتها بنوعٍ من هذه المغالاة التي جعلتها تمامًا [تعدّ إلى العشرة]. وقد قيّض لهذه الصديقة نفسها –وقد كانت حادّة الذّكاء فعلًا– أن تُسمعني عبارةً حاسمةً عنّي سوف آتي على ذكرها في الوقت المناسب: «ما لا أحبّه فيك هو رغبتك في تهشيم نفسك بأيّ ثمنٍ»، لم أدرك حينها أنّ هذه الرّغبة في المغالاة –ولنقل جنون العظمة هذا– والرّغبة الانتحاريّة هما الشيء الواحد نفسه.

نجحتُ في امتحان المدرسة العليا في شهري تموز-آب/ يوليو-أغسطس من عام 1939، وانتقلت إليها في شهر أيلول/ سبتمبر، لكنّني لم أدخل المدرسة إلّا في شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر من عام 1945، أي بعد انقضاء ستّ سنواتٍ.

الفصل العاشر

تمّ تجنيدي في إيسور (Issor)[68]، في مجموعة الطلّاب الضبّاط الاحتياط (أور EOR) لسلاح المدفعيّة الذي تجرّه عربات الخيل. فأدركتُ [حينها] مؤونة الجيش الفرنسيّ المحزنة، وعرفتُ أحصنة الجرّ المتثاقلة الخطوات التي تمّت مصادرتها، والحراسات الليليّة، والاسطبلات التي حدث أنّ فتاةً رائعة الجمال، قصيرة القامة وسوداء البشرة، وذات وجهٍ مألوفٍ، كانت قد رغبتْ على نحوٍ قاطع أن تنام معي على طبقات القشّ في واحدةٍ منها-لكنّني رفضتُ عروضها تلك طبعًا. وقد تعرّفنا [حينها] إلى فكاهات المساعد أوّل كاربون دي كاستل جالو (Courbon de Castljaloux) الرخيصة. لقد حظيتُ برفاقٍ رائعين لكنّ واحدًا منهم فحسب –ويا للأسف!– قد بقي على قيد الحياة.

ظللنا في إيسور حتى ربيع عام 1940 نزاول ذلك التدريب المملّ الذي عرفته فترة «الحرب المضحكة»[69]. كان غيتون في كليرمونت (Clermont) في قيادة الأركان، وكان يحضر لزيارتي أحيانًا. كنتُ خائفًا جدًّا من الحرب، لا من أن أُقتل فيها بقدر ما أن أكون أحد جرحاها. لكنّني –وقد كنتُ دائم التفكير في ذلك– وجدتُ العبارة التي جعلتني أغطّ في النوم بسلامٍ: «فلتكن مشيئتك يا إلهي!».

في شهر أيّار/مايو من عام 1940 طُلب بعض المتطوّعين من أجل سلاح

---

(68) إيسور (Issor) وكليرمونت (Clermont): بلدتين في إقليم بوي دو دوم في وسط فرنسا.

(69) الحرب المضحكة: تسمية أطلقها الفرنسيون على تلك الحرب التي أعلنتها فرنسا والمملكة المتحدة على ألمانيا إثر اجتياح الأخيرة لبولندا في بداية الحرب العالمية الثانية، وقد امتدت من بدء إعلان الحرب حتى بداية احتلال ألمانيا لفرنسا، لم تشهد هذه الفترة أية معارك كبيرة واقتصرت على المناوشات. (المترجم)

الطيران. ليس أنا. فالأمر شديد الخطورة (وقد قضى عمّي لوي في الطائرة). لقد ذكرتُ سابقًا أنّني كنت أصابُ بالهلع الشديد من العراك، ومن المخاطرة في أن أكون جريحًا، أي في أن يُقطّع جسدي الضعيف إلى أشلاء. لكنّ الرّفاق جميعًا ذهبوا لخوض المغامرة، فبقيتُ وحيدًا من جديد. لقد كان ذلك خياري...ثمّ حدث بعد وقتٍ قصيرٍ جدًّا -ولا أعرف السبب في ذلك- أن تعرّضت للتهديد مرّة أخرى بقضيّة الطيران هذه، فتظاهرتُ بالمرض وحاولت ذات مساءٍ -قبل أن يزورني الطبيب- أن أزوّر في قراءة ميزان الحرارة خاصّتي بأن أخذت أدعكه بقوّةٍ فوق فخذي. تلاعبٌ مشينٌ مرّةً أخرى، وأحسب أنّه بلا فائدةٍ. فقد مرّ الطبيب من دون أن يتوقّف عندي.

في هذه الأثناء، كان والدي -السعيد بمدافعه الثقيلة- قد جُنّد في أعالي مدينة مونتون (Menton)[70] في الألب، لكنّه كان في هذه المرّة مرتاح البال إذ كانت خدمته تحت القبب الخرسانيّة. كان يأكل ويشرب بقابليّة عظيمةٍ في المطعم الذي أعيد إصلاحه من أجل الضّباط. بين وقت وآخر «كنّا» نُرسل بعض القذائف إلى أحد الموانئ الإيطالية بهدف «الحفاظ على الرّوح المعنويّة»، لكنّ ذلك لم يكن مؤثّرًا بما فيه الكفاية.

غادرت والدتي ليون لتلتحق بجدّتها في منزل المورفان، ولتجد نفسها وحيدةً أخيرًا! وعندها حدث لها أمرٌ عجيبٌ. لقد أصبحت سكرتيرة البلديّة، وكان عليها أن تواجه عددًا من المشاكل المحليّة التي ازدادت في أعقاب هزيمة الجيش في شهري أيار/ مايو-حزيران/ يونيو من عام 1940. لكنّها استطاعت أن تتخلّص منها على نحو مثيرٍ للإعجاب، ومن دون أن تصاب بأيّ مرضٍ في صحّتها. لقد تخلّصت أخيرًا من سلطة زوجها، وأصبح في مقدورها أن تفعل ما تشاء، كانت سعيدةً للغاية، وقد اختفت أمراضها جميعًا.

---

(70) مونتون (Menton): مدينة فرنسية تابعة لولاية الألب في شرق فرنسا بالقرب من الحدود الفرنسية الإيطالية. (المترجم)

وحينما أذهب اليوم إلى رؤيتها في عيادتها، فإنّها بالكاد تتعرّف إلي، لكنّها تدّعي بأنّها سعيدةٌ جدًّا، وأنّ صحّتها على أتمّ وجهٍ رغم تقدّمها في العمر، وهي ترفض أن تُدعى بالسيّدة ألتوسير. إنّها لوسين بورجيه، اسمها حينما كانت صبيّةً ونقطةٌ انتهى الأمر. لقد حُلّت القضيّة ولكن بعد تأخّر دام ستين سنةً فحسب!

تمّ إرسالنا إلى فان (Vannes)(71) في شهري آذار/ مارس-نيسان/ أبريل، حيث تسارعت هنالك وتيرة التدريب. كان ثمّة امتحانٌ نهائيٌّ وقد خرجت منه في المرتبة الأخيرة طبعًا، أمّا الأب دوبارل (Dubarle) فحلّ في المرتبة الأولى. إنّه اليوم مريضٌ جدًّا، وهو إذا ما استطاع أن يقرأ كلماتي فسوف يعلم أنّني لم أنسه أبدًا، وأنّني قرأتُ سائر كتبه حول الفيلسوف هيغل (Hegel).

كانت القوّات الألمانيّة تتقدّم كالإعصار. وإذ أعلن بول رينو (Paul Reynaud)(72) أنّه سيخوض المعركة في «بريتون المحصّنة»، كانت مدنها واحدةٌ تلو الأخرى تُعلن أنّها مدنٌ «مفتوحةٌ»، وكانت مدينة *فان* واحدةً منها. كان ضبّاطنا تحت قيادة الخائن المشؤوم الجنرال لوبلو (Lebleu) الذي منعنا –خشيةً من أن نكون شيوعيين أو أن نصبح كذلك– من التحرّك نحو إقليم اللوار (Loire) الذي كانت مدينة نانت (Nantes) فيه غير محتلّة، ومن ثمّ التوجّه نحو الجنوب. لقد أبقانا محشورين في ثكناتنا، تحت حراسة حاميتنا الخاصّة، وذلك على الرّغم من وصول القوّات الألمانية المدجّجة بالدبّابات. «إذا ما تركتم مواقعكم، فسوف تُعدّون جنودًا فارّين، وسوف تُعدمون رميًا بالرّصاص!».

الألمان الذين كانوا يُعلنون لنا بأنّنا أحرارٌ في مهلة ثمانية أيّام، ثم خمسة عشر يومًا ثمّ شهرًا، أخذوا يهدّدوننا بأنّهم سوف ينتقمون من عائلاتنا إذا ما نحن عبرنا البحر. لقد سنحت لنا –في غضون ثلاثة أشهر كاملة، ألف فرصةٍ بسيطةٍ للهرب من المعسكر الفرنسيّ ذو الحراسة السيّئة: لأن سيارات الإمداد وسيارات الصليب

(71)فان (Vannes): مدينة فرنسية تقع في إقليم الشمال الغربي لفرنسا في منطقة بريتاني. (المترجم)
(72) بول رينو (Paul Reynaud): سياسيّ فرنسيّ، تولّى رئاسة الحكومة في فرنسا في عام 1940. (المترجم)

الأحمر التي كانت تدخل إلى المعسكر بحريّةٍ، كانت تعرض علينا ممرّاتٍ للهروب منه. لكنّنا كنّا ساذجين للغاية: إذ لم نهرب تحت مظلّة الصليب الأحمر. بالنسبة إليّ شخصيًّا، فأنا لم أمتلك الجرأة على القيام بذلك، وقد كان الجميع في مثل حالتي.

في نهاية المطاف، مضى بنا قطارٌ طويلٌ من العربات المعدّة لنقل الماشية طوال أربعة أيّامٍ بلياليها حتى وصلنا إلى ساندبوستل (Sandbostel) في شمال ألمانيا، وهو معسكرٌ هائل الحجم مليءٌ بالرمّال ونبات الخلنج. وهناك رأينا -وللمرّة الأولى- خلف الأسلاك الشائكة المُكهربة أولئك السجناء الروس العراة تقريبًا يقفون في البرد القارس بالفعل، بأجسادهم العجفاء المتيبّسة، وهم يتوسّلون إلينا الخبز فأخذنا نرميه إليهم من جراياتنا الشحيحة.

كان في رفقتي طوال تلك الرّحلة طالبٌ شابٌّ من بلدة بريف (Brive)، وكنّا نتبوّل في الزجاجة نفسها. لقد كان صديقي الوحيد في ذلك الوقت. وكان يقصّ عليّ حكاياتٍ عجيبةٍ عن الفتيات في الحدائق القريبة من الثانويّة، وقد جعلتني واحدةٌ منها على وجه الخصوص أذرف الدّموع: «كنّا نباغت الفتيات إذ نأتيهم من الخلف ونصفعهم على مؤخّراتهن! وهكذا فقد حدث ذات يوم إذ هممتُ بصفع إحدى الفتيات على مؤخّرتها، أن التفتتْ نحوي وخاطبتني في عتابٍ طويلٍ: {آه! لماذا لا تقولون لي أنّكم تحبّونني!...}».

تمّ إرسالي -في ذلك الوقت- مع العديد من رفاقي، إضافة إلى ثلاثمئة سجينٍ فرنسيٍّ آخر -أغلبهم من القرويّين النورمانديّين- إلى أحد المشاريع العملاقة التابعة للقوّة الجوّية الألمانيّة، التي كانت تستغلّنا في القيام بمشاريع خاصّة تعود بالفائدة عليها، إذ كانت تقوم ببناء مستودعاتٍ هائلةٍ تحت الأرض لمادّة البنزين. كانت تلك السنة قاسيةً جدًّا، وذلك على الرّغم من الرّابطة الأخويّة التي تجمع السجناء. كنّا نموت جوعًا، وكنّا مرغمين على القيام بأعمال شاقّةٍ في أبرد الأجواء (لقد بلغت درجة الحرارة أربعين تحت الصّفر في تلك السّنة). لم نكن نرتاح إلّا في وقت المساء،

وسط حرارةٍ هائلةٍ لمهاجع النوم الكبيرة، والشّاليهات التي كنّا نلقم مراجلها الكبيرة المبنيّة من القرميد الأحمر بالطُّرْب. وفي أيّام الآحاد، فقد كان لنا الحقّ –ويا للرّوعة! – في الرّاحة، وفي كرةٍ من اللحم المشرّبة بالمرق.

أصيب رفاقي جميعًا هنالك بمرض السلّ فتمّت إعادتهم إلى الوطن، وعدتُ وحيدًا من جديد. لقد قاومتُ جيّدًا من جهتي. كنتُ أحبُّ أولئك القرويّين النورمانديّين الذين كنتُ أعمل معهم. البعض منهم، وهم الأكثر قوّةً من الآخرين، كانوا يثيرون الحماسة كي نُظهر لهؤلاء «الألمان الأوباش» مهارة العمل في فرنسا. لكنّنا نحن الطلّاب كنّا نبذل أقلّ ما نستطيع، إذ لم نكن في نظر هؤلاء الرّفاق النورماتديّين أناسًا صالحين. وكانوا يتّهموننا «بالتخريب» طواعيّةً!

لقد تعرّفتُ في ذلك المكان إلى أناسٍ مذهلين بالنسبة إليّ، وعلى وجه الخصوص ساشا سيمون (Sacha Simon)، وهو صحفيٌّ كبيرٌ في جريدة الشرق الجمهوري (L'Est rèpublicain)، الذي لم يكن يتوقّف عن إخباري بحكايات المؤخّرات التي كانت تصعقني. فقد جعل امرأتين تبلغان النشوة في الآن نفسه تحت غطاء المائدة في مأدبة عظيمة «لا يوجد شيءٌ أسهل، فهما لم تطلبا سوى أن أفعل هكذا». وقد سمعتُ منذ ذلك الوقت أشياء أخرى كثيرة بخصوص هذا الموضوع. خاصّة مغامرات إحدى الصديقات التي كانت موظّفةً أُميّةً والتي لم يكن لديها في الحياة سوى طموح وحيد: أن تجعل كبار الضبّاط في الجيش الأحمر يصلون إلى مرحلة القذف. حتّى إنّ واحدًا منهم تعرّض لنوبةٍ قلبيّةٍ تحت تأثير الانفعال. لقد «عقرت» منذ ذلك الحين غالبية رؤساء الجمهورية، والعديد من الأساقفة والكرادلة. أمّا هدفها النهائي –الذي أحسب أنّها لم تصل إليه بعد– فكان البابا. [وإذ تخبرني ذلك] كانت تضحك، وتمضي مغربةً في الضحك!

سقطتُ مريضًا في أحد الأيّام –بسببٍ كلويٍّ كما يبدو– ولشدّ ما كانت دهشتي عظيمةً إذ مضت بي –بناء على قرار الطبيب الفرنسيّ في المعسكر، الملازم زيغر

(Zeghers) الذي سوف ألتقيه لاحقًا في المعسكر الرئيس- سيّارة إسعافٍ ألمانيةٍ مريحةٍ جدًّا إلى مستشفى المعسكر بعد أن أمضت يومًا كاملًا على الطريق. وهنالك بقيتُ ثمانية أيّامٍ، ثمّ حُوّلتُ إلى ما يدعى معسكر شليسفنغ (Schleswig)، ستالاج إكس أ (stalag X A). وقد كان الرّقم 70670 المليء بالأصفار هو رقمي هنالك؛ فوجدتُه مناسبًا. لقد تابعت القيام بالأعمال القاسية في المعسكر: في تفريغ عربات الفحم، وسوى ذلك.

لقد كنتُ هانئ البال في أداء هذه الأعمال القاسيّة، وكنتُ سعيدًا على وجه الخصوص بهذه الرّفقة الأخويّة التي تضمّ رفاقي القرويّين الذين كنتُ أعرفهم منذ أيّام طفولتي.

كان المعسكر يشتمل على المجنّدين البولونيين، الذين كانوا –وقد وصلوا أوّلًا– يسيطرون على جميع المرافق، وكانوا ينظرون نظرةً سيّئةً إلى الفرنسيين بحسبان أنّهم ارتكبوا «الخيانة» في عام 1939. وكان هنالك أيضًا البلجيكيّون البدينون، وهم ضبّاطُ صفٍّ محترفون وكان واحدٌ منهم عازف فلوتٍ، وآخرٌ ممثّلٌ كان يقوم بأداء أدوار النساء على المسرح، وكان هنالك «الصرب» البؤساء الذين كان العديد منهم يشنقون أنفسهم عند أطراف الأسرّة.

بموجب اتّفاقية جنيف لعام 1929 كان على كلّ أمّةٍ أن تكون ممثّلة لدى السلطات الألمانيّة من خلال «رجل ثقةٍ» يختاره زملاؤه، وقد كان أوّل هؤلاء رجلٌ ما يُدعى سيروتي (Cerutti) –وهو تاجر سيّاراتٍ من سويسرا- كان الألمان قد عيّنوه من دون طلب، ولعلّ السبب في ذلك أنّه كان يتكلّم الألمانيّة بطلاقةٍ. لقد تمّ «تحويلي» إلى مستوصف المعسكر لبعضٍ من الوقت، وهنالك أصبحت خبيرًا جدًّا في فنّ حقن الإبر التي لم تكن تتسبّب لي شخصيًّا بأيّ شعورٍ بالألم (بل على العكس) عندما كان عليّ أن أخضع لها (فهي النقيض من الخازوق!). كنتُ أحظى بحماية الدكتور زيغر، الرجل المتأنق دائمًا في زيّه الموحّد الذي لا تشوبه شائبة. وكنتُ قد

تعلّمت بمفردي شيئًا من اللّغة الألمانيّة: فرقّيت فجأةً إلى «رئيس الممرّضين». لكنّني وجدت في مواجهتي -كما حدث معي في دوريّة الكشّافة، ولاحقًا في ثانويّة سانت شارل- صبيًّا باريسيًّا من الرّعاع، ضخم الجثّة، سليط اللسان ويتكلّم لغته الخاصّة، وقد كان هذا يرفض الانصياع «لأوامري». لقد كان يريد أن يهشّم وجهي، فعدتُ القهقرى أمامه، وقد تبلّدت كرامتي.

سوف تستمرّ هذه المعاناة حتّى ذلك اليوم الذي سيقرّر فيه الألمان أن يعيدوا -على سبيل المكافأة- رجلهم الموثوق إلى وطنه. وبما أنّ بيتان (Pétain) [73]كان قد حصل من هتلر (Hitler) في مونتوار (Montoire) على امتيازٍ يقضي (خلافًا لاتفاقيّة جنيف) أن تكون فرنسا هي «الدولة الحامية» لسجنائها الخاصّين، وبما أنّ بيتان كان قد استفاد من هذا «الاتفاق» في أن يرسل إلى معسكرات الاعتقال الضبّاط الفرنسيّين «المتآمرين» الذين كانوا يقومون بالدّعاية للثورة الوطنيّة، وفي أن يخلق في مواجهتهم فائضًا من دوائر بيتان، فقد وافق الألمان على أن يكون رجلهم الموثوق الجديد منتخبًا، ولكنّهم قدّموا مرشّحهم: رئيس دوائر بيتان، وهو شابٌّ من طبقة النبلاء، رائع الجمال.

واأسفاه! لقد بيّتوا الأمر من دون أن يفطنوا إلى تناقضات الفرنسيين قصار القامة! ففي غضون يومين احتدمت حملةٌ انتخابيةٌ هائلةٌ وخفيّةٌ يقودها أحد الباريسيّين، وهو مساعد طبيب أسنان، فوضويّ الفكر، ووقحٌ في الكلام. لقد كان شاهدًا على ضابطٍ طبيب أسنان بائسٍ، بشع المنظر، وريالته سائلة، كان يمضي وقته -على مرأىً من الجميع ودرايته- في رمي قطعٍ من الشوكولا إلى الأوكرانيّات التعيسات في المخيّم المجاور كيف يفتحوا أفخاذهن العريضة على بعد عشرة أمتار من مكانه. وقد كان الضابط الطبيب عندها يقوم بالاستمناء أمام منظر أعضائهنّ التناسليّة المعرّاة. لقد كان المعسكر بأكمله على درايةٍ بالأمر، فكان فرجةً يوميّة لمن

(73) فيليب بيتان (Philippe Pétain) 1856-1951: رجلٌ عسكريٌّ ورجل دولة فرنسيّ، رئيس الدولة الفرنسيّة الفيشيّة ورئيس الوزراء ووزير الحربيّة، حكم عليه بالموت بتهمة الخيانة العظمى. (المترجم)

يرغب في ذلك. لذلك، فإنّ رجلًا يُدعى روبير دايل (Rober Dail)، وهو حبيب المعسكر بأسره، قد انتُخب ظافرًا.

كانت أولى خطوات روبير أن بادر بالاتّصال برئيس دائرة بيتان، رجل الألمان. فانهالت عليه موجةٌ هائلةٌ من الانتقاد، لكنّه لم يجب شيئًا. ولكنّ ما إن مضى شهرٌ على ذلك، حتّى كان روبير هذا قد ثبّت قدميه لدى الألمان من خلال حركته البارعة تلك، واستطاع الحصول منهم على عودة رئيس دائرة بيتان الفوريّة إلى الوطن، وقد كان هذا الأخير لا يطلب أمرًا سوى ذلك. فأدركنا الأمر حينها. كما شرعتُ أنا أدرك ماذا يعني أن تكون رجل أفعال.

في ذلك الوقت قام دايل باستدعائي إلى «مكتبه» مع مهندسٍ معماريٍّ من ميلي (Mailly) وآخرين. فرأيت طريقة عمله عن قرب. لقد استعاد دايل بين عشيّةٍ وضحاها من الألمان–بطريقته الحازمة، وبرطانته للغةٍ ألمانيّة مُستهجنةٍ من تأليفه– كامل السيطرة على الغذاء والملابس والأحذية المُرسلة من فرنسا، واضعًا بذلك نهايةً لما كانت تقوم به سلطات المعسكر من سطوٍ ونهبٍ شبه كاملين.

لقد حصل من بيتان على عربةٍ [عُدّت من الخدمات] كي يقوم بنفسه بتوزيع التقدمات الخيريّة المُرسلة من فرنسا على أصغر مجموعاتٍ من السجناء، هؤلاء الذين لم يكونوا قد شمّوا رائحتها من قبل، كما لم يكونوا –من جانبٍ آخر– قد التقوا بالرجل الموثوق في المعسكر الرئيس! كنتُ أرافقه في بعض تحرّكاته، فيذهلني العجب العجاب سواء أكان من طريقة تعامله الوقحة مع الرجل الألماني المكلّف بمرافقته، إذ سرعان ما أخذ دايل يُخاطب الألمانيّ وهو يلوك في فمه لوحين من الشوكولا، أم من تعامله الدافئ مع رفاقنا السجناء الذين ظلّوا مُهملين حتّى جاء عهده.

لقد أدركتُ حينها معنى أن يكون العمل قريبًا من المبادئ، في حين أنّه مختلفٌ كليًّا عن تطبيقها الفجّ البسيط، إذ لا بد أن تُؤخذ في الحسبان دقائق البيئة، والبشر

وأهوائهم، وكذلك الأعداء، وأن تُستغلّ -في سبيل تحقيق هذه الغاية- القدرات البشريّة الأخرى اللّهم ما عدا وضوح المبدأ وصرامته.

كانت أولى النتائج التي فرضت نفسها عليّ وأهمّها هي إعطاء معنى غير متوقّع كليًّا لهاجسي في ممارسة المناورات. لقد شرعتُ أدرك في ميدان العمل أنّ من الممكن للمناورات والألاعيب والحيل الأخرى أن تكون شيئًا آخر غير الخدائع، وأنّ من الممكن -على النقيض من ذلك- أن تأتي بنتائج مفيدة لصاحبها وللآخرين، شريطة أن نعلم ما نريد، وأن نسيطر على كلّ إحساس بالذنب، أي باختصار شريطة أن نكون أحرارًا، وهو ما سوف أتعلّمه من مراجعتي وتحليلي. لم أدرك الأمر في ذلك الوقت، ولم أقم بأيّة مقاربةٍ لهواجسي -لمخاوفي من المناورات التي كانت قد شكّلتني، إذا ما كنتُ أكثر دقّةٍ- لذلك فإنّني لم أكتشف إلّا في وقتٍ متأخرٍ جدًّا أنّ الرجل الوحيد الذي امتلك المعايير المطلوبة، وأقول الرجل الوحيد بكلّ وضوحٍ- الرجل الذي تأمّل في الأوضاع وفي أساليب العمل -في ميدان السياسة فقط- والذي كان سبّاقًا إلى حدٍّ بعيدٍ جدًّا في اكتشافه -وقبل فرويد بوقتٍ طويلٍ- كان مكيافيللي (Machiavel)، وأحسب أنّني سوف أوضّح هذا الأمر يومًا ما. مع ذلك فقد كنتُ بعيدًا كلّ البعد عن تقدير الأمر حقّ قدره.

أمّا الشيء الآخر الذي علّمتني إيّاه تجربة الأسْر أيضًا فهو السعادة التي كنت أشعر بها في العيش ضمن رفقةٍ لم تعد مؤلّفةً من الأب، والأمّ، وفي عالمٍ غير عالم الكتب، والصفّ ومنزل الأسرة (ولا شيء آخر)؛ باختصار لم أعد رازحًا تحت سطوة ذلك الرعب، وأقول الرعب بكلّ وضوحٍ، أتسمعني يا روبرت فوسارت (Robert Fossaert)[(74)]؟ أتسمعني من وراء قبرك الرّهيب يا غرامشي (Gramsci)؟ بعيدًا عن الأسرة، أي عن ذلك الرعب، والترويع، والشيء الأكثر هولًا من جميع أجهزة الدّولة الإيديولوجيّة، بالطبع في أمّة تعرف معنى الدولة.

(74) روبرت فوسارت (Robert Fossaert) 1927-2015: اقتصاديّ فرنسيّ. (المترجم)

ولعلّي أستطيع القول إنّني في ليون تحديدًا، وعلى مدار ثلاث سنوات -في الوقت الذي كنتُ فيه في عمر الثامنة عشر وحتى الواحد والعشرين- فإنّني لم أعرف أحدًا على الإطلاق ما خلا رفاقي في السنة الدراسيّة الأولى، وأساتذتي! وما السبب في كلّ هذا إن لم يكن ذلك الخليط المريع من الخوف، والتربية، والاحترام، والخجل والشعور بالذنب الذي غُرس في نفسي، ولكن مَنْ غرسه؟ لقد غرسته عائلتي المأخوذة هي نفسها، والعالقة كما لو إلى الأبد في البنية الإيديولوجيّة الشنيعة لأمّي، ولأبي أيضًا -بغضّ النظر عن ظاهر الأمر-، وما الغاية من ذلك اللّهم سوى أن يُغرس في عقل طفلٍ صغيرٍ سائر القيم العالية التي تنفع في المجتمع الذي يعيش فيه، والاحترام المطلق لكلّ سلطةٍ مطلقةٍ، وفي المقام الأوّل للدولة التي نعلم -منذ ماركس (Marx) ولينين (Lénine) ولله الحمد- أنّها ليست سوى «آلة» مرعبة (نعم يا فوسارت، ونعم يا غرامشي) في خدمة لا الطبقة المسيطرة -التي ليست الفئة الوحيدة التي تمتلك السلطة على الإطلاق- بل الطبقة التي تكوّن «كتلة السلطة» - على حدّ التعبير الموفّق جدًّا لذلك المدعوّ سورل (Sorel)- في فرنسا نفسها، وغيرها من الدول التي يتشابه سياقها النظريّ والسياسيّ العام. ولكن إلى متى سوف تتعامى أكثر العقول ذكاءً وثقافةً عن ذلك الأمر الذي هو أشدُّ احتجابًا وانكشافًا بكثيرٍ من سمكة اللاشعور الرهيبة الصامتة التي اصطادها فرويد بحنكةٍ في شراك شبكته الطويلة من أعماق البحر، وإلى كم من الوقت أيضًا سوف تتعامى عن ذلك الدليل الدامغ حول الماهيّة العميقة للجهاز الإيديولوجيّ لدولة العائلة؟ وهل علينا اليوم أن نقول بعد أن تعرّضت الإنسانية لثلاث طعنات نرجسيّةٍ كبرى (واحدة تعود إلى غاليله (Galilée)، وأخرى إلى داروين (Darwin)، والثالثة إلى اللا شعور) إنّ هنالك طعنةً رابعةً أشدّ إيلامًا، لكن إدراكها أمرٌ لا يطيقه الجميع على الإطلاق (لأنّ العائلة منذ أبد الآبدين هي التربة الخاصّة للمقدّس، وبالتالي للسّلطة والدّين)، وإلى متى تتعامى عن الحقيقة القاطعة في أنّ العائلة تبدو -من بين أجهزة الدولة الإيديولوجيّة- أكثرها قوّةً واقتدارًا؟

لقد احتككتُ في الأَسْر (علاوةً عمّا ذكرتُ) بعالمٍ مختلفٍ كلّيًا عن عالم العائلة المقدّسة، برجالٍ ناضجين ومُتحرّرين من عائلاتهم -على الأقلّ لما فيه خيرهم- لأنهم قد أصبحوا راشدين وأحرارًا: هؤلاء الفلاحون النورمانديّون، وصغار البورجوازيّة البلجيكيون، وصفّ الضبّاط المتطوّعون البولونيّون الذين ما انقطعوا عن استدعاء ذكرياتهم بصوتٍ عالٍ، وتذكّر ولائمهم العامرة أيّام السّلم، ومغامراتهم وهواجسهم الجنسيّة حتّى في أدقّ التفاصيل فجاجة وحميميّة-لقد علّمني هؤلاء بطريقةٍ ما معنى أن نكون راشدين وأحرار جنسيًّا، فهم لم يكونوا كذلك من الناحية الاقتصاديّة، والاجتماعيّة، والسياسيّة، والإيديولوجيّة، بل كانوا -على العكس من ذلك تمامًا- في ظلّ هذه العلاقات، كانوا رجالًا «مُستَلبين» (وأنا أستخدم هذا التعبير كيلا نعاود كلام فيورباخ (Feuerbach) أو هيجل (Hegel) عن المستغلِّين والمستغلَّون، عن المستبدّين والمستضعفين، وعن الملقِّنين والملقَّنون!). فماذا اكتشفتُ، والحال هذه، في هذا العالم الجديد؟ لقد اكتشفتُ هاجسي الدائم في أن تكون لي احتياطاتٌ، وهذا ما شكّل رصيدي كي أفهم نفسي.

في السنة الأولى وحينما كانوا يوزّعون علينا مئتين وخمسين غرامًا من الخبز الأسمر، وخمسين غرامًا من النقانق الألمانية فقط، ولمّا كانت فكرة انقطاع الطعام في المستقبل تصيبني بالهلع، لذلك كنت أقتطع كلّ يومٍ شريحة من الخبز وأخرى من النقانق السوداء وأصفّها تحت طرف فراش القشّ خاصّتي: إنّها كنزٌ حقيقي مودعٌ، فمن يدري!

ولكن حينما توجّب عليّ أن أترك فرقتي الأولى، لم أعثر تحت فراشي إلّا على كتلةٍ عفنةٍ. لقد فقدتُ الرصيد جميعه على الرّغم من أنّني أردتُ الاحتفاظ به كمؤونةٍ. هكذا تبدّت حقيقة هذا الرصيد وواقعيّته أمام عينيّ، وبين يديّ، وتحت أرنبة أنفي وعلى طرف لساني: مجرّد عفونةٍ! لكنّني لم أستطع أن أتخلّص من عبرة هذه التجربة القاسية طوال ستين عامًا! فقد تابعتُ -في الأيام السعيدة اللاحقة- تكوين الأرصدة والاحتياطات على مدار الأيام، من الخبز أوّلًا، ومن البسكويت،

والشوكولا، والسكّر، والأحذية (فكم لديّ منها، إنّني أحتفظ في خزائني اليوم بقرابة المئة منها)، والملابس، بالإضافة إلى النقود طبعًا، فهي رصيد الأرصدة كلّها، وقد أظهر ماركس ذلك بعد العديد من المفكّرين، ولعلّ لوك (Locke) كان أكثرهم صلابةً (فالنقود -كما يرى لوك- هي المال الوحيد الذي لا يتعفّن...) وهي المال الذي يوصف من خلال هذه الخاصيّة الاستثنائية من بين سائر الأموال الأخرى القابلة للتّلف. لكنّني اتّخذت في نهاية المطاف رصيدًا من الأصدقاء، ومن النساء آخر الأمر. فما السبب في ذلك؟ فقط، وبكلّ بساطة، كيلا أجازف في أن أجد نفسي ذات يومٍ وحيدًا من دون امرأةٍ بين يديّ، فإذا ما تركتني واحدةٌ من نسائي ذات صُدفةٍ، أو حضرها الموت -وقد جرى لي ذلك في مرّاتٍ كثيرةٍ- وإذا ما احتفظت دائمًا إلى جانب هيلين برصيدٍ من النساء، فما هذا إلا كي أكون مطمئنًّا إلى أنّني -إذا ما هجرتني هيلين من باب المصادفة، أو جاءت منيّتها- لن أكون وحيدًا في حياتي ولو للحظةٍ واحدةٍ. إنّني أدرك جيّدًا أنّ هذه القوّة القسريّة الرّهيبة قد جلبت المعاناة الفظيعة إلى «نسائي»، وهيلين في المرتبة الأولى. لقد قالت لي إحدى الصديقات مؤخّرًا، وكم كانت محقّةً حينها: «أنت تعرف كيف تستخدم أصدقاءك بطريقةٍ جيّدةٍ جدًّا، (لم تقل صديقاتي...) لكنّك لا تحترمهم»، لقد أربكتني تلك الكلمة حينها (وقد حدث هذا منذ أربعة أشهرٍ)، وجعلتني أتأمّل مع ذلك، لكنّني قد خرجتُ تمامًا عن الموضوع.

في حقيقة الأمر، إنّني أعزو بصورة طبيعيّةٍ هذه القوّة القسريّة على تزويد نفسي بجميع الأنواع والأصناف إلى مخاوف والدتي المرضيّة، وخصوصًا إلى ذلك الهاجس -الأقوى من كلّ تفكيرٍ عقلانيّ- في تخفيض نفقاتها، وتكديس مدّخراتها من دون أيّ دافعٍ معقولٍ سوى مواجهة سائر أنواع المخاطر الممكنة في المستقبل، والسرقة في أوّلها.

كانت والدتي مثل غيرها من نساء جيلها (وكما كان الأمر في أيّام والدتها) حينما تخرج من المنزل أو تسافر على الأقلّ، تخبّئ نقودها تحت تنورتها، أي في أقرب موقعٍ

ممكنٍ من آلتها التناسليّة، كما لو أنّه كان عليها أن تحمي آلتها ونقودها في الآن نفسه -وبشتّى الوسائل الممكنة- من سائر أبناء الحرام وأخطارهم. وبالطبع، فإنّني لم أكن في ذلك الوقت، ولا خلال زمنٍ طويلٍ، أكثر حريّة لا في آلتي التناسلية ولا في نقودي. إنّها طريقة في العيش تقتصر على تكرار الحاضر نفسه، من دون امتلاك الشجاعة أبدًا -أو الحريّة البسيطة بالأحرى- على المواجهة على نحوٍ حرٍّ (من دون ضمانة الاحتياطيّات المسبقة)، فالمستقبل ليس سوى صيغة تراكميّة للماضي، المتراكب فوق بعضه البعض، والمفترض أن يعود على المرء بفوائد ربويّة.

لقد كان التوصّل إلى التحرّر من هذا الاستحواذ أخيرًا، وبصورةٍ حقيقيّةٍ، واحدةً من أقسى التجارب في حياتي، والتي استمرّت حتى شهرين من الآن، وسوف أشرح بعد قليل لماذا وكيف.

أمّا اليوم فإنّني أعلم، ومن مصدرٍ موثوقٍ، بأنّه لا وجود للحياة من دون الإنفاق، والمخاطرة، والمفاجأة بالتالي، وبأنّ المفاجأة والإنفاق (فالمجّانية غير الرّبحية: هي التعريف الوحيد الممكن للشيوعيّة) ليسا مجرّد جزء من مجموع الحياة، بل هما الحياة نفسها في حقيقتها القصوى، وفي وقوعها، وانكشافها، وحدوثها، على حسب التعبير الموفّق لهايدجر (Heidgger).

هكذا فإنّني حين أزور اليوم والدتي، التي تعيش في المغرب منذ مدّةٍ، حيث أصيبت بما يُدعى داء الأميبات، وهي تعاني من آلام البطن المبرّحة، فإنّني أحشوها بقوالب الشوكولا الكبيرة، الباهظة الثمن، ومن أفخر الأنواع من ماركة إيديار (Hédiard). في السابق، لم تكن تسمح لنفسها أبدًا أن تتصرّف على هذا النحو، كما لم تكن تجيزه لي على الإطلاق، بل على العكس من ذلك تمامًا، كان أمرًا محرّمًا، وبشدّةٍ، عليها وعلي. أمّا اليوم، فهي ترمي نفسها على قوالب الشوكولا التي أحضرها لها من عند إيديار، حتّى من دون أن تسألني عن ثمنها، ومن دون أن تشعر بأيّ مرضٍ جرّاء الأميبات (فمن المعلوم رسميًّا أنّ تناول الشوكولا يصبح أمرًا

ممنوعًا عند الإصابة بداء الأميبات)، التي كانت ترتعب منها فيما مضى، لا في بطنها ولا في أيّ مكانٍ آخر، ومن دون أن تشعر بأيّ من آلامها الوسواسيّة الواجبة التي لا تعدّ ولا تحصى. حينما كان والدي على قيد الحياة، كانت هنالك زياراتٌ نصف يوميّة إلى مختلف الأطباء، وكانت هنالك تلك التحوّطات غير المعقولة سواء من الناحية الطبّية أم من ناحية النظام الغذائيّ: وها هي اليوم تلتهم بشهيّة قوالب الشوكولا التي أحضرها لها من دون أن تشعر بأي مرضٍ على الإطلاق.

في ضوء ذلك فإنّ من الممكن تحقيق الشفاء التامّ من سلسلةٍ عجيبةٍ من المخاوف المرضيّة من دون القيام بأي مراجعةٍ وتحليل: فقد يكفي على سبيل المثال أن يموت الزوج، وأن تعود السيّدة ألتوسير لتصبح لوسيان بورجيه حتّى يعود كلّ شيءٍ إلى مكانه. ولعلّ هذا لا يعود إلى تحقيق اللذّة أو الفوز بالحريّة –وإن كان يتعلّق باللذّة على أيّ حال– فكما يرى فرويد في مبدأ اللذّة: ثمّة شيءٌ جدّيٌّ مع ذلك يترافق مع الليبيدو، وهو الرّوح القدس لدى المتديّنين (وقد كانت أمّي من هؤلاء على الدّوام).

العيش في الحاضر فقط! بالطبع، لم نكن نعلم بأنّ الأسر سوف يستمرّ خمسة أعوامٍ، لكنّ الوقت كان يمضي يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، خصوصًا بعد تاريخ الحادي والعشرين من شهر حزيران/ يونيو من عام 1941 وهو تاريخ اشتعال الجبهة الشرقيّة، التي تعلّقت بها آمالنا جميعًا. ولكن عليّ أن أعترف حقيقةً بأنّني كنتُ مستقرًّا على نحوٍ جيّدٍ في الأسر (راحةٌ حقيقيّةٌ كوننا ننعم بأمانٍ حقيقيّ تحت حماية الحرس الألماني والأسلاك الشائكة): لقد عدمتُ هواجس الأهل، وأقرّ بأنّني قد عثرت أيضًا في هذه الحياة الأخويّة، بين الرجال الحقيقيّين، على ما يكفي لاحتمالها بحسبانها حياة بسيطة، وسعيدة كونها آمنةٌ جدًّا. لقد كنّا نعيش وراء الأسلاك الشائكة، تحت سطوة حرّاسٍ مدجّجين بالسلاح، وكنّا نتعرض لشتّى أصناف الإهانات في مناداتنا، وفي عمليّات التفتيش، وأعمال السخرة، كما أنّنا شعرنا بالجوع الشديد في السنة الأولى والسنة الأخيرة، بيد أنّني –وكيف أعبرّ عن

ذلك- كنتُ أشعر بالأمان هنالك، فقد كان الأسر نفسه يحميني من شتّى أنواع الخطر.

لم أفكّر في الهرب بصورةٍ جديّةٍ على الإطلاق، رغم وجود العديد من الأمثلة بين الرّفاق الذين كان بعضهم قد جرّب حظّه في ذلك ستّ مرّات، كذلك الفتى الرائع كليرك (Clerc)، القصير القامة (إذ كان طوله مترًا وخمسين سنتيمترًا) والذي كان بطلًا في كرة القدم، وكان ماهرًا في اللعب برأسه بصورة لا تُضاهى رغم قصر قامته، وكان قد فاز مع فريقه من مدينة كان (Cannes) بكأس فرنسا في عام 1932. في المقابل، كنتُ قد تخيّلت سيناريو للهروب فمكثتُ أفكّر فيه -لاحقًا- زمنًا طويلًا.

لقد لاحظتُ بأنّ الألمان ما إن يتنبّهوا إلى فرار أحدنا، حتى يقوموا باستنفار جميع رجال الشرطة والجنود على نطاقٍ واسعٍ جدًّا، وهذا الأمر كان يؤدّي في غالب الأوقات إلى إلقاء القبض على الرجال الجسورين. لذلك فقد تصوّرتُ أنّ أضمن وسيلةٍ للفرار هي أن نجعل الألمان يتوهّمون حدوث عمليّة الفرار، ثمّ ننتظر مرور الوقت حتى ينقضي النفير العامّ الذي لم يكن يستمر أكثر من ثلاثة أو أربع أسابيع، ومن ثمّ نشرع في الرحيل فعلًا. إذًا إنّ لبّ القضيّة هو الاختفاء (وقد كانت لديّ بالفعل موهبة «الرجل الخفيّ») من المعسكر من أجل خلق الاعتقاد بأنّنا فررنا، وذلك قبل أن نخرج ما إن ينقضي النفير. وإنّ الاختفاء -وليس الفرار- كافٍ من أجل تحقيق ذلك، أي الاختباء داخل المعسكر نفسه (وهو أمرٌ ممكنٌ)، ومن ثمّ فقط يمكننا أن نؤدّي دور الفتى الطائر، بعد انقضاء الوقت (وهو ثلاثة أسابيع) اللازم لتعليق إجراءات النفير. بالمختصر، لقد عثرتُ على طريقة فراري من المعسكر من دون أن أخرج منه! أي أن أبقى داخل المعتقل كي أفرّ منه! لذلك فإنّني بعد أن وضعتُ الخطّة المُحكمة، لم أنفّذ منها شيئًا، وقد كنتُ فخورًا جدًّا بأنّني عثرتُ على «الحلّ»: وكما لو أنّني قد أنهيت وظائفي، لم تكن بي حاجةٌ إلى مباشرة العمل. فيما بعد سوف أتفكّر كثيرًا في أنّ هذا «الحل» قد جاءني من أماكن قصيّةٍ، وأنّ امتلاك هذه الشجاعة المتخيّلة كان حاصل الجمع بين الخوف من الخطر، والحاجة المطلقة

إلى الحماية. وأظنّ أنّ صديقي رانسيير لو قدّر له أن يطلع على هذه «الواقعة»، حينما عاتبني لاحقًا على انتقاد الحزب الشيوعيّ من أجل البقاء فيه، إذًا لكانت بين يديه مادّة للتأمّل.

الحماية! نعم، لقد كنتُ محميًّا داخل المعسكر، وقد استطعتُ أن أتمتّع ببعض الشجاعة في ظلّ تلك الحماية. لقد كنتُ محميًّا في البداية من خلال الدكتور زيغر، ومن ثمّ من خلال دايل. دايل ذلك الرجل الذي يبلغ طوله المترين، والذي كان حنونًا معي كأنّه امرأة (كالأمّ الحقيقيّة التي لم أحظَ بها)، ذلك «الرّجل الحقيقيّ» أيضًا الذي عرف كيف يواجه الأهوال والألمان من دون أن يشعر بشيءٍ من القلق والخوف (كالأب الحقيقيّ الذي لم أحظَ به) كان حمايةً لا نظير لها بالنسبة إليّ. وقد كنتُ -في خضمّ تلك العاطفة الحمائيّة- أكرّر عادتي القهريّة القديمة، فلقد أصبحتُ في ظلّ رعايته، مستشاره في سائر الأمور، حتّى في شجاعته وإقدامه، وقد جعلني ذلك مجدّدًا (كما كنتُ مع زيغر من قبل) أمارس دور «والد الوالد»، أو بالأحرى -وفي الوقت نفسه- دور «والد الوالدة»، كما لو أنّني كنتُ أعالج -مرّة أخرى وعلى طريقتي- عزلتي، وتناقضي المتمثّل في أنّني لم أحظَ يومًا لا بأمٍّ حقيقيّةٍ ولا بأبٍ حقيقيٍّ. إنّني أدرك جيّدًا بأنّني كنت -وعلى طريقتي- «محبوبًا» للغاية من قبله. لكنّني سوف أغرق في الكآبة على نحوٍ مروّعٍ حين عودتنا إلى فرنسا، إذ سرعان ما سيعلمني -بعد أن تركته في باريس- بأنّه يشعر بالسعادة وهو يستمع إلى «صوت حذاء امرأةٍ تتأبّط ذراعه فوق أرصفة المدينة». حتّى إنّني استحلفته -وأنا في المغرب بعد أن عدتُ إلى عائلتي- ألّا يتزوّج أبدًا. ولقد وعدني، لكنّه لم يوفِ بوعده، تاركًا لي الألم والمعاناة.

أمّا فيما يتعلّق «ببطولاتي» الشخصيّة، فقد باءت بالفشل جميعها. لقد زوّرت سجلّي العسكريّ، عندما كنتُ في المعسكر النازيّ، بإضافة كتابات مزوّرةٍ وأختامٍ مزيّفةٍ كي أحولّه بعد ذلك إلى سجلّ ممرّضٍ مزيّفٍ (فقد كان الألمان يعيدون الممرّضين إلى الوطن) وتظاهرتُ بأنّني عثرتُ عليه في أثناء قيام حارس عجوز كليل

النظر بفتح بريدٍ قادمٍ من فرنسا (وقد كانت هذه العمليّة في منتهى السهولة)، لكنّني غفلتُ بطريق الصدفة عن وضع مصادقة الجنرال لوبلو التي تتضمّن مشاهدته لأوراقي -مثل جميع الطلّاب الضبّاط الاحتياط- «تبعًا للأنظمة المحلّية النافذة». كان سجلّي مؤلّفًا من ورقتين فقط، فقد اقتلعتُ منه جميع ما قد يفضح أمري! ورقتين و«هفوةٌ» مثل هذه! لذلك فقد أعاد النقيب الألماني إليّ وثائقي مع ابتسامةٍ ذات مغزى واضحٍ. فكيف قيّض لي أن أغفل عن هذه الورقة في سجلّي المؤلّف من ورقتين؟ لا بدّ من الظنّ حتمًا -ما لم أقدّم تفسيرًا معقولًا- بأنّني لم أكن أرغب في مغادرة المعسكر لا شعوريًّا! فإذا ما كانت لديّ بطولات دايل جميعها، بل وأكثرها جنونًا، فإنّني كنتُ عاجزًا تمامًا عن تسجيل بطولةٍ حقيقيّةٍ واحدةٍ فقط في رصيدي. بكلّ تأكيدٍ فإنّني لم أكن أرغب بأيّة طريقةٍ من الطرق -ونتيجةً لقوّة أشدّ إلزامًا من وعيي وخططي المتخيّلة- في مغادرة هذا المعسكر الذي كان يناسبني تمامًا. وقد حدث ذات يومٍ أن تبادلت الشتائم مع الطبيب الألماني، وإذ جعلتُ أمثل بين يديه، تحت الرعاية الصامتة لقيادة الأركان البولونية للجناح الطبّي، والتي تعرف جيّدًا كيف «تقيّمني»، بمعنى كيفيّة اتّخاذ التدابير المناسبة حيال مزاعمي الظاهريّة وبطولاتي المتمرّدة، فإنّني لم أستطع أن أفعل شيئًا سوى التعتعة في الكلام على نحوٍ يرثى له. لقد عُوقبتُ بالحبس النافذ لمدة شهر، وعندها سوف أتعرّف على الزنازين التي يتعفّن فيها أولئك الروس البؤساء.

اقترب الحلفاء أخيرًا. بقي المعسكر ساعتين وهو يفكّر في مصير حرّاسه الذين كانوا قد اختفوا تحت جنح الظلام. لقد كانت تلك فترةً رائعةً من الحريّة، والقنص، والنساء، واللّهو والعربدة، لكنّني تنحّيتُ جانبًا. لم يكن الإنكليز قد وصلوا بعد، لذلك فقد فكّرت بمفردي (وأيّة شجاعةٍ هذه!) في خطّة لاستباقهم، وكان دايل مقتنعًا بذلك، وإذ تخلّى عن منصب الرّجل الثقة بمعيّتي، فقد رفضنا نحن الاثنين -وسط ذهول الألمان- العودة الإجبارية إلى الوطن. عثرتُ على سيارةٍ وسائقٍ لها، ثمّ غادرنا بطريقةٍ غير قانونيّةٍ نحو الجنوب: إلى هامبورغ (Hambourg) وبريمن

(Brême). لكنّ الإنكليز في هامبورغ تعاملوا معنا «كسجناء سلفًا»، ففررنا من عدالتهم المتطرّفة بفضل عبقريّة سائقنا، بيد أنّنا اضطُررنا أن نعود أدراجنا لأن الطرقات كانت مقطوعةً. عدنا إلى المعسكر وسط استهجانٍ عامٍ من قبل أصدقائنا الذين لن يغفروا لنا «تخلّينا» عنهم. وقد كان «رئيس الدير الصغير بواربيه» هو أكثرهم ألمًا بكلّ تأكيدٍ، فقد كنّا نحبّ قسّ المعسكر هذا كثيرًا وكان يبادلنا الشعور نفسه. لقد كان حزينًا كثيرًا من خطوتنا التي قطعت رابطة الأخوّة في المعسكر. هكذا ولأوّل مرّة أحاول فيها أن آخذ معي دايل في بطولةٍ من صناعتي، فإنّها تنتهي على نحوٍ سيءٍ جدًّا. بالطبع، فإنّني لم أفعل ذلك رغبةً في إثبات قوّتي أو إبداء شجاعة المغامرين.

وأشير أخيرًا إلى أنّ المرّة الأولى التي سمعتُ فيها محاميًا باريسيًّا عابرًا يتكلّم عن الماركسيّة، كانت في معسكر الاعتقال، وفيه أيضًا تعرّفت على أوّل شيوعيّ.

كان هذا هو بيير كوريج (Pierre Courrèges) الذي ظهر في المعسكر في الأشهر الأخيرة: كان قد أمضى للتوّ سنةً في رافنسبروك (Ravensbrück) في سجنٍ تأديبيّ بالغ القسوة مخصّصٌ من أجل الخصوم اللّدودين. أمّا دايل الذي لم يعد رجل ثقةٍ منذ زمنٍ طويل، فقد خلفه فتى طويل القامة جامدٌ بما فيه الكفاية، وقد كان متعهّدًا في خدمة دفن الموتى، ومع هذا الأخير عادت بعض التجاوزات، والتواطؤات القديمة تطفو على السطح من جديد. أوه! ولكن ليس كثيرًا! لأنّ كوريج باسمه فقط، وباسم النزاهة والأخويّة تدخّل في الأمر، وقد أحدث هذا أثرًا عجيبًا. لقد كان رجلًا بسيطًا، ومباشرًا، وحنونًا، وطبيعيًّا، وفعّالًا، وكان يتكلّم بكلّ طلاقةٍ. لقد كان مجرّد حضوره كافيًا لأن يقلب المعسكر رأسًا على عقبٍ، ويجعلنا في ذهولٍ عجيبٍ. وبين ليلةٍ وضحاها، سوف يكون على سائر التساهلات، وشبهات التواطؤ في التعامل مع الألمان أن تختفي من المعسكر، الذي سوف يتنفّس هواءً جديدًا لم يعهده منذ «أيّام» دايل. لقد كان المطلوب رجلًا واحدًا ووحيدًا، ولكنّه رجلٌ «ليس كسائر الرّجال»، رجلٌ تيبابار [وحيد الطرز] (فالشيوعيون

«ليسوا رجالًا كغيرهم»، لازمةٌ دعائيّةٌ سوف أدركها فيما بعد) من أجل تحقيق هذه النتيجة الباهرة. لقد كوّنت في نفسي تقديرًا عميقًا للمقاتلين الشيوعيين، وأيضًا للفكرة التي مفادها أنّنا نستطيع التصرّف بأسلوبٍ مختلفٍ عن أسلوب دايل، وأنّ ثمّة أشكالٌ أخرى للعمل وما يتّصل به في ضوء ذلك، حيث تصبح الحذاقة أمرًا ثانويًّا حينما يستلهم العمل «مبادئ» أصيلة وحقيقيّة بحسبانها أسبابًا واضحةً من أجل العمل، والتي تستطيع حينها أن تستغني عن فنّ «القرصنة» والخداع. كوريج الرّائع الذي أعطاني أوّل درسٍ عمليٍّ عن الشيوعيّة! سوف أراه مرّة ثانية في باريس؛ كان ما يزال حنونًا جدًّا، بيد أنّه كان رجلًا كغيره من الرجال، وقد ظننتُ سابقًا أنّ من غير الممكن أن يكون كذلك...

وعلى كلّ حال، فإنّ أولئك الذين أمكنهم أن يتخيّلوا أنّني هديتهم إلى صراط الشيوعيّة عن طريق هيلين، عليهم أن يدركوا أنّ ذلك كان عن طريق كوريج.

وصل الإنكليز أخيرًا، فتمّ تسفيرنا إلى باريس جوًّا. وذهبت لمقابلة جان بايو (Jean Baillou) أمين سرّ المدرسة العليا. لقد كنتُ محبطًا تمامًا، فخاطبته بلا تردّدٍ: «إنّني أستطيع تكلّم الألمانيّة (فقد تعلّمت اللغة في المعسكر)، وشيئًا من البولنديّة (في المعسكر أيضًا)، إضافة إلى لغتي الإنكليزيّة التي تعلّمتها في الثانويّة، فأرجوك أن تجد لي عملًا». فردّ عليّ قائلًا: «فلتعدْ إلى منزلك أوّلًا، وسوف ننظر في الأمر لاحقًا». ثم انتحلتُ صفة ضابطٍ (وقد كانت تلك أوّل قرصنةٍ شخصيّةٍ أنجح فيها، لكنها خديعةٌ أخرى)، وصعدتُ -بهذه الصفة- إلى طائرة تتّجه مباشرةً إلى الدار البيضاء (Casablanca) حيث كان والدي قد عُيّن فيها منذ العام 1942. لقد استقبلني أهلي بحفاوةٍ كبيرةٍ. وسرعان ما جعلني والدي، وقد تسلّم سيّارة من عمله، أزور بضع مدنٍ في المغرب. وفي ذلك الوقت كانت علاقةٌ وثيقةٌ تجمع بين أهلي وعائلة أردوفان (Ardouvin) الوحيدة، وقد كانا زوج متنافرٌ كلّيًا. فالرّجل، كان ضئيلًا وقبيحًا، وهو رفيق مدرسةٍ قديمٍ لوالدي الذي لم يكن ينقطع عن مضايقته على طول السكك الحديديّة في المغرب، أمّا المرأة فقد كانت طويلة القامة،

وغايةً في الجمال، وذكيّةً، وقد كانت أستاذةً للّغة الفرنسيّة في إحدى المدارس الثانويّة، وكانت تروق لوالدتي كثيرًا إذ كانت تستطيع أن تتناقش معها في الموضوعات الفكرية، والآداب والشعر. وقد كان الأمر يجري على المنوال نفسه؛ إذ لم يكن والدي ينقطع عن مهاجمتهم، وإثارة حفيظتهم بما يطلقه من دعابات. لقد بقي والدي على حاله؛ إذ كان الرجل الأدهى والأظرف. لكنّني لم ألتقِ -خلال ثلاثة أشهرٍ- بشخصٍ آخر سوى هؤلاء. أمّا والدتي فقد كانت مريضة، وقد أصبحت مصابّة بوسواس المرض، وفي أمعائها، وفي كلّ شيء. لم يكن يدور في خلدي سوى فكرةٍ واحدةٍ، والله وحده يعرف السبب: التأكّد من أنّني غير مصابٍ بمرضٍ الزُّهريّ. لقد استشرتُ عشرة أطبّاء عسكريين فوجدوني سليمًا، لكنّني كنتُ مقتنعًا -في كلّ مرّةٍ- أنّهم كانوا يخفون شيئًا عنّي. لقد وجدتُ نفسي -بعيدًا عن رابطة الرّفاق الأخويّة في الأسر- في عالمٍ مُحكم الإغلاق، وبعيدًا عن دايل الذي لم أتوقّف عن التفكير فيه، على حافّة الانهيار. لم أدرِ كيف يمكنني أن أتخلّص منه. ربّما في الاستعجال في عودتي إلى فرنسا. مع ذلك فقد أدركتُ بوضوحٍ -وبما استخلصته من هذين الشهرين- أنّ من الواجب عليّ أن أساعد شقيقتي (التي كانت قد انقطعت عن دراستها كي تصبح ممرّضةً للأطفال الصغار، والتي سوف يتعيّن عليها أن تعتني بالمصابين المشوّهين جرّاء القصف في الدار البيضاء) في الخروج من هذا العالم الذي سُدَّتْ مخارجه. لقد سخّرتُ نفسي من أجلها، فأقنعتُ والدتي -تلك العجوز المحبّة للموسيقا- التي جعلتها في «عهدتي»، وهكذا أبحرنا معًا، على متن مركب رديءٍ عتيقٍ لم يكن يتقدّم إلّا بمسارٍ نصف دائريٍّ: كان يتوقّف ثمّ يعاود الانطلاق من جديد. لقد أمضينا أربعة أيّام بلياليها في عرض البحر وسط الرائحة المُنتنة حتى وصلنا إلى مرسيليا. وفي باريس وجدتُ لأختي غرفةً، ثمّ عدتُ أخيرًا إلى المدرسة.

يا لها من كارثة! لم أكن أعرف أحدًا في المدرسة (لقد كنتُ الوحيد الذي تمّ أسره من أبناء دورتي، ولمّا كنت من أبناء الرّيف فإنّني لم أكن أعرف أحدًا منهم، حتى في

عام 1939). لقد كنت أشعر –على نحوٍ لا يمكن تداركه– بأنّني عجوزٌ، فاتته الأحداث جميعها. لم أكن أعرف شيئًا سوى ما كنت قد تعلّمته سابقًا، وقد كنت قادمًا من عالمٍ مختلفٍ تمامًا عن عالم الجامعة. هذا «العالم الآخر»، وهذا الشعور بكوني غريب تمامًا عن الآخرين، وعن العادات، وعن الحياة الجامعيّة، سوف يلاحقني ما حييت. كما أنّني من جانب آخر لن أعقد أبدًا أيّة علاقةٍ شخصيّةٍ مع أحدٍ من الأكاديميين كائنًا من كان، اللّهم ما خلا جان توسان ديسانتي (Jean-Toussaint Desanti)[75]وجورج كانغيلام[76] (Georges Canguilhem)، ولكن سوف تعرفون السبب. فإذا ما دافعت لاحقًا عن أطروحتي «حول الأعمال sur travaux» فإنّ ذلك سوف يكون بناء على إلحاحٍ من برنارد روسيه (Bernard Rousset)، رئيس قسم البحث والتعليم في أميانس (Amiens)، الذي تمنّى أن يقوم أحد «الباريسيين»، «ذائعي الصيت» (مثل هاينه) بإعطاء أميانس بعض التميّز. باختصار، لقد كنتُ وحيدًا تمامًا، وفوق ذلك كنتُ أشعر بأنّني مريضٌ (هواجسي الجنسيّة ومشاكلي في إدامة النظر –في والواقع رؤية بعض «الذباب الطائر»– التي تجعلني أخاف أن أصاب بالعمى) ومن دون أفقٍ ما. وإذ كنتُ فيما مضى –ولعلّ مردّ ذلك هو تأثير «الأب هورس»، واستملاحي قراءة التاريخ– قد رغبتُ في الانعطاف نحو دراسته، إلّا أنّني تراجعتُ عن هذه الغاية (فقد كنتُ ضعيف الذّاكرة، أو على الأقلّ هذا ما ظننته). سوف أتحوّل إلى الفلسفة، ولسان حالي يقول بأنّ معرفة كتابة بحثٍ حسب الأصول أمرٌ كافٍ. ولا ضير في جهلي، فلطالما كنتُ أنجو بجلدي.

وافق طبيب المدرسة، الدكتور إيتيان الشاب، في سبيل تأمين الرّعاية لي –مع أنّه لم يكن مقتنعًا بتاتًا بأمراضي العينيّة (وكم كان محقًّا في ذلك!)– أن أقيم في

(75) جان توسان ديسانتي (Jean-Toussaint Desanti) 1914-2022: فيلسوف فرنسيّ، ويعد مؤسّس إبستمولوجيا المثاليّات أو الرّياضيّات. (المترجم)

(76) جورج كانغيلام (Georges Canguilhem) 1904-1995: فيلسوف وطبيب فرنسيّ متخصّصٌ في نظرية المعرفة وفلسفة العلم. (المترجم)

مستوصف المدرسة، حيث شغلتُ غرفةً صغيرةً في نهاية الرّواق من الطابق الأوّل، بالقرب من غرفة بيير موسى (Pierre Moussa)، وهو ليونيّ [من أبناء ليون] عتيق، الذي سأتعرّف إليه. وفي ذلك الوكر الصغير، كنتُ أستقبل في بادئ الأمر شقيقتي -وهي الشخص الوحيد الذي كنتُ أعرفه في باريس- وقد كانت تغسل جواربي، وتعدّ الشاي لي. لقد كنتُ أرسل إليها -منذ أيّام الاعتقال- رسائل شاعريّة جدًّا، تكاد أن تكون غراميّة، لم أكن أعرف ماذا أجد فيها وقد يكون السبب في ذلك أنّه لم يكن لديّ ما أكتبه إلى والداي على الإطلاق. قضيّةٌ ما تزال غامضةً في نظري ما لم أتصوّر بعض الانزياحات. في ذلك الوقت تعرّفت إلى جورج لوزيفر (Georges Lesèvre) -الملقّب سيفران (Séveranne)- وهو ليونيّ عتيق، الذي كان قد تلقّط -على غرار ما كان يحدث بين طلّاب السنة الثانيّة من أبناء الرّيف الذين لم يكن بينهم كثير من الطلّاب المميّزين-أخبار «أسطورتي» المحليّة (من فم لاكروا وهورس)، وقد كان قد تأخّر في دخوله إلى المدرسة العليا بسببٍ من انخراطه الطويل الأمد في حركة المقاومة، حيث جمعته هناك -كما سوف أعلم لاحقًا- علاقةٌ وثيقةٌ بهيلين. بيد أنّ انسحاقي بماضي رجلٍ واحدٍ فقط، وبرشاقته أيضًا، لم يكن بالأمر الكثير.

لم أكن أعرف كيف أتصرّف، بيد أنّني رغبتُ في إقامة علاقةٍ نسويّةٍ ما. أتذكّر بأنّني تعلّمت الرقص في أحد النوادي القذرة في حيّ مونتبارناس (Montparnasse) استعدادًا للحفل الرّاقص في المدرسة... إذ كنتُ أعلمُ أنّ بعض السيفرْيينات (Sévriennes) -وهنّ طالبات المدرسة العليا- سوف تظهرن فيه. عشيّة الحفل الرّاقص من عام 1945، رأيتُ مقطعًا جانبيًّا من الوجه الذي كان يقضّ مضجعي: فتاةٌ قصيرة القامة، ساحرةٌ، وصامتةٌ مثلي، فرقصتُ معها قليلًا. سرعان ما دخلتُ في تخيّلاتٍ غراميّة عجيبة. كانت تُدعى أنجولين، وسوف أجري على هذا الاسم تحويراتٌ لا تنتهي، آنج، أنجوليت، أمولين، أمولينت، رونساردولت... كنتُ أراها، ثمّ أعود فأراها، وكنتُ أكتب إليها، ثمّ أصبحتُ —

بنوع من الهوى المتعصّب- لا أفكر إلا بها، حتّى كان ذلك اليوم الذي علقتْ فيه، لكنّ أهلها بيّنوا لها أنّ هذا الأمر غير وارد. في هذه الأثناء، كان لوزيفر قد جرّني معه في عدد من الرحلات إلى تشيكوسلوفاكيا (Tchécoslovaqui)، تحت مظلّة الشبيبة الجمهوريين (وهم في الواقع شيوعيون)، يتزّعمهم إيريو(Herriot). لقد كان لوزيفر شيوعيًا، وكان لديه حظوة حينها في كلّ مكانٍ، وعند عددٍ كبيرٍ من المقاومين. في براغ (Prague)، وعلى ضفاف نهر فلتافا (Vltava) الجافّ تقريبًا والمليء بالروائح العفنة، علمتُ بأنّ إحدى فتيات الرحلة -وتُدعى نيكول (Nicole)- مغرمةٌ بي، فراعني الأمرُ جدًّا حتّى إنّني لم أطق مقاربتها. لقد كنتُ توّاقًا إلى أن أتخيّل فتاةً تقع في غرامي، بيد أنّني لم أكن أطيق إتيان ذلك الأمر معها فعلًا: نفورٌ قديمٌ، كما سوف نرى.

وفي تلك الأثناء حدث أن تعرّفتُ إلى هيلين.

الفصل الحادي عشر

في إحدى أمسيات شهر كانون الأول، والثلوج تغطّي باريس، دعاني لوزيفر إلى زيارة والدته -التي كانت قد عادت من الترحيل القسري في حالةٍ يُرثى لها- في شقّتها الكائنة في آخر شارع لوبيك (Lepic). ما أزال أتذكّر نفسي برفقة لوزيفر نعبر الجسر المغطى بالثلوج في ساحة الكونكورد (Concorde)، وهو يحدّثني عن المرأتين. كان منهمكًا في الحديث عن والدته، حينما قال: «سوف تقابل هيلين أيضًا، إنّها صديقةٌ عظيمةٌ، هي مجنونةٌ قليلًا، لكنّها فتاةٌ استثنائيّةٌ تمامًا بذكائها السياسيّ وطيبة قلبها». مجنونةٌ قليلًا؟ وما الذي يمكن أن يعنيه المديح الآخر بعد هذا؟ «سوف نجدها عند نهاية شارع لوبيك عند نقطة الخروج من محطّة الأنفاق.»

بالفعل كانت تنتظرنا هنالك، تحت الثلج المتساقط. امرأةٌ صغيرة الحجم للغاية، متدثّرة في ذلك المعطف الذي كاد يغطّيها بالكامل. وبعد أن تعارفنا، مضينا في الحال نحو نهاية شارع لوبيك، فوق الأرصفة المتجلّدة. وفي أوّل بادرةٍ منّي، وبصورةٍ غريزيّةٍ تمامًا، أمسكتُ ذراعها كيما أساعدها في ارتقاء المنحدر. لكنّ يدي، وبصورةٍ غريزيّةٍ أيضًا، انزلقت تحت ذراعها نحو الثدي، ثم أخذتُ كفّها الباردة في يدي الدافئة، وقد خيّم الصمت فيما نتابع الصعود.

أتذكّر تلك الأمسية بألمٍ. كانت نار الموقد تلتهم الخشب وترتفع عاليًا. وكانت السيّدة لوزيفر سعيدةً برؤية ولدها مجدّدًا، فاستقبلتنا بحفاوةٍ كبيرة. كانت امرأة طويلة القوام، نَحَلتْها صنوف المعاناة، حتّى أمست شاحبةً تخالها شبحًا. لم تكن تبتسم أبدًا، وكانت تتكلّم ببطءٍ باحثةً عن كلماتٍ تستعيد بها ذكريات المقاومة الحماسيّة، وكوابيس الترحيل القسريّ المشؤومة: بالفعل، لم تكن معسكرات

الاعتقال شبيهةً بمعسكرات السجناء التي عرفتُها على الإطلاق، ولا حتى بظروف المقاومة التي خبرَها كلٌّ من هيلين وجورج. حتّى إنّ تخيّل هذه المعسكرات كان أمرًا غير واردٍ حقًّا. لطالما كان جورج متكتّمًا في الحديث حول إنجازاته في جبال الألب، وفي مدينة ليون. لقد سبق لي أن سمعت الأحاديث عن معسكرات الترحيل، لكنّها المرّة الأولى التي ألتقي فيها بشخصٍ خبرها، بل وأيّ شخصٍ: إنّها امرأة خبرت تلك المعاناة بحزمٍ واستقامة. أتذكّر بأنّني كنت أرتدي في ذلك اليوم (في دلالةٍ ادّخاريّة إذ لم أكن قد اشتريتُ سواها) سترةً ضيّقةٍ سيئّة المقاس، سترة كستنائيّة اللون تناسبني بالكاد، كنتُ قد ابتعتُها في باريس لدى عودتي من الأسر. لاحقًا، سوف تحدثني هيلين كثيرًا عن تلك السترة، وانطباعها لدى رؤيتي في ذلك الهندام السيّء، كما لو أنّني رجلٌ يساريّ تتطابق شخصيّته مع مظهره الخارجي تمامًا، وتجعله قادمًا من عالمٍ آخر.

وحقيقة الأمر أنّني ارتديتُ لزمنٍ طويلٍ ملابس باهتةً، بسيطة التفصيل، بلا تكلّفٍ أو تزويق، من باب الادّخار، كما كنتُ أجدُ نوعًا من اللّذّة في أن أبدو منتميًا إلى عالم المحرومين، كأولئك العرب الصغار في طفولتي، أو أولئك الجنود في الأسر. أتذكّر أنّني لم أتكلّم كثيرًا في تلك الليلة سوى بعض الحديث في تذكّر الحرب الإسبانيّة، و«الأب هورس»، وأمّي أيضًا التي لم تستطع أن تخفي تعاطفها حينما كنتُ أقرأ لها في لاروشميلي بعض الصفحات من رواية «**الأمل** L'Espoir» لمالرو (Malraux): «الأطفال الفقراء!» قالت هيلين، التي كانت مصغيةً بكامل جوارحها إلى أحاديث السيّدة لوزيفر، وإلى حديثي في السياسة، من دون أن تنبس بحرفٍ تقريبًا. لم تتكلّم عن معاناتها، ولا عن أصدقائها الذين أعدمهم النّازيّون رميًا بالرّصاص خلال الحرب، ولا عن شقائها البائس. لكنّني لمحتُ في عينيها ألمًا، وشعورًا بالوحدة لا يُسبر غوره، فظننتُ أنّني فطنت بعد فوات الأوان لماذا كنتُ قد أخذتُ يدها في يدي في شارع لوبيك (لكنّ ذلك لم يكن صحيحًا، وقد أخبرتها بذلك). سوف تتملّكني رغبةٌ ونذرٌ نبيلٌ منذ تلك اللحظة: إنقاذها، ومساندتها في

الحياة! وسوف لن أتخلّى -طيلة حياتنا المشتركة وحتى النهاية- عن هذه المهمّة الكبرى، التي سوف تظلُّ مبرّر وجودي حتى اللحظة الأخيرة.

تخيّلوا ذلك اللّقاء: كائنان في قمّة اليأس والإحباط يلتقيان وجهًا لوجهٍ صدفةً، ويدركان ما يجمعهما من تآخٍ في الهواجس نفسها، وفي المعاناة نفسها، وفي العزلة نفسها، وفي الطموح المُحبط نفسه.

سوف أعلم شيئًا فشيئًا من تكون. كانت تتحدّر من عائلةٍ يهودية، لقبها ريتمان(Rytmann)، قادمةٍ من التخوم الرّوسيّة البولونيّة هربًا من المذابح، وقد ولدت في فرنسا، في الدّائرة الثامنة عشر، قرب شارع أوردونيه (Ordener)، لكنّها كانت تلعب مع أبناء الحيّ الغارق في البؤس والحضيض. كانت تحتفظ بذكرى مريرةٍ عن والدتها، فهذه الأخيرة التي لم ينتج جسدها الحليب لم تعطِها ثديها أبدًا، ولم تأخذها بين ذراعيها. لقد كرهتها الأمّ التي كانت تنتظر مولودًا ذكرًا، فجاءت هذه الطفلة البريّة وسوداء الجلد وقلبت طاولة أمنيات الوالدة رأسًا على عقب. لم تَحن أيّة بادرة عطفٍ من هذه الأم تجاهها على الإطلاق، فلا شيء سوى الكراهيّة. أمّا هيلين التي كانت ترغب -مثل جميع الأطفال- في أن تكون حبيبة أمّها فإذا بها تلاقي أنواع الصدود كلّها: من حرارة الحليب إلى حرارة الجسد، إلى إحساسها بأمارات الحبّ واللّطافة نحوها؛ فإنّها تماهت على نحوٍ لا رجعة فيه في تلك المرأة الفظيعة التي كانت تكرهها، كما تماهت في تلك الصورة المروّعة التي كانت الأم قد اتّخذتها عن طفلتها: بغيضةً لأنّها صُدّتْ، سوداء الجلد وبرّية الطباع، حيوانٌ صغيرٌ متمرّدٌ شموصٌ، في حالٍ دائمةٍ من الخوف والعنف (فذلك هو دفاعها الوحيد). إنّ الاستعادة والتأليف بين صورة الأمّ المروّعة الحاقدة، والصورة التي اتّخذتها هذه الأمّ -المليئة بالكراهية- عن طفلتها الصغيرة كحيوانٍ صغيرٍ أسود، فظّ الطباع، عنيف ومكافح من أجل البقاء، سوف يشكّل الهاجس المرعب لهيلين خلال حياتها كلّها وحتى النهاية: لقد كانت تخشى على نحوٍ لا شفاء منه من أن تكون هي نفسها وإلى الأبد امرأة مروّعةً، شرّيرةً، في منتهى الظلم والقسوة، وأن تنشر الشرّ من حولها

من دون أن تستطيع التحكّم أبدًا في تلك الفظاعات المفرطة التي ترميها في لجّتها بلا هوادةٍ قوّةٌ لا تطيق مغالبتها.

في هذه الحالة أيضًا لا نستطيع التأكيد بأنّ هيلين يمكنها أن تدّعي أبدًا أنّها كانت الانعكاس الموضوعي الدقيق لا عن أمّها الحقيقيّة، ولا عن نوايا هذه الأمّ الشعورية، أو اللاشعورية بالأحرى. أقصى ما يمكن قوله أنّ هذا الهاجس الابتدائيّ لم يكن اعتباطيًّا، بل كان مرتبطًا «بدلائل» حقيقيّة استطاعت من خلالها الرغبة (الرغبة العنيدة) غير الواعية للأمّ و«إرادتها» أن تتحقّقا. صحيحٌ أنّ هيلين الصغيرة كانت عجفاء، وسوداء، وغارقة في الغضب. لكنّ سورة الغضب تلك هي من ذلك النوع الذي يعبّر عن نفسه بطريقة حقيقيّةٍ جدًّا، حتى وإن جاء على صورة ذكرى، الغضب الذي يعيق هيلين من ممارسة العيش حرفيًّا، بقدر ما يكون خوفها الرّهيب من أن تكون امرأة شريرةً، وألّا تكون قادرة على أن تكون محبوبةً، أن تكون محبوبة لأنّها تعرف كيف تحبّ وكيف يكون الحب! وأحسب أنّني لم أجد لدى امرأةٍ أخرى قدرةً على الحبّ مثلما وجدت لديها، حقيقةً لا خيالًا، على النحو الذي بيّنته لي.

في المقابل، كانت هيلين تحتفظ بذكرى طيّبةٍ عن والدها. هذا الرجل اللطيف الدقيق، الذي كان يدير تجارة خضروات صغيرة في الدائرة الثامنة عشر. وكان يُعدُّ -في المجتمع اليهوديّ المحلّي- رجلًا «حكيمًا» يُقصد لأخذ النصيحة، وقد كان جاهزًا على الدّوام من أجل مساعدة الجوار. أمّا شغفه الخاص فقد كان الأحصنة (هو الآخر)، وقد انتهى به الأمر إلى شراء حصان كان يقوم على العناية به مع ابنته. ولقد منحت هيلين فرحًا حقيقيًّا هذه الرعاية المشتركة مع الأب، رعايةٌ قوامها الثقة والعاطفة. لم تستطع هيلين أبدًا أن تفهم كيف يستطيع والدها أن يعيش مع أمّها، اللهم إلا بالاتّكال على صبر لا حدود له. سرعان ما ستغادر العائلة الدائرة الثامنة عشر إلى وادي شيفروز (Chevreuse)، وهناك سوف تنعقد خيوط المأساة.

أصيب الأب بالسرطان، والظاهر أنّ إخوة هيلين وأختها كانوا يعيشون على

ليلاهم، من دون إيلاء والديهم عناية كافيةً. لذلك فقد أمضت هيلين –في عمر العاشرة أو الحادية عشر– بمفردها الأشهر تلو الأشهر إلى جوار والدها، تقوم على مساعدته والعناية به، فيما ألقت أمُّها العبء كاملًا على عاتق هذه الطفلة المشؤومة. بالطبع كان هنالك الطبيب الطيّب دولاكروا الذي كانت هيلين تحبّه كثيرًا بسبب وقوفه إلى جانبها كرجلٍ حقيقيٍّ، دافئ ودقيق العناية، وكونه العون الوحيد لها في عزلةٍ ومسؤوليةٍ كفيلةٍ أن تسحق طفلةً مثلها تحت أثقالها. لكن وللأسف! فقد أخذ هذا الطبيب الطيّب، منتهزًا إحدى لحظات الثقة والأمان، يعبث بسروال الفتاة الصغيرة وآلتها. لقد بدا الأمر كما لو أنّ صديقك الوحيد في العالم بأسره قد تخلّى عنك. لقد واظبت هيلين على العناية بوالدها، وسوف يطلب منها الدكتور دولاكروا في لحظات الألم الباقية أن تحقن والدها بحقنة المورفين الأخيرة ذات الجرعة الزائدة. لذلك سوف يبدو الأمر كما لو أنّ هذه الفتاة المريعة قد قتلت والدها، والدها الذي أحبّها وأحبّته.

بعد سنةٍ من ذلك، أصيبت الأمّ هي الأخرى بالسرطان، فعاد الوضع نفسه مجدّدًا. وعادت هيلين مرّة أخرى للعناية بوالدتها والسهر عليها، الوالدة التي كانت تكره هيلين. كما عاد الطبيب دولاكروا ثانيةً ليصف الحقنة القاتلة في اللحظات الأخيرة، وسوف تقوم هيلين بإعطائها لأمّها. وللمرّة الثانية فإنّ الفتاة المريعة قد قتلت والدتها التي كانت تكرهها، كان ذلك في عمر الثالثة عشر!

لستُ أعلم كثيرًا عمّا جرى لاحقًا، لكنّها استطاعت بمفردها أن تجد السبيل للعمل، الذي يدرّ عليها قليلًا من الرزق، ثمّ أخذت تقرأ، بل وتتابع بعض الدروس في السوربون، حيث كانت تستمع فيها إلى محاضرات ألبير ماثييز (Albert Mathiez)[77] –الذي كانت تحدّثني عنه كثيرًا– وسواه. وفي السوربون تعرّفت على أوّل صديقةٍ حقيقيّةٍ –صديقةٍ قبلتها كما هي– وقد استطاعت هذه أن

(77) ألبير ماثييز (Albert Mathiez) 1874-1932: مؤرّخ فرنسيّ، اشتُهر بتفسيره الماركسيّ للثورة الفرنسيّة. (المترجم)

تميّز تحت مظاهر الجموح البرّيّ لدى الصبيّة جوهرًا من الذكاء والسخاء اللذين لا يضاهيان. كانت تُدعى إميلي (Émilie)، وكانت فيلسوفة مغرمة بسبينوزا وهيغل، كما كانت شيوعيّة. وقد رحلت في أحد الأيام إلى الاتحاد السوفييتيّ (Urss) بغرض متابعة الدراسة، لينتهي بها الأمر معتقلة في سيبيريا (Sibérie)، مرميةً في إحدى زنازينها، لتعدم في النهاية برصاصةٍ في مؤخّرة رأسها. لكنّ هيلين لم تعرف هذا التفصيل الأخير إلا في سنوات الخمسينيّات فقط. لقد تعلّمت هيلين من إميلي، وحفظت عنها -رغم أنّ هيلين نفسها لم تكن فيلسوفةً (إذ كانت ترغب في أن تكون مؤرّخةً)- أنّ الفلسفة أمرٌ حيويٌّ وجوهريٌّ بالنسبة إلى السياسة، وهو ما أدركته حينما تعرّفت إلى هيلين، وحينما ازدادت أواصر العلاقة بيننا.

انتسبت هيلين إلى الحزب الشيوعيّ في سنوات الثلاثينيّات، وأصبحت -وهي في ميعة الصبا- ناشطةً استثنائيّةً في الدائرة الخامسة عشر القريبة من معامل سيتروين جافل (Citroën Javel)، التي كان القمع فيها شديدًا إلى درجة عدم تصوّر ممارسة أيّ نشاطٍ نقابيّ أو سياسيّ داخلها إلا عن طريق الخارج. وقد اكتسبت هنالك سمعةً استثنائيّةً من خلال إدارتها -رغم كلّ الصعاب، ورغم وابل الإهانات والسخرية من قبل خصومها الفاشستيين- لمركز بيعٍ لجريدة لومانيتيه (L'Humanité) المخصّصة من أجل عمال سيتروين. لقد حظيت بشعبيّةٍ هائلةٍ في أوساط العمال، فيما كانت مرعبةً في نظر الجماعات الفاشيّة بقدر ما كانت تتمتّع بالحزم والشجاعة، وهنالك كسبت صداقة ناشطين مميّزين من أمثال أوجين إيناف/ جيجين (Eugène Hénaff /Gégène) الذي كانت مغرمةً به، وجان بيير تيمبو (Jean-Pierre Timbaud)، وجان بيير ميشيل (Jean-Pierre Michel) أيضًا الذي سيصبح في وقتٍ لاحقٍ نائبًا عن الدائرة الخامسة عشر: وسوف يُعدم الرجلين رميًا بالرصاص في شاتوبريان (Châteaubriant). أما في جريدة لومانيتيه فقد تعرّفت إلى بول فيّان كوتوريه (Paul Vaillant-Couturier) بشكل وثيق، وأصبحت صديقته، كما تعرّفت إلى أندريه مارتي (André Marty) -ولكن

على نحوٍ أشدّ عمقًا بكثير- إذ كانت مبهورة بخطابته الرائعة وطباعه النزقة. وفي التاسع من شهر شباط/ فبراير من عام 1936 شاركت في عراكٍ جسديٍّ نشب في الشارع ضد الفاشستيين إلى جانب رفاقها العمّال المعبّأين لصالح النقابة والحزب. كانت تلك حقبة موريس توريز (Maurice Thorez) صاحب مقولة: «عندما تفتح الأفواه، لن يعود في الحزب من دمى!»، حتّى إنّها التقت مع جاك دوكلو (Jacques Duclos)[78] نفسه في حانةٍ صغيرةٍ ولعبت معه البليار، وقد فازت بالمباراة، فعلّق دوكلو ساخرًا: «رميةٌ من غير رامٍ!».

في تلك الفترة انبثقت عاطفتها التي سوف تلازمها مدى الحياة: عشق «الطبقة العاملة». كان عشقًا حقيقيًا، شاملًا ومتشدّدًا، وهو عشقٌ أسطوريٌّ في بعضه بالطبع، بيد أنّه كان يحميها بشكلٍ فعّالٍ من أسطورةٍ أخرى، أسطورة تنظيم الطبقة العاملة وقياداتها. وهي لن تخلط بين هذين الأمرين أبدًا لا في حياتها ولا أمامي، بل ستكون على العكس تمامًا. وقد حانت لحظة الحقيقة بعد أحداث عام 1968 حيث أعلنت لكلّ راغبٍ في الاستماع أنّ «الحزب خان الطبقة العاملة» التي لم يعد يعرفها، فيما بقيتُ أنا داخل صفوف الحزب. أمّا فيما يتعلّق بكتبي، فلطالما أعادت على مسامعي من دون انقطاع أنّ «ريعها يجب أن يعود» إلى الطبقة العاملة، وأنّها لهذا السبب تصادقُ عليها وتثمنّها. أمّا في ميدان العمل السياسيّ، فقد كانت ترى أنّ التقدير معقودٌ للطبقة العاملة وحدها، بفضائلها، ووسائلها وشجاعتها الثوريتين.

ولعلّي -في هذا المقام- أستطيع أخيرًا أن أبدّد على نحوٍ قاطعٍ تلك الخرافة العجيبة التي سرت بشكلٍ واسعٍ عنّي وعن هيلين حتى بين العديد من أصدقائنا (ولكنّهم ليسوا الأصدقاء المقربين طبعًا): *إنّ هيلين لم تمارس أبدًا شيئًا من الضغط عليّ*، سواء أكان ذلك في المجال الفلسفيّ أم في المجال السياسيّ. فهي لم تمارس الضغط، لكنّه بيير كورّيج (Pierre Courrèges)، ثمّ سيفران (Séveranne) وأصدقاؤه، ثمّ

(78) جاك دوكلو (Jacques Duclos) 1896-1975: سياسيّ فرنسيّ، وأحد قادرة الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ. (المترجم)

خلال تجاربي النقابيّة في المدرسة العليا حيث وقع الخلاف مع الاشتراكيين وانتهى بمقارعتهم في سبيل قيادة النقابة، وكذلك جان توسّان ديسانتي، وتران دوك تاو (Tran Duc Thao)[79] الذين كانوا -شيوعيين وفلاسفةً- يدرّسونني في المدرسة العليا، والذين تابعتُ محاضراتهم بعد حصولي على إجازة التّدريس. وهي لم تُبدِ - أبدًا- أيّة ملاحظةٍ في سبيل تغيير وجهة النظر المتضمّنة في مخطوطاتي التي كنتُ - بصورةٍ طبيعيّةٍ جدًّا- أعرضها عليها للقراءة: وهي لم تدّعِ أنّها من أهل الاختصاص لا في الفلسفة ولا في النظريّة السياسيّة، كما أنّها لم تكن تعرف كتاب «رأس المال»، بيد أنّها كانت ذات تجربةٍ لا تُضاهى في موضوعه وكذلك في موضوع الحزب والعمل السياسيّ. وقد كانت قانعةً بموافقتي، من دون التدخّل في عملي إلّا من أجل اقتراح بعض التعديلات التي من شأنها إحكام الصياغة، أو التخفيف من غلوائها في هذه العبارة أو تلك. لقد كنّا على وفاقٍ تامٍّ فيما يتعلّق بهذه القضايا، التي كانت طائفةٌ جاهلةٌ من البشر تطمح أن ترى فيها بوادر الشقاق فيما بيننا. لقد كانت هيلين تجد في كتاباتي صدىً لتجربتها في العمل السياسي، كما كنتُ أجد فيها تقصّه عليّ واقعًا استباقيًّا لما كنت أكتبه.

لقد كان هذا الأمر وجهًا آخر مختلفًا تمامًا عمّا يظهر من مشاكلنا الشخصيّة، التي سوف نقف عليها. لكنّني سرعان ما اكتشفتُ -حينما تعزّزت معرفتي بهيلين في عام 1946- أنّها لم تفقد فقط أصدقاءها جميعًا، فقد كان من بين هؤلاء الأب لارو (le père Larue)؛ ذلك القسيس الاستثنائي، الذي كانت هيلين قد تعرّفت إليه في مدينة ليون في صفوف المقاومة وأحبّته حبًّا عذريًّا، لكنّه أُعدم رميًا بالرصاص في الأيام الأخيرة من عام 1944 من قبل النازيين في مونت لوك (Montluc)، في الوقت الذي كان باستطاعة عمليةٍ جسورةٍ من قبل فرقة المتطوّعين (Corps francs) أن تحرّره، وتحرّر معه جميع السجناء في مونت لوك، لكنّ هذه العملية

(79) تران دوك تاو (Tran Duc Thao) 1917-1993: فيلسوف ماركسيّ فيتناميّ، وقد شارك في النضال ضد الاستعمار. (المترجم)

رفضت من قبل الحزب ومن قبل مفوّض الجمهورية في ليون، إيف فارج (Yves Farge) المعيّن من قبل ديغول. وسوف تلوم هيلين نفسها طيلة حياتها، كما لو أنّها المذنبة في هذه المسألة، لكونها لم تستطع إقناع المسؤولين بالتدخّل في الوقت المناسب في سبيل تحرير المقاومين الأسرى لدى النازيين في مونت لوك. أمّا الأب لام (le père Lame) -الذي تحمل اسمه اليوم ساحةٌ صغيرةٌ في فورفيير (Fourvière)_ وكان قد عرف قصتّها العجيبة وأحبّها بصدقٍ محبّة عميقةً، فقد كان يرويها بحماسةٍ وفرحٍ كبيرٍ: وها هو قد قضى نحبه، فيما جعلت تلوم نفسها أبدًا لكونها لم تستطع إنقاذه.

لقد اكتشفتُ أيضًا بأنّها كانت تعيش في حالةٍ من الفقر المُدقع. كانت علاقتها مع الحزب الذي تحوّل إلى العمل السرّي منذ عام 1939، قد انقطعت تمامًا. في أثناء الحرب، وإذ لم تستطع إعادة هذه العلاقة مجدّدًا، وبعد أن انقطعت علاقتها مع جان رينوار (Jean Renoir)[80] الذي هرب من فرنسا إلى أمريكا، وكانت قد ساعدته في عددٍ من أفلامه (فقد كانت على معرفةٍ بفرانسواز جيرود (Francoise Giroud)[81] التي كانت تُلقّب بخبثٍ بـ«قطعة النقانق» بسببٍ من حجم قامتها) ولكن من دون أن تقبل بظهور اسمها في مقدّمة أيّ فيلم من أفلامه، فإنّ هيلين انخرطت في تنظيمٍ مقاومٍ مهمٍّ (أظنّه يُدعى ليبراسيون سود (Libération-Sud)، لكنّني لستُ واثقًا من ذلك)، وكي تستطيع نقل المعلومات، والأموال والأسلحة من سويسرا إلى فرنسا، فقد أصبحت ممثّلة لشركة سكيرا (Skira)[82] فيما يخصّ فرنسا، وهو الأمر الذي مكّنها من الالتقاء والتعرّف إلى كبار الرّسامين في ذلك الوقت. كما أنّها تعرّفت أيضًا، من خلال عائلة بالارد (les Ballard): جان (Jean) وماركو (Marcou) -وهما من أصدقائها في دفاتر الجنوب (Cahiers du Sud) في

---

(80) جان رينوار (Jean Renoir) 1894-1979: مخرجٌ سينمائيٌّ وكاتب سيناريو وممثّل ومؤلّف فرنسيّ.
(81) فرانسواز جيرود (Francoise Giroud) 1916-2003: صحفيّة وكاتبةٌ وسياسيّةٌ فرنسيّة. (المترجم)
(82) شركة سكيرا (Skira): شركة نشر، معروفة على وجه الخصوص بكتبها الفنيّة. (المترجم)

مارسيليا- التي كانت تقوم باستضافة واستقبال عددٍ من المقاومين ورجال الأدب، علی سائر الأسماء الكبيرة في عالم الأدب الفرنسيّ في ذلك الوقت. وفي تلك الحقبة تعرّفت إلى مالرو (Malraux) بشكلٍ وثيقٍ، كما جمعتها علاقةٌ حميميةٌ مع أراغون (Aragon) وإلوار (Eluard)، اللذين لم يستطيعا -هما أيضًا- لأسباب أمنيّةٍ جائرةٍ استئناف العلاقة مع الحزب السرّيّ. كما أنّها تعرفت هنالك جيّدًا إلى لاكان (Lacan) الذي كان يقيم في مدينة نيس (Nice) مع سيلفيا (Sylvia)، وقد كان يحدّثها أحاديث مطولةً في منتزه بروميناد دي أنجليه (Promenade des Anglais) حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل. وقد قال لها ذات يوم هذه العبارة، التي سوف يتعيّن على المحلّل الخاصّ بي -الذي لم يكن يعلم رأي لاكان- أن يؤكّدها: «لقد اتّخذتم محلّلًا فوق العادة!»، لا ريب أنّها «حاسّة سمعه» الاستثنائيّة، وبصيرته المدهشة.

بحلول عام 1945 لم يكن قد بقي لهيلين شيءٌ من علاقات الصداقة والمحبّة، وقد بيّنتُ السبب في ذلك. على كلّ حال، لقد كانت -حين عرفتها- تعيش فقرًا أسود. وقد اضطرّت إلى بيع بعض النسخ الأصليّة لمالرو وأراغون وإيلوار. كانت تسكن في غرفة خادمةٍ بائسةٍ في أحد الفنادق الموجودة في ساحة سانت سولبيس (Saint-Sulpice)، في الطابق الأخير منه.

كانت هيلين قد دعتني إلى زيارتها في تلك الغرفة بعد لقائنا عند عائلة لوزيفر. وبكلّ تأكيدٍ، فلولا أنّها دعتني، لما كان قد حصل شيءٌ بيننا. شربتُ الشاي الذي أعدّته، ثمّ حدّثتني عن هذه السترة (التي كنت أرتديها عندها أيضًا) وأنّها قد أثّرت فيها كثيرًا، كما حدّثتني بضع كلماتٍ عن وجهي وجبيني اللذين وجدتهما «جميلين»، ثمّ خرجنا إلى السوق وجلسنا على أحد المقاعد. حينما هممتُ بالرحيل نهضت هيلين، وبصورةٍ غير واعيةٍ أخذت تداعب شعري الأشقر بيدها اليمنى، من دون أن تنطق حرفًا. لكنّني لم أدرك الأمر إلّا متأخّرًا كثيرًا. لقد كنتُ غارقًا في شعورٍ من الرّهبة والنفور. لم أستطع أن أتحمّل رائحة بشرتها التي بدت لي رائحة مقزّزةً.

كانت هيلين تتّصل بي دائمًا كلّما سنحت الفرصة. وكنتُ قد سافرت حينها مع لوزيفر من أجل بعثاتنا في أوروبا الوسطى، وكنتُ أتودّد دائمًا إلى أنجلين، أمّا نيكول فقد كانت مغرمة بي، أنا ولا أحد آخر على الإطلاق. كذلك فقد سافرتُ إلى روما في بعثة جامعيّةٍ لزيارة البابا، تحت إشراف رئيس الدير شارل الذي كانت فظاظته العفويّة وديماغوجيّته تشعرانني بالخوف. لقد كان قسّيس المدرسة، وقد تسبّبتُ في «طرده» رسميًّا بما قدّمته من حججٍ قاطعةٍ، وهو اليوم في مونتمارتر (Montmartre)، حيث يُفترض به ألّا يغفر لي هذه المسألة على الإطلاق -لكنّ هذا منوط بأن يتذكّر القضيّة فحسب، لأنّه كان سريع النسيان- وألّا يرغب في معرفة أنّه كان رجل دين مشؤوم. كنتُ ما أزالُ مؤمنًا، فكتبتُ في إحدى الصحف اليوميّة مقالتين حول هذه الرّحلة. كان ذلك غداة الدمار الكبير في إيطاليا، وكان قطارنا يسير بحركةٍ بطيئةٍ فوق العديد من الجسور الخشبيّة المعلّقة على ارتفاعاتٍ مدوّخةٍ، وهي تتأرجح في الفراغ. وإذ بلغنا روما تحت جنح الظلام، شرعنا نرتّل في قلوبنا الترانيم الدينيّة وقد هالنا عمل الشيطان وحزّ في نفوسنا. استقبلنا البابا بيونس الثاني عشر (Pie XII) ضمن مجموعةٍ، لكنّه كان لديه لكلّ واحدٍ منّا سؤال وعبارة، يقولها في لغةٍ فرنسيّةٍ غريبةٍ. سألني البابا إذا ما كنتُ طالبًا في مدرسة المعلّمين -نعم- في القسم الأدبيّ أم العلميّ؟ -الأدبيّ. حسنًا، لتكن مسيحيًّا صالحًا، وأستاذًا صالحًا -وعلى وجه الخصوص (لاسيّما!) مواطنًا صالحًا! لقد شعرتُ بأنّ بيوس الثاني عشر كلّه يتلخّص في هذه الـ«لاسيّما». ومن ثمّ أعطاني بركته. لكنّني أدرك بأنّني لم أحقّق توقّعاته تمامًا.

في شهر شباط/ فبراير من عام 1947، بدأت الحبكة الدراميّة الأولى في الانعقاد. كنتُ ما أزال أتودّد إلى أنجولين، فمعها كنتُ صاحب المبادرة، وكانت القضيّة إذًا قضيّتي، والأمر في صالحي. وكنتُ أرى هيلين من وقتٍ لآخر دائمًا: لكنّها هي التي كانت صاحبة المبادرة، وليس أنا: إنّه أمرٌ مزعجٌ جدًّا. في ذلك الوقت لم تكن فكرةً بسيطةً تلك التي راودتني، بل قوّةً قاهرةً لا تُقاوم تتمثّل في أن أقدّم أنجولين إلى

هيلين. لن تكون المرّة الأخيرة التي أُقحم نفسي فيها في عمل استفزازيٍّ وورطةٍ مشابهةٍ. لكنّني حينها كنتُ بعيدًا جدًّا عن أن أشكّ في حقيقة الدوافع وراء هذه الفكرة السخيفة: إنّها رغبةٌ لا تقاوم في الحصول على موافقة هيلين بخصوص قراري في اتّخاذ عشيقةٍ، قرارٌ لا يتعلّق بها، لكنّه يتعلّق بامرأةٍ أخرى.

لذلك فقد دعوتها لاحتساء الشاي في منزلي، أي في وكري الصغير من مستوصف المدرسة العليا. كنتُ في حوالي الثلاثين عامًا، وكانت هيلين في الثامنة والثلاثين، وأمّا أنجولين ففي العشرين. لم أعد أتذكّر من بدأ الحديث، لكنّني أتذكّر جيّدًا كيف انتهى ذلك: لقد انتهى بتبادل وجهات النظر حول سوفوكليس (Sophocle). دافعت أنجولين عن فكرةٍ ما حول التراجيديا الكبرى، وهي بالطبع فكرةٌ مدرسيّةٌ جدًّا آنذاك. وإذ لم يكن لديّ أيّة فكرةٍ بخصوص هذا الموضوع فقد أخذتُ أصغي. عند ذاك أخذتْ هيلين تنتقد شيئًا فشيئًا رأي أنجولين. في بادئ الأمر كانت هيلين هادئةً جدًّا، وكانت تطرح حججًا جديّةً، وبالمثل كانت أنجولين تقاومها، ثمّ بدأ وجه هيلين في الامتقاع، وتغيّرت نبرة صوتها، وأخذت تتصرّف على نحو يزداد حدّةً وتعنّتًا، بل وغلظةً أيضًا، لينتهي الأمر إلى مشهدٍ «مؤلم» (إنّه المشهد الأوّل من نوعه الذي أشهده، لكنّه لن يكون الأخير للأسف) أصاب أنجولين في الصميم؛ فشرعت هذه تذرف الدموع. لقد أرعبني هذا الانفجار المرعب الذي لم أعرف سببه (فلماذا قاومت أنجولين على هذا النحو حججًا منطقيّةً تمامًا؟)، كما لم أملك حياله سلطة التصحيح والتصويب. غادرت أنجولين ومكثتُ غارقًا في الصمت. لقد تأكّدتُ أنّ هيلين لم تُطق الفتاة، كما أنّها لم تطق –على وجه الخصوص– هذه الطقوس التي فرضتها عليها، طقوسٌ! بل لنقل إنّها عملٌ استفزازيٌّ بالأحرى. لقد انكسر كلّ شيءٍ بيني وبين أنجولين وتناثرت شظاياه، فتعيّن عليّ ألّا أعود إلى رؤيتها مجدّدًا. وعلى هذا النحو العنيف، دخلت هيلين الآن في حياتي، بيد أنّه لم يكن عنيفًا في مواجهتي أنا...

تسارعت فصول «الدراما» بعد عدّة أيّام من ذلك حينما جلست هيلين –ودائمًا

في تلك الغرفة الصغيرة من المستوصف- فوق السرير إلى جواري وقامت بمعانقتي. لم أكن قد عانقتُ امرأةً من قبل (وقد كنتُ في الثلاثين!)، وبدقّةٍ أكثر فإنّ امرأةً ما لم تعانقني قبل ذلك التاريخ. شعرتُ بالرّغبة تتصاعد في نفسي، فقمنا بممارسة الحبَّ على السرير. كانت الساعة التاسعة وكان الأمر آسرًا، وحماسيًّا وعنيفًا. عندما غادرت هيلين، شعرتُ بهوّة عميقةٍ تنفغر في أعماق نفسي، هوّة ما تزال فاغرة.

اتّصلتُ في اليوم التالي بهيلين كي أوضّح لها بقسوةٍ أنّني لن أمارس الحبّ معها أبدًا، ولكن سبق السيف العذل؛ لقد أخذ القلق يلازمني، ويصبح لا يطاق مع مرور الأيّام. ولعلّي في حاجةٍ إلى أن أقول إنّ مبادئي الدينيّة لم تكن السبب في ذلك؟ لقد كنتُ في مكانٍ آخر تمامًا! لكنّها كراهيّة صمّاء وقاسيةٌ من نوعٍ آخر، وهي في مطلق الأحوال أكثر قوّة من سائر قراراتي، ومن محاولات الانضباط الأخلاقيّ والدينيّ. كانت الأيّام تمضي، وأنا أنزلق إلى بوادر الإصابةِ باكتئابٍ حادٌّ. لقد حدث لي أن مررتُ بأوقاتٍ عصيبةٍ كتلك التي اختبرتها في أثناء قيامي بدوريّات الحراسة في آللو، ثمّ حينما وقعتُ في الأسر، وفي الدار البيضاء أخيرًا. بيد أنّها لا تقارن بحالتي الآن، فتلك الأوقات كانت تستمرّ بضعة أيّامٍ بالكاد، بل بضعة ساعات، ثمّ كانت تنتهي على خير ما يرام. لقد حاولتُ -بقدر ما استطعت- أن أتشبّث بالحياة، وبصديقي الدكتور إيتيان: لكنّ الأمر كان مستحيلًا؛ ففي كلّ يوم كنت أغرق قليلًا بعد -وعلى نحوٍ لا رجعة فيه- في لجّة القلق المرعبة، قلقٌ تحوّل سريعًا كي يصبح عديم الموضوع، وهو ما يدعوه أهل الاختصاص -كما أظنّ-: «اضطراب القلق المعمّم».

نصحتني هيلين -وقد ساورها القلق الشديد- أن أستشير أحد الأخصّائيّين، فحصلنا على مقابلة مع بيير مال (Pierr Male)، وهو كبير الأطبّاء والمحلّلين النفسيّين في تلك الفترة، الذي قام باستجوابي وقتًا طويلًا قبل أن يستنتج أنّني أمثّل إحدى حالات «الجنون المبكّر»، الأمر الذي استلزم -في المحصّلة- معالجتي

الفوريّة في مشفى سانت آن.

قُبلتُ في جناح إيسكيرول (Esquirol)، في صالةٍ كبيرةٍ مشتركةٍ، وسرعان ما قُطعتُ عن العالم الخارجيّ، وعن الزيارات جميعها، وبالتالي عن زيارات هيلين، فأصبحتُ محجورًا بشكل صارمٍ. لقد كانت إقامة فظيعةً امتدّت بضعة أشهر وسوف تبقى راسخةً في ذاكرتي. كانت مسؤولية علاجي في ذلك الوقت تقع على عاتق طبيبةٍ نفسيّةٍ، ولعلّها كانت متأثّرةً بكوني شابًا، أو ربّما بكوني فيلسوفًا مثقفًا أيضًا، وبمأساتي. وقد كانت مهيّأةً كي تظنّ أنّني أحبها، لكنّها كانت -في جميع الأحوال- واثقةً من حبّها لي، وأنّها هي التي سوف «تنقذني» من خلال حبها. لقد كانت تظنّ بصورةٍ تلقائيّة أنّني إذا كنتُ مريضًا فالذنب هو ذنب هيلين. لم أكن أعرف الأدوية التي تصفها لي، لكنّ حالتي كانت تزداد سوءًا بشكلٍ جدّيٍّ. لكنّني، بفضل براعة هيلين، عثرتُ على الوسيلة للتواصل معها. ففي دورات المياه الموجودة في الطابق الأرضي، كانت هنالك نافذةٌ صغيرةٌ تطلّ على الخارج. لم أعرف كيف فعلت هيلين ذلك، لكنّها -رغم أنّني لم أرها أبدًا ولا مرّةً واحدةً داخل جناح إيسكيرول، كانت تحضر غالبًا حوالي ثلاثة عشر ساعةً تحت النافذة، وكنت أستطيع التكلّم معها من بعيدٍ عن طريق الإشارة. كانت فكرتي أنّهم لا يفهمونني، وكانت فكرتها أنّهم يتصرّفون بشكلٍ سيّءٍ جدًّا (خاصّة تلك الطبيبة النفسيّة مع «حبّها» المروّع)، وأنّ من الواجب كسر تلك الحلقة التي أجد نفسي محبوسًا داخلها كما لو إلى الأبد (مجنون مبكّرًا!). لذلك اتّفقنا أن تحاول إشراك الطبيب جوليان أجوريا جويرا (Julian Ajuriaguerra) الذي كنت قد تعرّفتُ إليه في أحد الأيام حينما جاء -بدعوةٍ من جورج جوسدورف (Georges Gusdorf)- لإلقاء محاضرة في المدرسة العليا. لكنّ دخول طبيب طرفًا ثالثًا في خدمة المشافي وإجراء عمليّة فيها على وجه الخصوص، كان أمرًا في غاية الصعوبة -كما هي حاله اليوم- لا سيّما بالنسبة إلى مهاجرٍ إسبانيٍّ كما كان الطبيب آنذاك. لا أعرف كيف تدبّر الأمر لكنّني رأيته ذات يوم يدخل إلى القاعة الكبيرة العامّة، فتبعته إلى أحد المكاتب حيث

أستطيع محادثته. لقد استخلص ما يلي: لم يكن ما أعانيه هو جنون مبكرٌ، لكنّه اكتئاب شديد الخطورة. لقد نصحني بالخضوع للعلاج بالصدمات التي كانت طريقةً حديثة الاستعمال، بيد أنّها استُخدمت بنجاحٍ في هذه الحالات، وكان الطبيب النفسيّ قد اعتمدها. لذلك فقد خضعتُ -في الصالة المشتركة الكبيرة- إلى قرابة أربعة وعشرين صدمةً، بمعدّل مرّةٍ واحدةٍ كلّ يومين. كنّا نراه قادمًا، وهو يجرّ بيده صندوقه الالكترونيّ الكبير، كان قويّ البنية، وذا شارب، وكان المرضى يلقبونه ستالين (Staline) بسبب الشبه الخارق بينهما، وبسبب مشيته وصمته الساخر. كان يقف بهدوء أمام كلّ سرير (فقد كنا قرابة الثلاثين شخصًا ممّن وصف لهم العلاج بالصدمات)، ثم كان يقوم بالضغط -أمام الآخرين جميعًا ممّن كانوا ينتظرون مصيرهم- على مقبض آلته، فيدخل المريض في نوبةٍ عصبيّةٍ هستيريّةٍ بالغة التأثير. كان المشهد المأساوي يتجلّى في رؤية ستالين قادمًا من بعيد، ورؤية ضحاياه يدخلون الواحد تلو الآخر في تلك الاضطرابات العشوائيّة، فيما يمضي هو نحو الضحيّة الأخرى، من دون أن ينتظر انتهاء صراخ العابر الأخير. كان المريض يخاطر في تعريض نفسه لكسورٍ في العظام (خاصّة عظام الأفخاذ)، وكان يتعيّن عليه وضع منشفة بين أسنانه: بالنسبة إليّ، كنتُ أفعل ذلك على الدوام حتى لقد أنتنت منشفتي الوحيدة كيلا أقطع لساني. ولقد بقي في فمي على مدى سنواتٍ مذاق تلك المنشفة التي لم تعد تقرب المناشف لا شكلًا ولا اسمًا، لأنّ مذاقها الكريه المريع كان نذيرًا «بالموت الصغير». ثم جاء دوري، بعد كلّ تلك المشاهد التي قدّمها الجوار أمامي. كان ستالين صامتًا على الدّوام، وهو يقترب، فاعتمرتُ خوذتي وصرّيتُ أسناني، وأوطنتُ نفسي على الموت، ثمّ لمع شيءٌ ما كالبرق وغاب كلّ شيء. بعد مرور وقتٍ قصيرٍ كنتُ أستيقظ (لم أكن أغفو سوى دقيقتين من الزمن؛ فكنت أصاب بإحباطٍ كبير إذ كنتُ أتمنّي أن يدعوني منسيًّا غارقًا في النوم، على الرّغم من أنّ سائر الآخرين تقريبًا كانوا يغطّون في النوم ساعات بأكملها، بل ونصف نهارٍ أيضًا) متسائلًا بلا انقطاع: ولكن أين أنا؟ ما الذي جرى لي؟ وكلّما تقدّمت كلّما زاد هلعي (من

الموت). باختصارٍ، لقد كان هذا أمرًا لا يُطاق، ولقد رفضتُ بكلّ ما أوتيتُ من قوّةٍ مراسم الإعدام هذه، لكنّهم كانوا يقيّدونني ويحكمون وثاقي فوق السرير.

أودّ أن أذكر حادثةً صغيرةً جدًّا بيد أنّها شديدة التعبير عن طابع الوسط الخاصّ بالمستشفيات، وعن صورة المرضى، وعن الارتياب الشامل للأطباء النفسيّين حيال ادّعاءات المريض. فلقد فكّرتُ -بعد أن أصبحتُ غير قادرٍ على النوم إطلاقًا، ونظرًا لعدم تمكّني من الحصول على سدادات الأذن- أن أصنع سداداتٍ من لبّ الخبز، وهو المادّة الوحيدة المتاحة أمامي. لكنّ سدادات الخبز هذه، التي كنتُ أضعها بصعوبةٍ في القناة الأذنيّة سرعان ما كانت تتفتّتُ إلى حبيبات لزجةٍ تتساقط داخل القناة السمعيّة حتى تصل إلى طبلة الأذن (بالطبع فإنّها لم تكن عالقةً بسببٍ من هذه الأقنية الرطبة، ولكنّ السبب بكلّ تأكيدٍ هو ذلك القطن الموجود في سدادات الأذن الحقيقيّة). ولقد تسبّبت لي عمليّة التفتّت والتساقط هذه بمعاناةٍ لا توصَف وبآلامٍ لا تطاق داخل الرأس والبلعوم. لقد كنتُ أُعلم أطبّائي بالأمر في كلّ لحظةٍ بيد أنّهم كانوا راغبين عن تصديق كلامي، معتقدين بأنّني واهم. لقد كانوا يرفضون على مدى ثلاثة أسابيع -وأؤكّد ثلاثة أسابيع- أن يفحصني طبيبٌ اختصاصيّ في طبّ الأنف والأذن والحنجرة، ولذلك عانيتُ من آلامٍ مبرّحةٍ. لقد كان من الواجب في هذه الحالة أيضًا أن يتدخّل الطبيب أجوريا من أجل إقناعهم، ليصار بعد أن أمضيتُ ثلاثة أسابيع في هذه المعاناة الرّهيبة إلى فحصي لدى طبيب مختصّ في الأنف والأذن والحنجرة، والذي استطاع أن يخلّصني في غضون ثانيتين من بقايا الخبز ومن معاناتي... أمّا الأطبّاء النفسيّون فإنّهم لم يبدوا على الإطلاق أيّ شعورٍ بالأسف، ولم يتقدّموا بأيّ اعتذار!

في نهاية الأمر، أخذت خطّة أجوريا العلاجيّة تُؤتي أُكلها معي تدريجيًّا، ولكن بعد انقضاء زمنٍ طويلٍ أيضًا غير أنّه كان زمنًا خالٍ من الصدمات. وبعد أن انقضت شهور عديدةً على دخولي إلى إيسكيرول، بدأتُ أشعرُ بالتحسّن. هكذا فقد خرجتُ من المستشفى على الرغمّ من أنّني كنتُ أشعرُ بالتردّد على نحوٍ دائمٍ، إلّا

أنني أصبحتُ أقلّ قلقًا. كانت هيلين تنتظرني عند بوابة المستشفى. يا للسعادة!

مضت بي هيلين إلى غرفةٍ صغيرةٍ في فندقٍ آخر حيث كانت خادمة تعيسةٌ قد سرقت جميع أغراضها، لم يكن لذلك الأمر أهمية على الإطلاق! فهيلين لم تكن تلتفتُ إلى سرقةٍ كهذه أبدًا...ومع أنّ هيلين كانت معي –وبعد كلّ ما فعلته من أجلي– فإنّني لم أعلم إلا في وقتٍ متأخّرٍ جدًّا، ولكن ليس عن طريقها –فقد كانت هيلين منشغلةً في إحلال الصمتُ المطبقُ في الطابق الأخير– بل عن طريق إحدى صديقاتها بأنّ هيلين كانت حبلى نتيجة لقائنا الجنسيّ الوحيد، وأنّها قد أجهضت في إنكلترا كي لا تجعلني أعاني عذاب شدّةٍ جديدةٍ بعد تلك القصّة التي وقعت لنا، وبقدر ذلك الرعب المروّع الذي اعتراني نتيجة ممارستها الحبّ معي جسديًّا. فهلّا عرفتم تضحيةً مثل هذه؟ ما يزال هذا الأمر إلى اليوم يبلبل كياني ويؤثّر بي قلبًا وقالبًا. [إذًا] لقد كان لدى هيلين فيرا (Véra)، وهي أسنّ صديقاتها الباقيات على قيد الحياة، كانت امرأة طويلةً وسمراء جميلة، وكانت تتحدّر من أصول أرستقراطيّةٍ روسيّةٍ. لقد نسيت هيلين أمر السرقة، وكلّ شيءٍ آخر واستضافتني كما لو أنّها تفعل ذلك إلى الأبد. أمّا أنا فقد أخذتها بين ذراعيّ مستشعرًا حنانًا كبيرًا، ومتيقّنًا أنّني لولاها ما خرجت من المستشفى، وربما لم أكن لأغادره على الإطلاق.

عثرت لي هيلين وجاك مارتين (Jacques Martin) –الذي كانت معرفتي به حديثة العهد– على مكان للاستجمام: إنّها بلدة كومبلو (Combloux)، التي كانت تستقبل الطلّاب المتعبين والذين في طور التعافي. لقد وجدتُ هناك السكينة، والمنظر الرائع للجبل المرتفع الذي كنتُ أعشقه منذ أيّام الكشّافة، ورعاية الزوجين آساتياني (Assathiany)، اللذين كانا يديران المنزل بعناية لائقة، وشغفٍ، وإخلاص متفانٍ تاركين لكلّ واحدٍ منّا حريّته المطلقة، ثمّ اكتشاف ذلك الرباعي المنغاريّ الغريب في أوقات الراحة: الرباعيّ فيغ (Vegh)، وهم أولاد وفتيات في مثل عمري، وأخيرًا تلك المتعة في ممارسة سائر أشكال اللعب، بما في ذلك ألعاب الغرام. ولقد تعرّفتُ بسرعةٍ كبيرةٍ إلى تلك الفتاة القصيرة ذات الشعر الأسود

والوجه الجميل (لم يكن الوجه الذي يعجبني تمامًا، بل إلى حدٍّ كبير): سيمون (مجدّدًا هذا الاسم...) والتي بدت لي مميّزةً للغاية. لقد توددت إليها بطريقة استفزازيّة جدًّا، إذ ناديتها باسم: ليوني (Léoni)، لكنّها لم تردّ. كنّا نمرح ملتصقين ببعضنا طيلة ثلاثة أسابيع من إقامتي هناك، ولقد أصبحنا أصدقاء مدى الحياة، حتى كان ذلك اليوم -وقد كان هذا منذ مدة ستّة أشهر، في تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1984- الذي اختفت فيه سيمون من حياتي تاركةً وراءها هذه الرّسالة: «أنت تعرف كيف تستخدم أصدقاءك بطريقةٍ جيّدةٍ جدًّا، لكنّك لا تحترمهم» لقد كانت محقّةً بشأني.

غادرتُ كومبلو بعد أن تعافيتُ بشكلٍ جيّدٍ، ورحتُ أنتظر هيلين التي كان يُفترض بها أن تنضمّ إليّ قرب سانت ريمي دو بروفانس (Saint-Rémy-de-Provence) في منزلٍ مستأجرٍ ضمن سكنٍ شبابيٍّ...لم يكن معها نقودٌ على الدّوام، فسافرتْ مجّانًا كي تلحق بي، وقد حاول السائق أن يغتصبها (لقد تعرّضتْ في سنّ المراهقة، بالقرب من بلدة شيفروز -عندما كانت تعتني بوالدها الذي كان على فراش الموت- إلى اعتداءٍ من أربعة أوغادٍ شبابٍ بيد أنّها لم تتبيّن حقيقة نواياهم بالضبط، وقد استطاعت أن تجعلهم يفرّون هربًا حينما أخذت تلوّح بحقيبتها من فوق رأسها بحركة دورانيّة سريعةٍ، وقد استلّت زنّارها الطويل. لطالما حدّثتني عن ذلك الأمر بالرّعب نفسه، فيما كنتُ أفكّر في قرارة نفسي -وأنا أستمع إليها- أنّني على العكس منها لا أستطيع أن أتحمّل مجرّد فكرة الشجار، لأنّني كنتُ رجلًا جبانًا في الأساس). بيد أنّها وصلت إلى المكان، لقد كانت تحبّني، وكنتُ أحبّها وكنتُ شديد الفخر بها. كان الربيع قد حلّ في الأرياف، ربيع الغابات وكروم العنب والسماء والقلب.

كنّا نمارس الحبّ في الطابق الأوّل في مزرعةٍ قريبةٍ، حيث كانت أصناف الحليب، والخبز، والزبدة والزيتون تُقدّم لنا. كان المزارعون يتبرّمون من أصوات الضجيج التي كانت تُسمع آناء الليل في أثناء ممارستنا الألعاب الغراميّة. وإنّني أقرُّ بأنّني لم

أحسن التصرّف في ذلك، بل لقد أظهرت قدرًا من الفظاظة يُفترض به أن يُذكّر بغلاظة الحبّ لدى أبي. ولكن، وبينما نحنُ في خضمّ هذه التفاصيل إذ امتلأ ذات يومٍ السكنُ الشبابيّ فجأةً (والذي كان برمّته لنا حتى ذلك اليوم) بثلّةٍ من الأولاد والفتية والفتيات، الفوضويّين، ولكنّهم كانوا ضاحكين باسمين شأنهم شأن الجميع من أمثالهم. وقد تعارفنا إلى بعضنا البعض حتّى إنّني أعددتُ لهم ذات يوم «حساء سمكٍ» فريدٍ من نوعه، وسوف تحدّثني هيلين عنه مرّةً أخرى بعد انقضاء زمنٍ طويلٍ. لطالما كنتُ راغبًا عن وصفات الطعام التقليديّة، إذ كنتُ أعشق بالأحرى ما أدعوه «بأبحاث الطهي» التي تتيح السبيل أمام إبداعاتٍ لم يسبق لها من مثيل، إبداعاتٍ تبدو إلى جانبها الأطباق التقليديّة، بل وابتكارات كبار الطهاة لدينا أيضًا مجرّد أطباقٍ تافهةٍ وبسيطةٍ! لكنّني، وكما لو أنّ الأمر جرى «عرضًا»، قد عثرتُ ضمن هذه المجموعة المميّزة على فتاةٍ سمراء، ذات وجهٍ رائعٍ، وقد بدا أنّها سعيدةٌ بتودّدي إليها، حتى انتهى بنا الأمر إلى أنّنا بتنا نسبح في صمتٍ جنبًا إلى جنبٍ على ضفاف بحيرةٍ هادئةٍ (ما أزال أحتفظ بصورٍ لها). لقد كان أمرًا لا مثيل له! فبعد أن قضيتُ عدّة أشهرٍ أعاني أشدّ أنواع الاكتئاب رعبًا في حياتي، جاءت هيلين وأنقذتني، ثم وجدتها مرّةً ثانيةً في ذروة الحبّ والربيع، ومارستُ الحبّ معها بلا مخاوف أو قيود، وقد كان هذا كافيًا كي أراود بسهولةٍ تلك المرأتين؛ سيمون (في كومبلو في غياب هيلين)، ثمّ سوزان (Suzanne) بوجود هيلين في سانت ريمي، حتى أنّني أخذتُ أتقحّم علنًا –وعلى مرأىً من هيلين وسمعها– فتاةً عابرةً لم أكن أعرف عنها شيئًا، بيد أنّه من الواضح أنّها كانت تثير شيئًا ما في أعماقي: بالطبع لقد كانت الفتاة نفسها تثيرني، لكن ثمّة صورة فتاةٍ ما تقف وراءها، وخلف هذه الصورة أيضًا كان هنالك تلك الرّغبة الجامحة التي لا تقاوم (في هاتين الحالتين غير المُنجزتين) في أن أعيش مع هاتين الفتاتين شيئًا آخر لا بدّ وأنّني كنتُ أفتقده مع هيلين. ماذا؟ سوف يتكرّر هذا الموقف طيلة حياتي. ولقد علمتُ مؤخّرًا أنّ هذه الرغبة الجنسيّة الحادّة هي واحدة من الأعراض الكبرى للهوس الخفيف الذي من

الممكن أن يعقب الاكتئاب على اختلاف أنواعه. لكنّني حينها كنتُ عاجزًا عن إدراك الأسباب الحقيقيّة. بالطبع، فإنّ مناورتي الغراميّة هذه لم تنطلِ في شيءٍ على هيلين التي آلمها ذلك، بيد أنّها لن تسبّب الألم لي، ولن تُبدِ لي شيئًا من العتب، كما أنّها لن تُظهر أيًّا من مظاهر العنف كما حدث في السابق مع أنجلين. هل كنتُ أحظى إذًا بموافقتها؟ في كلّ الأحوال، لقد كان من الواضح أنّني كنتُ أبحث عن هذه الموافقة.

كنّا نعيش حينها في جنوب فرنسا، حينما غادرت سوزان سريعًا مع رفاقها بعد أشهرٍ من السعادة الحقيقيّة، والحريّة الناعمة المتوهّجة. هيّأتُ نفسي كي أمضي بهيلين إلى قرية بيلوبيّه (Puyloubier) فقد كانت لديّ الأسباب التي تجعلني راغبًا في معرفتها، وفي حبّها بحسبان أنّها كانت مسقط الرأس لخطيبتي الرّائعة، ولزوجة صديقي بول (Paul). يا له من مكان لا مثيل له! فعلى سفوح جبال سانت فيكتوار (Sainte-Victoire) كانت تنتشر كتلٌ من الأزهار الجبليّة ذات الألوان المتغيّرة والمفعمة بالحياة، وأمامها يمتدّ سهل فلور (Flers) الفسيح الذي تحدّه عند خطّ الأفق النتوءات المرتفعة لسلسلة سانت بوم (Sainte-Baume)، حيث تلوح في البعيد أبراج دير سانت ماكسيمين (Sainte-Maximin). بعيدًا عن القرية الصغيرة، تعرّفنا إلى موظفَين صغيرين يعيشان فترة التقاعد، وقد قبلا إيواءنا بالمجّان تقريبًا. عند الصباح كنّا نستيقظ بعد قضاء ليلةٍ من الغرام، وقد أُنهكنا من الشوق والتعب، فكنّا نخرج إلى الشرفة نستقبل أشعّة الشمس المشرقة توًّا، ثمّ كانت السيّدة دولبي (Mme Delpit) تحضر لنا طعام الإفطار على طريقة سكّان البروفنس: قهوةٌ وحليبٌ وجبنُ ماعزٍ وأرضي شوكي نيء، وعسلٌ، وقشدةٌ، وزيتونٌ أسود. فأيّة متعةٍ وأيّة بهجةٍ كنّا نشعر بها في وداعة شمس أيّار الفتيّة!

لاحقًا، وفيما كانت هيلين تنتظرني لدى عائلة دولبي في أحد الأيّام، ركبتُ القطار المتّجه إلى باريس وقد وضعت درّاجتي الهوائيّة المخصّصة للسباق في إحدى العربات. أنزلت الدرّاجة في كافيون (Cavaillon) ثم ركبتها وأخذت أضغط على

دواستيها في شعور يشبه النشوة (يا له من سباقٍ مختلفٍ تمامًا عن ذلك السباق في باندول!)، وقد يمّمتُ وجهي جهة الحبيبة التي كانت تبعد عنّي أربعين كيلومترًا. كانت تنتظرني على الطريق الترابيّة الصغيرة التي كانت تقود إلى القرية وقد رأتني قادمًا من بعيد. كنتُ مُنهكًا بيد أنّني لم أبكِ على الإطلاق، اللّهم إلّا فرحًا. أيّ انتقامٍ من أمّي! لقد أصبحتُ رجلًا.

لقد كنت في الحقيقة فخورًا بما أصبحت عليه. وهكذا فإنّ هيلين حينما عثرت -بمساعدتي- على غرفة خادمة في آخر طابق من بناء قديم وجميل في فال دو غراس (Val-de-Grâce) لدى جان دريش (Jean Dresch) -الأستاذِ الجغرافيِّ المعروف الذي يدرّس في السوربون- فقد أخذتُ أزورها هنالك على مدار الساعة في الليل والنّهار، وخاصّة في الليل، حيث كنتُ أخرج من عندها في الصباح الباكر قرابة الساعة الرابعة. أيّة بهجةٍ وأيّ فخرٍ كنتُ أشعر به وأنا أسمع وقع خطواتي فوق الأرصفة في شارع سانت جاك (Saint-Jacques) المقفر، وأيّة خفّةٍ كانت تعتري جسدي المبتهج، كان العالم بأسره يبدو لي جميلًا فيما أشعّة الشمس تمسّد جدران المدرسة العليا وأنا أدخل ببطء إليها والتلاميذ جميعًا يغطّون في النوم: لم يكن في العالم ولا في قلب أيّ كائنٍ آخر شعور بالحبّ كالذي كنتُ أشعر به! وأنا ما كنتُ لأقايض هذا القدر السعيد، وهذا الكنز الثمين، وهذا الحبّ العظيم بأيّ شيءٍ آخر في العالم كائنًا ما كان.

لا بدّ من القول إنّ شعوري بالفخر كان مبرّرًا. قد يكون لزملائي علاقات نسائيّة بالطبع، ومطامح ينالونها بشقّ الأنفس أو بسهولةٍ من خلال علاقاتهم الطلّابية (فقد كان من المقبول أن يتواعد طلّاب المدرسة العليا وطالباتها وأن يتّخذوا من بعضهم أزواجًا، فهذا الأمر كان يبقيهم داخل نطاق الأسرة، وداخل نطاق الطبقة، تلك الطبقة الجامعيّة التي كنتُ أكرهها على الأقل مثل هيلين -التي كانت أدلّتها في ذلك أكثر شرعيّةً من أدلّتي- لأنها كانت على الدّوام خارج تلك الطبقة). لقد كان امتيازي الذي لا يُضاهى أنّني كنتُ أحبّ امرأةً (امرأةً تحبّني)، ولكن ما هي الميزة

الأخرى لتلك المرأة! لا تكمن ميزتها في أنّها كانت تكبرني عمرًا بشكلٍ محسوسٍ – فهذا الفارق لم يكن ذا بالٍ أبدًا في علاقتنا المشتركة- بل إنّ ميزتها في ظلّ هذا الفارق تكمن في وعيها، وشجاعتها، وكرمها، وخبرتها الواسعة المتنوّعة، وفي معرفتها بالبشر، بكبار الرسّامين والأدباء في وقتها، وفي نشاطاتها ضمن حركة المقاومة التي بلغت درجةً تولّت معها مسؤوليّات عسكريّة كبرى فيها (لقد اعترف لي لوزيفر نفسه بأنّها –وهي المرأة- كانت أخت رجالٍ في تلك الأيّام). لقد قامت بدورٍ بطوليٍّ استثنائيّ، كما أبدت شجاعةً راسخةً ومذهلةً بالنسبة إلى فتاة يهوديّةٍ صغيرةٍ ذات شعرٍ مجعّدٍ، و«أنفٍ يهوديٍّ» يمكن تمييزه من مسافة مئة خطوة، تلك الفتاة التي كانت تعرف كيف تذلّل العقبات؛ ومنها تلك العقبة التي اعترضتها في ذلك القطار المنطلق من ليون إلى باريس حيث كانت معروفةً فيها بأنّها يهوديّة، حينما أُوقفت لدى قيام الغستابو بجولة تدقيقٍ، وقد كان في حوزتها ما يكفل لها إعدامًا بالرّصاص حالًا، لكنّها أنقذت نفسها بدمها البارد، وبتلك الشجاعة التي فرضتها على الضابط النازيّ الذي انتهى به الأمر وهو يغمغم في الكلام أمامها. لقد كانت تروي هذه الحكاية كما لو أنّها مزحةٌ خفيفةٌ، وكانت في روايتها شديدة الهدوء تمامًا مثلما كانت حينما تعرّضت لها. لقد كانت امرأةً استثنائيّةً (على الأقلّ هكذا كنتُ أراها، وهكذا كان يراها أيضًا سائر رفاقها في المقاومة، لوزيفر وغيره من «طلّاب السنة الثانية» من أبناء ليون الذين اشتغلت معهم، وسائر أولئك الذين عرفوها لاحقًا خلال حياتنا الطويلة المشتركة). لقد كانت تكبرني جدًّا، وقد أعطتني من دون أن أطلب شيئًا –وكما لو أنّها كانت تفكّر بي- تلك الهديّة العجيبة المتمثّلة في عالمٍ كنتُ أجهله، ولكنّني كنتُ أحلم به في عزلة الاعتقال، عالم التضامن والكفاح، عالم العمل الذي تنعكس فيه مبادئ الأخوّة الكبرى، عالم الشجاعة: أنا الذي كنتُ أشعر بنفسي مفلسًا تمامًا وجبانًا، والذي كنتُ أتراجع القهقرى أمام كلّ خطرٍ ماديّ يتضمّن اعتداءً على سلامة جسدي، أنا الذي لم أدخل شجارًا قط، ولم أعتقد أنّني قادرٌ عليه يومًا بسبب ما أظنّه في نفسي من خرعٍ لا رادّ له. أنا الذي كانت تقول عنّي: «لولا

أنّك أسرت، لكنت انخرطت في المقاومة، ولكنت قُتلت بكلّ تأكيدٍ رميًا بالرّصاص كالعديد من الآخرين؛ لذلك فإنّني أشكر الله على اعتقالك لأنّه حفظك لي!». لقد كنتُ أرتجفُ في قرارة نفسي من فكرة الخطر القاتل الذي كنتُ أفرّ حياله، وكلّي يقينٌ من أنّني لن أمتلك القوّة ولا الشجاعة أبدًا كي أواجه المحن الماديّة القاتلة التي ينضوي عليها الكفاح السرّي والمسلّح، أنا الذي كانت ترعبني كثيرًا الأعيرة الناريّة خلال الحرب -إذ لم أكن قد أطلقتُ رصاصةً واحدةً أبدًا- وأخيرًا أنا الذي كانت عزيمته «تخور» في الحال أمام أقلّ تهديد أتعرّض له، فأيّة هديّةٍ قدمتها هيلين لي، وأيّة ثقةٍ في النفس! هكذا، إذا بي فجأةً أصبح -وبفضل هيلين- ندًّا لسائر أولئك المقاتلين الذي كانت هيلين قد عرفتهم، ليس ذلك فحسب، بل وأصبح أيضًا متفوّقًا للغاية -وعلى نحوٍ بعيدٍ جدًّا- على سائر طلّاب المدرسة العليا المساكين الذين كانت فتوّتهم ومعرفتهم تمحقانني محقًا، أولئك الذين كنتُ أشعر إلى جوارهم أنّني عجوزٌ بلا رجعة، عجوزٌ جدًّا إلى درجةٍ تظهر فيها كلّ أشكال الفتوّة -أنا الذي ما عرف الفتوّة في حياته- محرّمةً عليّ. لقد شعرتُ حينها أنّني كنتُ شابًا -كما لم يسبق لشخصٍ آخر أن فعل- وسوف يلازمني هذا الشعور دائمًا؛ فعلى سبيل المثال كنتُ أحسب نفسي أكثر شبابًا بكثيرٍ من محلّلي النفسيّ، مع أنّه كان معاصرٌ لي تمامًا، كذلك فقد حدث في الأسبوع الماضي، مرّةً أخرى، حينما سألتني تلك الطبيبة الثلاثينيّة دونما لطافةٍ تذكر عن تاريخ ولادتي فأجبتها: 16 تشرين الأوّل/ أكتوبر من عام 1918 -عفوًا، هذا مستحيل، إنّك تقصد أن تقول 38! هل تقصد 38! كم كانت الطبيبة محقّةً، وكم أدين بهذه الفتوّة ما حييتُ إلى حبيبتي هيلين.

لا شكّ أنّ ثقتي الشخصيّة بهذه الفتوّة المكتشفة حديثًا لها أسبابها، وقد أدركتُها شيئًا فشيئًا: فأنا إذ كنتُ قد شعرتُ بنفسي أنّني فتيٌّ جدًّا في النهاية -وأنّني كذلك بالفعل- فمردّ ذلك إلى أنّ هيلين كانت لي الأمّ الصالحة -وأخيرًا- كما كانت لي الأبّ الصالح أيضًا: لقد كانت تكبرني سنًّا، هذا يعني أنّها كانت مليئة بالتجربة والحياة، لقد أحبّتني كما تحبّ الأمّ طفلها، طفلها الأعجوبة، وفي الوقت نفسه لقد

أحبّتني كأبٍ، أبٍ صالحٍ -وأخيرًا أيضًا- بحسبان أنّها عرّفتني على العالم الحقيقيّ بكلّ بساطةٍ، هذا العالم غير المحدود الذي كنت غير قادرٍ على ولوجه بتاتًا (إلّا في الأسر، ولكن عنوةً أيضًا)، وقد عرّفتني أيضًا من خلال رغبتها بي -ولكن بطريقةٍ مؤثّرةٍ- على دوري وعلى فحولتي الذكريّة: لقد أحبّتني كما تحب المرأة رجلًا! لقد مارسنا الحبّ بشكلٍ حقيقيٍّ، كرجلٍ وامرأةٍ، فيما كان رفاقي ما يزالون يبحثون عن النضج، وكانوا ما يزالون -وأنا على يقينٍ من ذلك- يتخبّطون في حبٍّ تافهٍ لا يخرج بهم عن نطاق العائلة والمدرسة. والدليل أنّني أصبحتُ قادرًا -بعد معاناةٍ طويلةٍ- على أن أعشق رائحة المرأة، التي كنتُ في السابق لا أستطيع تحمّلها كأنّها رائحة أمّي. لقد أصبحتُ رجلًا، ليس ذلك فحسب، بل رجلًا آخر قادرًا على الحبّ الحقيقيّ، مع امرأةٍ أيضًا، بل مع امرأةٍ كان يجد رائحتها في أوّل الأمر رائحةً مقزّزةً.

كان جاك مارتان أحد الأصدقاء الذين عرفتهم حديثًا، وكان قد رحل إلى ألمانيا ضمن خدمة العمل الإلزاميّ (STO)، ولم يكن ذلك من باب القناعة السياسيّة (إذ كان يحبّ الشيوعيين)، بل كان من باب الفضول الفكري، لقد كان يفهمني، ويفهمنا. لقد تحوّل ليصبح مثليًّا جنسيًّا محزنًا، لكنّه كان حنونًا على مشارف فصامٍ مستترٍ، كان صديقًا لا مثيل له. كنتُ أستطيع أن أسأله عن كلّ شيءٍ -على العكس من زملائي في المدرسة- وكنتُ أخجل أن أكشف إليه مدى جهلي (كنتُ مؤمنًا بأنّني لا أعرف شيئًا، وأنّني ما عرفتُ شيئًا على الإطلاق، أو بأنّني كنتُ قد نسيتُ ما تعلّمته طرًّا)، وكان يجيبني مثلما يجيب الأخ الحقيقي أخاه -الأخ الذي لم أحظ به أبدًا_ لقد تخلّت عنه عائلته بكلّ معنى الكلمة في المحنة التي قاساها، فوالده الذي كان صيدلانيًّا مرعبًا لم يكن يتكلّم في حضرته مطلقًا، وأمّا والدته التي توفّيت منذ وقتٍ طويلٍ فقد ورث عنها بعض المال. كان يعيش به ولكن لستُ أدري الطريقة. وكان ميشيل فوكو يحبّه مثلما أحبّه. وكان يقدّم إليه على الدوام معونات نقديّة، مثلما كنتُ أفعل. لكنّ جاك وصل إلى مرحلةٍ فقد فيها مصادره جميعها، كما لم يعد لديه أملٌ في أن يستعيد عافيته (كانت لديه شقيقةٌ بعيدةٌ وكان يحبّها كثيرًا لكنّها لم تكن

تهتمّ لأمره إطلاقًا، كانت صيدلانيّةً هي الأخرى تعمل في مولن (Melun)، كما أظنّ) وقد قام في النهاية –في أحد الأيّام من صيف عام 1964 - بشنق نفسه، وحيدًا في شهر آب/ أغسطس المشؤوم، في غرفةٍ بائسةٍ في الدائرة السادسة عشر التي كان قد استأجرها من امرأةٍ عجوز. كنتُ آنذاك في إيطاليا –وسوف آتي على ذكر ذلك لاحقًا- مصابًا بالدوار إثر حبٍّ جديد. سوف ألوم نفسي طويلًا -كما لو أنّها وصمة عارٍ لا تزول- على فقدي له، وعلى أنّني لم أحسن مساعدته بالمال في الوقت المناسب وفي اللحظة الحاسمة، وعلى أنّني لم أعرف –ببساطة- كيف أنقذه. لا بدّ من القول أنّني لم أكن أملك الكثير من المال، فقد كنتُ أنفقه على هيلين في المقام الأوّل، وكنتُ مسكونًا دائمًا بسبب ذلك الهوس المشؤوم في الادّخار، الذي كان يجعل معوناتي المالية مصابةً بالشلل. لكنّني كنتُ أعطي الكثير من المال إلى جاك. لكنّ شقيقته حينما سألتني إن كنتُ قد أقرضتُ المال إلى أخيها (في الواقع، نعم، ولقد كان قرابة ثلاثمئة ألف فرنك في تلك الأيّام، أكثر مما أعطاه فوكو) فكلّ ما استطعت فعله أنّني أجبتها: لا، أبدًا. ولكن أيّة إجابةٍ تافهةٍ هي تلك الإجابة، في الوقت الذي كنتُ أستطيع فيه –ربّما- أن أنقذه! على كلّ حال، لقد كان ذلك هو المال الوحيد الذي لم أندم حينها على إنفاقه من دون رجعة. وعلى كلّ حال، فلقد دخل الانتحار إلى حياتي مع جاك مارتان، بل دخل إلى حياتنا، دخلةً لا رجوع فيها ولا مفرّ منها. وسوف يتعيّن عليّ أن أتذكّر ذلك للأسف.

لم يكن جاك مارتان يساعدني، أو يساعدنا في محبّته العنيدة الواثقة فحسب. لقد ساعدني أيضًا في العثور على رجلٍ اختصاصيٍّ يمكنه أن يدعمني «بعلمه». قد يبدو هذا في الوقت الحاضر أمرًا غريبًا جدًّا، لكنّنا في تلك الأيّام، وعلى فرض سماعنا بالتحليل النفسيّ –وقد كنّا طلّابًا محرومين وأغرار- فإنّنا لم نكن نعرف أيّ محلّل نفسيّ نتوجّه إليه، ولا السبيل إلى معرفة ذلك. لذلك فقد تكلّم جاك في أحد الأيّام عن صديقةٍ مشتركةٍ كانت قد حاولت عدّة محاولاتٍ أن تقتل نفسها (إنّه انتحارٌ أيضًا، لكنّه انتحار فاشلٌ)، كما تكلّم عن وجود معالجٍ نفسيٍّ يقوم بإجراء التحاليل

النفسيّة «تحت التخدير»، وأنّه رجلٌ شجاعٌ قريبٌ إلى القلب، بشوشٌ، يشبه القرويّين قليلًا بكرشه الصغير، كما أنّه قد عالج مارتان، فحذوت حذو هذا الأخير. لقد اعتنى بي ذلك المعالج لمدّة اثنتي عشر عامًا -نعم...اثنتي عشر عامًا- بمعنى أنّه جعلني أستعيد توازني بناءً على علاجٍ نفسيّ داعم. لقد حاز تقديرًا عاليًا في نظرنا (ولقد أصبح في نهاية المطاف يعتني بكامل الأسرة: شقيقتي وأمّي، وبعض الأصدقاء المقرّبين طبعًا) لأنّه كان -على حد زعمه- يقيم علاقاتٍ شخصيةً مع مجموعةٍ من الأطبّاء السوفييت الذين كانوا يرسلون إليه أمبولات تحتوي على «مصل بوغوموليف» الذي كان يفترض به أن يصنع المعجزات (وفي سائر الحالات تقريبًا)، وكما يبدو فإنّ شقيقتي قد تمكّنت بواسطته من إنجاب طفلٍ -وهو الأمر الذي كانت تموت إليه شوقًا- من زوجها، وهو شابٌّ باريسيّ، ثابت الموقف، يُكثر من استخدام التعابير المحليّة بشكلٍ واضحٍ، صريح الكلام، ولعلّ في ذلك حرّيةً زائدةٌ، لكنّه مثالٌ في النزاهة والصراحة «الشعبيّة» التي لم يكن والدي -بالطبع- قادرًا على الشعور بها. لقد كنتُ أحبّ امرأةً يهوديّة، أمّا شقيقتي فقد تزوّجت رجلًا شعبيًا يُوصف بأنّه «جلفٌ»، أو ساذجٌ: لقد خاب ظنّ أبي إذًا. لكنّه جعلنا ندرك ذلك جيّدًا من خلال رفضه استقبال هيلين أو إيف (Yves). لقد كان ذلك ردًّا طبيعيًّا! لم أقرّر الزواج بهيلين إلّا بعد انقضاء عامٍ على وفاة أبي (يا له من تأبينٍ هزيلٍ بعد أن فارق الحياة)، أمّا أختي فقد تطلّقت في النهاية من زوجها، لكنّها احتفظت -بمشيئتها- بلقب زوجها السابق إيف بودّار (Yves Boddaert) على الدوام، راغبةً عن لقب ألتوسير، وفوق ذلك فقد أقامت في الجنوب (كيما يكون انفصالها عن زوجها قانونيًّا تمامًا) بعد أن عانت من مشاكل نفسيّة قدّمتُ لها العون فيها بأقصى ما أستطيع؛ أي بكلّ ما أوتيتُ من إخلاصٍ وسذاجةٍ، على بعد عشرين كتلومترٍ، وقد كنتُ أزورها وأتّصل بها بشكلٍ متواصلٍ. لقد حصلتْ -بفضل هذا الطبيب (؟)- على طفلٍ سمّته فرانسوا (François)، الذي سوف يكون السبب في بقائها على قيد الحياة -فلقد أحبّته بالفعل حبًّا كبيرًا- ولكن من مسافةٍ بعيدةٍ (من

أرجنتوي (Argenteuit)[83]، هناك حيث عادت عليه كفاءاته المهنيّة وجدّيته بمنصب معاون أمين السرّ في البلدية المحلّية).

لكنّني إذا ما كنتُ مبهورًا بحبّ هيلين، وبذلك الامتياز العجائبيّ في التعرّف إليها، وفي حبّها، وفي كونها أصبحت داخل حياتي، فلقد كنتُ أحاول أنّ أجعلها منبهرةً هي الأخرى على طريقتي، أي على نحوٍ مكثّفٍ وإيثاريٍّ -إذا صحّ التعبير- مثلما كنتُ أفعل مع أمّي. بالنسبة إليّ، لقد كانت أمّي الضحيّة، ولم يكن بمقدورها أن تكون سوى ذلك. لقد كانت ضحيّة أبي، الجرح النازف الذي لا يندمل. لقد تحدّثتُ سابقًا عن وقوفي الدّائم إلى جانب أمّي، مجازفًا بمواجهةٍ مفتوحةٍ ضد أبيّ وضد تغيّبه المتكرّر. وقد رأيتم أنّ تلك المجازفة كان مجازفةً متخيّلةً بحسبان أنّ سوَرَات غضبي لم تكن تتمخّض أبدًا عن تصرّفاتٍ عدائيّةٍ من قبلي (كتلك التي صدرت عن ولد لوميتر حينما توجّه إلى غابة بولونيا)، وأنّني لم أستخفّ به إلّا في إطار الاتفاقات العائليّة المضمرة -وإن كان ذلك على نحوٍ مستمرٍّ وقاسٍ جدًّا- وأنّني لم أكن الشخص الذي يغادر المنزل (فكما جرى معي في المعتقل، لم تكن لديّ الشجاعة أبدًا في مغادرة العائلة، وفي الهروب من تلك الدائرة الجهنّميّة كما فعل أعزّ الأصدقاء، فوالدتي -بما كان يأتيه والدي من هجرانٍ مرعبٍ- هي التي كانت مهجورةً). لقد كان والدي هو الذي يغادر، ولكن بأيّة طريقةٍ! لقد كان القلق الذي لا يطاق يتملّكنا -كان يتملّكني شخصيًّا في جميع الأحوال- إلى حين عودته. لهذا السبب، فقد كنتُ أهبُّ -أو أرغب في أن أهبَّ- إلى مساعدة أمّي، كما لو أنّني أساعد ضحيّةً حقيقيةً. لذلك كنت أسارع إلى القيام بغسيل الأطباق بدلًا منها، وقد كنتُ أعدّ هذا العمل -على وجه الخصوص- أشدّ الأعمال إيلامًا لها (لكنّني لا أعرف السبب في ذلك؟)، بيد أنّني -وعلى نحوٍ غريبٍ، وإن كان بديهيًّا- سرعان ما أصبحت أشعر بنوعٍ من المزاج الفاسد والقويّ. لقد أخذت أجنّب والدتي أعمال

(83) أرجنتوي (Argenteuit): بلدة فرنسيّة تابعة لإقليم فال دواز في إيل دو فرانس، وتقع في شمال فرنسا. (المترجم)

الكناسة أيضًا، وترتيب الأسرّة، وأعمال المطبخ، وإعداد المائدة ورفع الطعام، لقد أصبحت هذه الأعمال لي وحدي، وذلك على مرأىً ومسمعٍ من الجميع كما لو أنّ ذلك انتقادٌ فعليٌّ موجّه إلى سلبيّة والدي الوقحة -أمّا أختي فلم تكن تكترث إطلاقًا- آنذاك، اكتشفت بسعادةٍ أنّني أصبحتُ رجلًا صغيرًا حقيقيًّا من الداخل، ونوعًا من فتاةٍ قويّةٍ وشاحبة (صورتي الرئيسة في الحديقة). لقد كنتُ أشعر على هذا النحو آنذاك، وبأنني أفتقد إلى شيءٍ ما بالتأكيد لناحية الرجولة. لم أكن ولدًا، كما أنّني لستُ رجلًا في مطلق الأحوال: لقد كنتُ امرأةً من الدّاخل. سوف يجري الأمر على المنوال نفسه مع هيلين، ولكن ما هو الشيء المختلف!

لقد عرفتُ هيلين في الحضيض، بل في قاع الفقر المادي «المشؤوم». «مشؤوم»: لطالما كانت تلهج بذكر هذه الكلمة، التي سوف يتوجّب عليها أن تألفها حتى ساعة موتها. سوف تتسبّب لي هذه الكلمة بالرّعدة مجدّدًا حينما سأعود إلى سماعها وهي تتردّد على نحو استحواذيٍّ على لسان صديقةٍ أخرى. حقًّا، لقد كانت تعيش فيما يخصّها حياةً «مشؤومةً». بالنسبة إليها، لقد فقدت كلّ شيءٍ: لقد فقدت أصدقاءها -القريبين والبعيدين- الذين قتلوا خلال الحرب، ورينوار غير المخلص، وهيناف (Hénaff)، والأب لارو الذي كان حبّها الوحيد قبلي. لقد فقدتْ أخيرًا كلّ صلةٍ بالحزب، ولم يكن لديها من مأوى سوى تلك الغرف «المشؤومة» بمناخاتها العدائيّة المشبوهة. لم تكن تملك عملًا، ولا مدخولًا بالتالي، وكانت تحتال لنفسها في العيش، كأن تبيع أثمن كتبها القليلة، أو أن تطبع مشاريع التخرج لطلّاب المدرسة العليا (بعد مشروعي) التي كنتُ أساعدها في الحصول عليها ولكن من دون أن يخلو ذلك من شيءٍ من الإحساس بالخجل. ولكن، ألم أحاول مساعدتها؟ بالطبع، لكنّني لم أكن أمتلك من المال في البداية سوى عشرين فرنكًا من «المنحة» التي كانت المدرسة تخصّصها لنا، وذلك قبل أن أتوصّل أنا وموريس كافين (Maurice Caveing) -من خلال العمل غير القانوني للنقابة التي قمنا بتأسيسها- إلى الحصول على نظامٍ للرعاية لنا، نحن وجميع طلّاب المدرسة

العليا. لم أكن أجرؤ على أن أطلب قرشًا واحدًا من والدي، ولقد كنتُ حريصًا جدًّا أن أعرض «حاجتي» أمام والدي، وكذلك أصل المرأة –اليهوديّة- التي كنتُ أعاشرها وأحبها، إذ كان من المفروض أن يظهرن في نظر والدي في مظهر المتعطّش إلى المال: ولكن هل النساء اليهوديّات جميعًا من هذه الطينة؟ علاوةً على ذلك، فقد كنتُ مميّزًا بأنّني مسكون بهاجس الخوف من الافتقار إلى المال، وبالتالي بهاجس الادّخار، ولكم أن تتخيّلوا –رغم نواياي في ارتكاب الكرم والسخاء- طريقتي في التعويل على نقودي. لا أزال أتذكّر ذلك اليوم الذي اشتريت فيه مدفأة حطبٍ مصنوعةً من المعدن كيلا تعود هيلين لتشعر بالبرد القارس في غرفتها الكائنة في شارع فال دو غراس، لقد كانت المدفأة رقيقةً للغاية كيلا تكون خطرةً، ولكنّها لم تكن تعطِ الدفء على الإطلاق؛ فيا له من تفانٍ وإنفاقٍ وتفاهة. حقًّا، لم أكن أملك المصادر، أو هكذا كنتُ أتظاهر في سبيل أن تبدو أعطياتي المالية كبيرة الحجم قدر الإمكان.

ولعلّ العبث بخصوص كلّ شيءٍ قد بدأ حينها –في مطلق الأحوال كلّ ما ظهر لي- العبث الذي سيأتي لاحقًا. وهاكم السبب.

لقد ذكرتُ سابقًا أنّني كنتُ أشعر بالعجز عن الحبّ، كما لو أنّني كنتُ لا أبالي بالآخرين، وبحبّهم، مع ذلك فإنّ هذا لم يجعلني في مأمنٍ، على الأقلّ من جهة النساء، ومن جهة أصدقائي الذكور أيضًا. بكلّ تأكيدٍ لقد أصبحتُ عاجزًا بسبب حبّ والدتي الذي لم يتّخذ طابعًا شخصيًّا على الإطلاق؛ بحسبان أنّه لم يكن حبًّا موجّهًا إليّ، بل إلى شخصٍ يقف ورائي، إلى رجلٍ ميتٍ، لقد كان حبًّا موجودًا من أجلي ومن أجل شخصٍ آخر، وعلى وجه الخصوص من أجل شخصٍ آخر. لقد شعرتُ أنّني فسلٌ، فسلٌ بكلّ معنى الكلمة: فسلٌ في الحبّ طبعًا، ولكنّني فسلٌ في الصميم أوّلًا، وفسلٌ في جسدي قبل أيّ شيءٍ آخر. الأمر يبدو كما لو أنّه قد اقتلع منّي ذلك الشيء الذي يمكنه أن يجعلني مكتملًا من الناحية الجسديّة والنفسيّة. في هذا المقام يمكننا الحديث –بكلّ أحقّيةٍ- عن بترٍ لأحد الأعضاء، وعن إخصاء:

فحينما يُقتلع منك جزءٌ من كيانك، سوف تفتقد إلى الأبد شخصيّتك المكتملة.

ولما كنتُ على هذه الحال، فسوف يعاودني هذا الوهم مجدّدًا، الوهم الذي عشته بقوّةٍ كبيرةٍ حينما خرجتُ من المعتقل، في رحلة العودة إلى الوطن، إلى أهلي المقيمين في المغرب: إنّه اليقين بأنّني كنتُ مصابًا بمرضٍ جنسيٍّ، وبالتالي اليقين من عدم استطاعتي أن أستعمل آلة الرجولة خاصتي بشكل حقيقيّ إلى الأبد. وضمن هذا السياق نفسه من الذكريات والترابطات فإنّني أتذكّر (وأنا، مرّةً أخرى، أحتفظ بذكرى دقيقة جدًّا) بأنّني كنتُ في غاية القلق من ظاهرةٍ كانت شائعةً في تلك الأيّام كما يبدو، وقد كانت تحمل –من جهةٍ أخرى- اسمًا إيطاليًّا: لو فيموزيس (Phimosis) [84](إنّ اللغة الإيطالية في هذه الحالات تسمح بالتعبير على نحوٍ جيّدٍ جدًّا بخصوص مسائل خليعة...) وقد تنكدّت معيشتي بسبب هذا الأمر خلال السنوات التي قضيتُها في الجزائر ومرسيليا، لقد كنتُ أستغرق في الوقت وأنا أسحب جلدة قضيبي من دون أن أتوصّل إلى «نزع القلنسوة» عن حشفته. في ذلك الوقت كانت لدي ما ندعوه «سيلانات بيضاء» تخرج من تحت قلفة قضيبي، الأمر الذي كان يجعلني أظنّ –مجدّدًا وبصورةٍ لا تنتهي- أنّني قد أصبتُ بداءٍ شديد الخطورة في قضيبي سوف يجعله –من دون أن أكون مريضًا، أو مصابًا بالمرض به- غير قادرٍ على الانتصاب التامّ المنجز في أثناء عمليّة القذف. لذلك كنتُ أحاول نزع تلك الجلدة المؤلمة باستمرار، ولكن من دون أن أنجح على الإطلاق.

وقد حدث ذات يوم أنّ والدتي قد هدّدت أبي بأنّها سوف تحبس نفسها معي في المرحاض، فما كان من هذا الأخير إلّا أن مضى على مدار ساعةٍ كاملةٍ يحاول في عتمة المرحاض (الذي لم يكن مضاءً، ولكن ما هو ذلك الشيء الذي كنّا نخشاه، أو نحرص على إبقائه طيّ الكتمان؟) أن ينزع جلدة قلفتي ولكن من دون جدوى، ومن دون كلامٍ بالطبع! لقد بقيتُ على قناعةٍ راسخةٍ –وعلى مدى سنواتٍ طويلةٍ–

---

(84) فيموزيس (Phimosis): وهو تضيّق دائرة القلفة، أي الجلد الذي يغطّي الحشفة، ما يجعل انكماش الحشفة التّام مؤلمًا، بل ومستحيلًا. (المترجم)

بأنّني كنتُ غير طبيعيٍّ تمامًا فيما يتعلّق بهذا الأمر. كما لو أنّ قضيبي كان يفتقر إلى شيءٍ ما لكي يكون قضيب رجلٍ حقيقيٍّ، وكما لو أنّني لم أكن أمتلك –في حقيقة الأمر– قضيب رجلٍ حقيقيّ. أي كما لو أنّني قد حرمت منه (ولكن من فعل ذلك؟). لا ريب في أنّ والدتي –وكلّنا نتذكّر– هي من «ضبطتني» حرفيًّا.

فلماذا أصرّ على ذكر هذا المثال إذًا؟ لأنّه مثالٌ رمزيٌّ، وهو يتعلّق بنا جميعًا فلا يقتصر عليّ. ما هو معنى القدرة على الحبّ إذًا؟ إنّه سلوك الشخصيّة المكتملة الناضجة، سلوكٌ يعكس «قوّتها»، ليس بهدف تحقيق المتعة، أو تحقيق المزيد من النرجسيّة، بل على العكس تمامًا إنّه سلوك يستهدف القدرة على العطاء، عطاءٌ لا يختفي، بل يبقى من دون أن يعتوره انعدام أو اعتلال. ماذا يعني إذًا أن تكون محبوبًا، إن لم يكن يعني أن تكون قادرًا على أن تكون مقبولًا، ومعترفًا بك كشخصٍ حرٍّ حتى في عطاياه، هذه العطايا التي «تتحوّل» –بعد أن عثرت على سبيلها وعلى طريق العطايا– لتصبح استقبالًا وتلقّيًا، وذلك من خلال مقايضتها بعطيّةٍ أخرى مُشتهاةٍ في أعماق النفس: أن تكون محبوبًا على وجه التحديد، وهو المقابل لأعطية الحبّ المجانيّة؟ ولكنّك في سبيل أن تكون «الفاعل» و«المفعول» في هذه المقايضة، يجب أن تكون –ما هي العبارة المناسبة؟ – قادرًا على الاستمالة، يجب أن تشرع في تقديم الهدايا دونما قيود إذا ما رغبت في المقابل (فهي مقايضة مناقضةٌ تمامًا لحساب الفائدة الرّقميّ) أن تحصل على الهديّة نفسها، أو على أكثر من الهدية التي قدّمتها. لذلك يجب أن يكون من الواضح والمفهوم تمامًا أنّ على المرء ألّا يكون محصورًا في حريّة كينونته، عليه ألّا يكون مبتورًا في تمام جسده وروحه، عليه –ودعونا نقول– ألّا يكون «مخصيًّا»، بل أن يتمتّع بقوّته على أن يكون، من دون أن يكون مبتورًا في جزءٍ وحيدٍ، ومن دون أن يكون مكرّسًا لتعويض هذا البتر سواءٌ أكان ذلك عن طريق الوهم، أم عن طريق الخواء.

لكنّ والدتي هي التي خصتني، عشر مرّاتٍ، عشرين مرّةً، في خضمّ تلك القوّة المتسلّطة التي كانت تعيش تحت سطوتها وهي تحاول من دون جدوى أن تسيطر

على هلعها من أن تكون خصيّةً هي نفسها، ومن أن تكون منهوبةً (من خلال بترٍ في مجموع أموالها أو مدّخراتها)، ومن أن تكون مغتصبةً (من خلال تمزّق جسدها). نعم، لقد اغتُصبت من قبل والدتي، خصوصًا حينما ادّعت بأنّها هي التي أعطتني آلتي الجنسيّة، لقد تلقّيت هذه الإشارة الفظيعة كما لو أنّها الصورة نفسها لاغتصابي من قبلها، للانتهاك، والسطو على آلتي الجنسيّة التي كانت والدتي قد «استولت عليها» رغمًا عن إرادتي الأعمق، ورغم رغبتي في أن أمتلك قضيبي لنفسي، لي أنا وليس لأيّ شخصٍ آخر، وخصوصًا لها -يا للبذاءة الفادحة- من هنا كنتُ أشعر أنّني غير قادرٍ على الحبّ، لأنّ حرمتي كانت منتهكة، لقد ثُلمتُ في أهمّ فترات حياتي. كيف يمكنكم أن تحبّوا -أو أن تزعموا ذلك مجرّد زعمٍ- حينما تُنتَهكوا في أكثر الأشياء حميميّةً لديكم، في أعمق رغباتكم، في سرّ الحياة لحياتكم؟ هكذا كنتُ أشعر قبالة هيلين، وسوف أبقى أشعر على هذا النحو دائمًا، من خلال تعرّضي لاعتداء والدتي الخصوصيّ، كنتُ أشعر أنّني كرجلٍ (رجلٌ؟ إنّه قول فيه الكثير من المبالغة) غير قادر على أن يقدّم أقلّ تقدمةٍ حقيقيّة من الحبّ الأصيل لهيلين، ولأيّ شخص آخر يشبهها، وهذا ما كنتُ أسمّيه: انعدامُ إحساسي. انعدام إحساسي؟ في الحقيقة إنّه انعدام إحساس والدتي التي كانت قد أذهلتني حينما رفضت الحضور من المغرب -بحجّة الأميات في معدتها، أو غير ذلك لستُ أدري- من أجل مساعدة والدتها المحتضرة، وقد كنتُ أنا من ذهب إلى المورفان لاستلام جثمانها بعد أن تعرّضت لنوبةٍ قلبيّةٍ في الصباح الباكر عند الكنيسة. انعدام إحساسي؟ في الحقيقة إنّه انعدام إحساس والدتي حينما جعلتني -بصمتها فقط- أغيّر جهة طريقي إلى سيمون، وأقود الدراجة وأنا أشعر بغيظٍ شديدٍ باتّجاه لا سيوتا. انعدام إحساسي؟ في الحقيقة إنّه انعدام إحساس والدتي حينما رأيتها -ببرودةٍ، ومن دون أيّة مسحةٍ من العاطفة- تطبع قبلةً باردةً فوق جبين والدي الميْت، ثمّ ترسم إشارة الصليب ببساطة وهي جاثيةً، ومن ثمّ تعيد الحركة نفسها قبل أن تخرج. انعدام إحساسي؟ في الحقيقة إنّه انعدام إحساس والدتي حينما حضر صديقاي بول ومانيي(Many)

لزيارة والدتي في جناحها الطبّي المنعزل في فيروفلاي -لأنّهما كانا الوحيدان اللذين يعرفانها- كي يخبرانها -والله وحده يعلّم ما اتخذاه من تحوّطات غير محدودة- بأنّ هيلين قد فارقت الحياة، وأنّني أنا الذي قتل هيلين. لقد أخذتهم حينها في جولةٍ ضمن الحديقة، من دون أن تنطق بكلمة، وكأنّ شيئًا لم يقع، لقد كان من الواضح أنّ عقلها في مكان آخر، وللأسف فقد كنتُ أعرف أين كان على نحوٍ جيّدٍ. انعدام إحساسي؟ في الحقيقة إنّه انعدام إحساس والدتي التي تخلّصت الآن من جميع مخاوفها المرضيّة منذ أن عادت وحيدةً، ومنذ أن رفضت اسم السيّدة ألتوسير مفضّلةً الاحتفاظ باسمها حينما كانت صبيّة: بورجيه، وقد أخذت ترمي نفسها -من دون أن تشعر في هذه المرّة بأيّة خشيةٍ من الأميبات، أو غيرها من المتاعب في المعدة- على ألواح الشوكولا الجميلة التي كنت أجلبها لها! يا إلهي، هل كنتُ مجحفًا بحقّها؟ هذه المرأة المتمسّكة بمبادئها، الشفّافة في حياتها، التي لم تتعدَّ على أحدٍ أبدًا، الحنونة (مع أصدقائها النادرين)، والتي أحبّتنا فوق طاقتها، والتي تعيّن عليها بمفردها أن تتخيّل الوسائل «المناسبة» (من موسيقى وحفلات موسيقيّةٍ ومسرحيات كلاسيكيّةٍ وكشّافة فرنسا) الكفيلة بأن تقدّم لنا تعليمًا جيّدًا. تلك المرأة البائسة، لقد فعلت ما كان بوسعها، لا أكثر ولا أقل، لقد فعلت ما اعتقدت أنّه يحقّق سعادتها وسعادتنا، لكنّه في الواقع كان يصنع تعاستي، فيما كانت تظنّ أنّها تصنع خيرًا، ما أقصده هو أنّ والدتي قد انحازت إلى أهوال والدتها الصامتة في عزلة الغابات البريّة في الجزائر، كما انصاعت إلى قلق والدها العصبيّ.

لذلك ليس من الغريب في شيءٍ فيما لو حمّلتُ نفسي ذلك المعنى المرعب لانعدام الحساسيّة هذه، لهذا العجز عن الحبّ الحقيقي، وفيما لو حوّلته إلى هيلين، هيلين البائسة الضحيّة بالنسبة إليّ، هيلين الجرح النازف. هذا هو قدري -بل قدرنا- أن أبلغ هذه المرحلة من تجسيد رغبات أمّي حيث لم أستطع على الإطلاق (وحتى هذه اللحظة) أن «أستجمع» أشلائي من أجل تقديم شيءٍ آخر إلى هيلين، شيء سوى هذا الكاريكاتير القبيح لتقدمةٍ مزيّفةٍ قد ورثتها عن والدتي تعبيرًا عن كامل حبي

لهيلين. بالطبع، لقد أحببتُ هيلين من أعماق روحي، بكامل الزهو المبهج، لقد قدّمتُ لها نفسي كاملةً كهديّة، وقد كرّستُ نفسي لها بلا تحفّظٍ، ولكن كيف السبيل -وهي المهمّة التي نذرتُ لها نفسي في ذلك الحين- كي أخرجها بالفعل من عزلتها المغلقة بإحكامٍ -لا ريب ثمّة أخطاءٌ مرتكبةٌ، ودوافع خفيّةٌ مكتومةٌ- وكيف السبيل كي أجيب على هاجسها حينما كانت تكرّر على مسامعي ونحن في السرير أو في مكان آخر: قُل لي شيئًا ما! أي أعطني كلّ ما هو جديرٌ بأن يخرجني في آخر الأمر من الهاجس المرعب المتمثّل في أن أكون وحيدةً، وفي أن أكون امرأةً شرّيرةً قبيحةً إلى الأبد، من دون أن أحظى بحبٍّ من الممكن أن يكون معادلًا لحبّي؟

ليس هنالك من أحدٍ في العالم قادرٌ على أن يجيب على ذلك السؤال القلق: قُل لي شيئًا ما! حينما يكون المقصود من هذه الكلمة بكلّ بساطةٍ: أعطني كلّ شيء. أعطني الوجود في نهاية المطاف! أعطني ما يكفي لوقف هذه المعاناة المتمثّلة في ألّا تكون موجودًا حقيقةً في نظر نفسك، وفي حياتك، في ألّا تكون سوى مناسبة عابرةً، في عدم الاكتفاء بأن تكونَ الشخصيّة المجروحة في الحبّ إلى الأبد! لقد كنتُ أعرف جيّدًا -وهيلين نفسها كانت تعرف جيّدًا- ما هو ذلك الشيء الذي يتلطّى خلف ذلك النداء الوجدانيّ: إنّه خوف هيلين الفانتازيّ من أن تكون مجرّد امرأةً سيّئةً، أمّا بغيضةً، امرأةً شرّيرةً مخلوقة من أجل ارتكاب الشرّ والمزيد من الشرّ، وقبل كلّ شيءٍ من أجل ارتكاب الشرّ ضد الشخص الذي يحبّها، أو الذي يرغب في أن يحبّها. إذًا لم يكن هنالك ما تقابل به هذا العجز عن الحبّ [عن حبّها] سوى ذلك الرفض (الرغبة) الشرس، العنيد والعنيف كونها غير محبوبةٍ بسبب أنّها لا تستحقّ الحبّ، لأنّها في الأساس لم تكن سوى حيوانٌ صغيرٌ وبغيضٌ، مليئٌ بالمخالب والدماء، والأشواك والغضب. لقد كان ذلك كافيًا من أجل تشكيل سائر المظاهر المقبولة بسهولةٍ كبيرةٍ (فهو أسهل بكثير!) لزوجٍ ساديٍّ مازوخيٍ غير قادر على كسر تلك الحلقة التي يدور داخلها، حلقةٌ مكوّنةٌ من سلسلةٍ مأساويّة من مشاعر الغضب والكراهية والحسرة المتبادلة.

هذا هو السبب في «مشاكلنا الزوجيّة البغيضة» التي كانت تروّع أصدقائنا أو تُغضبهم (تبعًا للظروف) حينما كانوا يقفون شهودًا عاجزين عن فعل شيءٍ أمامها. ومثلما كان يفعل أبي، كانت هيلين تغادر، وقد امتقع وجهها فجأةً فأضحى أحمر كالمرمر أو شاحبًا كالورق الأصفر، كانت تصفق الباب خلفها فأركض في إثرها وقد تملّكني قلقٌ ممضٌّ مرعبٌ من أن تتركني لأيّامٍ كاملةٍ في بعض الأحيان، ومن دون أن أكون قد ارتكبتُ أيّة هفوةٍ في أحايين أخرى. بالمثل، ماذا جنيتُ في البرتغال (Portugale) حينما صحبتها إلى هنالك بالطائرة عقب اندلاع ثورة القرنفل[85] فيها؟ لقد دخلتْ في نوبةٍ هستيريّةٍ في المطعم حيث كان أصدقاءٌ محلّيون قد دعونا وكلّ ذلك بسبب أن الطرقات كانت شديدة الانحدار في لشبونة (Lisbonne) لذلك فقد توجّب أن أمضي بها إلى ملاذ القلعة العالية كي تهدّأ هنالك من حدّة مزاجها. و بالمثل، ماذا جنيتُ في غرناطة (Grenade) حينما رفضت مساعدة أحد الأصدقاء حينما عرض علينا زيارة الكازار (Alcazar): [86]لسنا بحاجةٍ له! ثمّ إنّه سيكون «مشهدًا» مرعبًا. وبالمثل، ماذا جنيتُ في اليونان (Grèce) حينما رفضت - لكنّها كانت قد رفضت سلفًا- وليمة طعام عامرةٍ كانت قد أقامتها عائلة من البورجوازية الصغيرة على سبيل الضيافة التقليدية. هكذا...فإنّني لم أكن مذنبًا بلا ريبٍ في مثل هذه الحالات، لكنّني كنتُ أستهزئ بها كثيرًا في أغلب الأحيان مستفزًّا ردود أفعالها، وقد كنتُ أحاول أن أعرف داخل العلاقة الحميميّة معها نفسها إن كانت راضيةً أم لا.

ثمّ نأتي إلى «حكاياتي مع النساء». لقد شعرتُ دائمًا -إلى جانب هيلين- بالحاجة

---

(85) ثورة القرنفل: وتُعرف أيضًا باسم ثورة 25 أبريل، التي بدأت كانقلاب عسكريّ في 25 نيسان/أبريل 1974 في لشبونة أطاح بنظام استادو نوفو السلطوي. بدأت الثورة كانقلابٍ نظّمته حركة القوّات المسلّحة المؤلّفة من الضبّاط العسكريّين المعارضين للنظام، ولكن سرعان ما اقترنت بحملة مقاومة مدنيّة شعبيّة غير متوقّعة. (المترجم)

(86) الكازار (Alcazar): لفظةٌ مشتقّةٌ من كلمة "القصر" العربيّة، وهو نوع مغاربيّ للقلعة أو القصر في إسبانيا أو البرتغال بني خلال فترة حكم المسلمين، كما تمّ بناء بعض هذه القصور من قبل المسيحيّين. (المترجم)

إلى تكوين «رصيدٍ من النساء»، وإلى التماس موافقةٍ صريحةٍ من هيلين في تكريس نفسي لهذه المسألة. لا ريب أنّني كنت في حاجةٍ إلى هذه النساء بحسبانهنّ مكمّلات إيروتيكيّة من أجل إرضاء ما لا تستطيع أن تقدّمه لي هيلين بنفسها -هيلين التعيسة-، كنتُ في حاجةٍ إلى جسدٍ فتيّ غير منهوك، وإلى ذلك الوجه الأبديّ الذي بقيتُ أتبعه في الحلم، فقد كانت رغبتي المُبتسرة «تفتقدهما». كذلك كان ينقصني الدليل إلى أنّني أستطيع، إلى جانب من يمثّل بالنسبة إليّ الأب-الأمّ، أن أرغب في مجرّد جسد امرأةٍ رائعةٍ. لكنّني لم أستطع المضي في ذلك أبدًا من دون موافقة هيلين الصريحة، إلّا مؤخّرًا.

لقد وجدتُ في ذلك الحلّ «الموجز» غير المقصود، بيد أنّه حلّ ذو سلطان مطلق: لقد أحببتُ نساءً على ذائقتي، لكنّهنّ كنّ بعيدات عنّي بما يكفي كي أتجنّب وقوع الأسوأ؛ لقد كنت أعيش على هذا النحو سواء أكان ذلك في سويسرا (مع كلير Claire) أم في إيطاليا (مع فرانكا Franca)، وبالتالي فقد كنتُ أبعد عنهنّ مسافةً محسوبةً -ولكن بصورةٍ غير مقصودةٍ- تجعل رؤيتي لهنّ رؤيةً متقطّعةً (فقد كنتُ أشعر عادةً -أي لا شعوريًّا- بالملل والاشمئزاز بعد انقضاء ثلاثة أيّام، وذلك على الرّغم من الجمال الاستثنائي لهذه النساء بما فيهنّ كلير وفرانكا). لكنّ هذا التحوّط الجغرافيّ لم يكن ليعفيني من طقوسي الخاصّة في الحصول على الموافقة والرعاية. فحينما تعرّفتُ إلى فرانكا في شهر آب/ أغسطس من عام 1974، سارعت إلى دعوة هيلين للتعرّف إليها في الخامس عشر من الشهر نفسه. لقد تفاهمتا في البداية على نحوٍ رائعٍ، لتعقب ذلك -بعد انقضاء بضعة أشهرٍ- فتراتٌ مؤلمةٌ كنتُ أترنّح في أثنائها بين هيلين وفرانكا، ولستُ أدري مقدار الرسائل البرقيّة والاتصالات الهاتفيّة التي تمّ تبادلها بين باناريا Panaréa (وهي جزيرةٌ صقليّةٌ) وباريس، بين برتينوري (Bertinori) وباريس، بين البندقية (Venise) وباريس، من دون أن تتحقّق أيّة نتيجةٍ سوى المضاعفة من استفزازاتي الماكرة، والزيادة في خطورة الوضع.

لكنّ الكيل قد طفح مع صديقاتي حينما طرحتْ هذه الصديقات -بصورة مباشرةٍ أو غير مباشرة- قضيّة العيش معهنّ، وإنجاب الأطفال. حصل الأمر مع كلير حينما كنّا نسير على تلك الطريق المنحدرة في غابة رامبوييه (Rambouillet): كانت تحدثني عن الصغير جوليان (Julien) الذي كنّا نتمنّاه كثيرًا حينما عرضت عليّ -لقد كان لديها إذًا «فكرةً بشأني»- أن أعيش معها: وسرعان ما وقعتُ مريضًا مكتئبًا. أمّا مع فرانكا، تلك الإيطاليّة الرائعة التي كانت تبلغ من العمر ستًّا وثلاثين عامًا، والتي كانت محبطةً تمامًا من أن تستطيع -في مثل عمرها ذاك- أن تستطيع الحبّ مجدّدًا، فقد كان الأمر أسوأ. لقد حطّت هذه رحالها ذات يوم في باريس بحجّة أنّها تريد أن تتابع محاضرات ليفي ستروس (Lévi-Strausse)[87] الذي كانت قد ترجمت أعماله في بلدها، وقد أخبرتني هاتفيًّا أنّها قد أصبحت هناك، وأنّ في إمكاني أن أفعل بها ما أشاء. حتّى إنّها قد حضرت إليّ، وقد رأتني في حالةٍ صحيّةٍ سيّئةٍ جدًّا بعد أن نظرت إليّ من خلال النافذة. لقد كان الأمر في غاية الوضوح، سرعان ما سقطتُ مريضًا، وقد خارت قواي إلى حدٍّ بعيدٍ. لقد كان لديها هي الأخرى «أفكار بشأني».

بالطبع، لم تكن حالات الاكتئاب المتعاقبة لديّ من طبيعةٍ واحدةٍ. لكنّها كانت حالات اكتئاب غريبة، فقد كان العلاج في المستشفى كافيًا كي يخفّف من حدّتها في الحال تقريبًا كما لو أنّ الرّعاية الأموميّة في المستشفى، والعزلة، و«القوّة الكلّية» للاكتئاب كانت كافية لتحقيق المطلوب، تماشيًا مع رغبتي في ألّا أكون مهجورًا ضد إرادتي، ومع رغبتي في أن أكون في مأمنٍ من الجميع. لقد كانت حالات الاكتئاب السعيدة هذه -إذا أمكنني القول- تجعلني في مأمنٍ من الخارج جميعه، كما أنّها تجعلني أنعم بأمانٍ غير محدودٍ يتجلّى في أنّني لم أعد مضطرًّا إلى الشجار، حتى ضدّ رغبتي. لقد حاول محلّلي النفسيّ عبثًا أن يخبرني أنّنا أمام «حالات اكتئاب مزيّفةٍ»،

(87) كلود ليفي ستروس (Claude Lévi-Strausse) 1908-2009: عالم اجتماع وأنثروبولوجي فرنسي. (المترجم)

عصابيّة وغير مألوفةٍ لكنّ ذلك كان عبثًا. وبما أنّ هذه الحالات كانت قصيرةً جدًّا في العادة (من خمسة عشر يومًا إلى ثلاثة أسابيع)، وعلى الرغم من انتظارها المفزع (الذي كان أطول وأقسى من الاكتئاب نفسه)، إلّا أنّها كانت تتوقّف من خلال العلاج في المستشفى كما لو أنّ معجزةً قد وقعت، وبما أنّ عملي -ومشاريعي أيضًا- لم تكن تتأثّر بها سوى بشكلٍ طفيفٍ للغاية، وبما أنّني كنتُ أخرج منها بمنتهى السهولة، ومن التخلّص الواضح من المشاكل جميعها -مشاكلي ومشاكل الآخرين- فإنّني لم أتأثّر بها أبدًا، لقد كنتُ أعمل ألف مرّةٍ أكثر، كما كنتُ أعوّض ما فاتني من تأخرٍ مزيّفٍ ألف مرّةٍ أيضًا. لذلك سوف تندرج هذه الحالات ببساطةٍ ضمن سياق حياتي الصاخبة قليلًا.

لقد أوضح لي المحلّل النفسيّ الذي كنت أستشيره عادةً أحد ملامح حالات اكتئابي، وهو ما لم أكن لأشتبه به بمفردي بالطبع. لقد قال لي: إنّ الاكتئاب هو القدرة الكلّيّة. بصراحةٍ، إنّ هذا الأمر لا جدال فيه: فنحن ننسحب من العالم، «ونلجأ» داخل المرض، بعيدًا عن سائر الهموم الرّاهنة والحيّة، نلجأ إلى تلك الحماية التي تقدّمها غرفة العيادة البيضاء حيث تقدّم لك الممرّضات، والطبيب المرهفين في عنايتهم واهتمامهم أنواعَ الرّعاية الأموميّة (إنّ الانتكاص الحادّ في سائر أنواع الاكتئاب يجعل منك طفلًا صغيرًا جدًّا، لكنّك حينها لا تكون طفلًا مهجورًا، بل على العكس سوف تستسلم إلى ذلك السلام واليقين العميق من أنّك لن تعود مهجورًا في النهاية) التي تكتنفها نزعةٌ صنميّةٌ مضحكةٌ حيال العقاقير التي لا تفعل شيئًا في الواقع -كما نعلم- سوى أنّها تختصر عملية الخروج من الاكتئاب، وأنّها توفّر النوم والتهدئة التي تحصل عليها من دون أن تفعل شيئًا ومن دون أن تكون ملزمًا بأن تزوّد العالم بأسره في المقابل بلائحة رغباتك وطلباتك: فالأطباء والممرّضات يحبّونك، وسوف يأتون لزيارتك. هكذا وإذ لم يعد هنالك ما تخشاه من العالم الخارجيّ تمامًا، سوف تمارس القدرة الكلّية لطفلٍ أصبح في النهاية محبوبًا من لدن أمّهاتٍ صالحات. ولكم أن تتخيّلوا كم كان هذا التفسير النظريّ يرضيني: أنا

الذي كنتُ أشعر في حياتي بالعجز، وبأنْ ليس لي وجودٌ حقيقيٌّ (إلّا من خلال التلاعب بواسطة التحايل والخداع)، إذا بي أجد نفسي أخيرًا قد امتلكتُ قوّةً كبيرةً لم أكن أحلم بها في حياتي. من هنا أعتقد أنّني لم أكن أسقط مريضًا، ولم أكن أطمح إلى الذهاب للعلاج في المستشفى إلّا في هذه الحالات (كنتُ أرجو أن أُمنح هذا العلاج بكلّ معنى الكلمة)، وقد كانت المهمة سهلة المنال، ومطابقةً للحقيقية. ولكن متى أستطيع أن أتمتّع بهذه القوّة الكلّية في الحياة الحقيقيّة؟ لقد كانت الفرصة من أجل تحقيق ذلك تسنح بالضبط خلال فترة الهوس الخفيف المشوّقة التي كانت تعقب مرحلة مروري بالاكتئاب (ليس دائمًا، ولكن أكثر فأكثر). لقد أصبحت أتحوّل بسرعةٍ كبيرةٍ من مرحلة الاكتئاب إلى مرحلة الهوس الخفيف، الذي كان يتّخذ في بعض الأحيان مسار هوس حقيقيٍّ عنيفٍ جدًّا. كنتُ أشعر في تلك الأثناء أنّني كلّيّ القدرة حقًّا، وعلى كلّ شيءٍ: على العالم الخارجيّ، وعلى أصدقائي، وعلى مشاريعي، وعلى مشاكلي ومشاكل الآخرين. كلّ شيءٍ كان يبدو لي بسيطًا على نحوٍ لا يُصدّق -وقد كان كذلك- وكنتُ أحلّق عاليًا فوق المشاكل جميعًا، فوق مشاكلي ومشاكل الآخرين، وقد شرعتُ في وضع الحلول لمشاكلهم -بنجاحٍ واضحٍ- من دون أن يطلبوا ذلك منّي. ثمّ انطلقتُ في مبادراتٍ كان الآخرون يجدونها شديدة الخطورة (بالنسبة إليّ وإليهم)، وقد كانت ترعبهم، لكنّني كنتُ أغضُّ الطرف عن اعتراضاتهم جميعها، فلا أكترثُ لها، إذ كنتُ على قناعةٍ مطلقةٍ بأنّني المعلّم المطلق، معلّم اللعبة، وسائر أصناف اللّعب، ولم لا أكون كذلك ولو مرّةً واحدةً على الأقل، وعلى صعيدٍ عالميٍّ تقريبًا... أتذكّر تلك العبارة المرعبة التي نطقتها قرابة عام 1976 والتي لم أستطع للأسف نسيانها: «نحن في طور التحوّل كي نصبح مسيطرين» لقد أدرك الجميع أنّ في هذه السهولة العجيبة وفي هذا الزّعم جرعةً كبيرةً من العدائيّة، قد تحرّرت في هذه المناسبة، أو بتعبيرٍ أدقّ قد تجلّت في هذه الحماسة، كما لو أنّه أحد الأعراض لاستيهام العجز، والاكتئاب لديّ إذًا، لأنّ هذه العبارة لم تكن سوى دفاعًا مراوغًا ضدّ نزوعي نحو الاكتئاب، وضد استيهامات العجز التي تغذّي هذا

الاكتئاب. كم هو صحيح ذلك التأرجح بين النقيضين -الذي كان فرويد من بعد سبينوزا قد أجاد في الحديث عنه- وكم كان فاعلًا هذا التأرجح في سائر الحالات، وكم كان واضحًا -علاوةً على ذلك- في حالتي. إنّ خوفي من أن أكون عاجزًا كليًّا، ورغبتي في أن أكون كلّي القدرة، أي جنوني جنون العظمة لم يكونا سوى وجهين لعملةٍ واحدةٍ: إنها الرّغبة في أن أتمتّع بما كان ينقصني كي أكون رجلًا كاملًا وحرًّا، والرّعب الذي كان يتملّكني من فقدانه. سوف يلازمني هذا الاستيهام ذو الوجهين (وهو ما يؤلّف ازدواجيّته) على هذا النحو بصورة تعاقبيّةٍ في الاكتئاب ذي القدرة الكلّية غير الحقيقيّة، وفي الهوس ذي القدرة الكليّة المتّصفة بجنون العظمة.

من جانب آخر، لقد كنتُ على بيّنةٍ واضحةٍ من «مراحل» اكتئابي الواعية (لقد عرفتُ منها خمسة عشر مرحلةً بشكلٍ جيّدٍ منذ عام 1974 وحتى عام 1980، كانت مراحلُ مختصرةً ما عدا الأولى والأخيرة منها، كما أنّها لم تكن ذات عواقب «مهنيّةٍ» أبدًا، بل على العكس، وهنا فإنّني أتوجّه بالشكر إلى إدارة المدرسة بسائر هيئاتها التي -كانت متفهّمةً تمامًا- إذ لم تجعلني في إجازةٍ مرضيّةٍ لأنّني كنتُ أنجز عملي بمقدار عشرين ضعفًا في أعقاب كلّ اكتئابٍ تقريبًا). وإنّ في استطاعتي أن أصنّفها تحت ثلاثة عناوين: الخوف من أن أكون مهجورًا (من قبل هيلين، ومن قبل محلّلي النفسيّ، وكذلك من قبل أصدقائي أو صديقاتي)، ثمّ الخوف من أن أكون هدفًا لطالب حبٍّ، إذ كنتُ أجدُ في ذلك تهديدًا كمن «يتسلّط» عليّ، أو بمعنىً أعمّ: كمن يكوّن «أفكارًا بشأني» لكنّها ليست أفكاري طبعًا، وسوف نعود إلى هذه القضيّة لاحقًا، وأخيرًا الخوف من أن أُعرض على الملأ عاريًا: وهذا خوفُ رجلٍ نكرةٍ، ليس له من وجودٍ سوى وجوده المخادع المحتال، وحينها سوف يكتشف الجميع في وضح النهار، وبسبب من ارتباكي، جريمتي الثابتة.

وأظنّ أنّكم سوف تدركون لماذا كان باستطاعة الخوف من أن أُترك مهجورًا أن يجعلني أشعر بالقلق الكفيل بأن أُرمى في دوّامة الاكتئاب. فإذا ما أضفنا إلى الخوف من أن تتركني والدتي، ذلك الخوف القديم عندي من مغادرة والدي في الليل مرّاتٍ

عديدةٍ، هذه المخاوف التي كانت تعيد إحيائها مغادرة هيلين المتكررة وعلى نحوٍ عنيفٍ، وهي مغادراتٌ لم أكن أطيق تحمّلها: فإنّ هذه المخاوف جميعًا كانت تعادل التهديد بالموت بالنسبة إليّ (وقد رأيتم تلك العلاقة الفاعلة التي أقمتُها دائمًا مع الموت). لقد تركتني هذه «الحتميّات» في لجّة الهلع من دون أملٍ في ملاذ، فوجدتُ نفسي مكتفيًا بالاستسلام إلى «قدري» وبالسقوط فيما كنت أرغب فيه، فيما يكمّل حقيقتي، في ألّا يكون لي وجودًا بعد، في أن أختفي من العالم، وباختصارٍ في أن أعود إلى العلاج في المستشفى، ولكن مع تلك الفكرة المُسبقة المنحرفة في التجائي إلى المرض حيث لا يعود هنالك حينها أيّة مخاطرةٍ في أن يتركني أحدٌ بحسبان أنّني مريضٌ من الناحية الرسميّة والعلنيّة، وهذا يقتضي أن أحصل –بصورةٍ استبداديّة– على المساعدة من الجميع. سوف أكرّر هذا المنحى من السلوك، بطريقةٍ متطرّفةٍ للغاية، في المراحل الأخيرة من اكتئابي الأطول والأشدّ خطورةً، في سانت آن، وتحديدًا في سوازي (Soisy). سوف نعود إلى الحديث عن هذا الأمر لاحقًا.

الفصل الثاني عشر

لقد كنتُ أقاسي نفورًا حادًّا وقلقًا من فكرة أن يريد أحدٌ ما أن «يتسلّط» عليّ (كما اختبرتُ ذلك في مواقف حملتني على التفكير). لقد كنتُ أخشى قبل كلّ شيءٍ آخر محاولات النساء في الغواية. فهذه كانت تندرج في سياق الصدمات والأضرار – وأكاد أقول اعتداءات أمّي – التي لم توفّر فيما يخصّني ذلك الاعتداء الإخصائيّ. فما إن كانت إحدى النساء تعرض عليّ فكرة أن تعيش معي (وهذا كان يعني من حيث النتيجة أن تتركني هيلين التي ما كانت –في ظنّي– لتطيق هذا الأمر) حتى كنتُ أرتعب من هذه الفكرة وأسقط في الاكتئاب. إنّني لم أشعر أبدًا –وقد يبدو هذا القول مثيرًا للدهشة لدى العديد من أصدقائي– أنّ هيلين قد زعمت أنّها «تسيطر» عليّ، أو أنّها كانت تتصرّف معي كما تتصرّف الأمّ الخاصية، في المقابل فإنّني كنتُ أشعر هذا الشعور على الدّوام حينما كانت صديقاتي «الجانبيّات» يخرجن عن الحدود التي كنت قد وضعتها لهنّ (من خلال استغلالهنّ للظروف المناسبة، أو اختيارهن لها بطريقةٍ لا شعوريّةٍ)، فيعرّضنني –نتيجةً لذلك– إلى خطر فقداني هيلين (وهو الأمر الذي أراه اليوم بوضوحٍ شديدٍ)، إذ يحرّضنها على الهجر في ضوء ذلك. لذلك فإنّني لم أكن أتقهقر أمام أيّ شيءٍ في سبيل حماية نفسي من أيّة مغامرةٍ طائشةٍ، وقاتلةٍ أيضًا. بالطبع لقد رفضتُ بقسوةٍ (من خلال إظهار سقوطي في المرض سريعًا نتيجةً لذلك) كلّ عرضٍ من هذا الصنف الذي كان في نظري «استحواذًا لا يمكن تحمّله». كما أنّني –وبطريقة استباقيّةٍ– كنتُ أجد طريقة للتهرّب ولاستعمال الكلمات الطائشة كلّما سنحت الفرصة (بقول الحقيقة دائمًا، ولكن في صيغٍ متنوّعةٍ، وبمعنىً واضحٍ أو مستترٍ). هكذا فقد كان ردّي المقابل في أحد الأيّام على رسالة

فتاةٍ شابّةٍ تخبرني فيها بأنّها تحبّني بشكلٍ واضحٍ منذ مدّةٍ طويلةٍ، أنْ قلتُ لها: «إنّني أكره أن أكون محبوبًا!»، لقد كان هذا الردّ خاطئًا بالكامل، لكنّني كنتُ أقصد في المقابل أن أقول: إنّني أكره أن يبادر أحدٌ ما في إعلان حبّه لي، في أن «يتسلّط» عليّ، فأنا لا أقبل أن يكون هذا النوع من المبادرات -التي يعود امتيازها إليّ وحدي- بيد أيّ شخصٍ آخر في العالم، وذلك بناء على رغبته الطائشة في الحب الذي لم أكن أشعر بنفسي قادرًا عليه ولا على اختباره، وبالطبع فإنّني هنا أتكلّم عن نفسي كرجلٍ، كفردٍ ما وليس كفيلسوف.

لقد استحضرت -ذات يومٍ- صيغةً أخرى أكثر عموميّةً من هذا الرفض للمبادرة الصادرة عن مطلق المرأة تجاهي، وذلك في أثناء تفسيري لمحلّلي النفسيّ بصورةٍ غاضبةٍ (من قبلي) لنفوري حيال أيّ شخصٍ يزعم (امتلاك أفكارٍ بشأني). لكنّ الأمر في هذه المرّة لم يكن يتعلّق بالنساء فقط، بل بالنساء والرّجال، وقبل كلّ شيءٍ كان يتعلّق به، بمحلّلي النفسي الذي كنتُ أفهمه على نحوٍ خاطئٍ حينها إذ كنتُ أعدّه «كالأمّ الطيّبة» بالنسبة إلي، كنتُ أعدّه إذًا امرأةً، أوّلًا وقبل كلّ شيء. وهنا يتوجّب عليّ أن أكون دقيقًا فأقول إنّني لم أشعر أبدًا أنّ هيلين كانت تمتلك «أفكارًا بشأني»، بقدر ما كانت تتقبّلني كما أنا، وتبعًا لرغبتي. وفي واقع الأمر فإنّ القضية التي هي موضع البحث هنا هي قضيّة الرّغبة، مثلما كانت هي القضيّة في أشكال التعبير السابقة. لقد عانيتُ بما فيه الكفاية من رغبة أمّي إلى الدرجة التي لم أكن فيها قادرًا على تحقيق رغبتها إلّا بالخلاف مع رغبتي، وقد ناديتُ أخيرًا بأنّ لديّ كامل الحقّ في رغبتي (التي لم أكن قادرًا بالمطلق على جعلها حاضرةً، ولا على عيشها إلّا من خلال الإحساس بفقدها، ببترها: أي بموتها)، في ألّا أتحمّل أن يفرض عليّ أيّ شخصٍ آخر -كائنًا من كان- رغبته الخاصّة به، و«أفكاره» بوصفها أفكاري، وبوصفها بديلةً عنها. لقد شكّلت المطالبة برغبتي الخاصّة (ولكن المستحيلة) -بعد أن بلغت هذه الدرجة من التعميم- الأساس الحقيقيّ لاستقلالي العنيف، كما في الفلسفة وفي الحزب، وذلك على الرّغم من مهارتي في التوفيق

والمصالحة، أي من مهارتي -في حقيقة الأمر- في أن أؤثّر على أصدقائي برأيي، كما أنّها قد أسّست أيضًا لاستقلالي عن أصدقائي المقرّبين. وأحسب أنّ هذه الخصلة، أو هذا «العبور» لن يكون خافيًا على هؤلاء الأصدقاء الذين سيتوجّب عليّ أن أدفع لهم الثمن الباهظ. ولعلّ هذا أيضًا كان السبب الرئيس -جزئيًا- في ردّة فعل تلك الصديقة التي ذكرتُ عبارتها: «أنت تعرف كيف تستخدم أصدقاءك بطريقةٍ جيّدةٍ جدًّا، لكنّك لا تحترمهم». لكن وممّا لا ريب فيه على الإطلاق أنّني قد تحصّلت من هذه الاستقلاليّة (التي أدرك الآن جيّدًا «جينالوجياها» السلبيّة) على منافع إيجابيّة ساهمت في تكوين ورسم ملامح «شخصيّتي». إنّه مثالٌ آخر عن الازدواجية التي سيكون عليّ أن أقع فيها حتمًا خلال اختباري لأشكالٍ أخرى من الاكتئاب.

لكنّ أكثر الحالات تعبيرًا عن مخاوفي الاستيهاميّة -لأنّها تبدو كاستيهام الحلّ المستحيل الذي أجد فيه نفسي مجرّدًا من مظهر القوّة الكلّية على الرّغم من أنّني لست كذلك أبدًا- تتجلّى في «الصيغة» الثالثة التي تسبّبت في الكثير من حالات الكآبة لديّ، وخصوصًا الاكتئاب الحادّ الذي قاسيته في خريف عام 1965. كنتُ مأخوذًا حينها بنشوة صدور كتابي «*من أجل ماركس* Pour Marx» و«*قراءة رأس المال*» «Le Capital Lire»، اللذين نُشرا في شهر تشرين الأول/ أكتوبر من عام 1964، حين تملّكني خوفٌ لا يُصدَّق من فكرة أن يجعلني هذان النصّان عاريًا تمامًا أمام الجميع: في كامل العُري، أي بمعنى الظهور ككائنٍ مجبولٍ من الحيلة والخداع، ولا شيء آخر. فيلسوفٌ لا يفقه شيئًا عن تاريخ الفلسفة، ولا يكاد يفقه شيئًا عن ماركس (بالطبع، كنتُ قد قرأتُ له مؤلّفات مرحلة الشباب بتمعّنٍ، بيد أنّني لم أكن قد قرأت بشكلٍ جدّيٍّ -في ذلك الوقت من عام 1964- سوى الكتاب الأول من «*رأس المال*» حينما أعددتُ تلك الحلقة الدراسيّة التي سيتعيّن أن تفضي إلى «*قراءة رأس المال*»). كنتُ أشعر أنّني «فيلسوف» منطلقٌ في تكوينٍ عشوائيٍّ، لكنّني كنتُ غريبًا تمامًا عن ماركس بالتحديد. لذلك فإنّ ريمون آرون (Raymond Aron)[88]

(88) ريمون آرون (Raymond Aron) 1905-1983: فيلسوف وعالم اجتماع فرنسي. (المترجم)

لن يكون مخطئًا بتاتًا في حديثه عن موضوعي -كما فعل في حديثه عن سارتر- بأنّه «ماركسيّةٌ متخيّلةٌ». لكنّه، وكما كان دائمًا، لم يكن يفقه شيئًا -وهو الذي دبّج له التروتسكيّون قصائد المديح بعد موته- ممّا كان يتكلّم عنه (وقد تيسّر له آنذاك بعض الحديث ذو الأهميّة)، ولن أقول أكثر من ذلك. باختصارٍ، لقد كنتُ أخشى أن يجعلني عرضةً لتكذيبٍ عموميٍّ كارثيّ. لكنّني في غمرة الخوف من هذه الفضيحة (أو الرغبة فيها: فالخشية والرغبة تحضران على الدّوام معًا ولكن بصورةٍ متستّرةٍ)، تردّيتُ فيها سريعًا، وخضت اكتئابًا مؤلمًا للغاية. لقد كان اكتئابًا خطيرًا هذه المرّة، على الأقلّ في نظري لأنّ المحلّل النفسيّ لم ينخدع به.

في تلك الأثناء كنتُ قد تعرّفتُ إلى محلّلي منذ وقتٍ قصير، بيد أنّني لا أريد الحديث عنه. لا تخطؤوا الظنّ فتحسبوا أنّني أتغافل عن دوره الحاسم في حياتي، على الأقلّ لقد تعرّض لانتقاداتٍ قاسيةٍ عند وفاة هيلين في أوساط المهنة، ولدى عددٍ من أصدقائه وأصدقائي. فوق ذلك، يبدو أنّ عريضةً تنتقد «طرائقه» -موقّعةً من قبل العديد من «المهرطقين» الذين ينتمي بعضهم إلى مدرسته- قد وُجِّهت إلى مجلّة لو موند (Le Monde) التي لم تقم بنشرها بفضل تدخّل دومينيك دومبر (Dominique hombres)، أحد تلامذتي القدامى. هؤلاء يستطيعون اليوم أن يدعوه -بغرابةٍ- لاحتساء كأسٍ من الشراب! (ليس الآن فهو في موسكو، ولكن حين عودته).

لقد كانت نيكول -التي أصبحت صديقتي الغالية وإن كانت مليئةً بالمخاوف المرضيّة التي كانت تصيبني بالشلل- هي التي نصحتني باستشارته. كنت قد بدأتُ أشكّ في أنّ العناية التي كان معالجي الأول يقدّمها لي لا تتعلّق بتحليلٍ أصيلٍ، بل بنوعٍ من الدعم الجيّد جدًّا ولكن من دون نتيجة تحليليّةٍ معتبرة. لقد ساعدني كثيرًا هذا الرجل الكريم في أوقاتي العصيبة، وكان يتدخّل على الدّوام في تأمين الأدوية والنصائح الضروريّة في حالتي، وفي تأمين قبولي في المراكز وعيادات العلاج النفسي (في إيبيني Épinay، وميدون Meudon وسواهما). كنتُ أخبره بأحلامي كتابةً،

وتحت التخدير الذي كان يمنحني سعادةً كبيرةً، وكان يعلّق عليها بإسهابٍ ويبيّن لي «العناصر الإيجابيّة» فيها إلى جانب «العناصر السلبيّة». لقد أدركتُ بواسطته عددًا من الأشياء، بيد أنّه قد تدخّل في حياتي الشخصيّة مرّةً واحدةً على الأقل حينما أعلن لفرانكا التي كانت تقنعني برأيها فيما أنا أخضع للعلاج في المستشفى قائلًا لها: «إنّ ما يجري معك ليس أمرًا خطيرًا، إنّه حبّ خاصّ بأيّام العطل والإجازات». ومرّةً أخرى حينما كنتُ أخضع للعلاج في مستشفى فال أو لوب (Val-aux-Loups) -الذي كان مقرًّا قديمًا لشاتوبريان(Chateaubriand)[89]- حيث كانت تعتني بي امرأة عجوز، هي واحدةٌ من ابنتي بليخانوف (Plékhanov)[90]، لقد تدخّل حينما فشلتُ على نحوٍ جدّيٍّ في قتل نفسي باستخدام سكينٍ طويلةٍ سيئة القطع، لأنّ معالجي كان قد تأخّر في تعريضي للصدمات الكهربائيّة التي كنت أطالب بها بشكلٍ عنيفٍ في نوبة إحباطٍ لا أعرف لها اسمًا. باختصار، لقد نصحتني نيكول بمحلّلٍ نفسيّ معتبرٍ، «رجلٌ عريض المنكبين بما يكفي كي يساعدك». لقد علقت المفردة في رأسي، ولعلّ ذلك كان من باب الصدفة. لقد استطعتُ أن أتذكّر -بعد أن انقضى كلّ ذلك- صديقي بول، الذي كان بالفعل عريض المنكبين بما يكفي كي يدخل في شجار بالنيابة عنّي.

قبل حلول الصيف من عام 1965، كنت قد التقيته عدّة مرّاتٍ ولكن في إطار أحاديث تمهيديّة، قبل أن يخبرني في النهاية أنّه يقبل رؤيتي بصورةٍ منتظمةٍ ولكن وجهًا لوجه. لقد بيّن لي خلال هذه اللقاءات من حيث النتيجة: أنّني أحمل في قرارة نفسي عبئًا ثقيلًا جدًّا من القلق الذي لن أقدر أبدًا -في رأيه- على تحمّله وأنا مستلقٍ على الأريكة، فالقلق سوف يتضاعف من دون أن أرى المحلّل بعينيّ، كما لن أطيق تحمّل صمته. في الحقيقة، فإنّني ومن خلال رؤيتي تعابير وجهه بالكامل، وسماعه

(89) فرانسوار رينيه شاتوبريان(François-René de Chateaubriand) 1768-1848: الفيكونت دو شاتوبريان، كاتب فرنسيّ، وزعيم المدرسة الرّومانسيّة في الأدب الفرنسيّ. (المترجم)

(90) جورجي بليخانوف (Gueorgui Plékhanov) 1856-1918: ثوريّ زمفكّرٌ روسيّ، ومنظّرٌ ماركسيّ بارز. (المترجم)

يجيب في الحال غالبًا -وإن كان نادرًا جدًّا ما يجيب على أسئلتي بصورة مباشرةٍ- فقد شعرتُ بالاطمئنان بكلّ تأكيد: لقد كان هنا، وكان حضوره هنا مناسبًا. لقد كان حاضر العناية، وكانت العناية مرئيّةً، وهذا ما جعلني أشعر بارتياح كبير. لقد أدركتُ في الوقت نفسه (وتحقّقت من الأمر) أنّ التحليل وجهًا لوجه هو أمرٌ أصعب بكثير بالنسبة إلى المحلّل من تحليلٍ يجريه لمريضٍ مستلقٍ على الأريكة، إذ يتوجّب على المحلّل أن يسيطر على تعابير وجهه جميعًا، خاصة في فترات الصمت من دون أن يستطيع الاحتماء في سكون تنفّسه العميق وهو جالسٌ في أريكته المريحة، أو وهو يدخّن الغليون، أو وهو يقلّب صفحات جريدته، وسوى ذلك... جالسًا خلف المريض بارتياح.

في شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر حينما صدرت كتبي، تملّكني هلعٌ عظيمٌ حتّى إنّني لم أعد أتكلّم إلّا عن إحراقها (ولكن بأيّة طريقةٍ؟)، ليكون إحراقي أنا بالذّات هو الحلّ الأخير والجذريّ في النهاية.

لقد وجد محلّلي نفسه في مواجهة هذا الوضع المخيف. لطالما فكّرت كثيرًا في أولئك المحلّلين النفسيّين الذين يرفضون -احترامًا «لرسالة» القواعد التحليليّة- التدخّل على الإطلاق، من خلال رفضهم أن يسلكوا بوصفهم معالجين نفسيين وأطبّاء أيضًا، ورفضهم بناءً على ذلك أن يقدّموا إلى مريضهم تلك الترضية المخدّرة من خلال مساعدتهم (حتى في مجرّد العثور على عيادةٍ أو معالج نفسيّ). والأمر ببساطة يعود إلى أنّه لا يوجد شخصٌ في العالم -لا في الوسط المهني ولا في أيّ مكانٍ آخر- يقدر إذا ما انتحر المريض على لوم المحلّل النفسيّ حينها على عدم تدخّله. وقد كان لديّ أحد الأصدقاء المقرّبين جدًّا يخضع للتحليل النفسيّ، وقد انتحر هذا الصديق -في أثناء ذلك- في عام 1982، والظّاهر (أؤكّد على عبارة «الظاهر» فقد أكون مخطئًا في معلوماتي، لكنّني أعرف حالاتٍ أخرى لا تدع مجالًا للشكّ، وهي قريبةٌ من لاكان نفسه) أنّ محلّله النفسي لم يُجز لنفسه تقديم أدنى تدخّل من باب «الدعم النفسيّ». أمّا محلّلي النفسي الذي كان -منذ العام 1965 وحتى انفراج

الأمر- يراني يوميًا ويعدّني «كعبءٍ ثقيلٍ» (فقد تعيّن عليه لاحقًا أن يخبرني بأنّه ربّما قد عانى شيئًا من «الهاجس الخفيف» بحسبان أنّه كان شديد الثقة في أنّه يستطيع تخليصي من مشاكلي)، مواجهًا تهديدي المتكرّر بقتل نفسي، فقد انتهى به الأمر إلى الرضوخ للضغط الذي كنتُ أمارسه عليه، ليقبل أن يعالجني في المستشفى. لكنّه أوضح بدقّةٍ: «في مركزٍ أعرفه جيّدًا، حيث لدينا هنالك طرائقٌ خاصّةٌ بنا، في سوازي». وقد أوضح أيضًا (وقد يكون ذلك من باب السرّية كما أظنّ) بأنّه سوف يأتي بنفسه لاصطحابي. وقد حضر إلى المدرسة كي يأخذني بسيارته، وهنالك رأيت صديقي القديم الدكتور إيتيان يهرول مسرعًا نحو البوّابة ويتحدّث مطوّلًا إلى هذا الرجل العجوز. وكما يبدو فإنّ هذا الأخير كان يُصغي من دون أن يتكلّم بشيءٍ ذي أهميّةٍ. لطالما ظننتُ بأنّني كنتُ محقًّا -وقد آمنتُ بذلك من خلال بعض المؤشّرات- بأنّ الدكتور إيتيان كان يقدّم إلى محلّلي رؤيته الشخصيّة عن الواقع؛ فلو حدث أنّني سقطتُ مريضًا فالذنب ذنب هيلين. سوف تنتشر هذه الرؤية المبسّطة والواثقة لاحقًا على نحوٍ واسعٍ في صورة «إشاعةٍ»، لكنّها ستكون محدودة الانتشار جدًّا في دائرة أصدقائي المقرّبين، والسبب في ذلك أنّ هؤلاء كانوا يعرفون، وهيلين أيضًا، ويفهمون (ولكنّهم قلّةٌ نادرةٌ حقيقةً) أنّنا لم نكن نؤلّف ذلك الزوج الشهير، الزوج الساديّ-المازوخي التقليديّ، والقاتل في أغلب الأحيان.

تمّ قبولي في مستشفى سوازي، وهو مستشفى عصريٌّ، ذو أجنحة قائمةٍ وسط مرجٍ فسيحٍ، وقد كنتُ أطالب بإلحاحٍ شديد بعلاجٍ لقلّة النّوم مؤمنًا (من خلال الخرافات السوفييتيّة على الدّوام) بقدرته العجائبيّة. تمّ إرضائي جزئيًّا إذ جُعلت أنام خلال النهار بعضًا من الوقت، وقد هدأت أحوالي المضطربة بسرعةٍ كبيرةٍ (فدهشتُ من ذلك)، ثمّ خرجتُ من المستشفى في غضون شهرٍ من الزمن وقد استُردّت عافيتي. فيما بعد، كنتُ أمارس على محلّلي الضغوط نفسها بشكل دائمٍ تقريبًا، ومثلما لم أعد قادرًا، في غمرة القلق، على تحمّل فكرة ألّا يعود إلى العناية بي، مثلما وجد نفسه أيضًا عالقًا في وضعٍ موسومٍ سلفًا بأنّه من الماضي بتمامه، وقد كان

من المفضّل دائمًا -حتى وإن ترك لي كامل الحرّية في اتخاذ القرار المعلّق بأن أوضع قيد الاحتجاز (من عدمه) - أن يكون اتخاذ القرار تحت رعايته على الأقلّ فيما يتعلّق بمكان التطبيب. سواء أتعلّق ذلك بالذّهاب إلى سوازي في البداية، أم في التجائي إلى فيزيني (Vésinet) التي كان مدراؤها من أصدقائه، حيث يستطيع من خلالهم أن «يتابع» حالتي. لقد كان يزورني صباح كلّ أحدٍ في فيزيني، وقد كنتُ مشوّشًا حيال تفانيه هذا، وقد زاد الطين بلّةً أنّه -وبعد انتهاء المرحلة العلاجيّة الأولى- لم يكن يتقاضى مني لقاء هذه الزيارة الاستثنائية المشفوعة برحلةٍ طويلةٍ في السيّارة سوى الثمن نفسه المقرّر لجلساتي العاديّة -ولكم التفكّر في أهميّة المسائل الماليّة في نظري، وفي نظر المحلّلين النفسيّين! - هذا على الرّغم من أنّ والدي -الذي لم أطلب منه المساعدة- لم يساعدني أبدًا، وقد كان قادرًا على تحمّل هذه التكاليف بسهولةٍ في تلك المرحلة. لقد كنتُ أستقبل محلّلي في كلّ مرّة بفيضٍ من المشاعر التي كانت تحملني على البكاء كما لو أنّني طفلٌ صغيرٌ أمام والدته.

سوف تتعقّد القضيّة أكثر فيما بعد، قرابة عامي 1974و1975، حينما قبلت هيلين -التي كانت مشاكلها «المزاجية» قد أصبحت واضحةً- أن تخضع للتحليل النفسيّ لدى امرأةٍ. وبعد أن قامت بزيارتها -على مدى سنةٍ ونصفٍ تقريبًا- مرّة كلّ أسبوع، ووجهًا لوجهٍ فإنّ هذه المرأة قد تركتها فجأةً عقب حادثةٍ لم أعرف سوى رواية هيلين عنها. فقد حدث أنّ محلّلتها النفسيّة كانت قد أشارت إلى موضوع تقليديٍّ عند فرويد (هو المقابلة وجهًا لوجهٍ)، فأخبرتها هيلين أنّها لا تملك معرفةٍ حول هذه المسألة (وبالفعل، لم يكن لدى هيلين أيّة معرفةٍ نظريّةٍ في التحليل النفسيّ)، فما كان من تلك سوى أن ردّت عليها: «هذا مستحيل، أنت تكذبين!» (لقد كان لدى هيلين معرفةً عامّةً كبيرةً إلى درجة أنّ المحلّلة كان لديها العذر في أن تظنّ أنّ هيلين كانت تعرف المصطلح لكنّها كانت تنكره «بصورةٍ مقصودةٍ» إذا صحّ التعبير).

لقد كانت هيلين مصدومةً جرّاء هذا التخلّي المريع، وكنتُ مصدومًا أكثر منها،

فتخيّلوا. لقد ضغطتُ على محلّلي –بإلحاحٍ انتحاريٍّ– أن يجد حلًّا. وقد قبل هذا (وهو ما كنتُ أتمنّاه فوق كلّ شيء) أن يجري مع هيلين محادثةً علاجيّةً وجهًا لوجهٍ، مرّةً واحدةً في الأسبوع. هكذا أصبحنا «على عاتقه» نحن الاثنين في الوقت نفسه، إذا جاز القول لي. إنّها بالطبع حالةٌ نادرةٌ للغاية في هذه المهنة، بيد أنّها ليست فريدةً (فلاكان كان يمارس الطريقة نفسها عادةً)، وسوف يتوجّب عليه –بعد موت هيلين– أن يحاول التصدّي لتساؤلاتٍ خطيرةٍ لدى العديد من أصدقائنا تتعلّق به شخصيّا، وبالمهنة أيضًا. حتّى إنّ واحدًا من هؤلاء قد تكلّم عن «حلقةٍ جهنّميّةٍ»، عن «علاقةٍ ثلاثيّة الأطراف»، عن «طريق مسدودٍ بالمطلق»، ليس له من خاتمةٍ سوى المأساة. لطالما حدّثني محلّلي النفسيّ أنّني أشكّل حالةً «غير نمطيّة» (ولكن ألا ينطبق هذا الوصف على كلّ «حالة؟»)، وهيلين هي الأخرى، وعلاقتنا أيضًا، وأن ليس بالمستطاع إزاء حالةٍ غير نمطيّةٍ أن نقترح سوى حلٍّ «غيرَ نمطيّ»، حلٌّ لا يندرج بالطبع ضمن النشرة الصارمة للمعايير التقليديّة، بيد أنّه لا يمكن استبعاده منها كلّيًا شريطة أن نتقن التصرّف تبعًا «للحالة» من الناحية الاستراتيجيّة والتكتيكيّة.

لطالما شعرتُ –بعدما وقعت الواقعة– أنّني مارستُ ضغطًا كبيرًا على محلّلي النفسي في علاقةٍ تواصلت حلقاتها من الوعيد إلى الاستسلام والانتحار، فما إن علق المحلّلُ ذات مرّة سابقةٍ من عام 1965 حتى أصبح كالمجبر على المتابعة في انتظار أن يخفّ توتّر العلاقة بيننا على نحوٍ مُرضٍ يحقّق خلاصه وخلاصي: لكنّ هذا الأمر كان متوقّفًا على تطور علاجي، أي أنّه كان متوقّفًا بالنتيجة عليّ أنا نفسي. حسنٌ، هذا ما جرى. وقد تحقّق صدق استراتيجيّة المحلّل في سياق التجربة إذًا.

لقد شعرتُ في عدّة مرّات –وأنا في حالة من الهوس التي تعقب الاكتئاب– أنّ محلّلي قد نجح. حتّى إنّني صُغت تعبيرًا مجازيًّا حول خاتمة التحليل النفسي. فالتحليل يشبه شاحنةً ثقيلةً مليئةً بالرمل الناعم. وفي سبيل إفراغها، فإنّ الرّافعة ترتفع ببطءٍ، لتبدأ الحاوية في الانحناء. في البداية لا يسقط شيءٌ، ثم تتساقط بضع حبيباتٌ منفردةٌ من الرمل شيئًا فشيئًا. وفجأةً تنزل الحمولة كلّها دفعةً واحدةً على

الأرض. إنّه تعبيرٌ مجازيٌّ شديد الجمال. ومناسبٌ تمامًا لرغبتي. لقد كان عليّ أن أتعلّم -من حسابي- أنّ الأمر لا يجري على هذا النحو...وقد أعلنتُ حينها إلى محلّلي بكامل الثقة والإقرار قائلًا: «لقد ربحتَ هذه المرّة!» سوف أتذكّر في كلّ مرّةٍ صمته -وهو على النقيض تمامًا من الموافقة الصامتة- صمتٌ مليءٌ بالقلق العميق الذي لم يستطع إخفاءه على الرّغم من تحكّمه بمشاعر «التحويل المضاد[91]». حتّى إنّني أتذكّر حركةً مزعجةً كانت قد صدرتْ عنه في نهاية إحدى جلسات «التحرير النفسيّ». كنتُ آنذاك في قمّة شعوري بالانتشاء، حينما لحظته في اللحظة الأخيرة -من خلال الباب المفتوح مواربةً- وهو يشير لي بإشارةٍ كان يرسمها بيديه من أعلى إلى أسفل كأنّه يقول لي: رويدًا رويدًا، مكرّرًا هذه الإشارة عدّة مرّاتٍ. لقد أزعجتني هذه الحركة، لذلك اضطررتُ أن أبيّن له موقفي حيالها بقسوةٍ: «إمّا أنّك تظنّ أنّني في طورٍ من الهوس الخفيف بسبب دوافع لا شعوريّة لا يمكن التحكّم بها، وبالتالي كيف تريد حينها أن أسيطر على نفسي، وبأيّ حقٍّ تشجّعني على الحيطة حيال ما لا أستطيع ملاحظته؟ وإمّا أنّك ترى أنّني في حالةٍ من ضبط النفس، لذلك ما هو الدّاعي إلى هذه الحركة -وأنا متمكّنٌ من نفسي تمامًا- التي لا تضيف شيئًا إلى شيءٍ؟ ثمّ وفي نهاية الأمر: بأيّ حقٍّ -وخلافًا لكلّ قواعد التحليل النفسي- في «حالةٍ» مثل غيرها من الحالات تدّعي التدخّل في سلوكي؟ بصراحةٍ، لقد كنتُ محقًّا في ذلك بالطبع. لكنّني لم أسأله أبدًا عن رأيه حول هذه المسألة التي آلمتني كثيرًا. ولعلّي كنتُ مخطئًا في ذلك...»

لقد عاتبتُ محلّلي النفسيّ -خلال مرحلةٍ طويلةٍ من الشرح العنيف التي امتدّت بضعة أشهرٍ من عامي 1976 و1977- عتابًا صريحًا ومكثّفًا على امتلاكه دائمًا «أفكارًا بشأني»، وعلى أنّه لم يقم بمعالجتي كرجلٍ عاديٍّ بسيطٍ، بل بالأحرى كرجلٍ معروفٍ مثلما كنتُ، وذلك في كثيرٍ من الجوانب. لقد عاتبته على اعترافه لي بأنّ كتبي

---

(91) التحويل المضاد: هو إجراء عمليّة إعادة تحويل لمشاعر المعالج النفسيّ إلى المريض، أي حدوث تداخل بين مشاعر المريض والمعالج. (المترجم)

«هي الكتب الوحيدة التي يفهمها في الفلسفة»، وبأنّه يكنّ لي مشاعر الصداقة، بل الحظوة والامتياز، وهذه مشاعرٌ مريبةٌ من ناحية التحليل النفسيّ. لقد عاتبته باختصارٍ على أنّه لم يعرف، ولم يستطع أن يتحكّم بمشاعره الخاصّة بالتحويل المضاد حيالي، حتّى إنّني أطلعته على ورقةٍ ذات رؤى نظريّة تتعلّق بالتحويل المضاد كنتُ قد ألفتها (بناءً على رغبته)، وفيها أعمل على فكرة أنّ مشاعر التحويل لم تكن هي المشاعر السائدة منذ البداية بل مشاعر التحويل المضاد (وقد دعّمتُ هذه الفكرة بالحجج الكافية). لكنّه أجابني ببرودة أعصابٍ لدى قراءته لهذا النص قائلًا: إنّها أشياءٌ معروفةٌ منذ وقتٍ طويلٍ. فشعرتُ بامتعاضٍ رهيبٍ منه بسببٍ ذلك، وحمّلتُ نفسي حقدًا إضافيًّا عليه. لم أتنبّه إلى أنّني قد أكون أنا الأساس في هذا التواطؤ الجرمي الذي أشعر بوجوده بيننا، وأنّ من المحتمل أنّني أنا الذي استثرته، وبحثتُ عنه وبلغته في مقابل محاولةٍ عظيمةٍ في الغواية، كما أنّني لم أدرك حينها أنّني ما فتئتُ أوقع الرجال والنساء -بما أقدم عليه من استفزازٍ متواصلٍ- في غوايتي حتى أجعلهم تحت رحمتي. فهل استسلم المحلّل النفسيّ حقيقةً، أم أنّني الوحيد الذي كان يشعر بذلك؟ لا أستطيع أن أقول ذلك، ولكنّني أستسلم الآن هنا، واضعًا بين أيديكم سائر ذكرياتي عن الصدمات الفارقة في حياتي، وسائر أسلحتي، وأعرض -إذًا- عيوبي عاريةً.

إنّها الغواية، لكنّه الاستفزاز أيضًا. وبطبيعة الحال فإنّهما صنوان توأمان. لقد كنتُ -مع النساء اللواتي كنتُ ألتقيهنّ في مثل هذه الأحوال- ذا غوايةٍ لا تقاوم، غوايةٍ قاهرةٍ في أقصر الأوقات: إذ قد يستغرق ذلك الهجوم السعيد عشر دقائق، أو نصف ساعة حتى يُنجز الأمر تمامًا. كنتُ أنا الذي أمسك بزمام المبادرة في كلّ مرّة تتملّكني الرّغبة فيها، مثلما حصل حينما جعلتُ يدي في يد هيلين، ومن ثمّ كنتُ أصل حيث أجد نفسيّ -في المحصّلة- محاصرًا على نحو مخيفٍ، حيث الخشية من أن أكون قد وقعتُ أنا نفسي في الفخ، أو تركتُ نفسي تقع فيه، لتجتاحني مشاعر القلق.

بطبيعة الحال فإنّني كنتُ أعوّض عن الجسارة الطائشة المتوجّبة في هذا النوع من

الهجوم، والقلق الذي كان ينتابني لاحقًا، من خلال العمل على «إضافة المزيد»، أي من خلال قيامي بالمغالاة والمزايدة في مشاعري، ومن خلال إقناع نفسي بأنّني كنتُ أحبّ حقًّا وحتى درجة الجنون، فكنتُ -في ضوء ذلك- أتّخذ عن المرأة التي ألتقيها صورةً تتناسبُ مع هذه العاطفة المبالغ فيها. لطالما رغبتُ -إلى الآن، وحتى مرحلةٍ قريبة العهد سوف آتي على ذكرها- في أن أعيش علاقاتي الواقعيّة مع النساء في ذروة العاطفة العاشقة والمتقّدة بصورةٍ لا حدود لها. إنّها طريقةٌ غريبةٌ حقًّا لكنّها مناسبة لي إذ تجعلني أشعر بأنّني أمتلك «السيطرة» على الموقف، بمعنى آخر؛ إنّها تجعلني أمتلك اليد الطولى -وليس مجرّد سيطرةٍ ما- على موقفٍ لم أكن أسيطر عليه، موقفٍ لم أكن -وأنا الرجلُ «المصنوعُ» على النحو الذي رأيتموه- أستطيع السيطرة عليه في صورته الحقيقيّة فعلًا. لقد كان من الضروريّ أن أقبل النساء التي وقع عليهنّ اختياري على النحو الذي كنّ عليه، وكان من الضروريّ -على وجه الخصوص- أن أقبل نفسي على النحو الذي كنتُ عليه، من دون أيّة «مغالاةٍ»- هذه الكلمة التي التقطتها من امرأةٍ سوف تصبح الأثيرة إلى قلبي بلا حدود: إنّها المرأة الأولى التي عرفت كيف تراني بوضوحٍ من خلال عيوبي، والتي عرفت كيف تخاطبني مباشرة، من دون أن تظلّل كلماتها بظلالٍ من التردّد: «ما لا أحبّه فيك، أنّك حريصٌ على تدمير نفسك».

المبالغة، والمغالاة: لا شكّ أنّ فيهما شيءٌ من الاستفزاز: فنحن لا نعبّر لامرأةٍ عن مشاعرنا بتعابير الحبّ المجنون الذي لا يُقاس من دون أن تتسلّل إليها أيضًا -وبصورةٍ لا شعوريّةٍ- الرّغبة في أن تكون المرأة على شاكلة هذا الحبّ، وأن تتأقلم معها في كينونتها، وحركاتها، وأفعالها الجنسيّة ومشاعرها. لكنّني وعلى الرغم من توزّعي على هذا النحو آملًا من النساء اللواتي وقع عليهنّ اختياري أن يقدّمن أخصّ الاعترافات وغاية الحنان إلّا أنّني كنت شديد الخوف في الوقت نفسه من عقلانيتهنّ المتوقّعة، خائفًا من أن يجعلنني تحت رحمتهنّ لأنّ المبادرة حينئذٍ تكون قد غيّرت معسكرها، وسوف يمتقع وجهي شاحبًا من القلق -على نحوٍ مسبقٍ- نتيجة

شعوري بالخطر المرعب من الغرق بين أيديهنّ.

أمّا مع هيلين، فقد كانت الأقدار هي نفسها، ولكن بطريقةٍ مختلفةٍ تمامًا. إذ لم أكن أخشى بتاتًا أن تضع هيلين يدها عليّ، أو أن يكون لديها «أفكارٌ بشأني» فقد كان بيننا قاسمٌ مشتركٌ ورابطةٌ أخويّةٌ على نحوٍ يجعلني في مأمنٍ من هذا الخطر. لكنّ استفزازاتي -التي أحسب أنّني أسمعتها لهيلين- كان لها معنى مختلفٌ. فأنا ما برحتُ أعرّف هيلين -وبأقصى سرعةٍ ممكنةٍ- إلى صديقاتي الجديدات في سبيل الحصول منها على الموافقة، هذه الموافقة التي كنت أترقبّها -في مجمل القول- من أمٍّ صالحةٍ لم تقيّض لي الأقدار معرفتها أبدًا. مع ذلك، فإنّ هيلين لم تشعر أبدًا أنّها تتقمّص شخصيّة الأمّ الطيّبة، بل لقد كانت تشعر -على العكس تمامًا- أنّها امرأةٌ شرّيرةٌ، وامرأةٌ مُرعبةٌ. لقد تصرّفت هيلين على النحو الذي يمكن تصوّره: في البداية كانت صبورةً، لكنّها وشيئًا فشيئًا ومن ثمّ بصورةٍ مفاجئةٍ في النهاية (أو كما لو أنّها كانت تبدو صبورةً ومتسامحةً في البداية، فأنا لم أعد أفهم) أصبحت متأمّلةً، ومن ثمّ ناقدةً، وحازمةً وغليظة القول. لم تكن هيلين غيورةً (فلقد كانت تريدني «حرًّا»، وأحسب أنّها كانت في ذلك صادقةً جدًّا، وكانت تحترم سائر رغباتي ومتطلّباتي، بل وهواجسي أيضًا) بقدر ما كان يتملّكها، أو يعود إلى تملّكها على نحوٍ واضحٍ (ما إن تمّحي لحظة التسامح الأولى) ذلك الاستيهام المريع من أن تكون امرأةً شرّيرةً، ذلك الاستيهام الذي كانت تُذعن له خلال لحظات استفزازي غير المعقول لها؛ فكانت تتصرّف حينها على شاكلة السلوك الذي كانت ترتعبُ داخليًّا من سلوكه. مثالٌ آخر على الازدواجيّة. لكنّها كانت تلوم نفسها بصورةٍ فظيعةٍ بعد فوات الأوان، وكانت تكرّر على مسامعي أنّني أستطيع أن أفعل كلّ ما أشتهيه، ولكن بشرطٍ واحدٍ وبسيط: ألّا أكلّمها عن علاقاتي النسائيّة. ولكن ومع هذه النصيحة الحكيمة بكلّ وضوحٍ -إذ أنّها بذلك كانت تمنحني سلام المبرّر الذي لا جدال فيه- فإنّني لم أعرف، ولم أرغب في اتّباع هذه النصيحة أبدًا. وكنتُ في كلّ مرّةٍ أجد نفسي فيها مجبرًا على المضيّ في استفزازها حتى بلوغ حدود الوقاحة في

ذلك. كان لدينا في غورد (Gordes) منزلٌ جميلٌ جدًّا، مزرعةٌ قديمةٌ كنّا قد اشتريناها بثمنٍ بخسٍ وكانت مرمّمةً على نحوٍ رائعٍ: أبّهةٌ فريدةٌ في طول البلاد وعرضها. لقد تدبّرتُ أموري من أجل أن تحضر صديقاتي الأواخر إليه، ولكن دائمًا تحت رعاية هيلين. وقد جرت الأمور على نحوٍ جيّدٍ جدًّا مرّةً واحدةً فقط: بالتحديد مع تلك الصديقة الوحيدة التي فهمت شخصيّتي جيّدًا.

كانت تصرّفاتي الاستفزازيّة القهريّة هذه تتضاعف في حالات الهوس الخفيف التي كنتُ أمرّ بها. كما أنّها كانت تبدو لي حينها يسيرةً تمامًا وقد كانت كذلك بالفعل، إذ كنتُ أبتكر بسهولةٍ مبتذلةٍ -علاوةً على أشكال التعارف المنحرفة تلك- كثيرًا من أشكال الاستفزاز الأخرى. كانت هيلين تعاني بشكلٍ مخيفٍ لأنّها كان تعلم بحكم التجربة أنّ هذه الحالات من الهوس الخفيف لا تبشّر بالخير أبدًا، بل على العكس تمامًا، إنّها كانت تنذر بسقوطي في الاكتئاب مجدّدًا، بما يصاحبه من ألم بالنسبة لي كما بالنسبة إليها، ولكن بالنسبة إليها أكثر بحسبان أنّها كانت تشعر أنّها مستهدفةٌ بصورةٍ مباشرةٍ (لم تكن مخطئةً، أدرك ذلك الآن) بتصرّفاتي غير المحتملة، إذ كنتُ أمتلك مخيّلةً شيطانيّةً آنذاك. ففي إحدى المرّات، خلال شهر طويل قضيناه في بريتاني (Bretagne)[92]، شرعتُ في ممارسة رياضةٍ خاصّة بصورةٍ منتظمةٍ: إنّها رياضة السرقة من المحلّات التجاريّة التي كنتُ أمارسها بصورةٍ طبيعيّةٍ ومن دون صعوبةٍ تُذكر، وفي كلّ مرّةٍ منها، كنتُ أُظهر لهيلين حصيلتي المتنوّعة والكبيرة من سرقاتي الصغيرة، كما كنتُ أشرح لها طرائقي الحصينة في السرقة. وقد كانت كذلك بالفعل. في الوقت نفسه كنتُ أسعى وراء الفتيات على شواطئ البحر بين الفينة والأخرى، وإذ كانت المراوغة تنطلي عليهنّ بسرعةٍ، فقد كنت أصحبهنّ إلى هيلين ملتمسًا إعجابها وموافقتها. في تلك الفترة بدأت أخطّط للسطو على أحد البنوك من دون أيّة مخاطرةٍ، وكذلك سرقة غوّاصةٍ نوويّةٍ (ودائمًا من دون أيّة مخاطرةٍ).

---

(92) بريتاني (Bretagne): إحدى مناطق فرنسا، وهي على شكل شبه جزيرة، تقع في الشمال الغربي، عاصمتها مدينة رين. (المترجم)

لذلك كان من المفهوم أن تشعر هيلين بالرّعب لأنّها كانت تعرف المدى البعيد الذي يمكن أن أمضي إليه في مسار التنفيذ، ولكن من دون أن تعرف حدود ذلك أبدًا. لذلك كنت أجعل هيلين تعيش في حالةٍ من انعدام الأمان والرّعب على أوسع نطاقٍ، فحاولوا أن تتخيّلوا الموقف!

وقد حدث أن عرّضتُ هيلين في حادثتين اثنتين إلى تجارب أشدّ هولًا بكثيرٍ، وقد كانت الأولى منهما على درجةٍ من الجديّة، بيد أنّ هيلين لم تستطع أن تجاريني فيها بالطبع.

كنّا مدعوّين ذات مساء لدى بعض الأصدقاء من أجل تناول طعام العشاء، وكان هنالك زوجٌ من الأشخاص لا نعرفهما حتى هذه اللحظة. لا أعرف ماذا اعتراني (أو بالأحرى إنّني أعرف جيّدًا)، لكنّني بدأتُ -خلال تناول الطعام، وبمؤازرةٍ كبيرةٍ من التصريحات والدعوات الاستفزازيّة- الانقضاض على الصبيّة الجميلة التي لا نعرفها، وقد انتهى الأمر إلى اقتراحٍ قاطعٍ بأنّنا نستطيع، بل ويتوجّب علينا، أن نمارس الحبّ حالًا على الطاولة وأمام الجميع. لقد كان مؤدّى هذا الهجوم أنّ النتيجة واقعةٌ كأنّها تحصيلٌ حاصلٌ. لكن، ولله الحمد، فقد أحسنت المرأة الدفاع عن نفسها بصورةٍ جيّدةٍ: لقد عرفتْ كيف تجد الكلمات المناسبة كي تتهرّب من هذا الاقتراح.

وقد حدث في مرّةٍ أخرى أن كنّا في سانت تروبيز (Saint-Tropez)، مقيمين في منزل بعض الأصدقاء الغائبين. كنتُ قد دعوتُ أحد الأصدقاء السياسيين كي يزورنا هناك. وقد حضر إلينا برفقة صبيّة شديدة الجمال، فوقعتْ في نفسي. أعطيتها ورقةً مكتوبةً بخطّ يدي كي تقرأها. لتعود القصّة نفسها من جديد. لكنّنا في هذه المرّة كنّا أمام هيلين والرجل فقط على طاولة الطعام. بالطبع لم يحصل شيءٌ على الطاولة، لكنّني انتحيتُ بالفتاة جانبًا وشرعتُ بكلّ وضوحٍ أداعب نهديها، وبطنها وآلتها. استسلمت الفتاة، وقد بدت مرتبكةً بعض الشيء، لكنّها كانت مهيّأةً بفعل

أحاديثي. ثمّ اقترحتُ أن نذهب إلى شاطئ البحر، شاطئ صغير مقفرٌ في العادة، لكنّه كان في تلك المرّة مقفرًا تمامًا إذ كانت الريح الشمأل عاصفةً، وكان البحر هائجًا. في غضون ذلك، كان صديقي قد بقي في المنزل وقد اندسّ في مخطوطتي. على شاطئ البحر وهيلين تراقب كلّ شيء -إذ لم تكن تعرف السباحة- دعوتُ المرأة الشابّة إلى خلع ملابسها، وأن ندخل نحن الاثنين عراةً تمامًا في خضمّ العباب المتلاطم. صرخت هيلين من الخوف حقيقةً، فقد كنّا قد ابتعدنا قليلًا عن الشاطئ، وهناك قمنا بممارسة الحبّ بشكلٍ كاملٍ تقريبًا في عرض البحر. نظرتُ إلى هيلين فرأيتها -وقد تملّكها الرّعب تمامًا- تركضُ مذعورةً إلى البعيد على شاطئ البحر وهي تصرخ. لقد تقدّمنا مزيدًا داخل البحر، وحينما حانت لحظة الرجوع أدركنا أنّنا عالقان وسط تيارٍ قويٍّ كان يسحبنا إلى عرض البحر. هكذا كان علينا أن نبذل جهودًا مجنونةً -قرابة الساعة أو الساعتين- قبل أن نعود أخيرًا إلى الشاطئ. لقد كانت الصبيّة هي من أنقذتني، فقد كانت تتفوّق عليّ في السباحة، وقد ساعدتني حينما كنتُ عالقًا في جهودي الضائعة. وإذ بلغنا شاطئ البحر كانت هيلين قد اختفت. لم يكن هنالك من منزلٍ يلوح في الأفق على مدى عدّة كيلومترات بين التلال الوعرة، كما لم يكن هنالك من قارب نجاةٍ يلوح في الأفق قبل ميناء سانت تروبيز البعيد. هل كانت هيلين قد انطلقت -وقد تملّكها اليأس- بحثًا عن المساعدة؟ هكذا -وبعد جولاتٍ مستمرّة من البحث- عثرتُ عليها، عند حافّة البحر ولكن بعيدًا عن الشاطئ، لم يكن بالإمكان التعرّف عليها إذ كانت قد انكمشت بالكامل على نفسها، وهي ترتجف في نوبةٍ هستيريّةٍ تقريبًا، وبوجه امرأةٍ عجوزٍ قد غضّنته الدموع. حاولتُ أن أعانقها كي تطمئنّ، وأن أقول لها أنّ الكابوس قد انتهى، وأنّني الآن هنا. ولكن عبثًا: لم تكن تسمعني أو تراني. في النهاية -لا أعرف الوقت الذي انقضى- أخذتْ تتكلّم ولكن كي تطردني عنها بقسوة: «أنت رجلٌ خسيسٌ! أنت ميتٌ في نظري! لم أعد أرغب في رؤيتك! ولم أعد أقبل أن أعيش معك! أنت جبانٌ وقذرٌ، قذرٌ، اغربْ عن وجهي!» من بعيد طلبتُ من

الصبيّة أن تغادر، ومنذ ذلك الوقت لم أرها مجدّدًا أبدًا. لقد تطلّب الأمر انقضاء ساعتين كاملتين كي تقبل هيلين –ولمّا تزل تبكي وتختلج– أن تعود إلى المنزل برفقتي. لم نعد إلى الحديث عن هذه الحادثة الرّهيبة أبدًا، لكنّ هيلين لن تغفر لي أبدًا في قرارة نفسها بكلّ تأكيدٍ. حقًّا، لا يمكن أن تعامل آدميًّا على هذا النحو. لقد أدركتُ جيّدًا أنّ رعب هيلين لم يكن خوفًا من أن أموت داخل التيّار البحريّ، لكنّه كان خوفًا آخر أشدّ هولًا: إنّه الخوف من أن تُقتل في الحال بسبب ما ارتكبتُه بحقّها من استفزازٍ رهيبٍ ومعتوه.

حقيقة الأمر هي أنّني شعرتُ –وللمرّة الأولى– أنّ موت هيلين وموتي هما الأمر نفسه: إنّه موتٌ واحدٌ بعينه. مختلفان في المصدر، ولكنّهما النتيجة نفسها.

وجه هيلين! لا أستطيع أن أقول كم مرّة عاودتني صورته منذ اللحظة الأولى، ولا كم مرّة سوف تطاردني أيضًا. يا لجمالها الغريب! مع ذلك، لم تكن هيلين جميلة، لكنّها كانت تملك في قسماتها ذلك البريق، ذلك العمق النابض بالحياة، وتلك القدرة الكبيرة على الانتقال –بين لحظةٍ وأخرى– من حالة الانفتاح المطلق إلى حالة الانغلاق الجداريّ، وقد كان ذلك يبهرني ويربكني في الوقت نفسه. لقد أخبرني صديقٌ لهيلين كان يعرفها حقّ المعرفة أنّه يفهم هيلين من خلال شعر تراكل (Trakl)[93] الذي يقول فيه إنّ: «الألم يحجّر العتبة»، وأنّ من الواجب أن نقول فيما يخصّ هيلين: «الألم يحجّر وجهها». لقد كان هذا الوجه يصدمه بقسماته، وندوبه التي نحتها ألم الحياة المديد فوق خدّيها المقعّرين، والندوب التي نحتها تاريخٌ طويلٌ ورهيبٌ من «التفكير السّالب»، ومن الصراع الشخصيّ والطبقيّ في سياق المقاومة والسيرة العمّالية. لقد مات أصدقاؤها جميعًا، هيناف الذي أحبّته، تيمبو، ميشيل، الأب لارو الذي أحبّته حبًّا عذريًّا، هؤلاء جميعًا أعدمهم النازيّون رميًا بالرّصاص، وتركوا فوق وجهها ندوب اليأس والموت هذه. إنّه التحجير نفسه العائد إلى

(93) جورج تراكل (Georg Trakl) 1887-1914: شاعر نمساويّ يكتب بالألمانيّة. يعتبر من المتأثّرين بالمذهب الرّمزيّ الفرنسيّ. (المترجم)

ماضيها الفظيع: لقد كانت ما كانت عليه سابقًا. «فالجوهر هو ما كان سابقًا» (هيجل). وإذ كان هذا الصديق يستشهد بتراكل وهيجل، كنتُ كما لو أنّني أرى هيلين من جديد. هذا الوجه المسكين الصغير، المحكم الإغلاق على ألمه، والمنطلق فجأةً على الفرح، في تلك الخصيصة التي امتلكتها والتي كان أصدقاؤها يدعونها: «عبقريّة الشعور بالإعجاب» (إنّها كلمة صديقتها إميلي التي أعدمتها المفوّضة الشعبيّة للشؤون الداخلية في سيبيريا[94])، ذلك الحماس الذي لا يُضاهى في سبيل الآخرين، سخاؤها الذي لا حدود له حيالهم، خصوصًا الأطفال الذين كانت تعبدهم. حقًّا، «عبقريّة الشعور بالإعجاب»، إنّها عبارة بلزاك التي قول فيها: «عبقريّة الشعور بالإعجاب، بالاستيعاب، تلك المَلَكَةُ التي يتحوّل فيها رجلٌ عاديٌّ ليصبح الأخ الشقيق لشاعرٍ عظيم». هكذا كانت، قادرةً على أن تجد نفسها من خلال الإصغاء، من خلال الاستيعاب النابع من القلب، ومن خلال عبقريّة الشعور بالإعجاب على أوسع المستويات. ولكنّ الله وحده يعرف إذا كانت هي تعرف ذلك، وتعرف أنّ الآخرين يحبّونها.

لكنّ هذا الوجه المنفتح على أشدّه كان بإمكانه أيضًا أن ينغلق على نفسه في تحجّرٍ جداريٍّ لألمٍ شديدٍ يعاود الصعود مجدّدًا من أعماقها. آنذاك لا تكون سوى حجرةٍ بيضاء وصامتة، بلا عيونٍ ولا نظرات، وحيث وجهها ينغلق على نفسه كأنّه يتسلّل بلا أثرٍ. فكم من مرّة! وكم من مرّةٍ حكم عليها أولئك الذين لا يعرفونها كفايةً بناءً على بعض المظاهر السطحيّة بوصفها المرأة الرهيبة التي كانت تخشى أن تكون! ثم كان يحدث بعد فترةٍ من الوقت، أحيانًا بعد دقائق، وبعد عدّة ساعات غالبًا، وفي بعض الأحيان بعد يومٍ أو يومين (لقد كان هذا أمرًا فظيعًا ولكنّه كان نادر الوقوع) أن يشرق وجهها مجدّدًا على فرح الآخرين. تجربةٌ مريعةٌ بالنسبة إليها في المقام الأوّل،

(94) المفوّضة الشعبيّة للشؤون الداخلية في سيبيريا: مؤسّسة سوفييتيّة جمعت بين أنشطة الشرطة والشرطة السرّيّة وتعرف في العالم اختصارًا باسم: إن ك في دي (NKVD)، وعملت على التنفيذ المباشر للإرادة السياسيّة بما في ذلك القمع السياسيّ في عهد جوزيف ستالين. (المترجم)

وبالنسبة إلى أصدقائها المقرّبين أيضًا، ولكن وقبل الجميع بالنسبة إليّ أنا، أنا الذي كنت أجد نفسي حينها مهجورًا من قبلها. سوف أشعر لوقتٍ طويلٍ أنّني أنا المذنب المسؤول عن هذا التغيّر الفظّ في وجهها وفي صوتها، ولعلّي كنتُ مثل أمّي التي خانت لويس -حبّ حياتها- حينما تزوّجت من شارل.

ولأنّ صوتها كان مثل وجهها فقد كان صوتًا دافئًا بصورةٍ لا تُضاهى، ومزوحًا، وخفيضًا على الدّوام، ودمثًا كصوت الرجل وصمته أيضًا (لقد كانت تحسن الإصغاء أكثر من أيّ شخصٍ آخر، وقد تنبّه لاكان إلى ذلك جيّدًا...)، طليقًا كما لو أنّه كذلك أبدًا، ثمّ كان يصبح فجأةً قاسيًا ومنغلقًا، مهموسًا وصامتًا في النهاية كما لو أنّه يصمت إلى الأبد. فبعيدًا عن رعبها -الذي أعرفه- من أن تكون امرأةً شرّيرةً رهيبةً، من كان يستطيع أن يجعل رعبها يتصاعد مجدّدًا بصورة جسمانيّة ليظهر على صفيحة وجهها؟ لم أستطع قطُّ أن أدرك على وجه الدقّة السبب العميق الكامن وراء هذه التناوبيّة المأساويّة، المرعبة، ولكن المذهلة أيضًا: لعلّه مجدّدًا ذلك القلق المتطرّف من عدم الوجود، من كونها ميّتةً بالفعل، ومن كونها قد ختمت تحت شاهدة القبر، قبر عدم الفهم والاستيعاب.

لقد كانت في لحظات «انطلاقها» لطيفةً للغاية، متملّكةً موهبةَ الرّاوية الاستثنائيّ، كما كان صوتها في أثناء الضحك ذا رقّةٍ لا تقاوم. لقد كانت مشهورةً بين أصدقائها بموهبتها الخرافيّة في كتابة الرّسائل: لم أقرأ قطُّ رسائل كهذه، رسائل مفعمة بالحياة والدهشة غير المرتقبة كتدفّق الماء الخيالي لنهرٍ فتيٍّ فوق حجارته. كما كانت شجاعةً إلى أبعد الحدود في أسلوب كتابتها، وقد وجدتُ -حينما قرأت جويس (Joyce) [95] لاحقًا، وقد كانت تحبّه كثيرًا- أنّها أكثر إبداعًا، وبما لا يقاس، من جويس في اللغة! وإن لم تصدّقوا كلامي فهذا أمرٌ طبيعيّ! ولكن أولئك الذين لم تنقطع هيلين عن الكتابة إليهم [يعرفون بالأمر]، وصديقتها فيرا (Véra)، وهي

---

(95) جيمس جويس (James Joyce) 1882-1941: كاتب وشاعر إيرلنديّ. (المترجم)

في كامبريدج في الوقت الرّاهن، تعلم أنّها أخبرتني مؤخّرًا بذلك عن طريق الهاتف.

ولكنّ لعلّ أكثر ما كان يحزّ في نفسي هو يديها، لأنّهما لم تتغيّرا قطّ. لقد كانتا متحجّرتين بفعل العمل، ومزنجرتين بفعل الكدّ والعناء، أمّا في أوقات المداعبة فقد كانتا يدين رقيقتين رقّةً لا توصف، يدين ممزّقتين ومجرّدتين. يدا امرأةٍ عجوزٍ جدًّا، فقيرةٍ بلا رجاءٍ أو أملٍ، لكنّها مع ذلك كانت قادرةً على أن تعطي كلّ شيءٍ لديها. لقد كانتا يدان تكسران القلب: بالكمّ الهائل من الآلام التي ترتسم فيهما. لطالما بكيتُ على يديها، وبينهما. إنّها لم تعرف السبب قطُّ، كما أنّني لم أخبرها به قطُّ، إذ كنتُ أخشى أن أؤلمها بسبب ذلك.

هيلين، هيليني...

الفصل الثالث عشر

أعلم أنكّم تنتظرون مني الآن أن أتكلّم عن الفلسفة، والسياسة، وعن موقعي داخل الحزب وعن كتبي، وعن جمهورها، وأصدقائها، وعن خصومها الذين لا يمكن الالتفات عنهم. لن أدخل هذا المجال بصورةٍ منتظمةٍ -وهو مجالٌ موضوعيٌ بالتمام والكمال- طالما أنّه موجود في خواتيمه التي يستطيع كلّ واحدٍ منكم أن يطّلع عليها -إن لم يكن على معرفةٍ بها بالفعل- لكنّه وإن قرأ عني من خلالها (فهي بيبلوغرافيا ضخمةٌ موجودةٌ في سائر البلدان) فإنّني أطمئنكم أنّ هذا المجال لن يسهب في الحديث إلى مالا نهايةٍ إلّا بخصوص بعض الموضوعات النادرة التي يمكن عدّها على ثلاثة أصابع في اليد الواحدة.

في المقابل فإنّ التزامي حيال القارئ، بحسبانه واجبًا يقع على عاتقي، فهو توضيح الجذور الذاتيّة لعلاقتي الخاصّة بمهنتي كأستاذٍ للفلسفة في المدرسة العليا للأساتذة، وبالفلسفة، وبالسياسة، وبالحزب، وبكتبي وصداها، بمعنى أن أبيّن الطريقة التي انتهيت فيها (فالقضيّة هنا لا تتعلّق بتأمّل نظريّ واضحٍ، بل بواقع غامض ولاشعوريٍّ في جزءٍ كبيرٍ منه) إلى استثمار تخيّلاتي الذاتيّة وإدراجها في نشاطاتي الموضوعية والعموميّة.

بطبيعة الحال -وبعيدًا عن كلّ فكاهةٍ، أو «سجلّ بالجرد»، أو أدبٍ رخيصٍ هو اليوم أمرٌ ضروريٌّ في كلّ سيرةٍ ذاتيّةٍ (هذا الانحطاط الذي لا سابق له في الأدب)- فإنّني سوف أمضي نحو الأمر الجوهريّ فحسب.

أوّل واقعةٍ، أوّل إشارةٍ هي أنّني لم أغادر المدرسة العليا قطُّ. بالطبع لقد دخلتها

متأخّرًا ستّ سنواتٍ، بيد أنّني لم أغادرها حتى تاريخ 16 تشرين الأوّل/ نوفمبر من عام 1980. منذ ذلك الحين، لم أعد إليها ولو عرضًا.

لقد نجحتُ [في امتحانات المدرسة العليا] بناءً على رسالتي حول المعنى لدى هيغل تحت إشراف باشلار (Bachelard)[96]: وقد كتبتُ في المقدمة «معنىً واحدٌ في اليد خيرٌ من عشرة على الشجرة»، اقتباس سيّء لأحدٍ ما، وكتبتُ أيضًا «المفهوم أمرٌ ضروريٌّ لأنّه يعني الحريّة»، من وحي رينيه كلير (René Clair)[97] الذي لم يتكلّم عن المفهوم بل عن «العمل»، ما يعني -إن كان يُقصد به «العمل السالب» عند هيجل- الأمر نفسه تمامًا. لقد كتبتُ هذا العمل بعنايةٍ كبرى (إنّه أسلوب الكتابة الذي ورثته عن طلّاب السنة الثانية من أبناء ليون، وخصوصًا أنّه أسلوب كتابة «أسلافي»، جورج باران (Georges Parain)، وإكزافييه دو كريستن (Xavier de Christen)، وسيرج شامبريون (Serge Chambrillon)، وهؤلاء جميعًا مناصرون للنظام الملكي -أي لدوق باريس[98] وليس لمورا (Maurras)-[99] ولقد كنتُ أشاطر هذا الرجل الكريه وهؤلاء الكتاب المرهفون، المعجبين بجيرودو (Giraudoux)[100]، آنذاك الذائقة نفسها). لقد كتبتُ هذا النصّ في لاروشميلي، هناك حيث كانت جدّتي لأمّي قد استضافتني بعد أن عانيتُ من مرحلة اكتئابٍ طويلةٍ في عام 1947، وقد صحبتُ هيلين معي من دون أن أخبرها بالأمر، فكانت هذه تمضي وقتها في «المنزل القديم» تطبع نصّي على الآلة الكاتبة أوّلًا بأوّلٍ. لقد استقبلتها جدّتي بحفاوةٍ -مثلما توقّعتُ منها- وقد كانت -بالطبع-

(96) غاستون باشلار (Gaston Bachelard) 1884-1962: من أهمّ الفلاسفة الفرنسيّين، كرّس جزءًا كبيرًا من حياته وعمله لفلسفة العلوم، وقدّم أفكارًا مهمّة في مجال الأبستمولوجيا. (المترجم)

(97) رينيه كلير (René Clair) 1898-1981: مخرج وكاتب فرنسيّ. (المترجم)

(98) هنري أورليان (Henri d'Orléans) دوق باريس 1908-1999: هنري هو ابن إيزابيلا أميرة أورليان، من سلالة فيليب الأوّل المباشرة، وسليل لويس الرّابع عشر، منع من دخول فرنسا معظم حياته، وبعد عودته عمل على استعادة الملكية الفرنسيّة لكنّ محاولاته فشلت في النهاية. (المترجم)

(99) شارل مورا (Charles Maurras) 1868-1952: صحفيٌّ، وكاتبٌ، وشاعر، وسياسيٌّ فرنسيّ. (المترجم)

(100) برنارد جيرودو (Bernard Giraudoux) 1947-2020: كاتب وممثل ومخرج فرنسيّ. (المترجم)

تدرك كلّ شيءٍ عن علاقتنا، لكنّها قبلت بذلك كما لو أنّه أمرٌ طبيعيٌّ على الرّغم من مبادئها [المخالفة] جميعها. فأيّة سماحةٍ في النفس!

أظنّ أنّ باشلار –المشغول جدًّا- لم يقرأ نصّي. لقد تكلّمتُ في النصّ عن «دائريّة المعنى»، وهي واحدةٌ من موضوعاتي الرئيسة، فاكتفى باشلار بالتعليق قائلًا: ألا توافق أن تقول «تداول المعنى» بالأحرى؟ كلّا. أجبته، فصمت ولم يضف شيئًا آخر. في ذلك الوقت، كان أساتذتنا في المدرسة هم: ديزانتي (Desanti)، الكورسيكيّ الصغير الذي كانت عبارته بأنّه «يشقّ طريقه (حقًّا) بروحٍ قتاليةٍ» توضّح الموقف كاملًا، وموريس ميرلوبونتي (Maurice Merleau-Ponty). لقد كنّا نتابع دروس هذا الأخير بعنايةٍ (فقد كان الوحيد الذي نواظب على الاستماع إلى محاضراته دائمًا)، إضافةً إلى دروس ديزانتي الخاصّة، ديزانتي «الماركسيّ»، والهوسرليّ الشديد الحمق)، وكان قد اقترح علينا: أي جاك مارتان (Jacques Martin)، وجان دوبران (Jean Deprun)، وأنا أن ننشر رسائلنا حتى قبل أن تُقرأ، فرفضنا الاقتراح بعجرفةٍ. في عام 1948 كنتُ قد نجحتُ في الحصول على إجازة التدريس، وقد حللتُ في المرتبة الثانية مستعيرًا من سبينوزا الكلمة اللاتينيّة (solum) للتعبير عن كلمة الشمس! فيما حلّ دوبران في المرتبة الأولى. لقد استحقّ تلك المرتبة بجدارةٍ، وقد كانت له انتقامًا عادلًا لرسوبه في السنة الفائتة؛ إذ كان قد عُوقب على تطاوله الفاضح: لقد كان يتكلّم شفهيًّا من دون الاستعانة بملاحظات.

ولعلّي لا أستطيع أن أكتم أنّني كنتُ –كتابةً وشفهيًّا على حدٍّ سواء- أبحثُ في معظم المسائل من دون معرفة الشيء الكثير عنها؟ بيد أنّني كنت أعرف «كيف يُكتب» المقال، وكنتُ أحسن إخفاء جهلي تحت ذريعة البحث «الأوّلي» لأيّ موضوعٍ، لكنّني كنتُ أنسّقه بالطبع وفق شرحٍ جامعيٍّ جيّدٍ، مع كامل الإثارة النظرية الجذّابة، التي كان جان غيتون قد علّمني إياها إلى الأبد كما يبدو.

كنتُ أحظى (من خلال عشقي للنساء المتقدّمات في العمر، وبراعتي في الغواية

أيضًا) برعاية الأمّ بوريه (la mère Poré)، السكرتيرة البسيطة التي كانت تشيع الحياة في المدرسة بأكملها خلال سنوات الحرب القاسية، وبصورة فعليّةٍ خلال فترة إدارة ألبير بوفيليه (Albert Pauphilet) نفسه بعد التحرير، الذي كان يدير المدرسة بطريقةٍ متكبّرةٍ، وشاملةٍ من دون أيّةِ مراجعةٍ. كان الجميع يجد مصلحته معها، بما فيهم ذلك الـ«بوفيليه» الكسول العظيم، المهمل، «وابن المدينة الباريسي». لقد كانت تعلم كلّ شيءٍ، وكانت تعرف الجميع. أحسب أنّني كنتُ أكثرهم استفادةً لأنّها -مع رحيل جورج جوسدورف في تموز/ يوليو من عام 1948- اقترحتْ على المدير أن أخلفه، وقد وافق هذا الأخير -بصورةٍ طبيعيّةٍ- على خيارها.

على هذا النحو ورثتُ سكن جوسدورف الضيّق (غرفةٌ صغيرةٌ ومكتبٌ من طراز لويس الخامس عشر) ومهامّه. تخلّصتُ من مكتب لويس الخامس عشر وأخذت بدلًا عنه -من المكتبة- طاولة عتيقة، وجميلة، مصنوعة من خشب السنديان الرمادي. لم تكن مهامّ «[جوسدورف] ذلك التمساح الأمريكي» واضحةً أبدًا: كان علينا «الاعتناء بدراسة الفلاسفة». لكنّ جوسدورف لم يكن يُعنى بتعليمنا إلّا قليلًا، إذ كان قد ألّف أطروحته خلال فترة الأسر (عن *اكتشاف الذّات* بناءً على «يوميّاتٍ خاصّةٍ» كان يقرأها لنا حرفيًّا على سبيل الدروس! وقد قمنا بتوجيه رسالة له ذات يوم عن طريق مدير المدرسة بخصوص هذا الاكتشاف: السيد جوسدورف، إشارةً إلى اكتشافك فإنّنا لا نجد فيه شيئًا غريبًا...) وكان يعمل على صقل هذه الأطروحة طامحًا إلى مركزٍ في إحدى الكلّيات: وقد عُيّن في ستراسبورغ (Strasbourg). لقد سعيتُ إلى العمل بصورةٍ أفضل منه، ولم يكن ذلك عسيرًا: في البداية محاضرة حول أفلاطون (Platon) -الذي عنيتُ به طيلة سنتين- ومن ثمّ حول كتّابٍ آخرون. لكنّني عُنيتُ على وجه خاصٍّ بتقديم دروسٍ بلاغيّةٍ لا غنى عنها إلى الطلّاب الذي أصبحوا أصدقائي في وقتٍ سريعٍ. كان ميرلوبونتي يقول لنا: إنّ إجازة التدريس، بما تقوم عليه من المعارف المطلوبة في الحدّ

الأدنى، ليست سوى «درس في التواصل». وقد كنتُ مقتنعًا بذلك منذ زمنٍ طويلٍ بفضل غيتون. بيد أنّني أخذتُ الأمر على محمل الجدّ، وشرعتُ في تكريس عادةٍ تحمل شيئًا من البصمة الشخصيّة في تصحيح الأوراق. فقليلًا ما كنتُ أصحّح الأوراق في الهامش، اللّهم إلّا من أجل تصحيح خطأ فاضحٍ، أو من أجل التوضيح من خلال سطرٍ طويلٍ لا يعبّر عن فكرةٍ ما ولكنّه يحبّذ، أو بوضع إشارة زائد (+) في إشارةٍ إلى إشباع رغبة القارئ، لكنّني كنتُ أكتب لاحقًا ملاحظةً طويلةً مطبوعةً على الآلة الكاتبة قد تستغرق صفحةً واحدةً أو صفحتين أو عدّة صفحات، حيثُ كنتُ أشير فيها على الكاتب في الوقت نفسه بالنقاط التي تحقّق الإشباع، ولكن بصورةٍ خاصّةٍ بالطريقة اللازمة التي يستطيع من خلالها أن يبني نصّه، وأن يناقش فيه في سبيل تزويد فكرته الخاصّة (مهما كانت) بكلّ قوّة الإقناع المطلوبة. إنّني لم أقترح قطُّ على أيّ شخصٍ التفكير بطريقة أخرى إلّا في سياق خياره الخاصّ، كما لم أقترح التصرّف على نحوٍ غير معقولٍ أيضًا. لقد اتّخذت في ذلك مبدأ تبعته على الدّوام، وهو مجرّد الاحترام لشخصيّة «تلامذتي». لذلك فإنّني في ظلّ هذه العلاقة لم «ألقن» أحدًا أيّ شيء، خلافًا لتلك الحماقة التي يروّجها بطريقةٍ سيّئةٍ بعض الصحفيين من أنصار «السبق الصحفيّ».

لقد بذلت الكثير من الدفء في السنوات الأولى محتضنًا بصورةٍ أموميّةٍ «مهاري الصغيرة»، ولقد «ألقمتهم الغذاء» حتّى إنّني كنتُ -في الفترة الفاصلة بين الامتحانات الشفهية والكتابية- أنظّم لهم فترة استراحة في دير ريمونت (Royaumont) وكنت أشاركهم المكوث فيه. سوف يتوجّب عليّ لاحقًا أن أكون أكثر تحفّظًا، لكنني سأبقى على الدّوام شديد العناية بمشاكلهم، وبتوجيه أفكارهم بصفةٍ خاصّةٍ.

سرعان ما أصبحت سكرتير المدرسة العليا، فكنتُ أمدّ الجميع بالنصائح الإداريّة، وكنتُ أشير على مدراء المدرسة في كثيرٍ من المسائل، ولقد «حملتهم» على اتّخاذ قرارات هامّةٍ ما تزال مدرجةً على الجدران وفي أركان المنزل، ولقد سار الأمر

على المنوال نفسه بالنسبة إلى كثيرٍ من أساليب هؤلاء المدراء. لقد أدّيتُ دورًا هامًا، وبخاصة في الفترات الفاصلة بين تعاقب المدراء. كان ذلك أمرًا طبيعيًّا، فلقد كنتُ حاضرًا على الدّوام، فيما كان المدراء يقضون نحبهم، أو يتركون وظائفهم (فقد كان هيبوليت (Hyppolite) على سبيل المثال قد انتقل إلى كوليج دو فرانس (Collège de France)).

فإلى ماذا تحوّلت المدرسة؟ لقد أصبحت بسرعةٍ كبيرةٍ -وعليّ أن أقول إنّها كانت كذلك منذ البداية- «شرنقةً» حقيقيّةً، شرنقةً أموميّةً، حيث المكان الذي أجد الدفء فيه، والذي أجد فيه نفسي، في مأمنٍ من الخارج، الذي لم تعد بي حاجة إلى مغادرته من أجل الالتقاء بالآخرين، بحسبان أنّ هؤلاء كانوا يعرّجون عليه أو يقصدونه، وبخاصّة بعد أن أصبحت ذائع الصيت. لقد تحوّلت المدرسة باختصارٍ فأصبحت البديل أيضًا عن الوسط الأمومي، عن السائل الأميني الذي يحيط بالجنين.

وفي أحد الأيّام انقضّت ثلّةٌ من المهندسين المعماريين الذين كانوا قد تلقّوا الضوء الأخضر من الوزارة على غرفة جوسدورف الضئيلة الأبعاد (كان ذلك بعد مضيّ مدّةٍ وجيزةٍ غير معقولة، ولكنّني لن أعلم أبدًا بناءً على طلب مَنْ) وشرع هؤلاء في توسيع الغرفة لتضمّ صالةً واسعةً مخصّصة للقراءة من أجل الطلاب. في ذلك الوقت كنت أشعر براحةٍ كبيرةٍ، فقد أصبح في إمكاني أن أستقبل هيلين فيها، هيلين التي لم تعد تطيق -في غرفتها الجديدة القريبة من حي مونت بارناس- الصبر على نباح اثنين من الجراء كان صاحبهما قد تركهما طيلة النهار فيما قصد هو إلى عمله، وقد كان من المستحيل أن تتحصّل منه على أدنى التزامٍ يراعي فيه مصالح الجوار. (في هذه المناسبة نستطيع أن نكوّن [فكرةً] عن يقظة البوّابين ورجال الشرطة، مع أنّ التنبّه إلى هذه القضيّة يدخل في صلب عملهم المعتاد)، مرّةً أخرى «أنقذ» هيلين. لكنّنا سوف نبقى غير متزوجين حتى قرابة عام 1970.

لقد مضت الحياة على هذه الشاكلة، فكان المستوصف والطبيب على مقربةٍ شديدةٍ منّي، وكانت خدمات المدرسة (من عمال السباكة والنجارة والكهرباء وسواهم) طوع أمري، وكانت المكتبة (حيث لن تصيبني هنالك الدهشة الكبيرة على الإطلاق من رؤية الآنسة كريتزوييه (Mlle Kretzoiet)، والسيدة والسيّد بوليه (M. et Mme Boulez)، العائلة المباشرة المحتشمة للموسيقيّ المعروف)، وقاعة الطعام التي كنتُ أقصدها بضعة أيّامٍ، وكانت «الغرف المفروشة» للفلاسفة الذين عُيّنوا إلى جانبي -جاك درّيدا (Jacques Derrida) وبرنار بوترا (Bernard Pautrat)- قريبةً جدًّا، والمكتب على بعد خطوتين، والتبغ، وأمور أخرى لا أذكرها، كلّ ذلك كان في متناول اليد. وسوف يستمر هذا الوضع على مدى اثنتين وثلاثين سنةً! اثنتين وثلاثين سنةً من العزلة الشبيهةً بعزلة الأديرة الزهديّة (وهو حلمي القديم...)، ومن الحماية. بالطبع، لقد تعقّدت علاقاتي النسويّة بمجيء هيلين للعيش معي، لكنّها أيضًا كانت هنا، وإلى جانبي.

كانت المهمّة الكبرى التي «نذرتُ» نفسي لأدائها هي جعل هيلين مقبولة بين أصدقائي، ولدى الغالبية العظمى من «تلامذتي». لكنّه لم يكن أمرًا يسيرًا على الإطلاق: ففارق العمر، ورعب هيلين من الوسط الجامعيّ، إضافةً إلى طباعها الشخصيّة العويصة -والتي سرعان ما انكشفت- لم تساعد في أداء هذه المهمّة. لقد نجحتُ في بلوغ المراد غالبًا، لكنّ الثمن كان شعوري بأنّني أقدّم ما يشبه التضحية! وأيضًا كان هنالك على الدّوام شيءٌ من الشعور بتأنيب الضمير، كما لو أنّه كان عليّ -بصفةٍ شخصيّةٍ، ولكن من أجل هيلين ومن أجلي- أن أتغلّب على مخاوفي من تقلّبات مزاجها المحتملة. مرّة أخرى أعيد التفكير الآن (بالأحرى منذ وقتٍ غير قصير) بأنّه كان عليّ أن أمارس شيئًا من «التضليل» لدى أصدقائي (وهذا ما قمتُ به مع الدكتور إيتيان) بما أنّني كنتُ أتخوّف من الحكم الذي قد يطلقونه عليها. لذلك فإنّني -واستباقًا لرّدة فعلهم المحتملة- كنت أتصرّف كما لو أنّني «مدانٌ» بطلب المغفرة ابتداءً، المغفرة من أجلها ومن أجلي.

لقد كان في استطاعتي أن ألاحظ آثار هذا الموقف المدمّرة جزئيًا. لقد كانت لهيلين معايبها، بيد أنّك حينما تتعرّف إليها حقّ المعرفة، وحينما تتجاوز عن لحظات اللقاء الأولى، التي هي في أغلب الأحيان ناتجةٌ عن سمعتها، فإنّك سوف تجد أمامك امرأة استثنائيّة، في ذكائها، وسرعة بديهتها، وشجاعتها وكرمها، وهكذا كان إحساس لوزيفر وسائر أصدقائها الذائعي الصيت. لقد كان سائر أصدقائها في العمل يقدّرون شخصيتها ومزاياها وكانوا في ذلك على اتّفاقٍ. مع ذلك فإنّ صداقات العمل العظيمة لديها كانت تعود إليها، ولم يكن لي يدٌ فيها؛ للمرّة الأولى سأجد نفسي عاجزًا، لن أفعل شيئًا، ولن يكون لدي ما أفعله من أجل «إنقاذها» من قدرها المخيف كامرأةٍ رهيبةٍ.

هكذا ترون كيف وجدتُ نفسي عالقًا في تناقضٍ عجيبٍ بسببٍ من القوى القهريّة خاصّتي ومن أخطائي التخيّلية، وأؤكّد على القول أنّني وجدت نفسي عالقًا في واقعٍ صنعته بيدي، لأنّني أنا من أخذ على نفسه أن يقدّم الأفضل إلى هيلين من أجل إنقاذها (هيلين التي لم يكن لديها في ذلك الوقت أيّ صديق)، بيد أنّني لم أستطع سوى أن أضلّل الأصدقاء وأن أعزّز لديهم الصورة التي كنتُ أخشى أن يتّخذونها عن هيلين، وأن أكون في الحقيقة كما لو أنّني أحمل لعنةً في داخلي. لن «يتيسّر» هذا التعهّد إلّا في حالات نادرةٍ –وإن كان ذلك في مقابل ثمنٍ صادمٍ وباهظٍ أحيانًا– هنالك حيث كانت تجد لدى تلامذتي القدامى – من أمثال إتيان باليبار (Étienne Balibar)[101]، وبيير ماشوري (Pierre Macherey)[102]، وريجيس دوبري (Régis Debray)[103]، وروبير لينهارت (Robert

(101) إتيان باليبار (Étienne Balibar) 1942-؟: فيلسوف فرنسيّ، ووجه رئيس من وجوه الفلسفة المعاصر. (المترجم)

(102) بيير ماشوري (Pierre Macherey) 1938-؟: فيلسوف فرنسيّ متخصّص في سبينوزا والفكر الأدبي. (المترجم)

(103) ريجيس دوبري (Régis Debray) 1940-؟: فيلسوف فرنسيّ ومسؤول حكوميّ سابق وأكاديميّ معروف بنظريّته في الميديولوجيا، وبارتباطه بالثوريّ الماركسيّ تشي غيفارا في بوليفيا، ودعمه لرئاسة سلفادور الليندي في تشيلي في أوائل السبعينيات من القرن العشرين. (المترجم)

(Linhart)[104]، ودومينيك لوكور (Dominique Lecourt)[105]، ومن ثمّ فرانكا- ما يكفي لقيام تبادلٍ حقيقيٍّ بين الأفكار والخبرات، أو بكلّ بساطةٍ بين العلاقات العاطفية المريحة والخصيبة. أمّا مع الآخرين فكان الفشل الذريع هو السائد في أغلب الأحيان، وآنذاك كنتُ أجترُّ مرارته في صمتٍ، ووسط إحساس بعار المذنب. هكذا فقد انتهى بي واحدٌ من أكبر مشاريعي في الحياة المتعلّق بهيلين إلى التباسٍ مؤلمٍ لطالما حاولتُ أن أدرك كنهه، ولكن من دون جدوى، كما أنّ إخفاقاتي المتلاحقة عزّزت في نفسي مشاعر الخوف والحذر المضاعف، وهذه عزّزت بصورة طبيعيّة مشاعر الشكّ في أن أكون رجلًا حقيقيًا، رجلًا قادرًا على حبّ امرأةٍ، وعلى مساعدتها في الحياة.

على كلّ حالٍ، كنتُ أمارس مهمّة تدريس الفلسفة وقد غدوتُ أشعر أكثر فأكثر أنّني فيلسوف، وذلك على الرّغم من وساوسي جميعًا.

بالطبع كانت ثقافتي في النصوص الفلسفيّة مختصرةً في حقيقة الأمر. كنتُ على اطّلاعٍ جيّد بديكارت(Descartes)، ومالبرانش (Malebranche)، وكنتُ أعرفُ القليل عن سبينوزا، ولا أعلم شيئًا عن أرسطو (Aristote)، والسفسطائيّين، والرواقيّين، أمّا أفلاطون فكنت أعرفه بما فيه الكفاية، وباسكال (Pascal) أيضًا، أما كانتْ فلا أعلم عنه شيئًا، وأعلم القليل عن هيغل، وأخيرًا بعض المقتطفات لماركس التي كنتُ قد قرأتها بعناية. لقد بنيتُ أسطورةً قائمةً على طريقتي في التعلّم، وفي فهم الفلسفة في نهاية المطاف -كما كنتُ أحبّ أن أردّد القول- «عن طريق السمْع» (السمْع الذي يعدّه سبينوزا الصورة الفجّة الأولى عن المعرفة)، السمْع إلى جاك مارتان (Jacques Martin) -الذي يتفوّق عليّ في ثقافته- والسمْع إلى أصدقائي -الذين كنتُ أحشد من أحاديثهم العرضيّة ما ألتقطه من أمثال هذه العبارة- وأخيرًا السمْع إلى تلامذتي فيما يتلونه من تقارير وأبحاث.

---

(104) روبير لينهارت (Robert Linhart) 1944-؟: سياسيّ وسوسيولوجيّ وفيلسوف فرنسيّ. (المترجم)
(105) دومينيك لوكور (Dominique Lecourt) 1944-2022: فيلسوف وناشر فرنسيّ. (المترجم)

لقد خلصتُ إلى جعل أسلوب «التعلّم عن طريق السمْع» قضيّة شرفٍ وتبجّحٍ، وهذا ما كان يميّزني بصفةٍ خاصّةٍ عن سائر أصدقائي الجامعيين -الذين كانوا أفضل منّي تعليمًا بكثير- وقد أخذت أكرّر على الأسماع هذه القضيّة من تلقاء نفسي ولكن بطريقة مناقضةٍ واستفزازيّةٍ، كيما أثير لدى الآخرين الدهشة، والإعجاب (!) والتشكيك، وذلك بما يتناسب مع غطرستي وتشوّشي العظيم.

لكنّني -بلا ريبٍ- كنتُ أمتلك مقدرةً خاصّة: إذ كنتُ أشعر أنّني أستطيع انطلاقًا من عبارة بسيطةٍ أن أعيد على الأقلّ بناء التوجّه أو المسار -إن لم تكن الفكرة- لكاتبٍ أو كتابٍ لم أقرأه من قبل (فيا له من وهمٍ!). لا ريب أنّني كنتُ أتمتّع بقدرٍ محدّدٍ من الحدس، وبمقدرة على المقابلة بصفةٍ خاصّةٍ، أي بمعنى المقدرة على *المعارضة* النظريّة، وهذه المؤهّلات كان تتيح لي أن أعيد بناء الفكرة التي أظنّ أنّها فكرة كاتب ما من خلال الكتّاب الآخرين الذين يعارضهم. على هذا النحو كنتُ أتصرّف بصورةٍ عفويّةٍ من خلال التضادّ وترسيم الحدود، وسوف يتعيّن عليّ في وقتٍ لاحق أن أضع النظريّة المتعلّقة بهذا السلوك.

إنّ نزوعي إلى الاستقلال الكلّي، وإلى القتال ضمن نطاقٍ من الحماية المطلقة سوف يجد في هذه المهارسات المادّةَ التي يستثمر فيها. إضافةً إلى ذلك، فقد كنت -بحكم خبرتي في ميدان العمل السياسيّ وبحكم توجّهي نحو السياسة- أتمتّع ببديهةٍ حاضرةٍ بما فيه الكفاية حيال «السياق» وتأثيراته: وهو موضوع آخر سوف أدرسه لاحقًا. ففي كنف سياقٍ نظريٍّ محدّدٍ يمكننا أن نفهم المقاربات والمعارضات الفلسفيّة. فمن أين تأتّت لي هذه الحساسية حيال مسألة «السياق»؟ لا ريب في حساسيّتي المفرطة حيال «الأوضاع» الخلافيّة (ذات الأفق المسدود) التي لم أتوقّف عن اختبارها منذ أيام الطفولة. أضف إلى هذا قناعةً فطريّةً أخرى بأنّ الفلسفة الحقّ هي التي تتصرف عن بعدٍ، أي في ذلك الفراغ (الخاصّ بي!) مثل إله أرسطو الذي لا يتحرّك، وهو الأمر الذي كنت أعثر عليه في الموقف التحليليّ (وقد كان ساشا

ناخت (Sacha Nacht) [106] قد لاحظ هذه الموضوعة في عبارةٍ موجزةٍ آسرةٍ. في ضوء ذلك فقد كنتُ فيلسوفًا، فيلسوفًا فاعلًا عن بعدٍ، من ملاذي في المدرسة العليا، وبعيدًا عن العالم الجامعيّ الذي لم أحبّه، ولم أخالطه قطُّ. كنتُ أقضي شؤوني بمفردي تمامًا، من دون معونة الأقران، والمكتبات، وسط شعورٍ بالوحدة يحضرني من بعيد، البعيد الذي سوف أتّخذ منه منهجًا في التفكير وأسلوبًا في العمل. العمل عن بعدٍ، هذا يعني ألّا يقبض عليك أيضًا، كما لو أنك تحتلُّ المرتبة الثانية دائمًا (الناصح، والمستشار السرّي لدايل، ولغيره من مدراء المدرسة العليا الآخرين)، المرتبة الثانية تعني أن تكون في الآن نفسه محميًّا وعدائيًّا، ولكن في ظلّ حمايةٍ كهذه الحماية. لطالما لازمني بوضوحٍ صوتٌ خفيضٌ يحثّني أن أكون «معلّم المعلّم»، ولكن شريطة البقاء -تحديدًا- على مسافة أمانٍ من خلال المعلّمين الذين كنتُ أحرص على اتّخاذ هذه المسافة حيالهم، وهو الوضع الذي كان يرضيني في الحقيقة، لطالما وجدت نفسي في هذه العلاقة المنحرفة، لا أعني أن أكون «والد الوالد»، بل أن أكون الأمّ لمعلّمي المزعوم فأفرض عليه أن يحقّق رغبتي المجنونة من خلال شخصه ورغبته.

لكنّني في الحقيقة -وقد تنبّهت إلى هذا الأمر في الوقت الحاضر فقط (فالكتابة تجبركَ على التفكّر)- كنتُ أسلك على نحوٍ مختلفٍ تمامًا عن هذه النماذج. لقد كنتُ أتعامل مع الجملة المعبّرة التي كنتُ أحتفظ بها عن أحد الكتّاب (أو عن نصّه أيضًا)، أو التي كنتُ ألتقطها من فم أحد التلاميذ أو الأصدقاء بوصفها عمليّات سبرٍ بعيدة الغور في البحث عن فكرة فلسفيّةٍ. فكما تعلمون إن التنقيب عن مخزونات النفط الكبيرة تعتمد على عمليات سبرٍ من هذا القبيل. فالمسابير الدقيقة تنفذ عميقًا في باطن الأرض وتستخرج منه إلى العراء ما يُدعى «بالعيّنات»، وهذه تقدّم فكرةً ملموسةً عن التكوين الطيفيّ لطبقات باطن الأرض العميقة، كما تجعلنا قادرين

(106) ساشا ناخت (Sacha Nacht) 1901-1977: مؤسّس معهد التحليل النفسيّ في باريس، ونائب رئيس الجمعيّة الدوليّة للتحليل النفسيّ. (المترجم)

على تحديد وجود النفط، أو وجود طبقاتٍ أرضيّةٍ متشرّبةٍ به، وتجعلنا على معرفةٍ بسائر الطبقات الأفقية الموجودة أعلى منسوب المياه الجوفيّة وأسفله. واليوم، أرى بوضوح كبيرٍ أنّني كنتُ أتعامل بالطريقة نفسها في ميدان الفلسفة. لقد كنتُ أتعامل مع العبارات التي أجدها، أو التقطها بوصفها «عيّنات فلسفيّة» أستطيع انطلاقًا من تركيبتها (ومن تحليلها) أن أحدّد بسهولةٍ طبيعة سائر المستويات العميقة للفلسفة موضع البحث. انطلاقًا من هذا الواقع -ولكن انطلاقًا منه فقط- كنتُ أستطيع الشروع في قراءة النصّ الذي أخذت «العيّنة» منه. وانطلاقًا من هذا فقد قرأتُ بعنايةٍ كبيرةٍ بعض النصوص المحدّدة، وكنتُ أحاول من تلقاء نفسي أن أقرأها بصرامةٍ من دون أيّة معونةٍ دلاليّة، أو تركيبيّة. لكنّ الغريب في الأمر (وهو أمرٌ ذو دلالةٍ طبعًا، بيد أنّ هذه الدلالة كانت تغيب عنّي، على الدّوام كما أظنّ)، أنّني لم أستطع -على الرغم من سائر عينات التحليل النفسيّ في جعبتي، ومن خبرتي كلّها (في الجانب التحليليّ)- النفاذ إلى أيّ نصّ من نصوص فرويد! ولا إلى أيّ نصّ من نصوص شرّاحه! لقد كنتُ مستغلق الفهم تمامًا في هذه النصوص...وقد كانت أعزّ الصديقات تكرّر على مسامعي بلا انقطاعٍ بأنّ كلّ شيءٍ على ما يرام هكذا، وأنّني -من جانبٍ آخر- عدمٌ مطلقٌ في نظرية التحليل النفسي: ولقد كانت محقّة تمامًا. فليست النظريّة هي ما يعوّل عليه في حقل التحليل النفسي، بل الممارسة (وهذا مبدأٌ ماديٌّ وماركسيٌّ رئيس).

في الحقيقة، لقد شعرتُ منذ البداية -وبتأثيرٍ من صديقي جاك مارتان، ومن ماركس في كتابه **الإيديولوجيا الألمانية** «L' Idéologie allemande» - أنّني كنتُ في موقع نقديٍّ عنيفٍ، بل وتخريبيٍّ أيضًا حيال الفلسفة الرّاهنة. لقد عزّزت خبرتي السياسيّة من هذه القناعة، وكذلك قراءتي اللاحقة للينين التي كانت شديدة الوطأة على «أساتذة الفلسفة» (أنظروا إلى كتيّبي بعنوان **لينين والفلسفة** «**Lénine et la philosophie**» الذي أجمع فيه خطابي العلني الوحيد الذي ألقيته في فرنسا أمام الجمعيّة الفلسفيّة -لقد كان ذلك تحدٍّ حقيقيٌّ- حيث كان جان وال (**Jean**

Wahl)[107] قد دعانا-أنا وجاك درّيدا_ للنقاش). لقد تسبّب خطابي في فضيحةٍ صغيرةٍ، لكنّه عاد عليّ بمعرفة لاهوتيٍّ وفيلسوفٍ مدهشٍ: الأب بروتون (le père Breton) الذي سيصبح أحد أعزّ الأصدقاء.

(107) جان وال (Jean Wahl) 1888-1974: فيلسوف، ومؤرّخ فلسفة وأستاذ جامعة فرنسيّ. (المترجم)

الفصل الرابع عشر

لقد سعيتُ إلى التوفيق بين هذه النزعة النقديّة الراديكاليّة للفلسفة بوصفها تضليلًا إيديولوجيًّا (الهدف: لا مزيد من رواية الحكايات، والاقتصار فقط على «تعريف» المذهب الماديّ الذي اعتنقته إلى الأبد) وبين خبرتي في الممارسة الفلسفيّة، فانتهيتُ -أوّل الأمر- إلى جملٍ من قبيل: «الفلسفة تمثّل العلم بالنسبة إلى السياسة، والسياسة بالنسبة إلى العلم»، ومن ثمّ «الفلسفة -في نهاية المطاف- صراعٌ طبقيٌّ في حقل النظريّة». ولطالما تشبّثتُ -كأنّني قطعةٌ من حديد- بهذه العبارة الأخيرة التي كانت تثير الاستنكار بصورةٍ تلقائيّةٍ. ووفقًا لتصوّري عن المذهب الماديّ فقد بنيتُ نظامًا كليًّا عن الفلسفة بحسبانها لا تمتلك موضوعًا (على نحو الموضوعات التي يمتلكها العلم)، بل رهاناتٍ جدليّةً وعمليّةً، وعلى هذا النحو سوف أنخرط في تصوّر جدليّ وعمليّ عن الفلسفة، وذلك على غرار التفكير السياسيّ الذي كنتُ أعمل عليه في الوقت نفسه. فمن خلال وضع أطروحاتٍ تتعارض مع أطروحاتٍ أخرى قائمة، فإنّ «ميدان المعركة» هذا (بالمعنى الكانطيّ) يمثّل في الحقل النظريّ رجع الصدى لميدان الصراع الطبقيّ، من الناحية السياسيّة والإيديولوجيّة. وكما ترون فإنّني -في جميع الأحوال، ومن دون سابق معرفةٍ بغرامشي- كنتُ أربط بين الفلسفة والسياسة على نحوٍ وثيقٍ، وذلك في خلاصةٍ تركيبيّةٍ غير متوقعّة، بين دروس «الأب هورس» السياسيّة وبين دراساتي الفلسفيّة الخاصّة.

ما الذي كنت أسعى إليه من خلال هذا المشروع؟ لن أتكلّم هنا بتاتًا عن الآثار النظريّة الموضوعيّة لهذا المشروع، فقد تكلّم الآخرون عنها، أمّا أنا فلا يحقّ لي أن أتصدّى لإطلاق مثل هذا الحكم. جلّ ما أرغب به أن أبيّن -قدر الإمكان- الدوافع

الشخصيّة العميقة، الواعية وغير الواعية بصفةٍ خاصّةٍ التي كان المشروع يقوم عليها، في الصيغة التي أعطيتها له.

بكلّ تأكيدٍ، فإنّ القضيّة -في حقيقتها- تنطوي على ما أسميته: التحقيق «الرغبة أمّي»، وذلك على نحوٍ صريحٍ ومنجزٍ بصورةٍ خاصّةٍ، أي على نحوٍ تجريديّ متقشّفٍ. لقد أصبحتُ -حقًّا- ذلك العقل الأكاديميّ البحت، خرّيج المدرسة العليا، كما أصبحتُ -فوق ذلك- مؤلّف عملٍ فلسفيّ، عمل تجريدي، لكنّه مع طابعه غير الشخصيّ، عملٌ حماسيٌّ بطبيعته. كما أنّني نجحتُ -في الوقت نفسه- في أن أجمع إلى «رغبة أمّي» رغبتي الخاصّة، الرغبة في العيش ضمن العالم الخارجيّ، عالم الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة. وإنّ من الممكن قراءة عمليّة الجمع هذه في تعريفاتي المتعاقبة عن الفلسفة، أي عن ممارستي نفسها في ضوء ذلك، ولكن في الجانب المحض من التفكير. فأيّة فكرةٍ كانت لديّ آنذاك عن السياسة؟ فكرةٌ مجرّدةٌ عن السياسة. بالطبع، لقد كان جورج مارشيه (Georges Marchais)(108) مخطئًا في كلامه لاحقًا عن أولئك «المثقّفين الجالسين وراء مكاتبهم» مشيرًا إلى حالتي، بيد أنّ عبارته لم تكن خاطئةً بالمطلق في سائر أبعادها. كما أنّني وإن تألّمتُ من الهجوم المديد الذي شنّه الآخرون جميعًا عليّ -حتى خصوم الحزب الشيوعيّ أنفسهم- بوصفي فيلسوفًا صرفًا يحتقرون باستعلاء نظريّته عن واقعيّة الممارسة (بما فيهم ذلك الصحفي المدعو جان بول إنتوفن (Jean-Paul Enthoven) إذ قال عنّي ذات يوم -بمناسبة كتابتي كلمة إهداء إلى فالديك روشيه (Waldeck Rochet)(109)- بأنّني «كنتُ أشعر على الدّوام بأنّني التلميذ المتفوّق»...) فإنّهم لم يكونوا «مخطئين» بحقي على نحوٍ كاملٍ.

لكنّ ذلك غير كافٍ لتقييم علاقتي العميقة بالفلسفة، وبتصوّري عن الفلسفة

(108) جورج مارشيه (Georges Marchais) 1920-1997: الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي منذ عام 1972 وحتى 1994. (المترجم)

(109) فالداك روشيه (Waldeck Rochet) 1945-1973: سياسيّ فرنسيّ وأحد قادة الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ. (المترجم)

(التي كانت لديها هي الأخرى طريقتها الخاصّة في التعبير). لقد صدمتني كثيرًا عبارة ماركس -وما تزال تفعل حتى الآن- التي يقول فيها إنّ الفيلسوف يعبّر من خلال المفهوم (أي مفهومه الخاصّ عن الفلسفة) عن «علاقته النظريّة بنفسه». فما هو الأمر الشديد الخصوصيّة الذي كنتُ -إضافةً إلى ما سبق أن قلته- أسعى إلى التعبير عنه من خلال ممارستي للفلسفة وتصوّري عنها؟ لقد لاحظ البعض من قرّائي وأصدقائي -ومنهم على سبيل المثال برنارد إيدلمان (Bernard Edelman)[110] الذي كان يحدّثني غالبًا بنفاذ بصيرةٍ- أنّني كنتُ أصرّ في عددٍ من دراساتي، وبصفةٍ خاصّةٍ في كتيّبي الذي حمل عنوان مونتسكيو «Montesquieu» وفي مقالتي حول فرويد ولاكان، على موضوعةِ أنّ معظم كبار الفلاسفة كانوا أيتامًا، وأنّهم عاشوا ضمن شعورٍ من الوحدة نابعٍ عن عزلتهم النظريّة، وعن مجازفة الوحدة التي اتّخذوها في مواجهة العالم. نعم، فأنا لم يكن لديّ أبٌ، وقد أدّيت إلى ما لا نهايةٍ دور «والد الوالد» كي أوهم نفسي بأنّ لديّ أبٌ، بل -في حقيقة الأمر- كي أعطي نفسي دور الأب فيما يخصّني، بحسبان أنّ سائر الآباء المحتملين والذين التقيتُ بهم لم يستطيعوا النهوض بهذا الدور. لذلك كنتُ أحطّ -بازدراءٍ- من شأنهم بأن أضعهم تحت إمرتي، في تبعيّةٍ واضحةٍ إزائي.

في ضوء ذلك كان من الواجب عليّ بصورة فلسفيّة أن أكون والد نفسي بالذّات. لكنّ هذا لم يكن ممكنًا إلّا بأن أخوّل نفسي تلك الوظيفة التي هي وظيفة الأب بامتيازٍ: أي السيطرة، والتحكّم بكلّ وضعيّةٍ محتملةٍ.

لقد كان هذا ما فعلتُ، على مدى القسم الأكبر من تاريخ الفلسفة برمّتها، إذ أخذتُ على عاتقي تلك الغطرسة التقليدية، التي ما فتئت تتكرّر، الغطرسة الطامحة -منذ أفلاطون إلى هايدغر نفسه (بعباراته كلاهوتيّ سلبيّ) ومرورًا بديكارت وكانط وهيغل- إلى أن تكون الفلسفة هي تلك التي تسع العالم كلّه بلمحة نظرٍ

(110) برنارد إيدلمان (Bernard Edelman) 1938-2020: فيلسوف ورجل قانون فرنسيّ. (المترجم)

واحدةٍ، تلك التي تفكّر في الكلّ (أفلاطون: الذي يرى كلّ شيء)، أو في شروط إمكانيّة الكلّ واستحالته (كانط)، الفلسفة التي تُعنى بالله أو بالموضوع البشريّ، وبالتالي التي تسيطر على «الحاصل والمتبقّي» (وفق عبارة هنري لوفيفر Henri Lefebvre). [111]سيطرة الكلّ، وفي المقام الأوّل السيطرة على النفس، تعني علاقته بموضوعه بحسبانه كلًّا: هكذا هي الفلسفة التي لا تعدو أن تكون «العلاقة مع ذات الفيلسوف» (ماركس)، وهكذا هو الفيلسوف أيضًا. لكنّنا لا نستطيع التفكير في الكلّ إلا بما تتّصف به فكرةٌ ذات مزاعم كلّيةٍ من دقّةٍ ووضوحٍ، فكرةٌ تتأمّل في عناصر الكلّ وصلاته. في ضوء ذلك، لقد كنتُ فيلسوفًا واضحًا، يطمح إلى أن يكون دقيقًا. بكلّ تأكيد فإنّ هذا النشدان للكليّة لم يكن من دون تبعاتٍ تُلقى على توجّهات قرّائي وتوقّعاتهم الشخصيّة، لقد كانت «تأسرهم» في واحدةٍ من متطلبّات فهمهم لها، فبما أنّ لغتي كانت هي الأخرى لغة تمكّنٍ وتحكّمٍ، تسيطر على عنصرها التأثيريّ الخاصّ بها (انظر المقدمة من كتاب *«من أجل ماركس»* و*«الردّ على جون لويس* La Réponse à John Lewis»)، فقد كان من الواضح أنّها تؤثّر في قرّائي مثلما تؤثّر في صرامة حجاجي: من خلال الالتجاء إلى لغة التمكّن والتحكّم. وبطبيعة الحال، وبحسبان أنّ كلّ شيءٍ هنا يتلازم على نحو وثيقٍ (فالفكرة والأسلوب يتوقّفان على العلاقة نفسها التي تربط الفيلسوف بمفهومه، ولا يقتصر الأمر عليّ وحدي) فإنّ هذه الوحدة التي جمعت الفكرة ووضوحها (تمكّنٌ بمنتهى الوضوح، فمن البداهة بمكان أن يكون الوضوح شكلًا من أشكال التمكّن) إلى اللغة، قد أكسبتني جمهورًا لم يكن حجاجي بكلّ تأكيدٍ قادرًا بمفرده على ملامسته بمثل هذا العمق. لقد علمتُ على هذا النحو، وبدهشةٍ عظيمةٍ، أنّني كنتُ أمتلك «أسلوبًا» -على غرار كلودين نورماند (Claudine Normand) مثلًا- وبأنّني من طراز الكاتب الذي يمتلك طريقته. وبطبيعة الحال لقد طوّرتُ

(111) هنري لوفيفر (Henri Lefebvre) 1901-1991: عالم اجتماع، ومخطّط حضريّ، وفيلسوف فرنسيّ. (المترجم)

كنظريّةٍ عن الفلسفة نظريّةً عن الفلسفة بحسبانها تحكّمًا وتمكّنًا، تحكّمًا بالذّات، وبالكلّ، وبالعناصر والروابط بين هذه العناصر، وفيما يتجاوز المجال الفلسفيّ الخاصّ، تحكّمًا عن بعدٍ من خلال المفهوم واللغة. وكأيّ فيلسوف آخر -ولكن من خلال انتقادي الراديكاليّ لزعم الكليّة هذه (فقد انتقدت في ضوء ذلك الفكرة نفسها، التي كانت تبدو فكرةً تافهةً في نظري: فكرة الأب كلّيّ القدرة، وادّعاؤه بكونه كذلك)- عددتُ نفسي معنيًّا بذلك الشيء الذي يبحث في القيم الإنسانيّة، وفي مسار تاريخ العالم الحقيقيّ أيضًا، وحتى في ذلك الذي يزعم أنّه يقود العالم المذكور إلى قدره (قدرٌ غير موجودٍ إلّا في أوهام الوعي الجمعي والسياسات، على حدّ التعبير الموفّق لهايدجر)، وأعني السياسة والسياسات. لهذا السبب فقد جازفتُ عدّة مرّاتٍ في ميدان السياسة العيانيّ، من خلال إبداء موقفي حيال الستالينيّة (بصورةٍ خطرةٍ بالطبع)، وأزمة الماركسيّة، ومؤتمرات الحزب الشيوعيّ، وطريقة عمل الحزب (**«ما لا يمكن استمراره بعد الآن داخل الحزب الشيوعي** Ce qui ne peut plus durer dans le parti communiste»، عام 1978). ولكن من هو ذلك الفيلسوف الذي لم يستسلم في قرارة نفسه -وهو أمر يعلنه كبار الفلاسفة على الملأ، ونجده بصورةٍ خاصةٍ لدى أولئك الفلاسفة الذين لا يوافقون على الإقرار به- إلى تلك الغواية ذات الطابع الفلسفيّ أساسًا حيث يضع في منظوره العزم على تغيير العالم وتحويله؟ إنّ هايدجر نفسه يقرّ بصوابيّة هذا الأمر من خلال حديثه عن الظاهرة الوحيدة (ولكن لماذا هي وحيدة؟ أمرٌ ملغزٌ) التي تطمح إلى «تغيير العالم»؟ لهذا السبب انتقدتُ جملة ماركس الشهيرة في كتابه «*أطروحات حول فويرباخ* Thèses sur Feuerbach» التي يقول فيها: «لم تعد القضيّة بعد الآن تتعلّق بتفسير العالم، ولكن بتغييره»، وذلك من خلال إظهار أنّ سائر الفلاسفة الكبار قد رغبوا في التدخل في مسار التاريخ العالمي، سواء من أجل تغييره، أم من أجل جعله يعود إلى الوراء، أم من أجل الحفاظ عليه وترسيخه في صورته القائمة حيال المخاطر التي يُنذر بها تغييرٌ يرونه خطرًا. لقد اعتقدتُ أنّني محقٌّ بخصوص هذه المسألة -وإن كان

ذلك على حساب عبارة ماركس الشهيرة والمغامرة- وما أزال كذلك.

ولكن عن أيّة مسؤوليّة ذاتيّةٍ -يشعر الفيلسوف أنّه محلّ لها- نتكلّم! عن أيّة مسؤوليّةٍ مرهقةٍ! فالفيلسوف لا يملك -كالعلماء (الذين أعدّهم علماء تجريبيين قاطبة)- أيّ جهازٍ أو وسيلةٍ للتحقّق. إنّه يكتفي بأن يضع أطروحات لا يستطيع التحقّق من صحّتها بصفةٍ شخصيّةٍ أبدًا. وعليه دائمًا أن يتوقّع بصورةٍ مسبقةٍ نتائج أطروحاته الفلسفيّة من دون أن يعرف حتّى أين، وكيف، يمكن لهذه النتائج أن تظهر! بالطبع، إنّه لا يضع أطروحاته اعتباطًا، بل إنّه يضعها من خلال الأخذ في الحسبان ما يدركه -أو يظنّ أنّه يدركه- عن الكلّ وعن منحاه، ومن خلال معارضة أطروحاته بأنساقٍ أخرى من الأطروحات القائمة في عالمه. وإذ يتعيّن عليه أن يتوقّع دائمًا، وأن يستشعر حاسّته التاريخيّة دائمًا، فهو إلى ذلك وحيدٌ تمامًا في مواجهة تصوّره عن الكلّ (ولكلّ واحدٍ منّا كلّه، أليس كذلك؟)، وهو أكثر وحدةً بعد في مبادرته التي يشرع فيها بتقديم أطروحاتٍ جديدةٍ، من دون أن يكون في جعبته أيّ إجماعٍ طالما أنّه عازمٌ بالتحديد على أن يغيّر شيئًا ما في هذا الإجماع. إنّها عزلة الفيلسوف: ديكارت في عزلته البطوليّة داخل عالمه المستعر، وكانط في اعتكافه المسالم المتأمّل المتقاعد من كونيغسبرغ (Konigsberg)، وكيركيجارد (Kierkegaard) في انسحابه التراجيديّ من مأساته الخاصّة، وفيتجنشتاين (Wittgenstein) في منزل الرّاعي كملاذٍ داخل الغابة في النروج (Norège)! وهكذا كنتُ أنا -كأيّ فيلسوفٍ آخر في العالم- حتّى وإن كنتُ محاطًا بالأصدقاء، كنتُ وحيدًا تمامًا في مكتبي، أي داخل فكري، وداخل زعمي، وشجاعتي التي لا نظير لها. لقد كنتُ وحيدًا، وكنتُ بصورة تلقائيّةٍ مسؤولًا بالكامل عن أفعالي، وعن نتائجها التي لا يمكن التنبّؤ بها، ومن دون جزاءٍ آخر سوى أن أكون القادم، والتالي في تاريخ العالم، وهو الأمر الذي لم يكن قد اكتمل إنجازه بعد. لقد كنتُ وحيدًا تمامًا كفيلسوف، ومع ذلك فقد كتبتُ في *«الردّ على جون لويس»* أنّ: «الشيوعي لا يكون وحيدًا أبدًا». وها هنا قمّة التناقض، بيد أنّنا نتفهّم هذا التناقض فيما لو أراد

بالفعل كلّ فيلسوف أن «يغيّر العالم»، وهو الأمر الذي لا يقدر عليه بمفرده من دون منظّمةٍ شيوعيّةٍ شريطة أن تكون منظّمةً حرّةً بالفعل، وديموقراطيّةً، وفي علاقةٍ وثيقةٍ مع قاعدتها، وأبعد من ذلك مع الحركات الجماهيريّة (انظر مقالتي النقديّة عام 1978).

إنّ قراءة نصوصي وحدها كافيةٌ كي تجدون فيها هاجس العزلة الملازم، وهاجس الإحساس بالمسؤوليّة. لقد تكلّمتُ مرارًا وتكرارًا أنّني لم أفعل شيئًا –في حقل السياسة وحقل الفلسفة– سوى *التدخّل* بمفردي وفي مواجهة الجميع –وهو الأمر الذي جعلني خصومي أشعر به على الدّوام– وعلى مسؤوليّتي الخاصّة. حقًّا، كنتُ أدرك أنّني وحيدٌ، وأنّني أتعرّض لخطرٍ كبيرٍ –وقد جعلوني أشعر بذلك بشكلٍ واضحٍ– لكنّني كنتُ على الدّوام أعرف ذلك مسبقًا. لكنّ الأمر الذي لا يستطيع شخصٌ –لدى قراءتي– أن يعارضه هو أنّني كنتُ واعيًا على الدّوام، كما كنتُ واعيًا بأنّ عزلتي الراديكاليّة هي ثمنٌ لقيامي بالتدخّل، وأنّ إحساسي المفرط بالمسؤوليّة يستندُ إلى شخصيتي وحدها بشكلٍ قاطعٍ، وأنّ هذه العزلة وهذا الإحساس بالمسؤوليّة كانا يعرّضانني «لمسؤوليّاتٍ عدّةٍ». في ضوء ذلك، فإنّ كثيرًا من القرّاء لن يُدهشوا إذ يجدون أنفسهم في هذه العزلة، فتكون عزلتهم، كما لن يُدهشوا حيال المسؤوليّة التي يتحمّلونها بالانضمام إلى أطروحاتي، وحيال المخاطر المتعلّقة بالنتائج السياسيّة التي يتعرّضون لها. لكنّهم على الأقلّ لن يكونوا وحيدين تمامًا في تلك الحالة بحسبان أنّني كنتُ أتقدّمهم، وبالتالي كنتُ أستطيع أن أساعدهم بوصفي ضامنًا ومعلّمًا (معلّمًا في التحكّم والسيطرة)، وبالتحديد لأنّني كنتُ الأوّل، وبالتالي كنتُ الوحيد في الأخذ بزمام المبادرة.

حقًّا لقد كنتُ في هذا الميدان على حقيقتي كما كنتُ أحلم أن أكون في ميدان الحبّ: فأنا من يأخذ زمام المبادرة، وليس شخصٌ آخرٌ، وأنا الذي يتباهى عندما تسنح الفرصة الملائمة (وأنا أعلم أنّ هذا الأمر قد آلم غيتون) بأنّه لم يكن لديّ معلّمين في الفلسفة (وقد كتبتُ ذلك في مقدّمة كتاب «*من أجل ماركس*»)، ولا

معلّمين في السياسة أيضًا (ما خلا هورس، وكوريج، ولوزيفر، وهيلين). لقد عثرتُ أخيرًا -وعلى مسؤوليّتي المفردة- على الميدان الذي تتحقّق فيه مبادرتي، مبادرةٌ مطلقةٌ، خاصّة بي أجسّد فيها رغبتي الخاصّة أخيرًا، على شفا الرغبة في امتلاك رغبةٍ تخصّني في آخر المطاف (بالطبع فإنّ الرغبة في امتلاك رغبة هي رغبة، لكنّها لا تزال رغبةً شكليّةً، وعلى هذا النحو كانت مأساتي الحقيقية في الشكل المجرّد لرغبة وفي اتّخاذ هذا الشكل الفارغ لرغبةٍ من أجل رغبة حقيقيّة، وقد خرجتُ منها حينها منتصرًا، ولكن على صعيد الفكر، الفكر المحض)، إذ كنتُ مقيّدًا كما لو أنّ القدر قد كلّفني بتحقيق رغبة أمّي المحضة، حتى في صورة إنكارها المؤلمة في آخر المطاف.

فكيف لا يتّخذ تفكيري -في مثل هذه الشروط- صورةً فظّةً من الانفصام والقطيعة؟ ها هنا نتعرّف على واحدةٍ من السمات التي لازمت تفكيري على الدّوام بصورةٍ موضوعيّةٍ صادقةٍ وشديدة الالتباس. كذلك كيف السبيل إلى تجنّب ضرورة تمييز -حتّى داخل لغة خطاباتي نفسها- جلافة تلك القطيعة المعبّر عنها بواسطة العبارات الفظّة، وهي جميعًا مظاهر عن «الدوغمائيّة» التي تلقّيت اللّوم بسببها كثيرًا؟ لقد اعتقدتُ بشدّةٍ أنّ كلّ فلسفةٍ -إذ تحدّد نفسها من خلال تقديمها أطروحاتٍ من دون أيّة إمكانيّةٍ للتحقّق من صدقها بصورةٍ تجريبيّةٍ- هي فلسفةٌ «دوغمائيّةٌ» في جوهرها، حتّى إنّني أعلنتُ ذلك في كتابي «*دروسٌ في الفلسفة من أجل العلماء* Cours de philosophie pour scientifiques» (عام 1967)، من خلال البحث والتساؤل عن حقيقة هذه الأطروحات من دون أيّ اعتبارٍ آخر إلّا لفعل تقديمها وطرحها. بكلّ بساطةٍ، لقد التزمتُ لغة الحقيقة، كما التزمتُ ما كنتُ أفكّر به وأفعله (أي تقديم الأطروحات، بشكلٍ علنيٍّ في بعض الأحيان، انظر كتابي «*الفلسفة وفلسفة العلماء العفويّة* Philosophie et philosophie spontanée des savants»)، وما كانت كلّ فلسفةٍ قبلي تفعله سواء أأقرّت ذلك (كالقديس توما (saint Thomas)، وسبينوزا، وفيتجنشتاين، وسواهم) أم صمتت عنه.

فمتى تبيّنتْ المسؤوليّة المفردة، والعزلة الضروريّة للحقيقة التي توضع في الأطروحات، ومتى تبيّنت حقيقة الفيلسوف كما هي، وحقيقة الفلسفة كلّها أفلا يكون من أدنى مقوّمات النزاهة والاستقامة أن نتّخذ لغةً تتناسب أيضًا -وحتى فيما تأتيه من تدخّل واستجواب (انظر إلى الدور الذي قمتُ به في الاستجواب بخصوص الإيديولوجية) مع طبيعة ما يجري؟ وأن نعبّر من خلال شكلٍ يكون هو نفسه معبّر -من دون مراوغةٍ- عمّا نفكّر فيه ونفعله؟

كان أبي يتمتمُ، أمّا أمّي فكانت واضحةً وكانت تحلم بالوضوح والشفافية. ولقد كنتُ واضحًا، لكنّني كنتُ فظًّا بقدر ما كان أبي كذلك في أفكاره الباطنيّة، وفي تدخّلاته الحادّة. ولكن بغضّ النظر، فإنّ أبي كان يقول للأعور أعورٌ في عينه، حتى وإن لم ينطق بكلمة، ولكم كان رجلًا حينما أخرج مسدّسه فجأة، وكذلك حينما وثب، بنيّة القتل، للإمساك بذلك الدرّاج الشابّ سيّئ الحظّ الذي كان قد دهس أختي وسط الغابة. هذا هو الرجل العنيف الرافض «أن يحكي الحكايات عن نفسه»، وهذه هي الفظاظة التي لا توصف، التي كنتُ أشعر أنّها فظاظة أبٍ أفتقده، أبٍ -على أيّة حالٍ- لم يدرّبني عليها، ولم يخبرني سوى أنّ العالم ليس عالمًا سماويًّا، بل هو عالم من الصراعات الجسديّة وأشياء أخرى، وهذا هو العالم الذي كانت لدي الجرأة والحريّة على تحمّل واقعيّته. ألم أصبح على هذا النحو، في آخر الأمر وبصورةٍ حقيقيّةٍ، الأب الخاصّ بي، بمعنى ألم أصبح رجلًا؟

إذا لم يكن هنالك بحثٌ من صنف هذا التحليل عن القول الفصل للمعنى الموضوعي لأيّة فلسفة، فالسبب يعود إلى أنّه مهما كانت البواعث الداخليّة لأيّ فيلسوفٍ -واعيةً أو غير واعيةٍ بالأحرى- فإنّ فلسفته المكتوبة هي *حقيقةٌ موضوعيّةٌ*، يكابدُ الجميع مُرّها، وإنّ نتائجها على العالم -أو عدمها- هي *نتائجُ موضوعيّةٌ*، نتائجُ لم تعد -في نهاية الأمر- مرتبطةً بهذا الباطن الذي أكتب عنه، ولله الحمد! فالفلسفة، كأيّ نشاطٍ آخر، ليست سوى الدّاخل المحض لذوات العالم كلّها، كلّ ذاتٍ منغلقةٌ داخل توحديّتها الخاصّة. وإذا لم يكن الشكّ قد خامرني في

ذلك أبدًا، فقد كان عليّ أن أدركه في واقعٍ رهيب، إنّه واقع السياسة نفسه، ولكنّه واقع الفلسفة أيضًا في المقام الأوّل.

الفصل الخامس عشر

لمّا كان أيُّ شخصٍ يتدخّل من خلال الفعل –وقد اعتقدت أنّ التدخّل الفلسفيّ يأتي في سبيل تحقيق فعلٍ ما، ولم أكن مخطئًا في تقدير ذلك– إنّما يتدخّل دائمًا في ظرفٍ معيّنٍ في سبيل تغيير سياقه. إذن، ما هو الظرف الفلسفيّ الذي قادني إلى «التدخّل»؟

لقد جرى الأمر في فرنسا، فمثلما كانتْ على الدوام جاهلةً بكلّ شيءٍ يجري وراء حدودها، فقد كنتُ كذلك جاهلًا بكلّ شيء، جاهلًا بكارناب (Carnap)، وراسل (Russell)، وفريج (Frege)، أي جاهلًا بالوضعيّة المنطقيّة، وجاهلًا بفيتجنشتاين، وبالفلسفة التحليليّة الإنكليزيّة. وكذلك بهايدجر الذي لم أقرأ له إلّا مؤخّرًا «*رسالة إلى جان بوفريت حول النزعة الإنسانيّة* Lettre Jean Beaufret sur l'humanisme»، وهو كتابٌ لم يخلُ من أثر على أطروحاتي المتعلّقة بمعاداة الإنسانيّة النظريّة لدى ماركس. في ضوء ذلك لقد كنتُ أواجه ما كان يُقرأ في فرنسا، أي سارتر، وميرلوبونتي، وباشلار (Bachelard)، وفوكو بصورةٍ متأخّرةٍ للغاية، ولكنْ كافييس (Cavaillès)[112] وكانغيلام (Canguilhem) بصورةٍ خاصةٍ. ثمّ كنتُ جاهلًا بعد حينٍ قليلٍ بهوسّرل (Husserl) وكنّا قد نقلناه إلى الفرنسيّة، وديزانتي (ماركسيّ هوسرليّ) وتران دوك تاو (Tran Duc Thao) الذي أذهلتني أطروحته. بخصوص هوسّرل، لم أكن قد قرأت له سوى «*التأمّلات الدّيكارتيّة* les Méditations cartésiennes» و«*أزمة العلوم* la Krisis».

لم أعتقد في يومٍ من الأيّام –ولي في ذلك أسبابٌ كثيرة سوف آتي على ذكرها يومًا

(112) جان كافييس (Jean Cavaillès) 1903-1944: فيلسوف ورياضي فرنسي، شارك في المقاومة الفرنسية ضد النازية، وقد أعدمه الغستابو رمياً بالرصاص في عام 1944. (المترجم)

ما- مثلما كان سارتر يعتقد بأنّ الماركسيّة قد تكون «فلسفة عصرنا التي لا يمكن تخطّيها»، وكنتُ أتحفّظ على هذه العبارة لسببٍ وجيهٍ. لطالما حسبتُ أنّ سارتر - هذا العقل المتوقّد، والمؤلّف لعددٍ من «الروايات الفلسفيّة» المُذهلة مثل «*الكون والعدم* L'Etre et le Néant» و«*نقد العقل الديالكتيكي* la Critique de la raison dialectique»- لم يفهم شيئًا أبدًا لا من هيجل، ولا من ماركس، ولا من فرويد بطبيعة الحال. لقد كنتُ أرى فيه -في أحسن الأحوال- واحدًا من «فلاسفة التاريخ» هؤلاء الما بعد ديكارتيين، والما بعد هيغليين، الذين كان ماركس يكرههم.

بالطبع كنتُ أعلم أنّ هيغل وماركس قد بلغا فرنسا من خلال بعض الطرق: من خلال كوجينيكوف (كوجيف)[113] المهاجر الروسيّ، والمسؤول الرفيع في وزارة الاقتصاد. لقد ذهبتُ يومًا للقاء هذا الأخير في مكتبه الوزاريّ ودعوته من أجل إلقاء محاضرةٍ في المدرسة العليا. لقد حضر الرجل، كانت قسمات وجهه وشعره الأسود توحي بخبثٍ نظريٍّ طفوليٍّ. كنتُ قد قرأتُ سائر ما كتبه وسرعان ما اقتنعتُ بأنّه لم يفهم بشكلٍ صحيحٍ شيئًا من هيجل أو ماركس، وبأنّ فهمه -مثل فهم الجميع، بما فيهم لاكان- كان على نحوٍ عاطفيٍّ قبل اندلاع الحرب. كان كلّ شيءٍ في نظره يدور حول الصراع حتى الموت، وحول نهاية التاريخ، التي يقدّم عنها فهمًا بيروقراطيًّا عجيبًا. فالتاريخ بمعنى تاريخ الصراع الطبقي قد انتهى، لكنّ التاريخ يستمرّ، ولكن فقط من خلال روتين إدارة الأشياء (فليحيا سان سيمون!). لا ريب أنّها طريقةٌ في الرّبط بين رغباته كفيلسوفٍ وبين طبيعة وظيفته البيروقراطيّة العليا.

لم أفهم كيف استطاع كوجيف -بعيدًا عن تلك العماية الفرنسيّة المطبقة عن هيجل- أن يفتن مستمعيه إلى هذا الحدّ: لاكان، وباتاي (Bataille)، وكونو (Queneau)، وكثيرين سواهم. في المقابل، كنتُ أكنُّ تقديرًا غير محدودٍ لعمل

---

(113) ألكساندر كوجيف (Alexandre Kojève) 1902-1968: فيلسوف وسياسيّ فرنسيّ من أصلٍ روسيّ. (المترجم)

هيبوليت (Hyppolite)[114] البصير والشجاع، والذي اكتفى -عوضًا عن شرح هيغل- بإعطاء هذا الأخير دقّة الحديث من خلال ترجمة هيبوليت الرائعة لكتاب «*فينومينولوجيا الرّوح* Phénoménologie de l'Esprit».

هاكم إذن الظّرف الفلسفيّ الذي وجدتُ نفسي فيه مدعوًّا إلى «التفكير». لقد كتبتُ -كما ذكرتُ من قبل- أطروحةً حول هيغل، كان صديقي جاك مارتان -صاحب الثقافة الفلسفيّة الواسعة- مرشدي فيها. لقد أدركتُ دونما عناء أنّ «الهيجيليين» الفرنسيّين أتباع كوجيف لم يفهموا شيئًا بخصوص هيغل. وحسبكم أن تقرؤوا هيغل نفسه حتّى تقتنعوا بذلك. لقد توقّفوا بالكامل عند صراع السيّد والعبد، وعند الاستلاب المطلق «الجدليّة الطبيعة». حتّى باشلار نفسه -وقد نبّهتُ إلى هذه الملاحظة بشأنه فيما ذكرتُ أعلاه- لم يفهم شيئًا. لكنّه من جهةٍ أخرى، لم يزعم شيئًا بهذا الشأن، إذ لم يكن لديه الوقت للقراءة. إنّ القضيّة برمّتها بشأن هيغل -في فرنسا على الأقل- كانت تتعلّق بفهمه وتفسيره.

في المقابل، كان هوسّرل معروفًا بعض الشيء لدينا، من خلال سارتر وميلروبونتي. ومن المعروف تلك النادرة الشهيرة التي روتها القندس [وهو لقب سيمون دو بوفوار]. كان ريموند آرون، «الرفيق الصغير» لسارتر، قد أمضى سنةً دراسيّةً بين عامي 1928-1929 في برلين اطّلع فيها على صعود النازيّة، لكنّه كان قد هضم هنالك أيضًا الفلسفة الباهتة، والسوسيولوجيا الألمانية، اللتين كانتا تحملان صبغة ذاتانيّة في دراسة التاريخ. وإذ عاد آرون إلى باريس، ذهب لرؤية سارتر والقندس في مقهاهما الذي لا يبارحانه. كان سارتر يشرب كأسًا كبيرًا من عصير المشمش حينما بادره آرون بالقول: «رفيقي الصغير، لقد عثرتُ في ألمانيا على فلسفةٍ سوف تجعلك تفهم لماذا تجلس في المقهى، وتشرب عصير المشمش، ولماذا تستمتع بذلك». كانت تلك الفلسفة هي فلسفة هوسّرل، التي كانت قادرة بصورةٍ

(114) جان هيبوليت (Jean Hyppolite) 1907-1968: فيلسوف فرنسيّ، مختصّ في دراسة هيغل. (المترجم)

تلقائيّةٍ قبْحمليّةٍ على إدراك كلّ شيءٍ، بما في ذلك عصير المشمش. وكما يبدو، فإنّ هذه الفلسفة قد أذهلت سارتر فعكف على دراسة هوسّرل واستيعابه، ومن ثمّ هيدجر في المرتبة الأولى! ولعلّنا نستطيع أن نرى ماذا جرى في أعمال سارتر: مديحٌ ذاتانيٌّ وديكارتيٌّ لمسألة الوجود قبالة الموضوع والجوهر، وأوّليّة الوجود على الجوهر، وسوى ذلك. لكنّه ليس بالعمل المهمّ مع التأثيرات العميقة لهوسّرل، وهيدجر الذي سرعان ما سينأى بنفسه بعيدًا عن سارتر. بالأحرى لقد كان عمله عبارةً عن نظريّةٍ ديكارتيّةٍ عن *الكوجيتو* في حقل الفينومينولوجيا المعمّمة، وهي بالتالي نظريّةٌ مشوّهةٌ. أمّا ميرلوبونتي، وهو فيلسوف ذو بعدٍ آخر، فسوف يتعيّن عليه أن يكون -بطريقةٍ أخرى- أكثر إخلاصًا لوهسّرل، وبصورةٍ خاصّة عند اكتشافه أعمال المرحلة الأخيرة، تحديدًا كتاب «التجربة والحكم»، وكتاب «دروس في الوعي بالزّمن» التي قام ميرولو بالتعليق عليها بصورةٍ رائعةٍ في محاضراته التي كان يلقيها في المدرسة العليا محاولًا فيها الرّبط بين نظريّة البراكسيس [الممارسة العمليّة] القبحمليّة عند هوسّرل، ونظريّة الحكم الطبيعيّ عند مالبرانش، والتفكير بالجسد الخاصّ عند بيران (Biran) وبرغسون (Bergson). كان كلّ شيءٍ واضحًا جدًّا. ولقد قالها لنا تاو على انفراد: «أنتم جميعًا ذواتٌ-أنداد متعالية!»، كان يضحك على الدّوام، ولكن أيّة حقيقةٍ عميقةٍ كانت في كلامه!

كان كلُّ شيءٍ شديد الوضوح بخصوص هوسّرل، فميرلو لم ينقطع عن التفكّر فيه حتى انتهى به الأمر إلى العودة إلى التّقليد الفرنسيّ الأشدّ رسوخًا -وأعني المذهب الرّوحيّ- ولكن بطريقته التي انطوت على براعةٍ فائقةٍ، والتي زيّنها بآراءٍ عميقةٍ حول الأطفال، وسيزان (Cézanne)، وفرويد، واللغة، والصّمت، والسياسة الماركسيّة والسوفييتيّة كذلك (انظر مؤلّفيه: «*الإنسانيّة والرّعب* Humanisme et Terreur»، و«*مغامرات الديالكتيك* Les Aventures de la dialectique»). لقد كان -وإن بطريقةٍ مختلفةٍ عن سارتر، ذلك الراوية الفلسفيّ، وعن فولتير (Voltaire)، وعن تصلّب روسّو الشخصيّ- فيلسوفًا كبيرًا، آخر

الفلاسفة في فرنسا قبل مجيء درّيدا العملاق، لكنّه لم يكن واضحًا بخصوص هيغل أو ماركس على الإطلاق. أتذكّر في هذا المقام ديزانتي على وجه الخصوص، فلقد كان على درجةٍ كبيرةٍ من الكفاءة في المنطق والرّياضيّات (وقد برهن على ذلك في كتبه). كان يفتتح دروسه في كلّ سنةٍ بمحاضرةٍ عن تاريخ المنطق شاقًّا طريقه بروحٍ قتاليّةٍ، بيد أنّه لم يكن يتجاوز أرسطو بتاتًا. إنّه أمرٌ قليل الأهميّة في المحصّلة. على أيّة حالٍ، فإنّ ما كان يعنيني هو أنّه حينما تحوّل إلى الحديث كفيلسوفٍ عن ماركس، فإنّه كان يتفكّره من خلال مقولات هوسّرل. ومثلما كان هوسّرل قد اقترح مقولته القبحمليّة الرّائعة عن البراكسيس (طبقةٌ حقيقيّةٌ من المعنى ترتبط بمداولة الأشياء)، فإنّ صاحبنا الطيب توكي (Touki) –وهو اسمه المتداول بين أصدقائه المقرّبين- كان سعيدًا للغاية بالعثور لدى هوسّرل على المعنى المؤسّس للبراكسيس الماركسي أخيرًا. وبذلك يكون توكي قامةٌ أخرى (مثل سارتر) تزعم أنّها أمدّت ماركس بالمعنى الحقيقيّ لفلسفته الخاصّة. بكلّ وضوحٍ، فإنّني –إذ كنتُ قد شرعتُ بفضل جاك مارتان في القراءة المباشرة لنصوص ماركس واستيعابها، وإذ كنتُ من جانبٍ آخر حانقًا بسبب ما يُزعم من وجود إنسانيّة تأسيسيّةٍ في نصوص ماركس الشّاب- لم أكن أتّفق مع ديزانتي. إنّني لم أتّفق معه بتاتًا بشأن «تأويلاته» الهوسرليّة لماركس، ولا مع أيّ تأويلٍ «إنسانويٍّ» لماركس. وقد تخمّنون السبب وراء ذلك: السبب أنّني أكره كلّ فلسفةٍ تدّعي أنّها تؤسّس بصورة متعاليةٍ قبليّةٍ معنًى ما وحقيقةً ما تقوم على قاعدةٍ أصليّةٍ هي الأخرى قبحمليّة كالفلسفة التي تقول بها. لم يكن لديزانتي ناقةٌ أو جملٌ في هذه المسألة سوى أنّه لم يكن يحمل الكره نفسه الذي كنتُ أحمله لهذا الشيء الأصليّ ولهذا التعالي.

لقد بدأتُ أشكُّ في «انقياده» حينما رأيته يسير على خطى لوران كازانوفا (Laurent Casanova)[115] –وهو كورسيكيّ مثله- في جميع مناوراته السياسيّة

(115) لوران كازانوفا (Laurent Casanova) 1906-1972: سياسيّ فرنسيّ، ناشطٌ في الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، وقد انتخب عضوًا في الجمعيّة الوطنيّة الفرنسيّة. (المترجم)

المتعلّقة بالعلم البورجوازيّ والعلم البروليتاريّ التي لم تنطلِ عليّ أبدًا. وفي كلّ مرّةٍ كنتُ ألتقي فيها فيكتور لودوك (Victor Leduc)[116]–وهو أحد الكوادر المهمّة في «مثقّفي» الحزب– كان يذكّرني بموقفي من مناقشات تلك الأيّام: «لقد كنتُ معارضًا للتمييز بين علمين اثنين، ولقد كنتَ عمليًّا متفرّدًا في رأيك من بين مثقّفي الحزب».

لقد سخر العمال من ذلك بصورةٍ تلقائيّةٍ تمامًا، وما أعلمه أنّ توكي –بدافعٍ من شعوره بالخجل– كتب «بناءً على طلبٍ» –كما قال في وقت لاحقٍ– مقالًا نظريًّا لا يمكن تصديقه في «*النقد الحديث* La Nouvelle Critique» بهدف «تأسيس» (القضيّة نفسها على الدّوام) نظريّة العِلْمين الاثنين داخل الصراع الطبقيّ. لكنّ أحدًا –للأمانة– لم يطلب منه أن يتبرّأ علنًا من وعيه وثقافته الفلسفيّة. لكنّه فعل ذلك، من دون أن يشفع له هذا في محاكمةٍ أمام المجلس المحليّ.

لكنّني أستطيع أن ألومه على الأسوأ من ذلك، وهو أمرٌ لا يمكن دحضه بالفعل، وأعني تلك الحلقة التلفزيونيّة التي قام بتصويرها بنفسه في عام 1975، والتي يتحدّث فيها عن نفسه. لقد ظهر بمفرده على الشّاشة مع كلبٍ صغير لامرأةٍ عجوز منهمكة في جعل الجرو يتنزّه بين مكانٍ وآخر (كيما يتبوّل فيه). كان توني يتحدّث بمفرده، كان يتحدّث عن المرحلة، وفترة العِلْمين الاثنين، وعن كيفيّة تجنيده. كلّ ذلك وتوني يتحدّث كأنّه مهرّج حقيقيّ (وقد كان موهوبًا في ذلك)، مهرّج يقصّ حكايةً بغيضةً، لقد جعلنا (أو استطاع أن يجعلنا) في عداد الأموات –وعلى كلّ حال فإنّه جعل من مارسيل برونان (Marcel Prenant)[117] رجلًا ميّتًا يمشي– كأولئك الرجال السّكارى في دعابةٍ قصيرةٍ: «هكذا كان الأمر، لقد قيل لنا إنّه علينا أن نفعل ذلك، وبالتالي فقد فعلناه»، كلّ ذلك في غضون عشر دقائق لا تُحتمل:

---

(116) فيكتور لودوك (Victor Leduc) 1911-1993: مقاومٌ، وناشطٌ في الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ وواحد من قادته القدامى. (المترجم)

(117) مارسيل برونان (Marcel Prenant) 1895-1984: ناقدٌ أدبيٌّ، ومؤرّخ للفنّ، وكاتبٌ فرنسيّ. (المترجم)

مونولوجٌ منفردٌ يتخلّله نداءات للجرو في الشوارع العريضة في لوكسمبورغ (Luxembourg)، وغمزاتٌ وتكشيراتٌ متواطئة، نعم! وذلك من أجل المشاهدين. لقد توجّب أن نفعل شيئًا: لقد غادر توكي الحزب منذ ذلك الحين، وانهمك في وظيفة جامعيّة محترمة. وقد قيل لي -مؤخّرًا- إنّه يعتزم مراجعة ماضيه الهوسرليّ، فلنرَ ماذا تكون النتيجة.

بعبارةٍ أخرى لقد كان لديّ العديد من الأسباب السياسيّة والفلسفيّة في الوقت نفسه كي أتحفّظ على إلهامه، وعلى المثال الذي انتهجه. بالتأكيد، فإنّ هذه «الحقيقة المزدوجة» لم تكن تناسبني. لم أكن أتصوّر أنّ في استطاعتي أن أكون فيلسوفًا يفكّر بعرق جبينه في المدرسة العليا، وأن أكون جروًا في مقطورة لوران كازانوفا الحزبيّة. إنّ وحدة الممارسة والنظريّة -وهي مسألةٌ جوهريّة لدى الماركسيّين والشيوعيّين (كورّيج!) تتنافي في نظري -وهو أمرٌ بديهيٌّ عند الجميع- مع وجود الحقيقة المزدوجة التي كانت تذكّرني بممارسات الكهنة المنتقدة بشدّةٍ من قبل هيلفيتيوس (Helvétius) وهولباخ (Hollbach) في القرن الثامن عشر. فأن تزعم أنّك فيلسوفًا ماركسيًّا، وأن تكون أيضًا في سنوات 1945-1950 من دون مبادئ عصر الأنوار نفسها -وذلك على الرّغم من أنّني لم أطق هذه الشراكة إلّا قليلًا- فهذا أمرٌ يفوق قدراتي.

لهذا السبب لم يكن لديّ في الفلسفة -كما كتبتُ في مقدّمة «*من أجل ماركس*»- أيُّ معلّمٍ حقيقيٍّ، أيّ معلّم ما خلا تاو، لكنّه غادرنا مسرعًا في عودته إلى فيتنام، حيث أفنته هنالك في آخر الأمر أعمال الكناسة والمرض من دون وجود أدويةٍ (وقد حاول أصدقاؤه الفرنسيون إيصالها إليه)، وكذلك ميرلو، لكن وبما أنّه بالفعل كان شديد الإعجاب بالتقليد الفرنسيّ الروحاني -هذا التقليد القديم المسيطر- فإنّني لم أستطع أن أتبعه.

لقد كان التّقليد الفرنسيّ غير المعقول، مع التّقليد الكانطيّ الجديد -كما يُدعى-

لدى برنشيفيك (Brunschvicg)[118] يتقاسمان الفلاسفة المعدودين جامعيًّا تقليدٌ أسّسه فيكتور كوزان (Victor Cousin)[119] بصورةٍ مؤسّساتيّةٍ في بداية القرن التاسع عشر (انظر الكتاب الأوّل الممتع للمؤلّف لوسيان سيف (Lucien Sève)) والذي استطاع من خلال عمله، وبصورةٍ خاصّةٍ من خلال برامجه الرّسميّة كما من خلال سائر خرافات المدرسة الانتقائيّة -التي كان الاشتراكيّ بيير لورو (Pierre Leroux)[120] قد حاربها بشدّةٍ- أن «ينجب» رافيسّون (Ravaisson)، برغسون، لوكييه (Lequier)[121]، وفرديناند ألكييه (Ferdinand Alquié)[122] مؤخّرًا. لن تعثر -خارج فرنسا- على تقليد موازٍ لهذا التقليد. لكنّه لن يخلو من «فضائل» طالما أنّه حافظ على فرنسا حتّى هذه السنوات الأخيرة كلّها (حتّى أعمال جول فويلمين (Jules Vuillemin)[123] وجاك بوفريس (Jacques Bouveresse)[124])، ويا لها من سخرية من ديالكتيك التاريخ، من غزو الوضعيّة المنطقيّة الأنغلو-سكسونيّة، ومن الفلسفة التحليليّة للغة الإنكليزيّة (وهي شديدة الأهميّة على كلّ حال). فما خلا هذين التيارين السائدين في الخارج، فإنّ عملًا كعمل فيتجنشتاين -وقد أظهر كلٌّ من جاك بوفريس ودومينيك لوكور (Dominique Lecourt) هذا الأمر جيّدا وأثبتاه- كان يبقينا نكراتٍ بالكامل في ذلك الوقت. ولكن ما عساها أن تكون تلك «الحماية» التي تتوسّل الجهل أو

---

(118) ليون برنشيفيك (Léon Brunschvicg) 1869-1944: فيلسوف فرنسيّ، يعد أحد فلاسفة العلوم، ومؤرّخ للفلسفة الفرنسيّة المثاليّة، وهو متأثّر بفلسفة كانط وسبينوزا. (المترجم)

(119) فيكتور كوزان (Victor Cousin) 1792-1867: فيلسوفٌ ومؤرّخ فلسفةٍ، وسياسيّ فرنسيّ، وزعيم المدرسة الانتقائيّة. (المترجم)

(120) بيير لورو (Pierre Leroux) 1797-1871: اقتصاديٌّ، وسياسيّ وفيلسوف ومترجمٌ فرنسيّ. (المترجم)

(121) جول لوكييه (Lequier) 1814-1862: فيلسوف فرنسيّ، له عملٌ غير مكتمل نشر بعد وفاته، وتتركّز فلسفته على الحريّة الإنسانيّة. (المترجم)

(122) فرديناند ألكييه (Ferdinand Alquié) 1906-1985: فيلسوف فرنسيّ، انشغل بالأدب والسورياليّة، وتأثّر بديكارت وسبينوزا وكانط. (المترجم)

(123) جول فويلمين (Jules Vuillemin) 1920-2001: فيلسوف عقلانيٌّ وإبستمولوجيّ فرنسيّ، يعد من أهمّ الفلاسفة في القرن العشرين. (المترجم)

(124) جاك بوفريس (Jacques Bouveresse) 1940-2021: فيلسوف فرنسيّ، تتعلّق فلسفته بلودفيغ فتجنشتاين والفلسفة التحليلية وفلسفة اللغة والعلم والمنطق. (المترجم)

النفور؟ لقد سبق لمكيافيللي أن قال: القلاع هي أكثر النقاط ضعفًا في أيّ نظام عسكريّ، كما قال لينين (Lénine) من بعد غوته (Goethe): *«إذا أردت أن تعرف عدوّك، فعليك النفاذ إلى بلاده»*، لكنّ هذا كلّه بلا قيمة. حتّى كانطيّة برنشفيك الجديدة، من خلال تشويهها سبينوزا في أكثر الصيغ الروحانيّة ابتذالًا، تلك الكانطية المتعلّقة بالوعي والرّوح. اليوم وقد خلصنا إلى ترجمة بعض النصوص، اليوم حيث أصبح لنا كامل الحق أخيرًا أن نستشهد بهايدجر من بعد نيتشه، اليوم وقد أعطانا بوفريس أعمالًا عميقةً جدًّا حول الوضعيّة المنطقيّة الجديدة، وحيث أصبحت أعمال فيتجنشتاين، أو هيغل، أو ماركس مترجمة على نحوٍ واسع، ومفسّرةٍ كذلك، فقد أصبحت الحدود مفتوحةً أخيرًا.

لكنّ الأمر لم يكن كذلك بين عامي 1945-1960. كان علينا «التعامل» مع ما نملكه. بالطبع كان لدينا ديكارت، ولكن من خلال بعض التأويلات الرّوحانيّة! باستثناء تأويلات إتيان غيلسون (Etienne Gilson)[125]، وإميل بربيه (Emile Bréhier)[126]، وهنري غوهييه (Henri Gouhier)[127] كذلك. غوهييه كان في جدال مع ألكييه الذي كان يفسّر ديكارت في صورةٍ روحانيّة. بالطبع كان هنالك مارسيال غيرول (Martial Guéroult)[128]، ذلك الرّجل البصير الذي لم يكن يجامل أبدًا في قراءة الآخرين، بعبارةٍ أدقّ لقد كان المؤرّخ الكبير في عصرنا، المؤرّخ الذي ينتمي إليه كلٌّ من جول فويلمين ولويس غويرمي (Louis Guillermit)

---

(125) إتيان غيلسون (Etienne Gilson) 1884-1978: فيلسوف ومؤرّخ للفلسفة الفرنسيّة. وقد اهتمّ بالفلسفة الوسيطيّة. (المترجم)

(126) ميل بربيه (Emile Bréhier) 1876-1952: فيلسوف فرنسيّ، اهتمّ بالفلسفة الكلاسيكيّة وتاريخ الفلسفة. (المترجم)

(127) هنري غوهييه (Henri Gouhier) 1898-1994: فيلسوفٌ فرنسي ومؤرّخ للفلسفة الحديثة. (المترجم)

(128) مارسيال غيرول (Martial Guéroult) 1891-1976: فيلسوف ومؤرّخ فلسفة فرنسيّ، اهتم على وجه الخصوص بفلسفة القرن السابع عشر. (المترجم)

[129]. لكنّ غيرول لم يكن آنذاك سوى «شارحًا» كبيرًا للآخرين، ولم نكن نشتبه في أنّه يمتلك في رأسه نظريّةً بنيويّةً عن النظم الفلسفيّة. لم يكن فويلمين وغويرمي معروفين من الناحية العمليّة. لقد استقدمتهم إلى المدرسة العليا، لكنّ فويلمين (تمامًا مثل بوفريس، تلميذه في البؤس) كان مليئًا بمشاعر الكراهيّة ضد العزلة الفكريّة التي كان يجد نفسه فيها مضطرًّا أن يرتّب أموره دائما كي يقلّص جمهوره إلى طالبين أو ثلاثة، ثمّ كان يأتيني بعد حين ليخبرني أنّه تخلّى عن الأمر! ولقد تكرّرت التجربة الغريبة نفسها مع بوفريس، الذي كان أصغر سنًّا بكثير. لقد كان «تلميذي»، الذي لم أتوقّف عن دعوته إلى المدرسة العليا. وأظنّ أنّني أستطيع أن أتفهّم لماذا اتّهمني بوفريس (ولعلّه ما زال يتّهمني بذلك) بأنّني كنتُ المسؤول عن الانحطاط الفلسفيّ الفرنسيّ، كما فعل في كتابه الأخير عندما اتّهم درّيدا بالتفاهات، هذا العملاق الذي نعته -كما نُعتَ هيغل في السابق- بأنّه «كلبٌ ميتٌ» (وإذا لم تكن العبارة بحرفها قد وردت، فقد ورد المعنى). إضافةً إلى قدرٍ آخر من الهذيان الواضح بشأن الفلاسفة.

لقد استقدمتُ غيرو لمدّةٍ طويلةٍ إلى المدرسة العليا. ولكنّ أيّةُ ورطةٍ! لقد كان عليّ أن أصحبه وأن أعيده بالسيّارة. لقد حقّق نجاحًا كبيرًا بين فلاسفة المدرسة العليا. كان ذلك بالضّبط حينما كان درّيدا -الذي عُيّن في المدرسة العليا بناءً على اقتراحي- وحيدًا ومُهملًا في الوسط الجامعيّ في فرنسا، لم نكن نعرفه بعد في الحقيقة، ولم أكن أعلم بعد أين يؤول حقًّا.

بالنسبة إليّ، أنا الذي كنتُ أستشعر ضرورة التدخّل في الفلسفة لأسباب سياسيّةٍ وإيديولوجيّةٍ، كان من الواجب أن «أتصرّف»، وأن أتعامل مع ما أملكه من معلومات: القليل من هيغل، الكثير من ديكارت، القليل من كانت، وقدرٌ لا بأس به من مالبرانش، قليلٌ من باشلار (العقل العلميّ الجديد)، الكثير من باسكال،

(129) لويس غويرمي (Louis Guillermit) 1919-1982: مؤرّخ فلسفة فرنسيّ، اهتم بأعمال أفلاطون، وكانت على وجه الخصوص. (المترجم)

وقليلٌ من روسّو في ذلك الوقت، وقليلٌ من سبينوزا، وقليلٌ من برغسون وكتاب «*تاريخ الفلسفة* L'Histoire de la philosophie» لبريهيه، وهو كتابي المفضّل، وأيضًا بطبيعة الحال قليلٌ -ثمّ لاحقًا قدرٌ لا بأس به- من ماركس، وهو الوحيد القادر على إخراجنا من دوكة هذه المذاهب.

في ضوء ذلك بدأت العمل، فنشرتُ في البداية بعض المقالات غير الواضحة (تلك المقالات التي كانت ما تزال تدور بعد في فلك الماديّة الديالكتيكيّة، على الرّغم من أنّني كنتُ أميّز بعنايةٍ بين الماديّة الديالكتيكيّة والماديّة التاريخيّة من دون أن أعطي أيّة أوّليّةٍ نظريّةٍ للأولى على الثانية) في «*مجلّة العلوم الفلسفيّة* La Revue de l'Enseignement philosophique»، كما نشرتُ أيضًا مقالًا عن بول ريكور (Paul Ricœur).

سنحت الفرصة لي أخيرًا للكتابة في مجلّة «La Pensée» في عام 1972، في ظروفٍ كنتُ قد ذكرتُها في مقدّمة كتابي «*من أجل ماركس*». وأنا لا أدين في ذلك إلّا إلى صداقة مارسيل كورنو (Marcel Cornu)[130] الذي دعمني بصورةٍ راسخةٍ في مواجهة جورج كونيو (Georges Cogniot)[131]، الذي كان سكرتير موريس توريز آنذاك. كان كونيو -وهو مدير المجلّة في ذلك الوقت- قد اعتاد على كيل الانتقادات العنيفة بحقّ سائر المقالات: أخرقٌ! غبيٌّ! سخيفٌ! أبلهٌ! فتخيّلوا -من ثمّ- حال المحرّر في مواجهة كاتب المقال! بالنسبة إليّ، لقد وضع مارسيل كورنو بكلّ بساطةٍ استقالته في الكفّة الأخرى، الأمر الذي جعل كونيو يقف عند حدّه.

وكان أن جاء ذلك اليوم الذي عقد فيه كونيو -بعد نشر مقالتي حول «التناقض والتحديد المتعدّد الجوانب» وبعد ردٍّ عنيفٍ من جيلبرت موري (Gilbert

---

(130) مارسيل كورنو (Marcel Cornu)1909-2001: نقابيّ، ومهندس مدنيّ، ومسؤول رفيعٌ، وناقدٌ فرنسيّ. (المترجم)

(131) جورج كونيو (Georges Cogniot) 1901-1978: كاتب، وفيلسوف وسياسيّ شيوعيّ فرنسيّ. (المترجم)

Mury)[132] حول «المذهب الأحاديّ»، بإيحاءٍ من روجيه غارودي (Roger Garaudy) الذي كان كلّيّ القدرة في تلك الأيام- «محاكمةً نظريّةً» في مباني مختبر هنري لانجوفين (Henri Langevin) في أورسل (Orcel)، وكان يترأس الاجتماعات محاطًا «بالنخبة» الفلسفيّة والسياسيّة في مجلّة «La Pensée». لقد كانت المحاكمة -بالمقارنة مع المجلس العموميّ- مسرحيّةً هزليّةً صغيرةً. استمرّ الأمر مدّة شهرٍ ونصف، في فترة ما بعد الظهيرة من كلّ يوم سبتٍ. لم يكن كونيو يتدخّل لكنّه كان يعطي دفّة الحديث لهذا أو ذاك ممّن يحاولون تفنيد آرائي. وعلى عادتي فقد كنتُ أرسم بعض المخطّطات على اللوح، وكنتُ أجيب على الانتقادات. في نهاية ست أسابيع، رأيت كونيو يبدأ في الابتسام: الحقيقة، لقد كنتُ مثله واحدًا من أبناء المدرسة العليا، وقد رأيتُ بأنّني -إن لم أكن قد كسبته إلى جانبي- فقد نزعتُ أسلحته على الأقلّ. في الاجتماع الأخير بعد انقضاء مدّة شهر ونصف أجبتهم بعبارة بسيطةٍ: «أحسبُ أنّني قمتُ بالردّ تقريبًا، وأظنّ أنّ الهيئات الفكريّة في الحزب التي لديها الكثير من المشاغل، تفعل خيرًا إذا أنهت هذه المحاكمة، والتفتت إلى الاهتمام بقضايا ملحّةٍ أكثر»، ثمّ خرجتُ ولم أعد.

لقد اكتشفتُ أخيرًا -وبفضل جاك مارتان- مفكّرين اثنين أدين لهما بكلّ شيءٍ تقريبًا. جان كافييس أوّلًا، والذي أكتفي منه ببعض العبارات («السيرورة ليست عمليّة جدليّةً، بل هي مفهوم»)، وجورج كانغيلام، هذا الرّجل الشهير بطبعه العويص، مثل جدّي ومثل هيلين، في الحقيقة إنّه يشبههما كرجلٍ رائعٍ في ذكائه وكرمه. لقد قبل في النهاية -وبناءً على إلحاح أصدقائه- أن يتقدّم بترشّحه إلى التعليم العالي. كان قد ألّف كتابًا بوحيٍ نيتشويٍّ حول الطبيعيّ والمرضيّ، كما كان قد كتب أيضًا مقالًا شهيرًا حول «علم النفس الذي ينتهي بك إمّا إلى كولّيج دو فرانس أو إلى مركز الشرطة»... وقد كتب -بغية قبوله في التعليم العالي- أطروحةً صغيرةً حول مفهوم الانعكاس مبيّنًا بالتفصيل هذه المفارقة التي تقول بأنّ فكرة

(132) جيلبرت موري (Gilbert Mury) 1920-1975: فيلسوف وسياسيّ فرنسيّ. (المترجم)

الانعكاس لم تولد في سياقٍ غير ميكانيكيّ، بل حيويّ!

لقد كان هذا التناقض الفاضح مدعومًا بنصوصٍ وبراهين لا تُدحض. الأمر الذي أمدّني بوجهات نظرٍ مدهشةٍ حول الآثار المرتدّة للإيديولوجيّات السائدة – في نتائجها– على العلوم نفسها. لقد تعلّمت منه بالتالي عدّة دروسٍ حاسمةٍ: أوّلها أنّ ما يُدعى بالإبستيمولوجيا –والتي يبدو أنّني قد أوليتها عنايتي– كانت نظريّةً سخيفةً خارج تاريخ العلوم؛ وأنّ هذا التاريخ بالتالي، البعيد عن الخضوع لمنطق عصر الأنوار، كان في استطاعته أن يخلص بناء على اكتشافاته، وانطلاقًا مما كنتُ أدعوه –وتقريبا مثلما كنّا ندعوه– «بنظريّاتٍ علميّةٍ»، إلى تمثيلات فلسفيّة مؤثّرةٍ على الصياغة، والتصوّرات، والمفهومات الفلسفيّة كذلك، وفي أغلب الأحيان بطريقةٍ متناقضةٍ بالكامل. إنّ هذا الدرس لن يفوتني. لكنّني لا أستطيع القول إلى أيّ مدىً كان تأثير كانغيلام حاسمًا بالنسبة إليّ، وكذلك بالنسبة إلينا. لقد جعلتني تجربته أنصرف، بل ونصرف (بحسبان أنّ باليبار (Balibar) وماشوري (Macherey) ولوكور قد تبعوه عن كثبٍ أكثر منّي) عن المشروع المثاليّ الذي كان قد أوحى إليّ بتعريفاتي النظريّانيّة الأولى عن الفلسفة بوصفها نظريّة عن الممارسة النظريّة، أي عن ممارسة العلوم، وهو مفهوم وضعيٌّ تقريبًا تكون الفلسفة فيه كأنّها «علم العلوم»، تعريفٌ سرعان ما سوف أصحّحه في تصدير الطبعة الإيطالية من كتاب *«قراءة رأس المال»* (في عام 1966). لم أره منذ مدّةٍ طويلةٍ، لكنّني أذكر ذات يومٍ –بعد أن قرأ كتبي– أنّه قال لي: «إنّني أعي ما تريد فعله»، لكنّني لم أفسح له في الوقت كيما يقول لي ما يعيه. كما أعلم أنّه في أحداث أيّار من عام 1968 قد سمح للطلّاب أن ينادوا إلى الدعوة إلى التظاهر، والإضراب وسوى ذلك. إنّني مدينٌ له إلى ما لا نهاية. لقد جعلني أدرك أيضًا تلك الحيل التاريخيّة المربكة عن العلاقات القائمة بين الإيديولوجيا والعلوم. وقد عزّز كذلك فكرتي التي تقول إنّ الإبستيمولوجيا هي بديلٌ عن نظريّة المعرفة، هذه الصورة الحديثة (منذ ديكارت وكانط) عن الفلسفة بوصفها حقيقةً، وبالتالي بوصفها ضمانة للحقيقة. الحقيقة التي لا تضمن شيئًا هنا

في نهاية المطاف سوى النظام القائم، والعلاقات الأخلاقيّة والسياسيّة بين الأفراد.

على هذا النحو عثرتُ على مكاني في ميدان الفلسفة على أرضيّة الخلافات التي لا تنتهي، التي هي في نهاية المطاف تجسيدٌ للمواقف المتّخذة في رهان الجميع على صراع الطبقات الاجتماعية. لقد كوّنتُ فلسفةً شخصيّةً، ولا أقول إنّها كانت فلسفةٌ تنكر الأسلاف، بل كانت شديدة الانعزاليّة في السياق الفلسفيّ الفرنسيّ، بحسبان أن الفيلسوفين الملهمين لي كافييس وكانغيلام كانا غير معروفين، أو مُغفلي الذكر، إن لم نقل منبوذين.

ثمّ كان أن ظهرت موضة الإيديولوجيا «البنيويّة»، التي كانت تطرح أفضلية القطع مع كلّ مذهب نفسانيّ وتاريخانيّ، والظاهر أنّني جريتُ على مجراها. ألم نعثر لدى ماركس على فكرةٍ غير تركيبيّة (تؤلّف بين أيّه عناصر مهما كانت)، ولكن على توليفةٍ بين عناصر مميّزة كفيلةٍ بأن تؤسّس الوحدة لنمط إنتاج؟ ألم يضع هذا الموقف البنيويّ والموضوعيّ نهايةً حاسمةً للإنسانيّة «الأنثروبولوجيّة» عند فويرباخ، والتي كنتُ أعرفها بدقّةٍ لأنّني كنتُ المترجم والناشر الأوّل لها في فرنسا بعد الترجمات الرّديئة جدًّا والمختصرة لجوزيف روي (Joseph Roy)، مترجم «*رأس المال* Le Capital» السيّء؟ لذلك، فقد كنّا منذ البداية، نصرّ على الاختلاف البنيويّ بين تركيبيّة (مجرّدةٍ)، وتوليفيّة (عيانيّةٍ)، وهذا هو أصل المشكلة برمّتها. ولكن هل من مجيب؟ إنّ أحدًا لم يكن يقظًا لهذا الاختلاف. لقد اتُّهمتُ في جميع أنحاء العالم بالبنيويّة، بتبرير ثبات البنى في النظام القائم، وباستحالة الممارسة الثوريّة، مع أنّني كنتُ على الرّغم من ذلك -فيما يتعلّق بلينين- أكثر من صاحب تصوّرٍ عامٍ لنظريّة عن الأوضاع. لكنّ هذا قليل الأهمية، فالأمر الرئيس كان في أن نجعل هذا الرجل المنعزل عرضةً لازدراء الآخرين، هذا الذي يزعم أنّ ماركس كان قد أقام فكره بناء على رفضه أيّ أساسٍ فلسفيٍّ لدى الإنسان، في طبيعة الإنسان، ماركس هذا الذي كان قد كتب: «أنا لا أنطلق من الإنسان، بل من المرحلة التاريخية المعنيّة»، وماركس هذا الذي كتب: «إنّ المجتمع لا يتألّف من أفراد ولكن من علاقات»، وسوى ذلك.

لقد كنتُ وحيدًا بالفعل في الفلسفة وفي السياسة، فلا أحد -ولا الحزب نفسه- ممّن كان قانعًا بهناءٍ في الإنسانيّة الاشتراكية، كان راغبًا في الاعتراف بأنّ نزعة عداء الإنسانيّة النظريّ هي الوحيدة التي تجيز إنسانيةً عمليّةً حقيقيةً. كان ذلك هو روح العصر، المدعوم -إذا أمكن- بأولئك اليساريّين المشبوهين في ثورة أيّار الرائعة لعام 1968، وكان عصر الديماغوجيّات إيمانًا وممارسة، لا عصر النظريّة على الإطلاق. قلّةٌ نادرةٌ أولئك الذي قبلوا أن يتفهّموا أسبابي وأهدافي. وحينما تخلّى الحزب عن ديكتاتوريّة البروليتاريا «كأنها كلب يُهجر»، كان كلُّ شيءٍ قد خاب. لم يقف في مواجهتي رهط الفلاسفة فحسب، أولئك الذين كانوا قد ألّفوا الكتب ضدّ فوكو وضدّي «*من أجل الإنسان* Pour L'homme» (ميكيل دوفرين (Mikel Dufrenne) وآخرون)، ولكن كذلك سائر منظّري الحزب الذين أعلنوا صراحةً أنّهم لم يكونوا معي في الرأي، ولم يساندونني إلّا لأنهم لم يستطيعوا -بسببٍ من شهرتي- إقصائي خارج الحزب. كانت تلك مرحلة رائعة! لقد استطعت أخيرًا أن أبلغ أقصى أمنياتي: أن أكون محقًّا في كوني وحيدًا قبالة الجميع.

لكنّني حقيقةً لم أكن وحدي تمامًا. لقد وجدت بعض العزاء مع لاكان. كنتُ قد لاحظتُ ملاحظةً خبيثةً في واحدة من مقالاتي المنشورة في *مجلّة العلوم الفلسفيّة* بأنّه كما كان ماركس قد رفض «الإنسان الاقتصاديّ»، فإنّ لاكان قد رفض مثله تمامًا «الإنسان النفسانيّ»، ثمّ أخذ يستخلص النتائج من ذلك. بعد عدّة أيّامٍ اتّصل بي لاكان، ثمّ تناولنا طعام العشاء عدّة مرّاتٍ معًا. لقد أدّيتُ مع لاكان -بصورةٍ تلقائيّةٍ- دور «والد الوالد»، لاسيّما أنّه كان يمرّ في وقتٍ عصيبٍ. أتذكّر سيجاره العجيب في فمه، وأنا أقول له، بكلّ سلامٍ: «لكنّك تراوغ!» (هو، وليس أنا، بالطبع). غالبًا ما كان يقوم في أثناء المحادثة بالتشهير بعددٍ من «تحليلاته»، ولا سيّما تلك المتعلّقة بالنساء التي كان يتوصّل فيها إلى تحليل الأزواج أيضًا في الوقت نفسه. لقد عرضتُ عليه -بالنظر إلى أنّه كان يشعر بالضيق منذ أن هُدّد بالاستبعاد من مستشفى سانت آن- الاستضافة في المدرسة العليا. ومنذ ذلك يوم، وعلى مدى عدّة

سنواتٍ، سوف يغصّ شارع أولم -في وقت الظهيرة من كلّ أربعاء- بالسيّارات الإنكليزيّة الفارهة التي كانت تتعدّى في تجاوزها على الأرصفة جميعها، وسط استهجانٍ عظيمٍ من قبل سكّان الحيّ. لم أحضر أبدًا أيّة حلقةٍ دراسيّةٍ للاكان. كان يتكلّم في قاعةٍ مكتظّةٍ تعبق بدخان السجائر، وهو ما سيؤدّي إلى الإضرار بلاكان في وقتٍ لاحقٍ؛ بحسبان أنّ هذا الدخان كان يتسلّل إلى قاعات المكتبة الثمينة، وهكذا لم يعد في استطاعة لاكان -مع تحذيرات مدير المدرسة العليا روبير فلاسوليير (Robert Flacelière) الصّارمة- أن يحصل إلّا على مستمعين يمتنعون عن التدخين. ثم جاء اليوم الذي أخبر فيه فلاسوليير -وقد ضاق ذرعًا بدخان السجائر- لاكان بإعفائه. كنتُ آنذاك بعيدًا عن المدرسة، بداعٍ من المرض. اتّصل لاكان بي، وقد ألحّ على هيلين -خلال أكثر من ساعةٍ- لكي تعطيه عنواني، حتّى إنّه قال لها في لحظةٍ معيّنةٍ من حديثه معها: «لكنّني أظنّ أنّني أعرف هذا الصوت جيّدًا، فمن تكونين إذًا؟»، لتردّ عليه هيلين قائلةً «صديقةٌ». وهذا كلّ شيء. على هذا النحو، سوف يكون على لاكان المغادرة، ولكن وسط احتجاجات كبيرةٍ على رحيله.

مع ذلك، ومن دون أن أستطيع التشبّث به أكثر (إذ أنّه لم يعد في حاجةٍ إليّ بكلّ بساطةٍ)، فقد بقي نوعٌ من الصداقة يجمعني بلاكان. كما أنّ الفرصة قد أُتيحت لنا أيضًا -من خلال بعض الوسطاء- كي نتواصل مع بعضنا البعض.

لقد تعزّزت لديّ منذ أمدٍ بعيدٍ الفكرة القائلة بأنّه ثمّة على الدّوام، وفي كلّ مكانٍ، «نفقات إنتاجٍ نثريّةٌ» -كما يقول ماركس- أو «نفايات»، وخساراتٌ غير منطقيّة ولكن لا سبيل إلى تداركها. ولقد وجدتُ لدى مالبرانش إرهاصًا بذلك حينما يصف «البحر، والرّمال الناعمة، والطرقات العريضة» التي تتساقط الأمطار عليها من دون أيّة إمكانيّةٍ لتعيين الغاية من ذلك. لذلك كنتُ أتأمّل في «تاريخي» الخاصّ عن الفلسفة الماديّة التي «تركب القطار المنطلق» من دون أن تعرف من أين جاء، ولا إلى أين يصير. كما كنتُ أفكّر في تلك «الرّسائل» التي -وإن كانت قد أرسلت

عبر البريد- فإنّها لا تصل أبدًا إلى متلقّيها. بيد أنّني قرأتُ ذات يومٍ عبارة لاكان التي يقول فيها بأنّ «الرسالة تصل دائمًا إلى متلقّيها». يا لها من مفاجأةٍ! لكنّ القضيّة تعقّدت على يد طبيبٍ هندوسيٍّ شابٍّ كان يقوم بتحليلٍ صغيرٍ لدى لاكان، حينما تجرّأ في النهاية على أن يسأله السؤال التالي: «إنّك تقول إنّ الرّسالة تصل دائمًا إلى صاحبها. لكنّ ألتوسير يؤكّد نقيض ذلك: فقد يحدث أنّ الرّسالة لا تصل إلى صاحبها. فما هو رأيك في مقولة هذا الرّجل الماديّ؟». تأمّل لاكان مدّة عشر دقائق (لقد احتاج عشر دقائق!)، ومن ثمّ أجابه ببساطة: «إنّ ألتوسير ليس مُمارسًا». لقد أدركتُ أنّه محقٌّ: ففي الواقع، إنّ الحيّز العاطفيّ -في علاقات التحويل المتعلّقة بالعلاج النفسيّ- يكون مبنيًّا بصورةٍ لا يوجد فيها أيّ فراغٍ، ومن حيث النتيجة فإنّ كلَّ رسالةٍ يكون اللاشعور قد أرسلها بالفعل إلى لا شعور الآخر، تصل إليه على وجه الضّرورة. مع ذلك، فإنّني لم أكن راضيًا تمام الرّضى عن تحليلي: لقد كان لاكان محقًّا، لكنّني كنتُ كذلك أيضًا. وقد كنتُ أعلم أنّ لاكان لا يستحقّ في شيءٍ أن يُتّهم بكونه مثاليًّا، وأنّ مفهومه عن ماديّة الدّال بكامله يقف شاهدًا على ذلك. لهذا السبب، فقد بيّنتُ النتيجة. لقد كان لاكان يتكلّم من وجهة نظر الممارسة التحليليّة، أمّا أنا فكنتُ أتكلّم من وجهة نظر الممارسة الفلسفيّة، وهذان مجالان مختلفان بحيث لا أستطيع -إذا ما كنتُ منسجمًا مع نقدي للماديّة الديالكتيكيّة التقليديّة- أن أخفّض من شأن أحدهما على حساب الآخر، فلا أقلّل من شأن المجال الفلسفيّ على حساب المجال التحليليّ والعكس صحيح، ولا أقلّل بالتالي من شأن الممارسة الفلسفيّة على حساب الممارسة العلميّة والعكس صحيح. هذا هو ما يجعلنا نحن الاثنين على صوابٍ، لكنّ أيًّا منّا لم يرَ جوهر اختلافنا بوضوحٍ. على كلّ حالٍ، فإنّني ما أزال أحمل كثيرًا من التقدير حيال بصيرة لاكان، الذي -وعلى الرّغم من الالتباس الذي يحيط بعددٍ من كلماته (الكلام الفارغ والكلام المليء في «*خطاب روما* Discours de Rome»)- قد تنبّه، بصورةٍ انعكاسيّة قد لا تكون متبصّرة على وجه الحقيقة، إلى تلمّس هذا الاختلاف، وإلى «إبرازه».

لقد أُتيحت لي مرّةً أخرى -وفي اللحظة الأخيرة (إذ كان يُحتضر)- فرصة اللقاء مع لاكان. حدث ذلك في لقائه العلنيّ الأخير الذي انعقد في فندق PLM. كان أحد الأصدقاء المقرّبين جدًّا -والذي لم تعد بي رغبةٌ إلى رؤيته مجدّدًا في أعقاب تصرّفه الشّائن- قد ألحّ عليّ من أجل حضور الجلسة «في سبيل المؤازرة». بيد أنّ هذا الصديق اختفى، من دون أن يقول شيئًا. لقد تركني. دخلتُ القاعة الكبيرة وأنا لا أحمل أيّ تصريح بالدّخول، وإذ اقتربت مني فتاةٌ لتسألني عن صفة دعوتي، أجبتها: «بصفة الرّوح القدس الذي هو اسم اللبيبدو الآخر». ثمّ مشيتُ بكلّ جلاءٍ في الممرّ الفارغ العريض الذي يفصل بين مجاميع الجمهور الصامت. كنتُ أتقدّم ببطءٍ كبيرٍ، وأنا أضع الغليون في فمي. توقّفتُ، ثمّ -وبحركات مدروسةٍ بعنايةٍ كبيرةٍ على الدّوام- قرعتُ الغليون بكعب حذائي، وحشوته بالتبغ وأشعلته. ثمّ توجّهتُ نحو لاكان وصافحته شادًّا على يديه لوقتٍ طويلٍ. لقد كان -وبصورةٍ واضحةٍ- منهكًا للغاية بعد أن أنهى خطابه الطويل. لقد أبديتُ في سلوكي حيال هذا الشيخ الكبير -الذي كان يرتدي مثل المهرّج سترةً من نسيج التويد المزيّن بنمطٍ واحدٍ من مربّعاتٍ زرقاء- كامل الاحترام الذي كان يلهمني إيّاه. ثم بدأتُ الكلام بعد ذلك «باسم المحلّلين» متوجّها باللّوم العنيف حيال الحاضرين لعدم الكلام عن ذلك. بعدئذٍ انطلق صوتٌ مستنكرٌ يقول: «بأيّ هراءٍ يتكلّم هذا الرّجل؟» لكنّني تابعتُ الحديث بكلّ اتّزانٍ. لقد نسيتُ ما تكلّمتُ به، لكنّني لن أنسى ما أحدثته مداخلتي من مشاعر، وجلبةٍ صامتةٍ. لقد أردتُ متابعة النقاش بعد انتهاء لاكان من خطابه، بيد أنّ الجميع أخذوا بالانصراف.

باختصارٍ، لقد التقيتُ لاكان في وقت قريبٍ جدًّا وهو في وضعٍ مأساويٍّ. كان ذلك في صباحٍ باكرٍ جدًّا، حينما قُرع بابي في المدرسة العليا. كان لاكان هو الطارق، وكان في حالةٍ مروّعةٍ وقد ضاعت معالمه. إنّني أروي تفاصيل ما جرى بشقّ الأنفس. كان قد جاء إليّ كي يُعلمني -«قبل أن يصلني الخبر من خلال الشائعات التي سوف تضع لاكان نفسه، بصورةٍ شخصيّةٍ، في محل الاشتباه»- بانتحار لوسيان

صبّاغ (Lucien Sebag)[133] الذي كان لاكان يقوم بتحليل حالته. كان على لاكان أن يترك لوسيان لأنّ الأخير قد وقع في غرام ابنته المدعوّة: جوديث (Judith). لقد أخبرني لاكان بأنّه انتهى من القيام «بطوافٍ حول باريس» لغاية أن يشرح الموقف لسائر أولئك الذين من المحتمل أن يلتقيهم، وبهدف أن يضع حدًّا لسائر «الاتّهامات التي تنسب إليه الضلوع في جريمة القتل، أو التقصير من جانبه». كان مذعورًا بصفةٍ كلّيّةٍ، وقد بيّن لي أنّه لم يعد يستطيع أن يتابع تحليل حالة صبّاغ منذ أن وقع هذا في غرام جوديث: «فهذا أمرٌ مستحيلٌ لأسباب تقنيّةٍ». لقد أخبرني أنّه لم ينقطع -مع ذلك- عن رؤية صبّاغ كلّ يومٍ خلال هذه الفترة، حتّى إنّه قد رآه في الليلة السابقة. كان لاكان قد أجاب صبّاغ -الذي اتّصل به في ساعةٍ ما- بأنّ لديه سيّارة مارسيدس (Mercedes) فائقة السرعة. مع ذلك، فقد أطلق صبّاغ رصاصةً في الرّأس عند منتصف الليل، ثمّ تمكّن من إطلاق الثانية، وكانت الطلقة الثالثة قرابة الساعة الثالثة فجرًا. لا أخفيكم أنّني لم أعرف ماذا أقول للاكان. لكنّني كنتُ أرغب في أن أسأل لاكان عن إمكانيّة «تدخّله» من أجل حماية صبّاغ من خلال تقديم الرّعاية الطبّية له في المستشفى. ولربّما كان لاكان سيجيبني بأنّ «القاعدة» التحليليّة لا تقضي بذلك. على كلّ حالٍ، لم أتطرّق إلى موضوع الحماية التي تقدّمها الرّعاية الطبّيّة في المستشفى. كان لاكان ما زال يرتعد بصورةٍ مستمرّةٍ حينما غادرني في ذلك الصباح الباكر كي يواصل جمع زياراته. لطالما تساءلتُ كثيرًا عمّا كان لاكان سيفعله إزاء حالتي فيما لو كنتُ أحد مرضاه، وهل كان ليتركني من دون حمايةٍ (إذ كنتُ أرغب في قتل نفسي على نحوٍ دائمٍ) كيلا ينتهك أدنى «قاعدة» تحليليّةٍ. لقد كان محلّلي النفسيّ يعلّق -في السابق- أعظم «الآمال» على لاكان، لكنّه تخلّى عن ذلك منذ أن تنبّه إلى أنّ لاكان «لا يقدر مطلقًا أن يستمع إلى الآخر». لقد تساءلتُ أيضًا عمّا كان لاكان سيفعله مع هيلين، وهو ما يزال يمشي على هدي «قواعده»

---

(133) لوسيان صبّاغ (Lucien Sebag) 1934-1965: إناسيٌّ ماركسيّ فرنسيّ، وهوتلميذ كلود ليفي ستراوس. (المترجم)

الشهيرة، هذه الأوامر التي لا تقبل الطعن، وهذه «القواعد» التقنيّة البسيطة والعامّة التي لم يفكّر فيها لا فرويد ولا أتباعه. لاكان الذي كان أخبرني هو بنفسه في لقائنا الأوّل بأنّه منهمكٌ في تحليل كثيرٍ من نساء طلّابي القدامى، ونساء مرضاه. لقد ألقى هذا الحادث في نفسي آراءً غريبة حول الشروط الرّهيبة للتحليل النفسيّ و«قواعده» الشهيرة. لذلك فإنّني -إذا كان ذلك ممكنًا- ألتمس العذر منكم على هذا النقل الأمين لما جرى، لكنّني ومن خلال صبّاغ المسكين الذي كنتُ أحبّه كثيرًا، وجوديث التي كنتُ أعرفها بما فيه الكفاية (وهي التي سوف تتزوّج من جاك آلان ميلر (Jacques-Alain Miller)[134]، تلميذي القديم)، وجدتُ أنّني معنيٌّ بالقضيّة أيضًا.

«إنّها قصتك أيضاً»، لكنّ «القصّة» هذه المرّة كانت مأساة، ليس بالنسبة إلى صبّاغ فقط، ولكن بالنسبة إلى لاكان على وجه الخصوص. لاكان الذي لم يكن لديه آنئذٍ من شاغل واضح سوى سمعته المهنيّة، والفضيحة التي يمكن أن ترتدّ إليه. وليتفضّل أولئك المحلّلون النفسيّون الذي تقدّموا إلى مجلّة «Le Monde» بعريضةٍ يستنكرون فيها «طرائق» محلّلي النفسيّ بشهادتي هنا أضعها بين أيديهم.

لقد حدث في عام (1974) أن أُتيحت لي الفرصة للسفر إلى موسكو من أجل المؤتمر الدوليّ للفلسفة الهيغيليّة. لم أذهب إلى المؤتمر إلّا كي ألقي خطابي الذي حُدّد موعده في الجلسة الأخيرة ضمن قاعة الاحتفالات الواسعة. تكلّمت في الخطاب عن ماركس الشاب، وعن الأسباب العميقة التي تقف وراء تطوّره. عندما انتهيت من خطابي، وقد كانت جريدة «البرافدا Pravda» قد أعدّت تقريرًا عنه... سلفًا، كان الصمتُ الرسميّ مخيّمًا، بيد أنّ بعض الطلّاب لم يغادروا القاعة، فتقدّموا منّي وأخذوا يطرحون الأسئلة: ما هي البروليتاريا؟ ما هو الصراع الطبقيّ؟ كان من الواضح أنّهم لم يفهموا ما كنتُ أتحدّث عنه. لقد أدهشني ذلك، وإنّ كان عليّ أن

(134) جاك آلان ميلر (Jacques-Alain Miller) 1944-؟: محلّل نفسيّ فرنسيّ، وهو صاحب قراءة متميّزة لنصوص جاك لاكان، وهو وريثها القانوني بحسب وصيّة لاكان نفسه. (المترجم)

أدرك حقيقة الأمر بسهولةٍ.

لقد فهمت المسألة لأنني -وعلى مدى ثمانية أيّام لم أكن أذهب فيها إلى المؤتمر- قد تعرّفتُ بفضل صديقي العزيز جدًّا ميراب (Merab)، وهو فيلسوف جورجيّ نابغةٌ لم يكن يرغب في مغادرة الاتحاد السوفييتي مطلقًا -على غرار ما فعل صديقه- («لأنّك تستطيع على الأقلّ أن ترى الأشياء عاريةً هنا، ومن دون تصنّع»)، أقول قد عرّفني على مجموعةٍ طيّبةٍ من السوفييت من مختلف المشارب، وقد تحدّثتُ مع هؤلاء الذين أخبروني أيضًا عن بلدانهم، وعن الشروط السياسيّة والفكريّة القائمة، وقد فهمتُ عددًا هائلًا من الأشياء، وقد ثبتت لديّ سائر تلك الأمور الخطيرة المتعلّقة بالاتّحاد السوفييتي التي استطعتُ قراءتها منذ حين.

ليس الاتحاد السوفييتي بالبلد الذي يُوصف لنا عادةً. بالطبع، إنّ أيّ تدخّلٍ علنيٍّ في الحياة السياسيّة ممنوعٌ، ومحفوفٌ بالمخاطر، ولكن بالنسبة إلى باقي الأمور، فيالها من حياة! ففي المقام الأوّل، إنّه بلدٌ شاسعٌ، وجدَ حلًّا لمشكلة الأمّية والثقافة على نطاقٍ غريبٍ حتى بالنسبة إلينا. وبعد ذلك، إنّه بلد يكفل الحقّ في العمل، وهو أيضًا -إذا صحّ التعبير- حقٌّ مخططٌ وإلزاميٌّ: فقد ثبت -منذ إلغاء سجل العمل- وجود إمكانيّة مدهشةٍ لتنقّل العمّال. أخيرًا، إنّه بلدٌ تجد فيه الطبقةَ العاملةَ على درجةٍ كبيرةٍ من القوّة إلى درجة أنّها تفرض الاحترام لنفسها، وتمنع الشرطة من دخول المصانع أبدًا. وهذه الطبقة العاملة تجد متنفّسًا لها في تعاطي الكحول، وتعاطي العمل في السّوق السّوداء، من خلال سرقة أموال المرافق العامّة في سبيل العمل الذي يرعى مصالح الأفراد. إنّه بلدٌ مركّبٌ على مستويين اثنين دائمًا، فهنالك العمل الأسود في الصناعة، وفي قطاع التعليم، وفي القطاع الطبّي، وفي القطاع الزراعيّ (بصورةٍ ذات طابعٍ رسميّ). لقد علمتُ منذ مدّةٍ -وهو ما كنتُ أجهله في ذلك الوقت- بأنّ هنالك طواقم تتألّف الآن بين العمّال الذين يبيعون خدماتهم بثمنٍ غالٍ جدًّا إلى المشاريع كي تتدارك هذه التأخير في تنفيذ الخطّة. إنّه أمرٌ لا يمكن تصوّره لدينا بحسبان أنّ «أرباب العمل» ليسوا هم من يفرض أسعارهم، بل هي طواقم الرّفاق

التي تتنظّم من أجل بيع خدماتها إلى المشاريع المتأخّرة. وأحسبُ أن ك. س. كارول (K.S.Karol)[135] الذي يعرف الاتّحاد السوفييتيّ جيّدًا حيث قضى فيها سنوات عديدةٍ في سياق رحلة الأوديسة العجيبة الخاصّة به، التي رواها في كتابه الرّائع «*سوليك: مصاعب شابٍّ بولنديٍّ في روسيا خلال فترة الحرب* Tribulations d'un jeune homme polonais dans la Russie en guerre: Solik»، أحسب أنّه كان محقًّا: فمع ظهور أجيالٍ جديدةٍ متعطّشةٍ إلى السلع الاستهلاكيّة، بناءً على محاكاة ثقافيّة لافتةٍ جدًّا، وعلى أساس نزعةٍ وطنيّةٍ تغذّيها ذكرى عشرين مليون قتيل في الحرب الوطنيّة العظمى، على الرّغم من الممارسات المتعلّقة بالسجون وطبّ الأمراض العقلية، التي نملك مثلها أيضًا في فرنسا ولكن على صعيدٍ آخر (وإن تكن لأسباب ليست سياسيّةً مباشرةً على الدّوام، ولكن ما هو الفارق في الجوهر؟)، وعلى أساسٍ آخر من التّدمير الشامل لطبقة الفلّاحين، وطريقة عيشها التقليديّة، وحتى خبرتها (فقد أصبح الفلّاحون يعرفون من خلال الراديو مواعيد الزراعة والحصاد!!! فأيّ اختلافٍ عن الصين!!) يمكن أن نترقّب بصبرٍ -ولكن بصورةٍ معقولةٍ- حدوث تغييرات بطيئةٍ في الاتّحاد السوفييتيّ. يجب أن نترك للجيل الجديد فرصته، ولغورباتشوف (Gorbatchev) الذي هو الرجل المناسب للمرّة الأولى في تاريخ الاتّحاد السوفييتي. إنّني أرى -بشكلٍ واضحٍ- أنّ الاتحاد السوفييتي هو صحراءٌ فلسفيّةٌ حقيقيّةٌ. لقد تُرجمت كتبي هنالك، كما تُرجم كلّ شيءٍ ظهر في الخارج، لكنّها وضعت في «الدرك الثالث الجهنّميّ» من رفوف المكتبات، وهي متاحةٌ فقط لأهل الاختصاص الموثوقين من الناحية السياسيّة. لقد كان كلّ ما استطاع أن يقوله لي عميد كليّة الفلسفة حينما رافقني إلى مطار موسكو هي هذه العبارة: «فلتنقل تحيّاتي الحارّة إلى نساء باريس الصغيرات!!»

(135) ك. س. كارول (K.S.Karol) 1924-2014: صحفيّ فرنسيّ من أصول بولونيّة، متخصّص في البلدان الشرقيّة، ومقرّب من اليسار المتطرّف الإيطاليّ. (المترجم)

الفصل السادس عشر

السياسة؟ أظنّ أنّكم تترقّبونني في هذا الفصل المتعلّق بها. وفي حقيقة الأمر، لكان عليّ الحديث إلى ما لا نهايةٍ بيد أنّ هذا ليعدّ من قبيل سوالف القصص القصيرة: وليس هنالك من فائدةٍ فيها من أجل «الجينالوجيا» ذات الأثر الرّجعيّ لانتكاساتي ذات التأثيرات النفسيّة. قصص قصيرة؟ سوف تجدون الكثير منها في كلّ مكانٍ، وعلى وجه الخصوص ما هو معدٌّ «للبيع». لكنّني لا ألتفتُ إلى ذلك. لقد ذكرت سابقًا بالفعل أنّني لن أستبقي هنا من سيرة حياتي سوى الأحداث أو ذكرياتها، التي -وقد تركت بصماتها عليّ- ساهمت في تكوين بنيتي النفسيّة، أو الأحداث التي ساهمت على وجه الخصوص -إن لم يكن على نحوٍ دائمٍ- في تقوية هذه البنية من خلال الأثر الرّجعيّ لمراجعاتٍ لا تنتهي، أو الأحداث التي ساهمت في تغيير رغباتي -في خضم تضاربها- إلى أشكالٍ غريبةٍ عن الأشكال الأولى، في الظاهر على الأقلّ.

وأنا الآن مدينٌ للقارئ بإعادة التذكير بحوادث لا يجهلها.

لقد قام الحزب بأداء دورٍ كبيرٍ في مقاومة الاحتلال النازيّ. ومما لا جدال فيه أنّ قيادته في شهر حزيران/ يونيو من عام 1940 كانت تتبع نهجًا هدّامًا. كانت نظريّة الأمميّة الثالثة التي كانت تدير في حقيقة الأمر سائر الأحزاب الشيوعيّة، تحت سلطة ستالين الكبيرة، (حتّى الحزب الفرنسي، الذي كان «يتحكّم فيه» مندوب الأمميّة فريد (Fried) التشيكي، وهو رجلٌ رائعٌ كما يبدو، وبكلّ تأكيدٍ فإنّ توريز يدين له بالكثير) تقوم على أنّ الحرب هي حربٌ امبرياليّةٌ بحتةٌ تتعارض فيها الأهداف

الامبرياليّة البحتة للفرنسيين والإنكليز مع ما يقابلها من أهدافٍ لدى الألمان. يجب أن ندعهم يمزّقون بعضهم البعض، فيما يترقّب الاتّحاد السوفييتي كيلا يخاطر بنفسه عبثًا. وإذا كان هذا الأخير قد أبرم اتفاقات ألمانيّة-سوفييتيّة فإنّ السبب كان بسيطًا جدًّا: لقد كانت الديموقراطيّات الغربيّة، قبل اتّفاقيات ميونيخ (Munich)[136] بوقتٍ طويلٍ، تتبرّم من وجوب احترامها لتعهّداتها، وكان السبب في ذلك بلا شكٍّ هو الخوف من هتلر والافتتان بشخصيّته، كما كان ذلك بفضل ذلك المبدأ الشهير القائل إنّ «هتلر خيرٌ من الجبهة الشعبيّة»، وإنّ النازيّة خيرٌ من الجبهة الشعبيّة، فما بالك بالثورة البروليتاريّة. نتفهّم أنّه كان لدى كلٍّ منّا ومن البورجوازيّة حجّته المؤيّدة. لقد تفاوض الاتّحاد السوفييتي بطريقةٍ مخيّبةٍ للآمال -بعد الهزيمة الكبرى الأولى التي مُنيت بها الحركة العمّاليّة في إسبانيا، حيث كان تدخّله على نطاق واسعٍ (من خلال تقديم أسلحةٍ، وطائرات، وفرقٍ أمميّةٍ)- من أجل الوصول إلى اتّفاقٍ مع الديموقراطيّات الغربيّة. بيد أنّ دالادييه (Daladier)[137]، وتشامبرلين (Chamberlain)[138]، لم يمتلكا «الشجاعة» في الالتزام الواضح باحترام تعهّداتهما السياسيّة والعسكريّة الرّسميّة: لقد كان عليهما أن يقدّما الحجّة العلنيّة لتخلّيهما عن تشيكوسلوفاكيا (Tchécoslovaquie)، وإقليم السّوديت (Sudètes) أوّلًا، ومن ثمّ كامل البلاد. وفي ذلك الوقت، لم يكن هناك أيّ حظرٍ – كما سيكون الحال عليه لاحقًا في حالة بولندا الفاشيّة- يحول دون تدخّلهما.

إنّ البرهان لا جدال فيه؛ فالوقائع واضحةٌ، والمؤرّخ مهما كان قليل العناية، فهو

(136) اتفاقيات ميونيخ: هي اتّفاقيّة جرت في ميونيخ بين ألمانيا النازيّة وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وكانت بمنزلة تسويةٍ تسمح لألمانيا النازيّة بضم منطقة السوديت التابعة لتشيكوسلوفاكيا (آنذاك) التي يعيش فيها مواطنون ناطقون بالألمانية، في محاولةٍ لاحتواء ألمانيا النازيّة وتجنّب اندلاع حرب عالميّة أخرى. (المترجم)

(137) إدوار دالادييه (Édouard Daladier) 1884-1970: سياسيّ فرنسيّ تولّى رئاسة الوزارة في فرنسا ثلاث مرات بين عامي 1933-1940. (المترجم)

(138) نيفيل تشامبرلين (Neville Chamberlain) 1869-1940: رئيس وزراء ووزير بريطاني، سياسيّ ينمي إلى حزب المحافظين. (المترجم)

لن يعترض عليها. بيد أنّ الاتّحاد السوفييتي -وعلى الرّغم من هذه الوقائع، والشكوك العميقة التي أقامتها هذه الوقائع- تابع محاولاته الرّامية إلى إقامة جبهةٍ موحّدةٍ مع الديموقراطيّات الغربيّة في وجه هتلر الذي كان يتحوّل أكثر فأكثر ليصبح معتوهًا متعطّشًا إلى المجال الحيويّ، إلى سهول أوكرانيا الغنيّة في المقام الأوّل. وبالطبع في اتّجاه الشّرق، بعيدًا جدًّا عن فرنسا وإنكلترا. في هذه الظروف، وإذ أصبح الهجوم الهتلريّ على بولندا وشيكًا، وإذ منع بيلسودسكي (Pilsudski)[139] -هذا البولنديّ الفاشيّ- الجيش الأحمر من العبور فوق أراضيه من أجل الاشتباك مع قوّات الفيرماخت [القوات الألمانية المسلّحة النظاميّة]، فقد توجّب على الاتّحاد السوفييتي أمام هذا الوضع الواضح والجبن التاريخيّ لحلفائه الغربيين، أن يعقد العزم على إجراء مفاوضات تسويةٍ مع رايخ هتلر. وهكذا سوف تكون الاتّفاقيّات الألمانيّة السوفييتيّة الشهيرة، واقتسام بولندا أمرًا لا مفرّ منه. لم يكن في استطاعة الاتّحاد السوفييتيّ أن يترك بولندا بأكملها للاحتلال الألمانيّ. لقد توجّب عليه على وجه الضرورة أن يدفع حدوده إلى الأمام إلى أقصى بعدٍ ممكنٍ، وأن يكون ذلك -إذا لزم الأمر- مبرّرًا بالذريعة التاريخيّة التي لا جدال فيها باستعادة الأراضي الروسيّة البيضاء التي كان قد تخلّى عنها إلى بولندا بموجب اتّفاقيّة فرساي (Versailles)، وذلك في سبيل أن يتّخذ لنفسه موقفًا دفاعيًّا متقدّمًا عند بدء الهجوم الألمانيّ.

لقد كانت مرحلةً مأساويّةً بالنسبة إلى سائر مناضلي الحركة الشيوعيّة الأمميّة وحلفائها. في ضوء ذلك فإنّ بعض المناضلين غادروا صفوف الحزب -كما حصل مع بول نيزان (Paul Nizan)[140] وسواه في فرنسا- وقد عُدّ هؤلاء وبصورةٍ تلقائيّةٍ منشقّين (وفق تعبير ذلك العصر). ولقد جعل الحزب ريرت نيزان

---

(139) جوزيف بيلسودسكي (Józef Pilsudski)1867-1935: رجل دولة بولنديّ، رئيس الدولة، وزعيمٌ سلطويٌّ، كان له تأثير كبير في سياسات بولندا، وشخصيّة مهمّة في المشهد السياسيّ الأوروبي، ويعد مسؤولًا إلى حدٍّ بعيدٍ عن استعادة بولندا لاستقلالها في عام 1918. (المترجم)
(140) بول نيزان (Paul Nizan) 1905-1940: فيلسوف وروائيّ وصحفيّ فرنسيّ. (المترجم)

(Rirette Nizan)[141] -التي كانت هيلين تعرفها جيّدًا-تشعر بأنّها تُعامل بهذه الصفة لمدّةٍ طويلةٍ بعد ذلك، وكذلك كان الأمر بالنسبة إلى أبناء نيزان الذين كان توريز يرفض استقبالهم على الدّوام. يا لها من ممارساتٍ! لقد فهمت هيلين -مثل عددٍ كبيرٍ من الناشطين- أنّ الاتّحاد السوفييتيّ أمام التهديد الهتلريّ وأمام «التقاعس» السياسيّ الكلّيّ للديمقراطيّات الغربيّة لم يكن يستطيع أن يفعل شيئًا آخر. فماذا كان يستطيع أن يفعل سوى ذلك؟ لقد اكتفى هؤلاء الذين طالبوا بذلك، بجرأة القول فقط.

لقد علقنا في وضعٍ سياسيّ غريب إذًا؛ فالاتّحاد السوفييتي كان يبدو غير قادرٍ على تكذيب الأطروحات النازيّة التي تقول بأنّ النازية تقاتل ضدّ «الرّأسماليّة العالميّة»، مع أنّ كامل سياستها الدّاخليّة المتواصلة -قبل الحرب الإسبانيّة بوقتٍ طويلٍ- تبرهن نقيض ذلك. لكنّ الأمر الحاسم -في وقتٍ ما- كان تلك الثقة العجيبة التي يضعها ستالين في هتلر. لقد كان ستالين مؤمنًا بأنّ هتلر رجلٌ صادقٌ، وبأنّه رجلٌ يلتزم بكلامه، وأنّه لن يهاجم أراضي السوفييت. لقد استرعت هيلين -التي كان لديها العديد من الصلات، والتي كانت قد تفحّصت بعنايةٍ سائر وثائق تلك المرحلة وشهاداتها- انتباهي في وقتٍ مبكّرٍ جدًّا إلى هذه الواقعة المدهشة، التي لم تكن معروفة حينها، لكنّها كانت مثبتةٌ على نطاقٍ واسعٍ. فمن المعلوم أنّ ستالين كان قد أُخطر -من خلال طرقٍ عدّةٍ من بينها الجاسوس سورج (Sorge) وعددٌ من الجواسيس السوفييت العاملين في اليابان- في وقتٍ مبكّرٍ جدًّا بالهجوم الألمانيّ الوشيك. ومن المعلوم أنّ روزفلت (Roosevelt) قد حذّره من ذلك. كما نعلم أيضًا بأنّ أحد المنشقّين الألمان -وهو شيوعيٌّ- كان قد عبر الحدود كي يعلم السوفييت بالهجوم الألماني على الاتّحاد السوفييتيّ في صباح اليوم التالي، في الساعة الخامسة تمامًا، وقد أعدم هذا على الفور. ومن المعلوم أنّ ستالين -وعلى مدى أسابيع طويلةٍ من الهجوم الجوّيّ النازيّ- قد أعطى الأوامر *بعدم الردّ!* معتقدًا أنّ

(141) احسب انّ المقصود زوجة بول نيزان المدعوة: هنريت، وريرت من قبيل الخطأ المطبعي. (المترجم)

الأمر يتعلّق إمّا بهفوةٍ (هكذا تقول الرّواية)، وإمّا بمناورةٍ عسكريّةٍ بسيطةٍ غير عدائيّةٍ. نحن نعلم كلّ هذا الآن بشكلٍ واضحٍ، ونعلم ما أعقب ذلك من كوارث لا تخفى على أحدٍ.

لقد كان التخبّط شاملًا لدى الأحزاب الغربيّة. ففي فرنسا، كانت الأمميّة قد نجحت في جعل موريس توريز «ينشقّ»، وقد كان هذا يرفض ذلك بشدّةٍ: لقد كان ذلك أمرًا، والأمر لا يُناقش. لذلك فقد تعيّن عليه أن يُمضي فترة الحرب كلّها في قرية صغيرةٍ في القوقاز، مع جهاز راديو معطّل، منقطعًا بذلك عن جميع الأخبار، وعن فرنسا بصورةٍ خاصّةٍ. كان دوكلو (Duclos) هو الذي استلم قيادة الحزب السرّيّ (وقد كان نوّابه قد اعتقلوا في عامي 1939-1940). لقد شرع يطبّق نظريّة *الحرب الامبرياليّة*، من دون أن يتبيّن أنّها كانت «حرب تحريرٍ» في الوقت نفسه (وهي القضيّة التي لن يُعترف بها إلّا في وقتٍ متأخرٍ). من حيث النتيجة، لقد صدرت أوامرٌ بعد الهزيمة لم تقف عند حدود إقامة اتّصالاتٍ مع سلطات الاحتلال الألمانيّة بهدف إصدار مجلّة «L'Humanité» برئاسة مارسيل كاشان (Marcel Cachin)، بل لقد كانت أفدح الأوامر خطورةً وبما لا يُقاس، هي تلك الأوامر القطعيّة التي أعطتها قيادة الحزب السرّيّة إلى ناشطيها المسؤولين، ولاسيّما المعروفين عند الجماهير العماليّة والشّعبيّة، وكذلك إلى المسؤولين النقابيّين والسياسيين، ورؤساء المجالس البلديّة، والتي قضت بالظهور علنًا، وبعقد الاجتماعات. قراراتٌ غير معقولةٍ! وقد ترتّب عليها ببساطةٍ النتيجة التالية: لقد أصبح كبار مناضلي الحزب، مثل إيناف، وتيمبو، وميشيل، وسواهم معروفين عند الألمان، وقد اعتقلهم هؤلاء ثمّ رحّلوا إلى شاتوبريّان، حيث سيعدمون رميًا بالرّصاص في وقتٍ لاحقٍ. هكذا اختفى أعزّ أصدقاء هيلين، وهكذا ذبحوا.

في تلك الأثناء، قام عددٌ من مناضلي الحزب، ممّن لم يكونوا على اتّصال معه، بتنظيم المقاومة الشعبيّة من تلقاء أنفسهم، وفي مناطقهم، وذلك قبل زمنٍ طويلٍ من خطاب 18 حزيران/ يونيو. وسوف أقدّم مثالًا واحدًا على ذلك هو شارل تيّون

(Charles Tillon) الذي كانت تربطنا به _أنا وهيلين_ علاقةٌ حميميّةٌ بفضل مارسيل كورنو (Marcel Cornu). لقد قام شارل هذا بتنظيم أوّل شبكة مقاومةٍ في جنوب فرنسا، وليس هذا فحسب. فحينما تلقّى أوامر قيادة الحزب السريّة أن يلتزم بالنهج الرّسميّ «للنضال السلميّ»، فإنّه رفض الأمر بشدّةٍ، ومن المؤكّد أنّه لم يكن الوحيد في ذلك وسط الشيوعيين الفرنسيين. إنّ أعداء الشيوعيين المُعلنين لا يرغبون أبدًا في معرفة هذه الوقائع الأصيلة.

لقد قامت الحركة الأمميّة منذ كانون الأول من عام 1941 بتصحيح هذا النّهج؛ فالحرب ليست حربًا رأسماليّةً وحسب، بل إنّها أيضًا «حرب تحرير». لقد انخرط الحزب بأكمله في صفوف المقاومة، وبأعدادٍ كبيرة -بصورةٍ رسميّةٍ هذه المرّة- مسخّرًا لها سائر قدراته.

عندما أتأمّل في الهجمات السياسيّة التي شُنّت على الحزب -أيّام الاحتلال الألمانيّ (إذ أحتفظ بمجلّد ضخمٍ من الوثائق المتعلّقة بهذا الشأن)، وبعد ذلك، وحتى الآن- من قبل أولئك المرتبطين عضويًّا وداخليًّا بالمواقع الانهزاميّة للبورجوازيّة الفرنسيّة (حتى وإن كانوا ما يزالون وطنيّين بصورةٍ فرديّةٍ)، فإنّني أجد فيها ما يدعو إلى الاستغراق في التفكير. ففي هذا الموقف يتحقّق المعنى الكامل لعبارة مورياك (Mauriac)[142] التي يقول فيها: «إنّ الطبقة العاملة بحسبانها طبقةً هي الطبقة الوحيدة التي تبقى وفيّة للوطن المنتهك». والسبب أنّ التاريخ لا يتقرّر من خلال موقف هذا الفرد أو ذاك، وإنّما من خلال الصراعات الطبقيّة، والمواقع الطبقيّة.

لقد تأثّرت فترة ما بعد الحرب بأكملها -من عام 1945 إلى عام 1947- بنتائج هذه الحوادث الشديدة الخطورة. لقد كان ديغول في سدّة الحكم مع وزراء شيوعيين ضمن الحكومة. كان من الواجب إعادة بناء البلاد، ومعرفة كيفيّة «القضاء على

(142) فرانسوا مورياك (François Mauriac) 1885-1970: كاتب فرنسيّ حائز على جائزة نوبل للآداب. (المترجم)

إضرابٍ» عند اللّزوم. لقد أعرب الاشتراكيّ راماديه (Ramadier)[143] عن شكره للوزراء الشيوعيّين تحت ضغط الأمريكيّين المباشر، وكان الحزب قد دخل في صراعٍ عنيفٍ جدًّا. في تلك اللحظة، وكما لو أنّها مصادفةٌ، اخترتُ أن أنتسب إلى الحزب.

لقد تصرّفنا على نحوٍ حكيمٍ بقدر ما كان الهجوم المعادي للشيوعيين عنيفًا وكانت الحرب تدقّ طبولها. لم يكن الاتّحاد السوفييتيّ في ذلك الوقت يمتلك القنبلة الذرّيّة التي دمّرت اليابان. وكان من الواجب تعبئة قطاعاتٍ شعبيّة واسعةً بموجب نصوص نداء استوكهولم[144].

كان هذا الصراع ملحّا جدًّا، حتى إنّ قضايا الحزب الدّاخليّة لم تكن تُناقش. فبخروج الحزب منتصرًا من تجربة المقاومة، وقد عزّز تقاليده ومبادئه التي أقام البيّنة عليها، بدا أنّه من غير الممكن ولو للحظةٍ واحدةٍ –ومهما كانت الأسباب– أن يظهر مختلفًا عمّا كان عليه. بل على العكس تمامًا، لقد كانت قيادة الحزب «ملكيّةً أكثر من الملك»، بمعنى أكثر من ستالين (الذي سيقوم لاحقًا بتصحيح الهجوم على علم اللّسانيّات)، وذلك بالنظر إلى أنّها دعمت بشدّةٍ وبصورةٍ علنيّةٍ أطروحة «العلْمين»، البورجوازيّ والبروليتاريّ. لقد اقتضى الأمر تجارب دوليّة لا تُحصى (برلين، بودابست، براغ، إلخ) حتى يبدأ شيءٌ ما بالتقلقل الطفيف، داخل الحزب حتى، ولكن بأيّة مقاييس! وبعد انقضاء أيّة مدّةٍ زمنيّةٍ طويلةٍ. إنّ أحدًا في ذلك الوقت (ما خلا بعض الأفراد مثل بوريس سوفارين (Boris Souvarine)[145]، ولكن أيّة شجاعةٍ لهؤلاء؟) لم يفكّر في أنّ هذا الحزب (القائم على المبادئ اللينينيّة

(143) بول راماديه (Paul Ramadier) 1888-1961: رجل دولة فرنسيّ. (المترجم)

(144) نداء استوكهولم: هو عريضة مناهضة للسلاح النووي بدأت في استوكهولم، مطالبة بفرض حظر مطلق عليه. يأتي النداء في مرحلة الحرب الباردة، حيث قام عدد من أعضاء الحزب الشيوعيّ والمثقّفين المقرّبين بحركات ومبادرات سلميّة. (المترجم)

(145) بوريس سوفارين (Boris Souvarine) 1895-1984: سياسيّ ومؤرّخ فرنسيّ من أصل روسيّ، وهو أحد المؤسّسين للحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، واشتُهر بتأليف السيرة الذّاتيّة لجوزيف ستالين، وظلّ على اتّصال وثيق مع لينين وتروتسكي حتى وفاتهما. (المترجم)

الموجودة في كتاب «*ما العمل؟* Que Faire?» أي على طابع العمل السرّيّ الذي كان قد مورس بنجاح في أثناء المقاومة) يستطيع، أو يتوجّب عليه أن يتّخذ صورةً تنظيميّة أخرى مع انتهاء طابع العمل السرّيّ.

لهذا السبب لم يكن يوجد في ذلك الوقت من الناحية الموضوعيّة *آية صورةٍ أخرى للتدخّل السياسيّ الممكن داخل الحزب سوى الصورة النظريّة البحتة*، والتي تتكل -فوق ذلك- على النظريّة القائمة، أو المعتمدة من أجل الانقلاب على الممارسة التي كان الحزب يتّخذها. وبما أنّ النظريّة المعتمدة لم تعد تتعلّق بماركس على الإطلاق، لكنّها كانت تصطفّ وراء الترّهات الفادحة الخطورة للماديّة الديالكتيكيّة على الطريقة السوفييتيّة، أي على طريقة ستالين، فقد كان من الواجب علينا -وهذه هي السبيل الوحيدة الممكنة- أن نعود إلى ماركس، إلى هذا الفكر المقبول سياسيًّا بصورةٍ لا جدال فيها بسببٍ من *قدسيّته*، وأن نبرهن أنّ الماديّة الديالكتيكيّة على الطريقة الستالينيّة، وسائر نتائجها النظريّة، والفلسفيّة، والإيديولوجيّة، والسياسيّة، كانت منحرفةً بالكامل. هذا ما كنتُ أحاول القيام به في مقالاتي المنشورة في مجلّة «La Pensée»، والتي جمعتُها لاحقًا في كتابي «*من أجل ماركس* Pour Marx»، وأيضًا -بالتعاون مع طلابي في المدرسة العليا- في كتاب «*قراءة رأس المال* Le Capital Lire»، الذي ظهر -وأنا أذكر ذلك- في شهر تشرين الأوّل/ أكتوبر من عام 1965. منذ ذلك الحين، لم أتوقّف عن مواصلة هذا النّهج من النضال، النظريّ في البداية، ثم السياسيّ مباشرةً داخل الحزب، وصولًا إلى التحليل الذي قمت به لنظام الحزب الدّاخليّ العجيب (**«ما لا يمكن استمراره بعد الآن داخل الحزب الشيوعي** Ce qui ne peut plus durer dans le parti communiste»، عام 1978). ثمّ وقعت المأساة. ومنذ ذلك الحين لم أستعد هويّتي. لقد أصبحت «شيوعيًّا بلا حزب» (لينين).

لطالما أعلنتُ -كما تعلمون- بأنّني لم أدّعِ شيئًا سوى «التدخّل في حقل السياسة بوصفي فيلسوفًا، وفي حقل الفلسفة بوصفي سياسيًّا». وفي الحقيقة، فإنّ من الممكن

-فيما يتعلّق بالشأن السياسيّ- أن تعثروا، من واقع عملي وخبرتي، على اللعبة الصحيحة لهواجسي الشخصيّة: العزلة، والإحساس بالمسؤوليّة، والشعور بالتحكّم.

لقد كنتُ وحيدًا جدًّا بالطبع، وذلك على الرّغم من مساعدة الأصدقاء، أصدقائي الذين كانوا يُعدّون على أصابع اليد الواحدة في بادئ الأمر، أي إبّان قيامي بالمجازفة، في صميم الحزب، واتّخاذ مشروع المعارضة النظريّ، قبل الانتقال العلنيّ لاتّخاذ موقف المعارضة والانتقاد السياسيّ. بكلّ تأكيدٍ، لقد جعلني هاجس امتلاكي الحقيقة حول الحزب، وحول ممارسات قياداته، أؤدّي -في مواقف متعدّدةٍ- دور «والد الوالد». على سبيل المثال من خلال قيامي بوضع تلك المحاضرة التي ألقيتها في الأصل على طلّابي في عام 1964 في مقالة ضمن مجلّة «*النقد الحديث* La Nouvelle Critique»[146]. ما أعنيه أنّني كنتُ أعرّض نفسي بنفسي للمخاوف التي تثيرها خطورة مّا أتّخذه من مواقفٍ، وكذلك الهجمات التي تستهدفني، والتي يشنّها عليّ قادة الحزب، هؤلاء -أنفسهم- الذين كانوا يدركون بوضوحٍ خطّتي الاستراتيجيّة! مع ذلك، فإنّ هذه المحاضرة التي تبرز الأهمّيّة الاستراتيجيّة في جعل كلّ شيوعيّ يدرك أنّ «الالتزام» بالنظريّة الماركسيّة له الأولويّة على الانصياع لأوامر الحزب-وهي المسألة التي لم يلتقطها رانسيير (Rancière) كما يبدو، وإن كان كثير من القرّاء قد أدركوها كالطّلّاب اليونانيّين مثلًا من بين آخرين، هؤلاء الذين كانوا ينسبون إليه قيمةً سياسيّةً كبيرةً، نتيجة وضعهم بكلّ وضوح- أقول لقد جعلتني هذه المحاضرة أشعر بالرّعب، ما دفعني إلى تجنّب وضعها في كتابي «من أجل ماركس»، في عام 1965 (وحينما انتقدني رانسيير بحدّة في كتابه «*درس التوسير* La Leçon d'Althusser» كان قد أقام

(146) "*النقد الحديث* La Nouvelle Critique: هي مجلّة الحزب الشيوعي الفرنسيّ التي ظهرت عام 1948، وقد شكّلت منذ الستينيات مسرحًا للنقاش بين المثقّفين الشيوعيين، و"رفاق الطريق" غير المنتسبين إلى الحزب، وقد توقّفت المجلّة عن الظهور في عام 1980. (المترجم)

أقوى حججه على نصّ هذه المقالة، كما لو أنّني لم أقم باستبعادها من كتابي «من أجل ماركس»، وقد كان هذا في الجوهر هو العتب الوحيد الجدّي الذي حملته عليه). وعلى سبيل المثال من خلال قيامي بواسطة مقالين طويلين في مجلّة «فرنسا الجديدة France-Nouvelle» بسحق المسكين دافيد كيغزيرغروبيه (David Kaisergrubier) («بخصوص خطأ سياسيّ») متّخذًا ضدّه موقف الدّفاع عن الأساتذة المساعدين، «بروليتاريا التعليم العامّ هؤلاء». وعلى سبيل المثال أيضًا في أثناء لقاءاتي مع هنري كراسوكي (Henri Krasucki)(147) –«المسؤول عن المثقّفين» في ذلك الوقت- الذي كان يؤكّد على تحفّظاته الملحّة (آه! ما الذي كان يمكننا فعله لو لم يكن لدينا رجلان –أراغون (Aragon) وغارودي- يقاومان، كما يقاوم توريز!). لقد كنتُ مذهولًا أن أسمعه يقول بأنّه كان في مقدور مناضلين اثنين أن يشلّا سائر مبادرات الحزب في المجال الفكريّ، وكنتُ ألومه على ذلك. لكنّه لم يكن يردّ شيئًا. لقد كنتُ محبطًا بصفةٍ خاصّةٍ لتعليقي آمالًا كبيرةً على إمكانية أن نجد في رأس واحدٍ من المثقّفين بروليتاريًّا حقيقيًّا، وأكثر من ذلك، أن نجد قائدًا للاتّحاد العامّ للعمل. لقد أدركتُ حينها مبكّرًا بأنّه كان عليّ أن أفهم من كلامه أنّ إصدارات الحزب لم تكن تنشر اثنين من كتبي بكلّ تأكيد («من أجل ماركس» و«قراءة رأس المال»)، وأنّ مقدّمة كتابي («من أجل ماركس») أيضًا –التي كان جاك أرنو (Jacques Arnault) (148)-الجسور والحكيم- قد وعدني رسميًّا بنشرها في مجلّة «النقد الحديث»، التي كان يديرها آنذاك- قد حُظر نشرها. لكنّني لم أبلغ بعد أقصى خيبات أملي.

في وقتٍ لاحقٍ، حينما سألتقي والدك روشيه (Waldeck Rochet) في مكتبه الصغير، لقاءًا مليئًا بالحفاوة من جهته، ذلك الرّجل الذي وجد في عمر الخمسين،

---

(147) هنري كراسوكي (Henri Krasucki) 1924-2003: نقابيّ فرنسيّ، والأمين العام للكونفودراليّة العامة للشغل. (المترجم)

(148) جاك أرنو (Jacques Arnault) 1918-2008: صحفيّ ومقاومٌ وشيوعيّ فرنسي، كان رئيس تحرير مجلّة "النقد الحديث" بين عامي 1958-1966. (المترجم)

وقد كان حينها عاملًا زراعيًا، الوقت من أجل قراءة سبينوزا والإعجاب به، فسوف أؤدّي مرّةً أخرى -ولكن بطريقةٍ لطيفةٍ- الدور نفسه، دور «والد الوالد». لقد تكلّمنا بخصوص الإنسانيّة، ثمّ سألته: «ماذا تعني الإنسانيّة بالنسبة إلى العمّال؟» -إنّهم لا يبالون! وبالنسبة إلى الفلّاحين؟ -إنّهم لا يبالون! فلماذا إذًا هذه الخطابات حول الإنسانيّة الماركسيّة داخل الحزب؟ -هل رأيت، يحسنُ بنا الكلام بلسان هؤلاء مع الجميع، مع هؤلاء المثقّفين جميعًا، ومع هؤلاء الاشتراكيين جميعًا... «لقد صُعقتُ. لكنّني صُعقت أكثر حينما سمعتُ والدك يتمتم بصوته الهادئ: «يجدر بنا أن نفعل شيئًا بالنسبة إليهم، وإلّا فإنّهم سوف ينصرفون جميعًا». لقد كنتُ مصعوقًا بشدّةٍ إلى درجة أنّني لم أجرؤ أن أسأله: «ولكن، من هم هؤلاء الـ«إنّهم» إذًا؟»

حينما التقيتُ -بعد ذلك بوقتٍ طويلٍ- بمارشيه (Marchais) في ميدان الكولونيل فابيان (Colonel-Fabien) على مدى ثلاث ساعاتٍ طويلة، شرعتُ أتحدّث في المسائل بنبرةٍ حادّةٍ جدًّا، ثمّ أفرغتُ ما في جعبتي كلّه من انتقادات لممارسات الحزب، مؤيّدًا أقوالي بمزيدٍ من التفاصيل. لقد أصغى مارشيه خلال ثلاث ساعات محتدمةٍ إلى كلامي -يدعمني في ذلك جاك شامباز (Jacques Chambaz)[149]- من دون أن يتفوّه بأيّة كلمةٍ تقريبًا، ومن دون أن يقاطعني على الإطلاق. كان يبدو شديد الإصغاء، ولقد أعجبتُ على الأقلّ بما أبداه من رغبةٍ في استيعاب ما أقول: لقد قيل لي إنّ ذلك كان من خصاله. لن أتكلّم عن لقاءاتي مع رولان لوروا (Roland Leroy)[150] الذي كان يؤدّي دور المُضلّ، المتسامح في حين أنّه كان شخصًا مختلفًا تمامًا عن ذلك في جوهره: لقد كان متعصّبًا مذهبيًّا، ولن أتكلّم أيضًا عن تلك الأعمال الخرقاء التي قمتُ بها برفقته خلال إحدى

---

(149) جاك شامباز (Jacques Chambaz) 1923-2004: مفكّر، وأحد قادة الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ. (المترجم)

(150) رولان لوروا (Roland Leroy) 1926-2019: صحفيّ وسياسيّ فرنسيّ، وكان عضوًا في الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ. (المترجم)

الاحتفالات السنويّة لمجلّة «L'Humanité»، حيث التقيتُ بنوا فراشون (Benoit Frachon)[151]، الذي كان قد تقدّم في العمر بشكلٍ ملحوظٍ، كما التقيتُ أراغون، ودارت بيننا رحى موقعةٍ جهنّميّةٍ ملآى بالشتائم والتهجّمات (وسوف نرى السبب)، ولم أملك أن أمسك نفسي عن لعب أوّل أدوارها في أثناء مناقشةٍ عامّةٍ سوف أتندّم حتى آخر العمر على أنّني سمحتُ فيها لنفسي أن أشكّك سياسيًّا بالمسكين بيير دي (Pierre Daix)[152]، الذي سوف يتوجّب عليه ألّا يغفر لي أبدًا هذا التدخّل الستالينيّ، الوحيد في تاريخي السياسيّ. ولكن، هل من موجبٍ للقول بأنّني لم أكن أستجدي «اللقاءات القمّة» هذه، بل إنّني كنتُ أُدعى إليها شخصيًّا من قبل قادّة الحزب، المهتمين بمعرفة موقفي المحتمل، وبمعرفة ما يمكن أن يدور في رأسي؟ والسبب في ذلك أنّ مداخلاتي في مجلّة «L'Humanité» ومجلّة «La Pensée» (حيث كان مارسيل كورنو (Marcel Cornu) يحميني علانيّةً) قد أحدثت آثارًا سياسيّةً، وبصفةٍ خاصّةٍ لدى أبناء المدرسة العليا الذين قاموا بتدشين طرائق جديدة في التدريب والعمل داخل اتّحاد الشباب الشيوعيّ، إذ تجاوزوا القادة (جان كاتالا (Jean Cathala))[153] قبل أن يغادروه من أجل تأليف اتّحاد الشباب الشيوعيّ الماركسيّ-اللّينينيّ، الذي سوف يقوم، قبل أحداث 68، بحزمةٍ واسعةٍ جدًّا من النشاطات تحت قيادةِ روبرت لينهارت (Robert Linhart)، أحد أبناء المدرسة العليا، والذي كانت هيلين تحبّه.

من الواضح جدًّا أنّني حقّقتُ على هذا النحو داخل الحزب رغبتي الخاصّة في المبادرة، رغبتي في المعارضة العنيفة للقيادة، وللجهاز، ولكن في كنف الحزب نفسه، أي في ظلّ حمايته. وحقيقةً فإنّني لم أتّخذ موقفي من المجازفة الحقيقيّة بأن أكون مُبعدًا

(151) بنوا فراشون (Benoit Frachon) 1893-1975: نقابيّ وسياسيّ فرنسيّ. (المترجم)

(152) بيير دي (Pierre Daix) 1922-2014: صحفيّ، وكاتب ومؤرّخ فنيّ فرنسيّ، وكان عضوًا في الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ. (المترجم)

(153) جان كاتالا (Jean Cathala) 1905-1991: كاتب، وصحفيّ ومترجمٌ متخصّص في شؤون الاتّحاد السوفييتيّ. (المترجم)

من الحزب إلّا في عام 1978 على ما أظنّ أو بعد ذلك! حتى روجيه غارودي الذي كان بعد أرجنتوي[154]، والذي لم تكن القضايا الثقافيّة تعني أحدًا سواه، هو وأنا، قد أرسل لي في اليوم التالي برقيّة يقول فيها: «أنت ضائعٌ، تعال لرؤيتي»، لكنّني لم أستسلم له. لم ألتقِ به أبدًا، ولم أرَه أبدًا. لعلّي، إضافةً إلى قوّة الاختلافات القائمة بيننا، كنت أشعر بالكثير من الاطمئنان إلى أدلّتي، وإلى حماية الحزب كي أصرفه – هو «الفائز» في أرجنتوي– بخشونةٍ.

ولكن تحت هذه الأنماط من المعارضة العنيفة، التي كانت تجري بكفالة حمايةٍ لم أخالف قطُّ شروط تسامحها –وهو الأمر الذي سوف أقوم به بكلّ تأكيدٍ– فقد كانت هنالك، أوّلًا وقبل كلّ شيءٍ، رغباتي الخاصّة، الرغبات المكبوتة لوقتٍ طويلٍ، أو المُراقبة من قبل عائلتي، تلك الرّغبات التي بدأت أشعر بها خلال إقامتي في مدرسة لاروشميلي، والتي سوف أعثر عليها ثانيةً في أثناء خدمتي العسكريّة، وفي فترة الأسر أخيرًا. الرّغبة في الاتّصال بالعالم الحقيقيّ، العالم البشريّ في كامل تنوّعه، وخاصّةً الرّغبة في الاختلاط مع البشر الأكثر حرمانًا، ولكنّهم أيضًا، البشر الأكثر صدقًا، والأكثر نقاءً، والأكثر نزاهةً. باختصارٍ، إنّها الرّغبة في امتلاك عالمٍ خاصٍّ بي، وهو العالم الحقيقيّ، عالم الصراع (ولقد انتهيت إلى تلقّي ضرباتٍ حقيقية بالهراوات –بعزمٍ بلغتُه بعد جهدٍ جهيدٍ– في أثناء المشاركة بالمظاهراتِ –التي كانت تشبه المظاهرة الرهيبة ضد ريدجواي (Ridgway)[155]– حيث كان الحماس يجعلنا نتآخى مع عمّال رينو (Renault)، المتهكّمين، والمسلّحين بيافطاتٍ صغيرةٍ من الصفيح الحادّ الذي كان يصنع المعجزات في أثناء المواجهات...لقد عثرتُ أخيرًا على ضالّتي وسط هذه الجماعات الفاعلة المناضلة، وحيث أكون ضائعًا وسط حشودٍ غفيرةٍ (من مواكب، واجتماعات)، في ذلك الوقت كانت هواجسي في

(154) إشارة إلى دورة اللجنة المركزيّة في الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ التي انعقدت في شهر آذار/مارس من عام 1966 في بلدة أرجنتوي، والتي كان محورها: القضايا الإيديولوجيّة والثقافة. (المترجم)

(155) المقصود هي المظاهرة التي نظّمت في فرنسا في عام 1952 من قبل الشيوعيّين احتجاجًا على زيارة الجنرال الأمريكي ماثيو ريدواي المتّهم باستخدام الأسلحة الجرثومية في الحرب الكوريّة. (المترجم)

التحكّم بعيدةً جدًّا عنّي.

مع ذلك، لقد كان عليّ في بعض المواقف -التي كان أحدها مأساويًّا، أمّا الأخرى فقد كانت مضحكةً في الحقيقة- أن أواجه بصورةٍ مباشرةٍ جهاز الحزب القمعيّ. لم يكن هنالك سوى الدّولة التي تمتلك جهازًا قمعيًّا: إنّه أيّ جهاز إيديولوجيّ يقع تحت تصرّفها. وأنا إذا ما كنتُ أروي هذه الحوادث، فالسبب في ذلك واحدٌ على الدّوام: أن أنظر إلى نفسي بوضوحٍ.

انتسبتُ إذًا إلى الحزب في عام 1948. وقد كان ذلك أيّام نداء استوكهولم. لقد صعدتُ ونزلتُ مئات السلالم ضمن الأبنية الفقيرة في حيّ محطّة أوسترليتز (Austerlitz)، الحيّ الشهير ببيوته المتلاصقة. كانت الأبواب تُفتح لي في أغلب الأحيان، لكنّ الناس كانوا يرفضون -على الدّوام تقريبًا- التوقيع على العرائض التي كنتُ أقدّمها لهم. في أحد الأيّام فتحت الباب لي صبيّةٌ جميلةٌ وهي تبتسم-كانت في لباسها الدّاخليّ (ونهداها...)- بيد أنّها رفضت التوقيع عابسةً وقد كلُح وجهها. وإذ كنتُ أعاود نزول درجات السلّم، سمعتُ صوتها وهي تناديني قائلةً: «لكنّك في آخر الأمر صبيٌّ جميلٌ، ولستُ أدري لماذا أتسبّب لك بالألم»، ثمّ قامت بالتوقيع. وقد غادرتها، وأنا أشعر بمشاعر مضطربةٍ.

كان ذلك هو الوقتُ الذي كنتُ أرغب فيه (مرّةً أخرى، وإن كنتُ لم أتوقّف أبدًا عن الطموح إلى ذلك، وبذل أقصى الجهود في سبيل ما لم أستطع تحقيقه حتى ساعة موتها!) في «إنقاذ» هيلين من إحباطها، ومن تخلّي الحزب عنها، ومن عزلتها. لم أستطع أن أتصوّر -لسذاجتي- أنّ الحزب أو تنظيماته يستطيعون الاستغناء عن خدمات امرأة شديدة الذكاء، ومحنّكةٍ في السياسة، ومناضلةٍ استثنائيّةٍ جدًّا. وبما أنّني كنتُ أعرف منها أنّها كانت على معرفةٍ ببول إيلوار (Paul Eluard)[156]، فقد

(156) بول إيلوار (Paul Eluard) 1895-1952: هو الاسم الأدبي ليوجين إميل بول جريندل، شاعر فرنسيّ، وهو أحد مؤسّسي الحركة السوريالية، وقد انضمّ إلى الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ عام 1932، وإلسا هي زوجته. (المترجم)

طلبتُ -من دون أن أخبرها شيئًا، ومن خلال تركيبةٍ معقّدةٍ لم أعد أذكرها- أن يستقبلني.

إنّها صبيّةٌ تنام عاريةً بالكامل فوق أريكة الغرفة، هكذا بدأتُ حديثي مع إيلوار برفع الكلفة (حديث رفاقٍ...)، ولكن يبدو أنّ ذلك لم يعجبه. لقد دافعتُ مفصّلًا، وبحماسةٍ عن قضيّة هيلين. ألم يكن يستطيع التدخّل كي يُسمح لها بمتابعة النضال ضمن صفوف النساء الفرنسيات؟ لقد اكتفى بالإجابة: «هيلين امرأةٌ رائعةٌ بالمطلق، وأنا أعرفها جيّدًا، لكنّها في حاجة دائمةٍ إلى المساعدة»، لقد انتهت المقابلة. بالتأكيد لم يكن سائر الشيوعيين مثل كوريج.

في نهاية الأمر استأنفت هيلين برفقتي النشاط لدى المجلس المحلّيّ لحركة السلام، الكائن في الدّائرة الخامسة. لقد بدا كلّ شيءٍ يسير على نحوٍ جيّدٍ، فقد أصبح لديها أصدقاء، وكنتُ سعيدًا من أجلها. لكنّ أحد عناصر الحزب العاديّين قد تعرّف إليها ذات يومٍ في أثناء وجودها -من أجل أخذ المنشورات- في مقرّ الحركة الكائن في شارع الأهرامات (Pyramides)، وكان قد رآها في ليون سابقًا. نقل الرجل الخبر إلى قيادة المجلس في الدائرة الخامسة، وقد بلغ مسامع فارج بلا ريبٍ، فانطلقت في مواجهتها أفظع محاكمةٍ في الإمكان تخيّلها.

لقد روى هذا العضو العاديّ أنّ «الجميع كان يعرف» في ليون أنّ هيلين -من نسبتها ريتمان، ولكنّها كانت تُدعى سابين (Sabine)، وهي تُدعى ليغوتيان (Legotien) اليوم (كانت هيلين بسبب كراهيّتها لاسم عائلتها قد اعتمدت وفاء بنذرها للأب لام (le père Lame) اسم أوائل الجزويت الذي سافروا إلى الصين)- كانت عميلًا لكلّ من المخابرات البريطانيّة وللغستابو في الوقت نفسه (هكذا تقول الرّواية). بالتأكيد، لقد وصلت أصداء هذا الأمر إلى ليون التي كان يتوجّب عليها أن تروي الحقيقة. في ذلك الوقت كانت هيلين على علاقةٍ وثيقةٍ بعائلة أراغون، وقد كانت غالبًا ما تنقل إليهم -في أثناء مرحلة المقاومة- من

سويسرا منتجات غير موجودة في فرنسا، لاسيّما الجوارب الحريريّة من أجل إلسا (Elsa). وقد حدث ذات يوم أنّ ألوان الجوارب أو جودتها -والتي كانت هيلين قد أحضرتها من أجل إلسا- لم تعجب تلك السيّدة المتطلّبة. لذلك فإنّ أراغون غضب غضبًا شديدًا وقطع علاقته بهيلين. ثمّ أخذ يتكلّم عن هيلين بوصفها عميلةً لدى الاستخبارات البريطانيّة! إضافةً إلى ذلك، لقد كانت هيلين، حينما كانت ليون ساحة قتالٍ دائرٍ من أجل تحريرها، عنصرًا غير نظاميٍّ، وكان هنالك تحت إمرتها مجموعة من الشبّان الذين كانوا يُحسنون التصرّف. ولقد اختطف هؤلاء مسؤولًا رفيع المستوى من عناصر الغستابو، واحتجزوه في أقبية البناء العائد لهم، وبعد أن عذّبوه، قاموا بإعدامه باختصارٍ. لكنّ هيلين كانت قد أعطت أوامر دقيقة: أوّلها حسن التعامل مع السجين أسوةً بسائر السجناء، ومن ثمّ الحرص الشديد على بقائه على قيد الحياة كي يكون في الإمكان استجوابه، من أجل الحصول في النهاية على أقصى قدرٍ ممكنٍ من المعلومات المفيدة للمقاومة، وللجيش الناشئ للقوات الداخليّة الفرنسيّة (FFI). لكنّ مجموعة المقاتل غير النظاميّ تجاوزت أوامر هذا الأخير الرسميّة. لقد تردّدت أصداء عمليّة الإعدام هذه في جميع أنحاء ليون، وقد بلغت مسامع حاشية الكاردينال جيرليه (Gerlier) [157] الذي كان موقفه مشبوهًا إبّان فترة الاحتلال. أحد المقرّبين من الكاردينال -الذي كان الناشط الشيوعيّ يصفه بأنّه «كاهنٌ قليل الأهمّية»- حضر يطالب بمحاسبة هيلين، وأخذ ينشر التعليقات حول طرائق التعذيب التي كانت «تمارسها» على سجناء الجماعات القتاليّة غير النظاميّة، كان هنالك كمٌّ كبيرٌ من الأكاذيب بكلّ تأكيدٍ، بيد أنّها كانت ذريعةً «خدمت» أصحاب النوايا السيّئة من مقرّبي جيرليه. لم أعد أعرف من قام بالمغالاة في الأمر لتصبح هيلين -وبما أنّ زيادة الخير خيرٌ!- إحدى عملاء الغستابو.

لقد أحدثت «شهادات» المنتسب إلى الحزب هذا آثار قنبلةٍ متفجّرةٍ، وعلى كلّ

(157) الكاردينال بيير جيرليه (Pierre Gerlier) 1880-1965: كاردينال فرنسيّ، وأرشيدوق مدينة ليون. (المترجم)

حالٍ، لقد هيّأت الفرصة المشتهاة من أجل تصفية حساباتٍ علنيّة. فكما نعلم، كانت هيلين عضوًا في الحزب منذ عام 1930، لكنّها لم تكن على تواصل معه خلال فترة الحرب، وبأنّ الحزب رفض استقبالها مجدّدًا بعد انتهاء الحرب. لقد ظهرت آنذاك تلك الحكاية العجيبة التالية: لعلّ هيلين قد أُقصيت عن الحزب منذ عام 1939، إبّان توقيع الميثاق الألمانيّ السوفييتيّ، لكن، وبما أنّ فيتال جيمان (Vital Gaymann) [158]–وهو الشخص الوحيد الذي يمكن أن تكون شهادته موثوقة بهذا الشأن– قد أصبح منشقًّا منذ ذلك الوقت، فإنّه لم يكن في استطاعة الحزب أن يخاطر بتلويث سمعته في حال استجواب فيتال حول هذا الماضي. في أثناء ذلك، عُدّت هيلين من قبل الحزب مشتبهًا بها إلى حدٍّ بعيدٍ: وبأنّها قد أُقصيت منذ عام 1939.

لقد تسبّبتْ «اعترافات» العضو، إضافةً إلى شكوك الحزب، بإقامة محاكمةٍ حقيقيّةٍ تحت إشراف قيادة المجلس المحلّي، بناءً على أوامر الحزب بلا ريب. لقد استمرّت المحاكمة أسبوعًا كاملًا وُجّهتْ فيها إلى هيلين أشدّ الاتّهامات خطورةً. وقد كان من العبث (وبأيّ ثمنٍ) حضور شاهدين من رفاقها في المقاومة، إذ لم يكن لذلك أن يحدث شيئًا. لقد أصدر المجلس المحلّيّ قرارًا خلص فيه–بعد سائر الآمال المنشودة– إلى طردها من المجلس المحلّي (مع ذلك، لم يكن الأمر متوقّعًا برمّته من خلال حيثيّاته، حتى إقامة المحاكمة نفسها). ما أزال أتذكّر منظر جان دريش (Jean Dresch)، الذي كان يصغي من دون أن يتفوّه بشيء. لقد قاتلتُ كالأسد حينما تطرّقت الحيثيّات إلى قضيّة «الكاهن قليل الأهميّة». لقد كان القادة يريدون بأيّ ثمنٍ الكلام عن «قسٍّ» بسيط (كيلا يصطدمون بالكاثوليكيين). وقد كانت تلك هي النقطة الوحيدة التي كسبتُها. حينما حان وقت التصويت، ارتفعت الأيادي جميعها عاليًا (جان دريش لم يكن هناك)، وكم كان شعوري بالدهشة

---

(158) فيتال جيمان (Vital Gaymann) 1897-1985: سياسيّ، وصحفيّ فرنسيّ. (المترجم)

والعار كبيرًا إذ ارتفعت يدي عاليًا. لقد أدركتُ منذ زمنٍ طويلٍ، أنّني جبان بالفعل.

لقد أمرني سكرتير التنظيم، مارسيل أوغيه (Marcel Auget)–حينما دعاني الحزب إلى الاجتماع- بأن أقطع علاقتي مع هيلين. وبإيعازٍ من سكرتير الخليّة الحزبيّة في المدرسة العليا، إيمانويل لو روا لادوري «Emmanuel Le Roy Ladurie» (الذي كان نزيهًا حينما نقل هذه المسألة في كتابه «من مونيلييه إلى باريس De Montpellier à Paris»، كما كان كذلك بصفةٍ خاصّةٍ حينما قام بالاعتذار من هيلين بمجرّد لقائهما الأوّل بعد ذلك، وإنّني أقدّر له ذلك عاليًا لأنّه كان الرجل الوحيد والفريد من زمرة الأشرار تلك في قيامه بالاعتذار، أو الإتيان بأدنى تصرّفٍ)، سعت الخليّة إلى الاهتمام بتنفيذ ذلك. بيد أنّ الأمر الأكثر وضوحًا في هذه «المراقبة» كان ذلك الفراغ *المطلق* الذي أخذ يحيط بنا: لقد كان الأصدقاء جميعًا يتجنّبون اللقاء بنا في الشارع. ولقد كانت القضيّة الوحيدة المدرجة على جدول أعمال الخليّة هي: «إنقاذ ألتوسير».

بالطبع، لم أمتثل لهذه الأوامر، وسرعان ما غادرتُ أنا وهيلين إلى بلدة كاسّي (Cassis) من أجل الالتجاء في عزلةٍ أخرى. صحيحٌ أنّه لم يكن لدينا أصدقاءٌ في تلك البلدة لكنّ أحدًا لم يكن يتحاشى الالتقاء بنا: إلى ذلك، فقد وجدنا في هواء البلدة وبحرها العزاء وراحة البال. لقد كانت هيلين مدهشةً في شجاعتها، وقد كانت تقول لي مرارًا وتكرارًا: «إنّ التاريخ سوف ينصفني». مع ذلك، لقد عشنا قضيّة عادلةً تمتدّ من موسكو إلى قلب باريس. ولطالما فكّرتُ لاحقًا بأنّه لو قُيّض لنا العيش في الاتّحاد السوفييتي في تلك الحقبة، لكانت نهايتنا برصاصةٍ تُطلق علينا من الخلف.

لقد تكوّنت لديّ –نتيجةً لذلك– فيما يتعلّق بالحزب، وقياداته، وطرائقه في العمل، فكرةٌ واقعيّةٌ بامتياز. يضاف إلى ذلك تجربةٌ أخرى كنتُ قد خضتها بعد فترةٍ وجيزةٍ من انتسابي إلى الحزب، فلقد حملتُ الخليّة الحزبيّة على تأسيس حلقة بوليتزر

في المدرسة، حيث كنّا نطمح إلى دعوة كبار القادة النقابيّين والسياسيّين كي يحدّثوننا عن تاريخ الحركة العمّاليّة: كانت تلك هي الفترة التي استمعنا فيها إلى بينوا فراشون (Benoit Frachon)، وهنري مونموسّو (Henri Monmousseau)، وأندريه مارتي (André Marty)، وآخرين. لكنّنا، إذ كنا حذرين ومنضبطين، فقد اتّفقنا على الذهاب كي نلتمس مشورة لوران كازانوفا، المكلّف بشؤون «المثقّفين» آنذاك. لقد ذهبتُ إليه برفقة ديزانتي الذي كانت لديه -وهو الكورسيكيّ الأصل- حظوةٌ عند لوران، وكان يتبع الأخير في سياسته -وليغفر لي ديزانتي ذلك- كأنّه جروٌ صغيرٌ. انتظرنا قرابة الساعة في قاعة الانتظار التي كان يفصلها حاجزٌ خشبيٌّ رقيقٌ عن مكتب لوران. لقد كانت ساعةً مليئةً بالصّراخ، والإهانات، والشتائم العجيبة: لم يكن يُسمع سوى صوت كازانوفا المتوجّه إلى مخاطبٍ صامتٍ بحكم الأمر الواقع. كان الأمر على صلةٍ بالعلم البروليتاريّ، وهي كلمة المرور في ذلك العصر. لقد سمعنا عباراتٍ عجيبةً، من بينها عبارة وردت تعليقًا على 2+2= 4: يبدو أنّه «بورجوازيٌّ». أخيرًا، خرج رجلٌ محطّم، فأسماه لي ديزانتي: مارسيل برونان (Marcel Prenant). ثمّ دخلنا إلى مكتب كازا الذي استأنف في حضرتنا محاضرته الساخطة التي كان قد انتهى من إلقائها على برونان. وبعد أن هدأت ثائرته، قام بقراءة تقريري، ثمّ أعطى موافقته. فأيّ درسٍ كان ذلك!

لكنّ الأمر المدهش أكثر، هو أنّ هذا النوع من الحوادث، لا سيّما الحادث الأوّل الذي كان أشدّها رعبًا، لم يصبني بالإحباط على الإطلاق. لقد كنتُ محطّمًا، ولكن غاضبًا أيضًا. وهذا السخط كان يشدّ عضدي بلا شكّ في مسيرة الحياة، مع ما قدّمته هيلين من مثالٍ استثنائيّ عن الشجاعة. لقد كنتُ أتحوّل إلى رجلٍ.

لا شكّ أنّني في هذه التجارب الأولى قد وجدت القوّة على أن أحقّق -داخل الحزب نفسه- رغبتي في المقاومة والقتال، وهو ما سأفعله في وقتٍ لاحقٍ بصورةٍ مستمرّةٍ. لقد عثرتُ أخيرًا على موطئ قدمي، وبما أنّني بقيتُ داخل الحزب، فإنّ القتال كان يدور -كما قلتُ سابقًا- في ظلّ حماية الحزب نفسه. لقد هُوجمتُ داخل

الحزب بقسوةٍ، وعلى نحوٍ متواصلٍ، لكنّ الحزب كان يسامحني، ولعلّ السبب في ذلك أنّهم كانوا يضعون في حسبانهم ما حصدته مداخلاتي النظريّة من جمهور. بكلّ تأكيدٍ، لقد وجدتُ في هذه الوضعيّة امتيازًا لي إذ كنتُ أجمع فيه ما بين رغبتي في حمايةٍ راسخةٍ حتى الآن، ورغبتي في الانخراط أخيرًا في قتالٍ لم أخضه حتى الآن إلّا باستخدام الأساليب الملتوية. لقد كان الأمر جدّيًا هذه المرّة. وهذا ما كان، وسوف يزداد أكثر فأكثر حتى عام 1980، سنة المأساة.

الفصل السابع عشر

الآن وقد بيّنتُ لكم طرق الوصول البعيدة التي قادتني إلى ماركس، أو القوّة التي منحني إيّاها فكر ماركس، وبما أنّني قد كشفتُ القصّة الكاملة لعلاقتي مع ماركس، وقد فعلتُ ذلك أيضًا في كتابي «*من أجل ماركس*» (في مقدّمته خاصّةً)، وفي «*مرافعة أميانس* Soutenance d'Amiens»، فإنّني أستطيع أن أكون أكثر إيجازًا.

أستطيع أن أقول إنّه -وبشكلٍ كبيرٍ- *من خلال المنظّمات الكاثوليكيّة للعمل الكاثوليكيّ فقد تعرّفتُ إلى صراع الطبقات، وإلى الماركسيّة بالتالي*. ولكن، ألم يسبق لي أن أشرتُ إلى الخديعة المدهشة للتاريخ الذي قام بتعليم الاشتراكيّة نفسها إلى أعدادٍ لا تُحصى من أبناء البورجوازيّة، والبورجوازيّة الصغيرة (بما في ذلك الفلّاحون في منظّمة شباب العمل الزراعيّ المسيحيّ) من خلال المواربة في عرض «القضيّة الاجتماعيّة»، و«سياسة الكنيسة الاجتماعيّة»، وذلك بدافع الهلع من رؤية هؤلاء يعبرون إلى «الاشتراكيّة»؟ في واقع الأمر، فإنّ الكنيسة، بمنشوراتها البابويّة وقساوستها، قد شكّلت لديها مناضلين مرتبطين بوجود «قضيّة اجتماعيّة» معيّنة، وقد كان معظمنا لا يعرف عنها شيئًا بالمطلق. بالطبع، إنّ مجرّد وجود «القضيّة الاجتماعيّة»، واقتراح الحلول السخيفة المعروفة لهذه القضيّة، سيجعل الأمر في حاجةٍ إلى القليل فقط -كالرؤية السياسيّة العميقة للأب هورس في حالتي على سبيل المثال- من أجل رؤية ما يجري «وراء» المداخن الرسميّة للكنيسة الكاثوليكيّة، ومن أجل الانخراط السريع في الماركسيّة، قبل الانتساب إلى الحزب الشيوعيّ! لقد كان هذا السبيل هو سبيل عشرات الألوف من شباب الطلّاب،

والعمال والمزارعين المسيحيين (JEC JOC JAC)، الين تعرّفوا -في أثناء المقاومة أغلب الأحيان- إلى كوادر من الاتحاد العام للعمل أو من الحزب الشيوعيّ. اليوم، يمكننا ترقّب نتائج أكثر أهمّيّة للحركات الشعبيّة التي تدعم لاهوت التحرير[159].

لكنّني حافظتُ على «إيماني» زمنًا طويلًا، حتى قرابة عام 1947. بالطبع، لقد تضعضع هذا الإيمان بقوّةٍ خلال فترة الأسر، بما رأته عيناي -وقد بلبل ذلك أفكاري- حينما ذهبتُ برفقة *دايل* «في رحلةٍ على متن شاحنةٍ صغيرةٍ» صوب فدائيي الأرياف، وكذلك بنفاذ البصيرة لتلك الصبيّة الفتيّة جدًّا التي كانت جالسة فوق درجات سلّم، وهي غارقةٌ في صمتها -كانت قد ضمّت ركبتيها إلى بعضهما البعض- والتي وجدتها جميلةً بشكلٍ لا يُصدّق. بيد أنّني فكّرت للتوّ بأنّ هاتين «الركبتين المضمومتين» تذكّراني بمحاضرةٍ مدهشةٍ لهنري غيومين (Henri Guillemein)، الذي كان -في عام 1936- أستاذنا في اللّغة الفرنسيّة في مدينة ليون مدّة خمسة عشر يومًا. كان الأستاذ قد جعلنا نقرأ رواية «أتالا[160]»، وبما أنّنا قد سحرنا بسرعةٍ هائلةٍ في موهبة الكاتب الفنيّة حينما يتطرّق إلى وصف جثّة الصبيّة الجميلة، ولاسيّما [مشهد] «احتشام ركبتيها المضمومتين»، فقد انتابت الأستاذ فورةٌ من الغضب، ونعتنا بأنّنا «صبيةٌ أبكارٌ»، وإذ لم تكن لدينا الجرأة أن نخاطر في استيضاحه، صرخ في وجهنا أخيرًا قائلًا بالحرف الواحد: «ولكنّها إذا ما كانت قد ضمّت ركبتيها، فالسبب في ذلك يعود إلى أنّ أحدًا لم يفرّج بين فخذيها كيما يضاجعها! وذلك لأنّها عذراءُ، أليس كذلك؟ إنّ الركب تتباعد عن بعضها البعض بعد أوّل مضاجعةٍ!» لا أخفيكم، لقد جعلتني هذه «الفورة» -التربويّة كما يُزعم- أستغرق في الأحلام بصورةٍ حادّةٍ. وعلى كلّ حالٍ، لقد وجدتُ بين ركبتي العذريّة المزعومة عند غيومين، والرّكبتين المزمومتين للفتاة الألمانيّة الحسناء الجالسة في

(159) لاهوت التحرير: هو مزيج من اللاهوت المسيحيّ والتحليلات الاجتماعيّة الاقتصاديّة الماركسيّة التي تشدّد على الاهتمام الاجتماعي بالفقراء، والتحرّر السياسيّ للشعوب المضطهدة، وهو ما كان يمثّل الممارسة السياسيّة لعلماء الدين في أمريكا اللاتينيّة في خمسينيّات وستينيّات القرن العشرين. (المترجم)
(160) أتالا (Atala): رواية من تأليف الكاتب الفرنسيّ شاتوبريان. (المترجم)

مقابلي، رابطًا عاطفيًا ما. من جانبٍ آخر، لقد تشوّشتُ لمدّةٍ طويلةٍ في أثناء السنة الثانية من المدرسة العليا، بتصاوير كتاب مدرسيّ يحكي عن تاريخ الأدب اللاتيني، إذ كان يعرض صور راقصات عاريات، ومنحوتات برونزيّةٍ خليعةٍ لنقشٍ إسكندريّ. لقد بلغ «الاضطراب» في جسدي حدًّا كبيرًا حتّى إنّني ذهبتُ إلى الأب فاريون أفضي له بأسراري، فقام هذا بتقديم «موجزٍ» عن الفنّ والتّصعيد.

مهما يكن من أمرٍ، لقد كنتُ أشعر بوضوحٍ أنّني لم أعد مؤمنًا وذلك تبعًا لتناقضٍ صاعقٍ قائمٍ بين إيماني ورغباتي الجنسيّة (وهو الأمر الذي ما أزال أعيده: من دون نتيجةٍ).

مع ذلك، لقد بقيتُ مؤمنًا حتى عام 1947 تقريبًا، حتى اللحظة التي قمنا فيها أنا وموريس كافان (Mauric Caveing)، وفرانسوا ريتشي (FranÇois Ricci)، وآخرون بعرض قضيّتنا، قضيّة التنظيم النقابيّ غير المرخّص الذي كان يكافح من أجل الاعتراف به بصورةٍ قانونيّة (لقد كانت لهذه الوضعيّة علاقةٌ ما بمشكلة فراري القديمة: بطريقة الفرار من المعسكر من دون الخروج منه، لكنّ الأمر كان بالمقلوب هذه المرّة، كما كان جدّيًا). كنتُ أتردّد برفقة هيلين -ولا أعلم كيف فعلتُ ذلك- إلى الأب الشاب مونتولار (le père Montuclard)، وإلى حركة شباب الكنيسة في بلدة بوتي كلامار (Petit-Clamart). كنتُ أقول لمن أراد الاستماع: «إنّ الإلحاد هو الصيغة العصريّة عن الدين المسيحيّ». لقد حقّقت هذه الكلمة نجاحًا كبيرًا في جماعتنا. ولقد كتبتُ في مجلّة هذه الجماعة مقالةً طويلةً حول وضع الكنيسة ما يزال لاهوتيّو التحرير حتى اليوم ينسبون إليّ الفضل في ذكرها. إنّني أرى أنّ المسيحيّة -بقضّها وقضيضها- تتلخّص في المسيح، في رسالته «الإنجيليّة»، وفي دوره الثوريّ. وعلى النقيض من سارتر الذي كان شغوفًا بالتوسّطات، كنتُ أعدّ كلّ توسّط إمّا عدمًا، وإمّا أنّه كأيّ تأمّل بسيطٍ -مهما قلّت دقّته- من حيث الأثر الذي ينتج عنه. فإذا ما كان المسيح وسيطًا أو توسّطًا، فإنّه لم يكن سوى وساطةً للعدم، وبالتالي لله الذي لم يكن موجودًا. إلخ. لقد أخبرني الأب بروتون (Breton)

بأنّ هذه العبارات قد شكّلت تقليدًا قائمًا في اللاهوت السلبيّ(161)، والمذاهب الصوفيّة.

في ضوء ذلك، لقد أتيتُ الشيوعيّة عن طريق كوريج، وعن طريق رفاقي القدامى في المقاومة من أبناء ليون (لوزيفر، وسواه)، وبصورةٍ طبيعيّةٍ عن طريق تجربة هيلين المأساويّة، التي وإن لم تكن تتعارض مع تجربتي السابقة، فإنّها لم تسرّع في وتيرتها أبدًا.

ولما كنتُ شديد الإيمان، فإنّني سرعان ما شُغلت بفويرباخ ، وبكتابه «*جوهر المسيحيّة*/ L'Essence du christianisme». ولقد عكفت على ترجمة هذا الكتاب على مدى سنوات: لقد كان عملًا طويلًا جدًّا لم أنشره إلّا في السنة العاشرة، لأنّ فويرباخ كان رجلًا لا ينقطع عن التكرار والإعادة. لقد جعلني أكتشف بدهشةٍ نصوص مرحلة الشباب من حياة ماركس، وهو الأمر الذي سوف أجعل منه حكايةً كبيرةً في وقتٍ لاحقٍ.

فويرباخ المدهش، الرجل الذي لم يوفَ حقّه على نحوٍ كبير، هو -مع ذلك- الجذر الحقيقيّ للفينومينولوجيا (نظريّته عن القصدية في علاقة الذّات-الموضوع)، ولعدّة أفكار عند نيتشه وجاكوب فون أوكسكول (Jakob Von Uexkull)(162). لقد كان كانغيلام يقدّر عاليًا هذا البيولوجيّ الفيلسوف الاستثنائيّ، والذي أخذ كانغيلام عنه مفهوم العالم (Welt) بوصفه العالم المعيش (Lebenswelt)، إلخ. إنّني مدينٌ جدًّا لقراءته المتبصّرة. بالطبع، كنتُ أقرأ نصوص ماركس الشاب، لكنّني سرعان ما أدركتُ: لقد كانت الروح الفويرباخيّة تتخلّل هذه النصوص -التي كانت تعُدّ آنذاك الفكر الأصيل والحاسم لماركس- من أوّلها إلى آخرها، إلى

---

(161) اللّاهوت السلبيّ هو الحديث عن الإله من حيث نفي صفات النقص عنه، ويقابله اللّاهوت الإيجابيّ وهو وصف الإله بصفات إيجابيّة. (المترجم)

(162) جاكوب فون أوكسكول (Jakob Von Uexkull) 1864-1944: فيلسوف وأستاذ جامعة وعالم أحياء ألماني. (المترجم)

درجة أنّ ماركس الذي سيعلن بتسرّعٍ في كتاب «الإيديولوجيا الألمانيّة» عن «القطيعة مع معرفتنا الفلسفيّة السابقة»، فإنّه سوف يستخلص منها -مع ذلك- عددًا من النتائج الثوريّة المتعلّقة بنمط الإنتاج، والعناصر الداخلة في «تركيبه». وهذا هو الأمر الذي لم أجده عند فويرباخ، ولا عند هيغل نفسه. لكنّني، وبعد أن تقدّمتُ في قراءة ماركس بصورةٍ مؤلمةٍ، قضيتُ في مسألةٍ عامّةٍ بشأن «ماركس الشاب»، و«مخطوطات 1844» في مجلّة الفكر «La Pensée»، إذ طرحتُ قضية عداء الإنسانيّة النظريّ لدى ماركس. لقد بدأتُ في مخطوطة عام 1858 الرّائعة (الانتقاد الأوّل للاقتصاد السياسيّ) التي وجدتُ فيها هذه العبارة الصادمة: «ليس تشريح بنية القرد هو الذي يعطيك فكرةً عن بنية الإنسان، بل إنّ تشريح بنية الإنسان هو الذي يفسّر لك بنية القرد»، هذا العبارة مدهشةٌ لسببين اثنين: لأنّها تنكر قبل ظهور المفهوم التطوّري للتاريخ كلّ معنىً غائيّ له، ولأنّها بالضبط استباقٌ -في صورة أنماطٍ أخرى بالطبع- للنظريّة الفرويديّة عن الأثر الرجعيّ (L'Après coup): ما معناه أنّ انفعالًا سابقًا لا يتجلّى إلّا من خلال -وفقط من خلال- انفعالٍ لاحقٍ يشكّل في الوقت نفسه العلامة بوصفه موجودًا في السابق بأثرٍ استعاديّ، وهو يستثمره في معناه الخاص اللاحق. سوف أعثر على الفكرة نفسها في وقتٍ لاحقٍ عند كانغيلام، بمناسبة انتقاده الحادّ جدًّا *للسلف المبشّر (précurseur)*.

لقد ذكرتُ أنّني لم أقرأ كتاب *«رأس المال* Le Capital» إلّا في عام 1964-1965 وهي سنة الحلقة الدراسيّة التي سوف تتمخّض عن كتاب *«قراءة رأس المال»*. ففي شهر كانون الثاني/ يناير من عام 1963، حضر إلى مكتبي كلٌّ من بيير ماشوري، وإتيان باليبار، وفرانسوا رينو (François Régnault)[(163)] -إذا لم أكن قد نسيتُ أحدًا آخر- يطلبون أن أساعدهم في قراءة أعمال ماركس الشاب.

(163) فرانسوا رينو (François Régnault) 1923-1975: قاضٍ فرنسيّ وعضو في المقاومة الفرنسيّة، وقد اغتيل في ليون في فرنسا. (المترجم)

وبالتالي، لم أكن أنا صاحب المبادرة في الكلام عن ماركس الشاب، لكنّني قمتُ بذلك بناءً على طلب بعض أبناء المدرسة العليا. لقد نتجت الحلقة الدراسية لعام 1964-1965 عن هذا التعاون الأوّل، ثم قمنا في شهر حزيران/ يونيو بتطوير هذه الحلقة، وقد شارك في ذلك كلٌّ من: باليبار، ماشوري، رينو، دورو[164]، ميلر، رانسييه[165]، إلخ. لكنّ أفكار ميلر بخصوص موضوع الدراسة كانت أكثر متانةً. بيد أنّه اختفى تمامًا خلال تلك السنة، ليعيش فيما يشبه كوخًا للصيد في رامبويّه (Rambouillet) مع فتاة -كما يقال عنها- أنّها كانت «تبتكر مصطلحًا نظريًّا على الأقلّ كلّ أسبوع». على كلّ حالٍ، لقد ابتكرت هذه الفتاة مصطلحًا عندما قمتُ -مع هيلين وقد كنّا على مقربةٍ من المكان- بزيارةٍ قصيرةٍ إلى ميلر.

لقد عكفنا على دراسة نصّ «رأس المال» خلال فترة الصيف كلّها من عام 1965. ومع بداية العام الدراسيّ فإنّ رانسييه قبلَ -كي يجعلنا نشعر براحةٍ كبيرةٍ- أن يتحمّل عبء الدفاع عن موقعنا الجديد. لقد تكلّم في ثلاث مناسبات مدّة ساعتين بكلّ دقّةٍ وصرامةٍ بالغتين. لذلك ما أزال أقول إنّ الأمر ما كان ليصبح ممكنًا من دونه. ومن المعلوم كيف تجري الأمور في هذه الحالات. فما إن يتكلّم الشارح الأول، لمدّة طويلةٍ جدًّا وبدقّةٍ، حتى ينجح الآخرون في القيام بعملهم. ولقد استفدتُ من ذلك في تحقيق الفائدة لي، وأنا أقرّ عاليًا بأنّني كنتُ مدينًا في هذه المناسبة لرانسييه. لقد جرى كلّ شيءٍ بسهولةٍ بعد رانسييه، فالطريق كانت معبّدةً وسهلة المسالك جدًّا، سهلةً في المجالات التي كنّا نفكّر في إطارها آنذاك، بعد أن ألقيت محاضرةً حول لاكان، والتي تدخّل فيها ميلر ليعلن عن «اكتشافٍ مفهوميٍّ»: إنّه مفهوم «السببيّة المجازيّة» (أو السبب الغائب)، الذي سيتبّب بوقوع مأساةٍ. لقد انقضت السنة من دون أن يتكلّم دورو بشيءٍ وهو العقل الأقوى فيما بيننا. لكنّ

---

(164) إيف دورو (Yves Duroux) 1941-؟: فيلسوف فرنسيّ، عمل بشكل خاصّ مع الفيلسوف إتيان بالهبار. (المترجم)

(165) جاك رانسييه (Jacques Rancière) 1940-؟: فيلسوف فرنسي مهتم بالفلسفة السياسية وفلسفة الجمال. (المترجم)

ميلر حينما عاد في شهر حزيران/ يونيو عام 1965 من رامبويّه، وقرأ نسخًا (مطبوعةً على آلة الرونيو) عن المداخلات، اكتشف أنّ رانسييه قد «سرق» منه اكتشافه المفهوميّ الشخصيّ عن «السببيّة المجازيّة». لقد تألّم رانسييه على نحوٍ رهيبٍ نتيجة اتّهامه بذلك، أليست المفهومات معدّة من أجل الجميع؟ لقد كنتُ من أنصار هذا الرأي، لكنّ ميلر آنذاك كان يسمع بأذنٍ من طينٍ وأخرى من عجين. وإنّني لا أروِ هذه الحادثة التافهة كي أقسو على ميلر، إذ يجب اغتفار هفوات الشباب هذه. من جانبٍ آخر، لقد بدأ ميلر السنة الدراسيّة -كما سمعتُ- بإلقاء محاضرةٍ حول لاكان يقول فيها بفخامةٍ: «لن ندرس لاكان، بل سوف نكون موضعًا للدراسة من قبله»، وهذا يدلّ على أنّ ميلر كان ما يزال قادرًا على الاعتراف بتدخّل الآخر، وبملكيّته لمفهومٍ من المفهومات...لكنّ تلك السنة انقضت على نحو سيّئٍ إذ لستُ أدري أيّة عمليّةٍ جدليّةٍ قادتني كي أحلّ محلّ رانسييه، بسببٍ من اتّهام ميلر له بأنّه سرق منه مفهوم «السببيّة المجازيّة». فليسامحه الله، لقد نُحّي رانسييه جانبًا في تلك القضيّة الفظيعة. وسوف نجد لذلك أثرًا في كتابي *«قراءة رأس المال»*، فقد تعيّن عليّ حينما استخدمت هذا التعبير «السببيّة المجازيّة» أن أشير إلى أنّني قد استعرتها من ميلر...لكنّ ذلك كان في سبيل تحويل هذه العبارة سريعًا إلى «سببيّة بنيويّةٍ»، وهو تعبير لم يسبق لأحدٍ استعماله، والذي كان بالتالي من صنعي أنا! يا لها من حكايةٍ! لكنّها تعطي فكرةً عن مستوى هذا العالم الصغير، الذي تفاجأ به دوبري (Debray) كثيرًا لدى عودته من بوليفيا (Bolivie)، والذي كان يبدو مذهلًا في عيون القرّاء.

إنّ قضيّة المؤلّف هذه -وقد أدركتُ ذلك منذ عهدٍ قريبٍ من كلام الأب بروتون- حكايةٌ قديمةٌ جدًّا. فنحن نعلم أنّه في القرون الوسطى، وعلى النقيض مما يجري في أيامنا، كان *العلم* مرتبطًا باسم مؤلّف: أرسطو. في المقابل، لم يكن النتاج الأدبي يهتمّ بأيّ اسمٍ للمؤلّف. في أيامنا، الوضع معكوس تمامًا: إنّ العلماء يعملون في غفليّة اسميّة لعملٍ جماعيّ، ونحن إذا ما تكلّمنا -في أكثر تقدير- عن «قانون

نيوتن»، فإنّنا نكتفي في أغلب الأحيان بالحديث عن «قانون الجاذبيّة»، أو بالنسبة إلى أينشتاين (Einstein)، عن النسبيّة البسيطة، أو عن النسبيّة العامّة. هكذا، فقد أخبرني بروتون نقلًا عن أحد زملائه، الأب كاتيلون (Catillon)، وهو عالمٌ نحريرٌ اختصاصيّ في القرون الوسطى، بأن القديس توما (saint Thomas) –الذي كان قد دخل في جدال عنيفٍ مع الرشديّين– قد أبدى قديمًا موقفه المعارض لمسألة اللاشخصيّة لكلّ كاتبٍ منفردٍ (أي غفليّة الاسم)، من خلال البرهنة على الشكل الآتي تقريبًا: إنّ كلّ فكرةٍ هي فكرةٌ لا شخصيّة بالطبع، طالما أنّها نتيجة عامل فكريّ. لكنّ كلّ فكرةٍ أمام ذاتٍ مفكّرةٍ «لرجلٍ لبيبٍ» يجب أن تكون تبعًا لذلك استعادةً لفكرةٍ لا شخصيّةٍ من قبل «رجلٍ لبيبٍ» فردٍ، وبحكم القانون، يمكنها أن تحمل اسم هذا الفرد...لم يكن ليخطر في بالي أنّه في صميم القرون الوسطى –كما قيل لنا في مشفى سوازي فوكو (Soisy Foucault)– حيث كان القانون السائد هو قانون اللاشخصيّة الأدبيّة، كان يوجد هنالك قديسٌ توما ما، ربّما تحت ضغط الحاجة إلى المجادلة مع الرّشديّين، كي يؤسّس مفهوم الضرورة –بحكم الشرعيّة الفلسفيّة– إلى إمضاء المؤلّف...

مع ذلك، لقد كانت هذه القضيّة التافهة المتعلّقة «بسرقة المفهوم» تمسّ نقطةً مبدئيّةً ومثيرةً للقلق كانت تشغلني على نحوٍ عميقٍ: قضيّة غفليّة الاسم. وبما أنّني لم أكن موجودًا من أجل نفسي، فلكم أن تتخيّلوا بسهولةٍ أنّني كنتُ أرغب في تكريس عدمِ الوجود هذا من خلال غفليّة اسمي. لقد كنتُ أسرح آنذاك في عبارة هاينه (Heine) التي يتحدّث فيها عن ناقدٍ مشهورٍ فيقول: «لقد كان معروفًا بكونه مشهورًا»، وكان يعجبني ذلك النقد الذي قام به فوكو لفكرة «المؤلّف»، وهي فكرةٌ عصريّةٌ تمامًا، إذ تذيبُ المؤلّف –مثلما كنتُ أذوب وسط صفوف خليّتي الغامضة– في خضمّ العمل المكافح لدى السجناء. لقد كنتُ معجبًا بتواضع فوكو الكبير، وكنتُ أعلم أنّ إتيان باليبار كان يقدّر لديّ «فوق كلّ شيءٍ» ذلك الدفاع الشرس الذي كنت أشنّه على نحوٍ دائمٍ ضدّ كلّ دعايةٍ تتعلّق باسمي. لقد اشتُهرتُ بأنّني

همجيٌّ، منعزلٌ في شقّتي القديمة ضمن المدرسة العليا التي لم أكن أبارحها على الإطلاق تقريبًا، وأنا إذا ما حافظتُ على مظاهر هذه البرّيّة الانعزاليّة، فذلك في سبيل الولوج إلى غفليّةٍ كنتُ أعتقد أنّها قدري، وأنّني أجد فيها السلام خاصّةً. والآن إذ أبوح للملأ الذي يرغب بقوّة في قراءة هذا الكتاب ذي الطابع الشخصيّ جدًّا، فإنّني أفعل ذلك مرّةً أخرى –ولكن من خلال هذه المراوغة المفارقة– في سبيل الولوج على نحوٍ قطعيّ في الغفليّة، ليس من خلال شاهدة القبر المتعلّقة بقرار منع المحاكمة فقط، ولكن أيضًا من خلال نشر كلّ ما يُرغب في معرفته بشأني، وهو ما سيجلب الرّاحة على هذا النحو للمطالبات بالبوح بالأسرار. لذلك سوف تُقضى رغبات سائر الصحفيّين ورجال الإعلام في هذه المرّة، ولكنّكم ستجدون أنّهم لن يكونوا بالضرورة سعداء. أوّلًا لأنّه لن يكون لديهم شيءٌ، ومن ثمّ، ما الذي يمكنهم إضافته إلى ما كتبتُ؟ توضيحٌ؟ ولكنّني أنا نفسي من يقوم بالتوضيح!!

في ضوء ذلك، كنتُ كلّما غُصت أكثر في قراءة ماركس، وكلّما قرأتُ أكثر عن الفلسفة، كلّما أدركتُ أكثر بأنّ ماركس كان قد فكّر –عالمًا بذلك أو غير عالمٍ– في الأفكار ذات الأهمّيّة الكبرى للمؤلّفين الذين سبقوه: أبيقور (Epicure)، سبينوزا، هوبز (Hobbes)، مكيافيللي (على نحوٍ جزئيٍّ في الحقيقة)، روسّو، وهيغل. ولقد أصبحتُ مقتنعًا أكثر فأكثر بأنّ فلسفة هيغل وفويرباخ قد مثّلتا في الوقت نفسه «نقطة ارتكازٍ»، وعائقًا معرفيًّا أمام تطوير ماركس مفهوماته الخاصّة وصولًا إلى صياغتها (ولقد أقام جاك بيديه (Jacques Bidet) الحجّة الدامغة على ذلك في أطروحته الحديثة: «*ماذا نفعل برأس المال* Que Faire du Capital?» لدى دار نشر ميريديان كلانكسيك (Méridiens-Klinksieck)). لذلك، فإنّ من الطبيعيّ، أن نطرح على ماركس، أو حول ماركس، قضايا لم يستطع طرحها أو لم يعرف كيفيّة فعل ذلك. ما يدفعنا إلى القول بأنّه يتوجّب علينا بدورنا –إذا ما أردنا أن نفكّر «بعقولنا نحن أنفسنا» ونحن نقف أمام «مخيّلة التاريخ» المعاصرة العجيبة– أن نبتكر أشكالًا جديدةً من التفكير، ومن المفهومات الجديدة– ولكن دائمًا بوحيٍ ماديٍّ من

ماركس كيلا «نلوك سوالف الحكايات إلى الأبد»، وأن نبقى متيقّظين إلى جدّة التاريخ وابتكاراته.

وكمثالٍ على تطوير الأفكار الأكثر أهميّة، على الرّغم من أنّها لا تدّعي انتمائها - أو تنفيه مطلقًا- إلى ماركس، أو على الرّغم من اشتهارها (؟) بكونها معادية للإنسانيّة من الناحية السياسية -فإنني أفكّر الآن على وجه التحديد بكتابٍ رائع جدًّا لفرانسوا فوريه (François Furet) حول الثورة الفرنسيّة الذي يتّخذ موقفًا معاكسًا -وهو محقٌّ تمامًا- لتقليدٍ إيديولوجيٍّ بحت كان قد ظهر في مرحلة الثورة نفسها، وهو ما كان ماركس يطلق عليه اسم «الوهم السياسيّ»، واستمرّ إلى مرحلة سيطرة المجالس الثوريّة الباريسيّة.

هذا هو ما يحكم علاقتي بماركس والماركسيّة. منذ أن اكتشفتُ -كما في استطاعة أيّ شخصٍ أن يفعل- (وماركس قد اعترف بذلك فيما يتعلّق بالجوهر)، بأنّ الجوهر الفلسفيّ وغير «العلميّ» للماركسيّة قد قيل قبل زمنٍ طويلٍ جدًّا من ماركس (ابن خلدون (Ibn Khaldoun)، ومونتسكيو، إلخ) ونضع جانبًا تلك النظريّة «الضبابيّة»، غير المعقولة عن القيمة-العمل التي يزعم ماركس كما لو أنّها اكتشافه الشخصي الوحيد على نحوٍ أصيلٍ. إنّ الملامح السياسيّة لهذا المشروع هي ملامح نظريّة بحتةٌ في الظاهر (آه! ماذا كُتب عن «تنظيرنا المفرط»، عن «احتقارنا للممارسة»!!)، سوف أتناول ذلك في مكانٍ آخر.

الفصل الثامن عشر

بالنسبة إلى علاقتي بالماركسيّة، أحسب أنّني الآن فقط أرى بوضوحٍ هذه العلاقة. وأعيدُ مرّةً أخرى أنّ القضيّة لا تتعلّق بموضوعيّة ما يمكنني أن أكتبه، وبالتالي بعلاقتي مع موضوعٍ موضوعيّ أو أكثر، بل تتعلّق بعلاقتي بموضوع «غيرانيّ»، أي داخليّ ولاشعوريّ. وإنّني عازم الآن أن أتكلّم عن هذه العلاقة الغيرانيّة فقط.

وإليكم الآن –أي منذ أن كتبتُ هذه الدراسة حقيقةً- كيف كانت الأشياء تبدو لي.

بأيّةِ طريقةٍ أتيتُ إلى العالم، التكراريّ والضيّق جدًّا، العالم الذي كان يحيط بي في طفولتي؟ وبأيّةِ طريقةٍ –وقد أُدرجتُ داخل رغبة أمّي- كنتُ أستطيع أن ألبّيها؟ لقد أتيته مثلما أتته أمّي، أي دونما احتكاكٍ بجسدي وأصابعي من خلال اشتغالها على مادّةٍ موجودةٍ سلفًا، ولكن من خلال الاقتصار على استخدام العين. العين عضوٌ سلبيٌّ، يبقى على مسافةٍ من موضوعه، فيستقبل صورته، من دون أن يُضطرّ إلى العمل، ومن دون أن ينخرط الجسد في أيّة عمليّةٍ مقاربةٍ، في أيِّ احتكاكٍ، أو معالجةٍ باليد (الأيادي قذرةٌ –وقد كانت القذارة رهابٌ عند والدتي- ولهذا السبب تشعرني القذارة بنوعٍ من الرضا). في ضوء ذلك، فإنّ العين هي العضو التأمّليّ بامتيازٍ، من أفلاطون وأرسطو حتى القديس توما وما بعد. في طفولتي، لم أضع أبدًا «يدي على مؤخّرة» أيّة فتاةٍ صغيرةٍ مهما كانت، لكنّني كنتُ متلصّصًا على نحوٍ مرضٍ، وقد لازمني هذا الأمر زمنًا طويلًا. المسافة: المسافة المزدوجة التي كانت

تقترحها عليّ والدتي وتفرضها علي، هذه المسافة التي تؤمّن الحماية من نوايا الآخر قبل أن يقوم بلمسكَ (بقصد السرقة أو الاعتداء الجنسيّ)، المسافة التي سأكون فيها أيضًا ذلك الـ«لويس» الآخر الذي لم تنقطع أمي عن النظر إليه من خلالي. على هذا النحو كنتُ طفل العين، من دون احتكاكٍ، ومن دون جسدٍ، بحسبان أنّ كلّ احتكاكٍ يتمّ من خلال الجسد بالطبع. يُقال لي أنّني -قرابة عام 1975- تلفّظتُ بهذه العبارة الفظيعة: «ومن ثمّ، هنالك أجسادٌ، ولهذه الأجساد أعضاء ذكريّةٌ»! بما أنّني لم أكن أشعر بامتلاكي لأيّ جسدٍ، حتّى إنّني لم أكن في حاجةٍ إلى تحاشي أدنى احتكاكٍ مع مادّة الأشياء، أو مع أجساد البشر، فلعلّ هذا هو السبب في أنّني كنتُ أموتُ هلعًا من فكرة دخولي في عراكٍ، الهلع -في أثناء هذه القتالات المختصرة والعنيفة الجارية بين الأولاد- من أن يتعرّض جسدي (أو ما أملكه) إلى الجرح، أو اقتطاع جزءٍ من تمامه المتوهَّم، والهلع أيضًا -وهي فكرةٌ لم تخطر على بالي أبدًا قبل سنّ السابعة والعشرين- من أن أقوم بالاستمناء.

لكنّني أظنّ أنّ جسدي كان يرغب بشدّةٍ في أن يكون له وجوده الخاصّ به. من هنا تأتي رغبتي في ممارسة كرة القدم، ومن هنا براعتي القصوى في التلاعب بسائر العضلات، سواء أكانت عضلات الفم والحلق، أم عضلات الذراعين والساقين (تكلّم أكثر من لغةٍ، ولعب كرة القدم، إلخ). سوف تستمرّ هذه الرّغبة في حالٍ من الكمون حتى مجيء أوقات جدّي المباركة، في منزل الغابة في غابة بولونيا أوّلًا، ثم -وعلى وجه الخصوص- في بستانه وحقوله في المورفان. إنّني أرى الآن بوضوحٍ أنّ تلك الفترة المبهجة كانت الفترة التي تعرّفتُ فيها أخيرًا -بل وعرفت نفسي فيها أخيرًا- إلى وجود الجسد، وأنّها -على وجه الدقّة- الفترة التي تملّكتُ فيها سائر الكمونيّات الفعليّة التي كان جسدي ينطوي عليها. فإذا ما تذكّرتُ، فإنّني أتذكّر: الروائح، وقبل كلّ شيءٍ آخر، روائح الزهور، والفاكهة، والنباتات، وأيضًا روائح تعفّنها كذلك، وكذلك الرائحة الإلهيّة لروث الأحصنة، ورائحة الأرض والبراز في المرحاض الخشبيّ الصغير القائم في الحديقة تحت الرّائحة القويّة لأزهار

البيلسان، وطعم التوت البرّيّ الذي كنتُ أبحث عنه عند المنحدرات، ورائحة الفطر، والكمأة بصفةٍ خاصّةٍ، ورائحة الدجاج والدماء، ورائحة القطط والكلاب، ورائحة بالات الحبوب، والزيت، ونوافير المياه الساخنة، ورائحة عرق الدوابّ وعرق الآدميين، وتبغ جدّي، ورائحة الجنس، ورائحة الخمر القويّة ورائحة الأقمشة، والنشارة. ورائحة عرقي المنبعثة عن جسدي في أثناء حركته، والمتعة في الإحساس بعضلاتي تطاوع أوامري، وجهدي في أثناء رفعي لحزب الحبوب فوق العربات، وحملي جذوع الأشجار والحطب، كما كانت عضلاتي تلبّي جيّدًا رغبتي في أن أقوم بنفسي بالسباحة، وبلعب التنس، وبركوب الدّرّاجة الهوائيّة كبطلٍ من الأبطال. لقد أعطتني المورفان كلّ هذا، أي عن طريق الحضور الفاعل والمفيد لجدّي (في حين لم تعطني قسوة والدي في الجزائر وفي مارسيليا قدوةً ما، بل هلعاً وخوفًا).

في ذلك المكان شرعتُ أفكّر في جسدي، وسوف يلازمني ذلك إلى الأبد. أفكّر، ليس في المسافة المتحفّظة والسلبيّة للنظر، للعين، ولكن في الفعل الذي تأتيه يداي، وفي مباراة العضلات اللانهائيّة، وفي سائر أحاسيس الجسد. حينما كنتُ أتنزّه في حديقة جدّي، أو في حقوله، أو في الغابات، لم يكن في رأسي سوى العمل، وقلب التربة (لقد تعلّمتُ الحراثة بشكلٍ مثاليٍّ)، واقتلاع حبّات البطاطا، وحصاد القمح والشعير، وأن أباعد الأغصان الفتيّة للأشجار كي أقلّمها بسكيني، آه! تلك السكّين التي أهدانيها جدّي، كانت كبيرةً وحادّةً مثل سكّينه، أيّةُ متعةٍ كنتُ أجدها في قطع الأغصان الفتيّة لشجرة الكستناء، كي نصنع منها مقابض للسّلال، وقطع جذوع الصفصاف كي نجدلها على نصباتها، وأيّة متعةٍ في أن أجدل بنفسي تلك السّلال، وفي قطع أخشابٍ صغيرةٍ لصنع القباقيب القاسية بالمشذب، أو شقّ الأخشاب الكبيرة بواسطة الفأس، وسط رائحة الخمر والعفونة المنبعثة من القبو.

الجسد وأفعاله المبهجة، المشي داخل الغابات، والركض حافي القدمين، والرّحلات الطويلة فوق الدرّاجة الهوائيّة في الأماكن المرتفعة المُنهكة- كلّ هذه

الحياة المُكتشفة أخيرًا، والتي أصبحت حياتي سوف تحلّ إلى الأبد محلّ المسافة البسيطة التأمّلية للنظر الفارغ. ولقد ذكرتُ بأنّني كنتُ أجد المتعة الشخصيّة نفسها في الأعمال الجسديّة التي كنتُ أمارسها في مرحلة الأسْر. لقد طبعت مجالدةُ العمل القويّة حياتي إلى الأبد، ففيها كنتُ أجد رغبتي الخاصّة (وليس رغبة والدتي، التي كان لديها خوفٌ مقدّسٌ من كلّ احتكاك جسديّ -بقدر ما كانت «الطهارة» تستحوذ على عقلها، طهارة جسدها الذي كانت تحميه بألف طريقةٍ وطريقة، من خلال رهاباتها التي لا تُحصى أوّلًا وقبل كلّ شيءٍ آخر- ومن كلّ تعدّ خطرٍ). أخيرًا، لقد أصبحتُ سعيدًا من خلال تحقيق رغبتي، الرّغبة في أن أكون جسدًا، في أن أكون موجودًا في جسدي قبل كلّ شيءٍ آخر، في الدليل الماديّ القاطع الذي كان يمنحني الوجود الحقّ، في آخر الأمر. لم يكن يعنيني القديس توما [الإكوينيّ] أبدًا، بلاهوت ما يزال يفكّر في صورة العين المتأمّلة، لكنّني كنتُ معنيًّا أكثر بالقديس توما صاحب الأناجيل الذي كان يريد أن يلمس بيده كي يؤمن. أكثر من ذلك، إنّني لم أكتفِ بملامسة اليد البسيطة كي أؤمن بالحقيقة، لقد كان عليّ أن أعمل، وأن أحوّل الأشياء كيما أُؤمن -بأكثر من الحقيقة الوحيدة والبسيطة- بوجودي الخاص، هذا الوجود الذي أحرزته أخيرًا.

لقد كان انتمائي إلى الماركسيّة -حينما «تعرّفتُ» إليها- من خلال جسدي. ليس السبب في ذلك فحسب أنّها كانت تجسّد النقد الراديكاليّ لكلّ وهمٍ «تأمّليّ»، ولكن لأنّها قد مكّنتني من أن أعيش -من خلال انتقاد كلّ وهمٍ تأمّليّ- علاقةً حقيقيّةً مع الواقع العاري، وإضافةً إلى ذلك لقد جعلت في استطاعتي منذ الآن فصاعدًا أن أعيش أيضًا هذه العلاقة الجسديّة (من خلال الاحتكاك، ولكن على وجه الخصوص من خلال العمل على الخامة الاجتماعيّة أو سواها) *داخل التفكير نفسه*. لقد وجدتُ في الماركسيّة، في *النظريّة* الماركسيّة، التفكير الذي يضع في اعتباره أوّليّة الجسد الفاعل، والعامل على الوعي السلبيّ والتأمّليّ، وينظر إلى هذه العلاقة كما تنظر النظريّة الماديّة نفسها. لقد سحرتني الماركسيّة، وقد انتسبت إلى وجهة النظر

هذه من دون أدنى صعوبةٍ لأنّها كانت تجسّدني، وليس لأنّها كانت اكتشافًا بالنسبة إليّ. فعلي صعيد الفكرة المحضة (حيث كانت صورة والدتي ورغبتها ما تزال هي المسيطرة)، لقد وجدتُ أخيرًا أوّليّة الجسد هذه، أوّليّة اليد وعملها التحويليّ لكلّ مادّةٍ، وهو الأمر الذي مكّنني من أن أضع نهايةً لتمزّقي الداخليّ بين مثالٍ نظريٍّ، نابعٍ عن رغبة أمّي، وبين رغبتي الخاصّة التي وجدتْ في جسدي -وحصلتْ فيه أيضًا- رغبتي في الوجود من أجل نفسي، وطريقتي الخاصّة في الوجود. لم يكن من قبيل المصادفة إذا ما كنتُ أفكّر -ضمن الماركسيّة- في كلّ مجالٍ تحت رعاية أوّليّة الممارسة، وإذا كنتُ قد طرحتُ عبارة «الممارسة النظريّة»، العبارة التي كانت تشبع رغبتي في التسوية بين الرّغبة (التأمّليّة، النظريّة المشتقّة من رغبة أمي) ورغبتي الخاصّة التي لم يكن يستحوذ عليها مفهوم الممارسة بقدر ما تستحوذ عليها تجربتي ورغبتي في الممارسة الفعليّة، في الاحتكاك بالمادّة (الجسديّة أو الاجتماعيّة)، وتحوّل هذه المادة في سياق العمل (عمل العمّال) أو الفعل (السّياسيّ). لكنّ عبارة «التفكير هو عمليّة إنتاجٍ» هي عبارة سابقةٌ لدى لابريولا (Labriola)[166]. إنّ أحدًا لم يتنبّه إلى هذه القضيّة، ولكن قُل لي من قرأ لابريولا في فرنسا؟

بالطبع، لقد كانت تسوية. لقد كنتُ ما أزال أعبّر في كتاباتي الأولى -وعلى طريقتي- عن هذه التسوية التي كانت في الجوهر (الذي كان ما يزال مسيطرًا بالنسبة إليّ) تحمل الطابع النظريّ البحت ...على هذا النحو -ومن خلال تدبّر نفسي بقدر ما أستطيع في صميم هذه التسوية- فقد قمت فلسفيًّا بصياغة التعريف الأشهر للفلسفة بوصفها «نظريّة الممارسة النظريّة» (ولقد كان حرف البداية الكبير الهش [من كلمة نظريّة] يؤثّر في سيزار لوبوريني (Cesare Luporini)[167] كثيرًا...)، لكنّني سرعان ما سأتخلّى عنه تحت تأثير انتقادات ريجيس دوبري، وروبير لينهارت على وجه الخصوص، هؤلاء الذين كانوا على معرفة بالعمل

---

(166) أنطونيو لابريولا (Antonio Labriola)1843-1904: منظّر وفيلسوف ماركسيّ إيطاليّ. (المترجم)
(167) سيزار لوبوريني (Cesare Luporini) 1909-1993: فيلسوف إيطاليّ. (المترجم)

السياسيّ، وأوّليته. في الحقيقة، فإذا كان من السهولة بمكانٍ لأصدقائي أن يلفتوا انتباهي إلى وضع الأشياء في نصابها الصحيح، فالسبب في ذلك أنّ هذا الأمر هو ما كنت أرغب فيه في الأساس، من صميم رغبتي ومنذ زمنٍ طويلٍ.

لكنّني وقبل أن أتحوّل إلى ماركس نفسه، أجد لزامًا عليّ أن أتحدّث عن الانعطاف الذي قمتُ به من خلال سبينوزا، مكيافيللي وروسّو: لقد شكّلوا بالنسبة إليّ «الطريق الملكيّ» إلى ماركس. لقد أشرتُ إلى ذلك سابقًا، ولكن من دون أن أعطي الأسباب العميقة.

لقد وجدت لدى سبينوزا (علاوةً على الملحق الشهير للكتاب الأوّل) نظريّة رائعة عن الإيديولوجيا الدينيّة، «جهاز التفكير» هذا الذي يضع العالم بالمقلوب، من خلال اعتباره الوسائل غاياتٍ، وفكرةً كلّيّة بالمطلق في علاقتها بالذات الاجتماعيّة. فيالها من «سنفرةٍ»!

لم أجد في المعرفة من «النوع الأوّل»، معرفةٍ ما، فما بالك بنظريّةٍ عن المعرفة – نظريّة عن «الضمانة» المطلقة لكلّ معرفةٍ، نظريّة «مثاليّة»–، ولكن وجدتُ نظريّةً عن العالم الراهن المعيش (بالنسبة إليّ، لقد كانت نظريّة النوع الأوّل تعبّر عن العالم بكلّ بساطةٍ، بمعنى فوريّة الفلسفة العفويّة للحسّ المشترك). لقد وجدت، على وجه الخصوص، في «رسالة في اللاهوت والسياسة» –على الأقل على النحو الذي فسّرته– المثال الأنصع، ولكنّه المثال الأكثر إغفالًا كذلك، على المعرفة «من النوع الثالث»، وهي المعرفة الأسمى، التي تتيح لنا فهم موضوع مفردٍ وكونيٍّ في الوقت نفسه (وهذه –وعليّ أن أقرّ بذلك، قراءةٌ هيجيليّةٌ بما فيه الكفاية لسبينوزا، إذ لم يكن من قبيل المصادفة أن عدّ هيجل سبينوزا «العقل الأعظم»، ولا أظنّه كان مخطئًا في ذلك): إنّها الشخصيّة التاريخيّة الفريدة لشعبٍ ما (أظنّ أنّ سبينوزا كان يقصد في «النوع الثالث» كلّ معرفةٍ لشخصيّة فريدةٍ وعالميّة من حيث النوع)، معرفة الشعب اليهوديّ. لقد كنتُ مفتونًا على نحوٍ مطلقٍ بنظريّة الأنبياء التي نجدها في ذلك

الكتاب، والتي عزّزت لديّ فكرة أنّ سبينوزا كان قد بلغ وعيًا مذهلًا بطبيعة الإيديولوجيا. نحن نعلم بالفعل أنّ الأنبياء كانوا يرتقون الجبل من أجل أن يسمعوا هنالك صوت الربّ. بصراحةٍ أكثر، فإنّ ما كانوا يسمعونه هنالك كان قصف الرعد والبروق وبعض الكلمات التي كانوا ينقلونها من دون أن يكونوا قد فهموها لشعب السهول الذي كان يترقّب عودتهم. والعجيب في الأمر، أنّ الشعب نفسه حينها، ومن خلال إدراكه بنفسه ومن خلال معرفته، كان يفهم من الأنبياء البكم والعمي معنى الرّسالة التي أرسلها الله إليهم! الأنبياء جميعهم، ما عدا هذا الأحمق دانيال (Daniel) الذي لم يفهم ما قاله الله له (وهذه هي مكافأة سائر الأنبياء) بل ولم يفهم كذلك ما فسّره له الشعب كي يجعله يفهم ما سمعه!! دليلٌ على أنّ الإيديولوجيا يمكنها أن تكون في حالاتٍ محدّدةٍ -ولماذا لا يكون ذلك بحكم طبيعتها- غامضةً تمامًا في نظر أولئك الذين خضعوا لها. لقد كان ذلك يثير إعجابي، وكذلك تصوّر سبينوزا عن العلاقات القائمة بين الإيديولوجيا الدينيّة للشعب اليهوديّ وبين تحقّقها الماديّ من خلال الهيكل، والكهنة، والقرابين، والشعائر، والطقوس، إلخ. سوف يتوجّب عليّ، من خلال مواصلة هذه المسألة، ومثل باسكال في جانبٍ آخر -باسكال الذي كان يعجبني كثيرًا- أن أؤكّد لاحقًا وبقوّة على الوجود الماديّ للإيديولوجيا الدينيّة، ليس فقط على شروط وجودها الماديّة فقط (وهو ما نجده بالفعل عند ماركس، ولدى مؤلّفين آخرين، سابقين ولاحقين)، بل على ماديّة وجودها نفسه.

مع ذلك، فإنّني لم أتخلّص من سبينوزا. لقد كان مفكّرًا رفض كلّ نظريّةٍ عن المعرفة (من النمط الديكارتيّ، أو النمط الكانطيّ في وقتٍ لاحقٍ)، وكاتبًا رفض الدور التأسيسيّ للذات الديكارتيّة في الكوجيتو، مكتفيًا بأن يكتب كما لو أنّه يقرّر واقعًا: «الإنسان يفكّر»، من دون أن يستخلص من ذلك أيّة نتيجةٍ ترانسندنتاليّة. كما أنّه كان مفكّرًا اسميًّا، وسوف أتعلّم من ماركس أنّ المذهب الاسميّ هو الطريق الملكيّ نحو الماديّة، وبصراحةٍ أكثر إنّه طريقٌ لا يفضي إلّا إلى نفسه، وأنا لم أعرف

قطُّ من الناحية الشكليّة مذهبًا أكثر عمقًا من المذهب الماديّ سوى المذهب الاسميّ. وأخيرًا لقد كان يعلن -من دون أن يضع أيّ مخطّطٍ للمعنى الأوّليّ- هذه الواقعة: «نحن لدينا فكرة صحيحةٌ»، «معيارًا للحقيقة»، المعيار الذي تعطينا إيّاه الرّياضيّات- وهي هنا أيضًا واقعةٌ من دون أصلٍ ترانسندنتاليّ. كان رجلًا يفكّر بالنتيجة في تكلّف الواقع: متعجّبًا من هذه الدوغمائيّة المزعومة عن الله وصفاته التي كانت تدمّر العالم. ليس هنالك ما هو أكثر ماديّةً من هذه الفكرة التي لا أصل لها ولا غاية. وسوف أستخلص لاحقًا من ذلك عبارتي عن التاريخ والحقيقة بوصفهما عملًا من دون فاعلٍ (أصليّ، أو مؤسّس بأيّ معنىً من المعاني)، ومن دون غايات (من دون مآلٍ قدريٍّ معدٍّ سلفًا)، لأنّ رفض التفكير في الغاية بوصفها سببًا أصليًّا (من خلال التأصيل المرآويّ لكلّ من الأصل والغاية) هو بالفعل تفكير ماديٌّ. لقد استعملتُ حينها تعبيرًا مجازيًّا: المثاليّ رجلٌ يعرف من أيّة محطّةٍ ينطلق القطار، ويعلم وجهته: إنّه يعلم ذلك سلفًا، وهو متى صعد إلى القطار، فهو يعلم أين يذهب، طالما أنّ القطار يسير به. أمّا الماديّ، فهو على النقيض من ذلك، يركب القطار في أثناء عبوره من دون أن يعرف من أين يأتي القطار، ولا إلى أين يذهب. كما كنتُ أحبّ أيضًا الاستشهاد بديتزجن (Deitzgen)، الذي سبق هيدجر -الذي كان يجهله- [في القول] بأنّ الفلسفة هي «Der Holzweg Der Holzweg»، دليل الطرقات التي لا تقود إلى أيّ مكانٍ- عالمًا بأنّ هيغل كان قد وضع قبل ذلك الصورة الرّائعة عن «طريقٍ تقود بمفردها»، فاتحةً لنفسها في أثناء تقدّمها طريقها الخاصّ وسط الغابات والحقول. لقد كان كلّ هذا بالنسبة إليّ -أو هكذا أصبح- مدرجًا كعلامةٍ مائيّةٍ في فكر سبينوزا. ولن أطيل الكلام عن عبارة سبينوزا الشهيرة القائلة «إنّ مفهوم الكلب لا ينبح»، الذي يميّز مرّةً أخرى -ولكنّه هذه المرّة يتناول صميم التصوّر عن فكرةٍ علميّةٍ، مفهوميّةٍ- المفهوم عن مسنده الملموس، وهو ما كان يعني لي حينها، تمييزه عن غطائه الإيديولوجيّ، وتمييز هذا عن «المعيش»، طالما أنّ الفينومينولوجيا الهوسرليّة -لاسيّما الماركسيّة الهوسرليّة لديزانتي- كانت تبعث في

نفسي رعبًا نظريًّا.

لعلّ نظريّة الجسد عند سبينوزا هي أكثر ما كان يصدمني. الجسد الذي ينطوي على كثيرٍ من القدرات التي نجهلها، هذا الجسد الذي تمثّل «روحه أو عقله» (وهما ترجمتان سيّئتان للمصطلح اللاتينيّ: Mens) الفكرة -الفكرة نفسها ترجمةٌ سيّئةٌ لهذا المصطلح- كان سبينوزا ينظر إليه بوصفه قوّةً كامنةً (potentia)، وفي الوقت نفسه قوّةً دافعةً (Fortitudo) وبوصفه انفتاحًا على العالم السامي (Fortitudo)، وبوصفه هبةً بلا مقابل. سوف يتوجّب عليّ لاحقًا أن أكتشف في هذه النظريّة استباقاً مذهلًا لليبيدو الفرويديّ، وكذلك الأمر بالنسبة إلى نظريّة التناقض - المدهش حينما نفكّر أنّه بالنسبة إلى سبينوزا -على سبيل المثال لا الحصر- فإنّ: *الخوف هو الشيء نفسه الذي يمثّله نقيضه، الرّجاء*. وأنّ كلتا هاتين العاطفتين - وهما من «المشاعر الحزينة» المناقضة للجهود الحيويّة، في امتدادها وفرحها، من الجسد والروح- متّحدتان [كوجهي عملةٍ واحدةٍ].

تستطيعون أن تتخيّلوا كم أعجبتني هذه الفكرة. لقد وجدتُ فيها بالفعل تجربتي الخاصّة، تجربة جسدٍ في المقام الأوّل مقطّعٍ وضائعٍ، جسدٍ غائبٍ، وتجربة خوفٍ وأملٍ لا محدودين، جسدٍ قد أعيد تشكيله، كما لو أنّه قد اكتشف من خلال تجربته في تملّك قواه، برفقة جدّي في أثناء القيام بالأعمال الجسديّة في الحقول، وفي معسكر الاعتقال! فأن أستطيع على هذا النحو استعادة التحكّم بجسدي، وأن أستخلص من هذا التملّك ما يلزم للتفكير على نحو حرٍّ وقويٍّ، وبالتالي أن أفكّر بالتحديد متماشيًا مع جسدي، وفي جسدي نفسه، وعنه، باختصارٍ أن يستطيع الجسد أن يفكّر، بواسطة ومن خلال إظهار قواه-فهو أمرٌ كان يذهلني، كأنّه واقعٌ وحقيقةٌ كنتُ أعيشها، واقعٌ وحقيقةٌ يعودان لي. لكم كان صحيحًا، ما سبق أن قاله هيجل، من أنّنا لا نعرف سوى ما نعيد التعرّف إليه.

مع ذلك، فإنّني مدينٌ لفلاسفةٍ آخرين أيضًا كانوا بالفعل السبيل المفضي إلى

ماركس. وهؤلاء في المقام الأوّل -كما سبق أن ذكرتُ في *«مرافعة أميانس»*- هم الفلاسفة السياسيّون في القرن السابع عشر والثامن عشر، الذين عزمتُ حينها بناءً على مؤلّفاتهم أن أضع أطروحةً عن الدولة. كنتُ أكتشف من هوبس إلى روسّو الإيحاء نفسه، الإيحاء بعالم خلاقيّ تكون الدولة فيه هي السلطة الوحيدة المطلقة (هوبس) التي يمكنها بلا منازعٍ أن تؤمّن حماية الأموال والأفراد من خلال وضعها نهايةً «لحرب الجميع ضد الجميع»: استباقٌ لصراع الطبقات، ولدور الدولة الذي نعلم أنّ ماركس نفسه قد صرّح بأنّه لم يكتشفها، بل استعارهما من أسلافه، وبصفةٍ خاصّةٍ من المؤرّخين الفرنسيّين في عهد إعادة الملكيّة، والذين لم يكونوا «تقدّميين» إلّا قليلًا، ومن الاقتصاديّين الإنكليز، وأوّلهم ريكاردو (Ricardo). الذي استطاع المضيّ بعيدًا جدًّا، حتى الجدال الشهير عن «الرّومانيين»، و«الجرمانيين»، ومن دون أن أتكلّم عن المؤلّفين الذين كنتُ أتيتُ على ذكرهم. الكاردينال راتزينغر (Ratzinger) الشهير الذي كان صراع الطبقات يقضّ مضجعه، وقد فعل خيرًا إذ تثقّف قليلًا. روسّو الذي كان يفكّر في حال الطبيعة «المفسّرة» للصراعيّة الاجتماعيّة نفسها، سوف يقدّم لها حلًّا آخر: إنّه بالضبط نهاية الدّولة، من خلال ديموقراطيّة «العقد» المباشرة التي تعبّر عن إرادةٍ عامّةٍ «لا تموت أبدًا». وهو ما يلزم كي نحلم بالشيوعيّة ذات يوم! لكنّ ما كان يذهلني أيضًا عند روسّو فهو الخطاب الثاني، ونظريّة العقد غير الشرعيّ، وهما ذريعتان وخدعتان ظهرتا في مخيّلة الأغنياء المنحرفة من أجل السيطرة على عقول البؤساء: مرّة أخرى نظريّة عن الإيديولوجيا، لكنّها محمولةٌ هذه المرّة على أسبابها، وعلى دورها الاجتماعيّ، أي على وظيفتها التسلّطيّة في صراع الطبقات. إنّني أعدُّ روسّو منظّر الهيمنة الأوّل، بعد مكيافيللي. هكذا كانت أيضًا خطط الإصلاح المقترحة من أجل كورسيكا (Corse)، وبولندا (Pologne)، حيث يظهر روسّو على النقيض تمامًا لرجلٍ طوباويّ، بل يبدو واقعيًّا يعرف كيف يأخذ في الاعتبار سائر المعطيات المعقّدة لوضعيّة ما، ولإرثٍ ما، كما يعرف احترام [خصوصيّة] الإيقاع الزمني. فلماذا لم يفعل ذلك في نظريّته المدهشة

عن تربية إميل (Emile)، حيث كان يتوجّب عليه أن يحترم المراحل الطبيعيّة في التطوّر الفرديّ من دون استباقها أبدًا، وبالتالي احترام فعل الزمن في نموّ الطفل (معرفة كيف تضيع الوقت من أجل أن تكسبه)؟ أخيرًا، فإنّني أجد في كتاب *«الاعترافات* Les Confessions» مثالًا فريدًا عن نمطٍ من «التحليل الذاتيّ» من دون أدنى مجاملةٍ، حيث يقوم روسّو، على الملأ، باكتشاف نفسه من خلال الكتابة، والتأمّل في الوقائع التي طبعت طفولته، وحياته، وأوّلًا وقبل كلّ شيءٍ آخر – وللمرّة الأولى في التاريخ الأدبيّ- *التأمّل في الجنس*، وفي هذه النظريّة المثيرة للإعجاب المتعلّقة *«بالتكملة»* الجنسيّة التي فسّرها درّيدا –على نحو رائعٍ- بأنّها كنايةٌ عن الإخصاء. أخيرًا، فإنّ ما كان يعجبني فيه هو معارضته الراديكاليّة للإيديولوجيا الأُخرويّة، عقلانيّة عصر الأنوار، عقلانية «الفلاسفة» الذين كانوا يكرهونه (على الأقلّ كما كان يعتقد هذا المُضطَهد الأبديُّ)، والذين كانوا يعتقدون أنّ من الممكن إصلاح وعي الشعوب من خلال الإصلاح الفكريّ...فأيّ زيغان عن الواقع تأتيه الإيديولوجيا على إطلاقها! معارضةٌ سوف أعثر عليها ثانيةً في الفكر المتبصّر الذي لا يساوم لدى كلّ من ماركس وفرويد، وكذلك [كانت تعجبني] تلك الاستقلاليّة الرّاديكاليّة لشخص روسّو أمام سائر مغريات الطبقة الثريّة، والحاكمة، والتثقيف العصاميّ الملهم، الذي كنتُ أحدّث نفسي به كثيرًا جدًّا...

لاحقًا، سوف أكتشف مكيافيللي الذي بلغ –في رأيي- مبالغ أكثر بُعدًا ممّا بلغه ماركس بصدد كثيرٍ من القضايا: وبالتحديد في تفكّره في شروط وأشكال الفعل السياسيّ المحض، أي في مفهومه. وهنا أيضًا، فإنّ ما يصدمني هو الانشغال المتطرّف في النظر إلى الوقائعيّة المحتملةِ لأيّ منعطفٍ، وأهميّته من أجل بناء الوحدة القوميّة الإيطاليّة، إذ يسعى رجلٌ نكرةٌ قادمٌ من مكانٍ ما، ولا يعترف بأيّة دولةٍ قائمةٍ، كي يعيد تركيب الجسد المقطّع لبلدٍ منقسمٍ على نفسه، ومن دون أيّ تصوّر مسبقٍ لأيّة وحدةٍ تأخذ إحدى الأشكال السياسيّة القائمة (والتعيسة كلّها).

وأحسب أنّنا لن ننتهي من استنفاد هذه الفكرة التي لا سابق لها، والتي لا لاحق لها للأسف.

باختصارٍ، فإنّه وانطلاقًا من هذا التاريخ الشخصيّ كلّه، من هذه القراءات وترابطاتها فقد استوليتُ على الماركسيّة كما لو أنّها غرضٌ يخصّني، فأخذتُ أفكّر فيها، وعلى طريقتي بالطبع، التي أرى فيها بوضوحٍ الآن أنّها لم تكن [نظريّةً] خاصّة بماركس تمامًا. وإنّني أدركُ جيّدًا بأنّني لم أفعل شيئًا سوى أن أجعل نصوص ماركس النظريّة -التي كانت في أغلب الأحيان نصوصًا ملتبسةً ومتناقضةً، أو ناقصةً في بعض القضايا المهمّة- قابلةً للفهم في ذاتها، وفي نظرنا. وأدرك جيّدًا بأنّني كنتُ مدفوعًا في ذلك بتطلّعين اثنين لا رادّ لهما: أوّلهما، وقبل كلّ شيءٍ آخر، أن أتجنّب رواية القصص لا عن الواقع، ولا عن حقيقة فكر ماركس، وبالتالي أن أميّز فيه بين ما دعوتُه بالإيديولوجيا (في مرحلة الشباب)، وبين الفكر اللّاحق، هذا الفكر الذي أعتقد أنّه فكر «الواقع العاري تمامًا، من دون إضافةٍ خارجيّةٍ» (أنجلز Engels). «تجنّب رواية القصص» سوف تبقى هذه العبارة في نظري هي التعريف الوحيد للمذهب الماديّ؛ وأن أسعى -من خلال «التفكير بجهدي وحدي» (كلمةٌ كانطيّة مستعادةٌ من قبل ماركس)- كي أجعل فكر ماركس واضحًا ومتماسكًا لدى سائر القرّاء، المخلصين وذوي العناية النظريّة المتشدّدة. بالطبع، لقد أعطى هذا الأمر لشرحي عن النظريّة الماركسيّة صورةً خاصّةً، ومن هنا يأتي شعور عددٍ من المختصيّن والمناصرين بأنّني صنعتُ ماركسًا ما على مقاسي، غريبًا تمامًا عن ماركس الحقيقيّ، ماركسيّةً متخيّلةً (ريمون آرون). وقد كنتُ أعترف بذلك طواعيةً، لأنّني بالفعل قد حذفتُ من ماركس كلَّ ما رأيته متعارضًا مع مبادئه الماديّة، ليس هذا فحسب، بل حذفتُ أيضًا ما هو إيديولوجيّ في حدّ ذاته، وقبل كلّ شيءٍ المقولات الدفاعيّة عن «الديالكتيك»، بل الديالكتيك نفسه، الذي كان يظهر لي أنّه لا يخدم في «قوانينه» الشهيرة سوى الدفاع (التبرير) المتأخّر عن أمرٍ واقعٍ يتعلّق بالمسار الملتبس لحركة التاريخ لتبرير قرارات قيادة الحزب. إنّ موقفي حيالَ هذه المسألة لم

يتغيّر أبدًا، ولهذا السبب فإنّ الصورة التي قدّمتُ من خلالها النظريّة الماركسيّة والتي تقوم في حقيقة الأمر بتصحيح الفكر الحرفيّ لماركس في كثيرٍ من المسائل، قد عادت عليّ بهجماتٍ لا تُحصى يشنّها أولئك البشر المعلّقين بحرفية النصوص لدى ماركس. نعم، لقد وضعتُ في حسباني جيّدًا بأنّني أُعَدُّ كمن يختلق لماركس فلسفةً مختلفةً عن الماركسيّة الشعبيّة، لكن وبما أنّها كانت تمدّ القارئ بعرضٍ لم يعد متناقضًا، بل متماسكًا وقابلًا للفهم، فقد ظننتُ أنّ الهدف قد تحقّق، وبأنّني قد «تملّكتُ» ماركس من خلال توفير متطلّبات التناسق والفهم لفكره. من جهةٍ أخرى، لقد كان ذلك هو الطريقة الوحيدة الممكنة من أجل «كسر» أرثوذكسيّة الثاني والأميّة الكارثيّة التي كان ستالين قد ورثها مئةً بالمئة.

لعلّ هذا الأمر هو الذي «هيّأ» لدى عددٍ من الشباب المنظور الجديد التالي: من الممكن أن نفكّر في هذا التقديم الجديد لماركس من دون التخلّي عن متطلّبات التناسق وقابليّة الفهم، وعلى هذا النحو نستطيع أن نؤدّي خدمةً له ولنا من خلال التمكّن من فكره بصورةٍ أفضل منه، مع البقاء بصورةٍ طبيعيّةٍ تمامًا ضمن القيود النظريّة في عصره (وفي تناقضاتها التي لا مفرّ منها). في ضوء ذلك يمكن أن نجعله معاصرًا لنا حقيقةً. وهذا الأمر هو ثورةٌ «فكريّة» صغيرةٌ في تصوّر النظريّة الماركسيّة. لكنّني أحسب أنّ تجديداتنا لم تكن سخيفةً بالمقدار الذي يعيبه علينا الخصوم، وإنّما هي مشروع فقط من أجل خروجنا عن حرفيّة ماركس، في سبيل أن نجعله قابلًا للفهم في فكره. لقد بقي ماركس في نظر هؤلاء، في الأساس، وحتى في أخطائه، شخصيّةً مقدّسةً، الأب العجوز المؤسّس والمنيع. أمّا أنا، فلم أكن أحبُّ الآباء المقدّسين، ولقد تشكّلت لديّ بالطبع منذ أمدٍ بعيدٍ جدًّا القناعة التي تقول بأنّ الأب ليس سوى أب، وأنّه شخصيّة مشبوهةٌ بحدّ ذاتها، وعاجزٌ عن القيام بدوره، ولقد خبرتُ جيّدًا وأحببتُ أداء دور «والد الوالد» إلى درجة أنّ هذا المشروع من التفكير بدلًا عنه فيما كان يتوجّب عليه أن يفكّر من أجله هو نفسه- كان يناسبني تمامًا.

أضيفوا إلى هذا أنّ ارتكازي إلى سلطة ماركس، وهو الأب المؤسّس الذي كان الحزب الشيوعيّ يستلهمه رسميًا، كان يعطيني في مواجهة التفسير الرسميّ لماركس، والمُستخدم كدفاعٍ عن قرارات الحزب السياسيّة، وبالتالي عن سياسته الفعليّة-أقول كان يمنحني قوّةً فريدةً تجعل إمكانيّة تعرّضي للهجوم من داخل الحزب أمرًا عويصًا. ما الذي كنتُ أفعله حقيقةً سوى الدعوة إلى فكر ماركس في مواجهة تحريفات مفسّريه، وقبل كلّ شيءٍ تحريفات السوفييت التي كانت تُلهم الحزب، حتّى إنّها ألهمت الأفكار إلى عقلٍ نشيطٍ مع ذلك، مثل *لوسيان سيف* - الذي كان يكرّر باستمرارٍ مقولاتٍ مستحيلةٍ عفا الزمان عليها لاستحالة الدفاع عنها تتعلّق بالأنطولوجيا، ونظريّة المعرفة، وقوانين الديالكتيك بوصفها صيغة الحركة، و«الخاصيّة» الفريدة للمادّة- الذي لم يدّخر انتقاداته لي، وبما أنّني لم ألتفت للردّ عليها أبدًا، فقد خلص هذا من وراء صمتي إلى أنّه ليس لديّ ما أعترض به عليه؟ لكنّ لوسيان سيف سوف يذهب أبعد من ذلك، باتّخاذه موقع المدافع عن الديالكتيك الشهير والمُلتبس، وعن قوانينه، الذي كان يتلاعب بها تبعًا لمصلحته من أجل تبرير انعطافات الحزب مسبقًا، وبصفةٍ خاصّةٍ تبرير تخلّي الحزب عن ديكتاتوريّة البروليتاريا، ومتابعًا من دون علمه -مثلما أوضح أندريه توزل (André Tosel) بجلاءٍ في مقالة حديثةٍ تتناول فكر غرامشي والمفكّرين الإيطاليّين- التفكير من خلال البيئة الرّاسخة للديالكتيكيّة الماديّة (أوّلية «الماديّة الديالكتيكيّة» -هذا المصطلح الخادع- على سائر العلوم).

وفي زمنٍ يعتقد فيه الفيلسوف الأوّل «صاحب الشَعْر»، «الفيلسوف صاحب الأظفار» -ومثلما كتب ماركس عن «تفسّخ» الفلسفة الهيجليّة- أنّ الماركسيّة قد ماتت، وأنها وُوريت الثرى إلى الأبد، زمن تسيطر فيه أكثر الأفكار «ابتذالًا»، على خلفيّة انتقائيّةٍ عجيبةٍ، وفقرٍ نظريٍّ، بذريعة «ما بعد حداثةٍ» مزعومةٍ حيث «تختفي المادة» من جديد وتخلي المكان إلى «لاماديّي» الاتّصال (هذه الكعكة النظريّة المغطّاة بطبقةٍ من القشدة، التي تستند إلى قرائن مدهشةٍ، قرائن التكنولوجيا المعاصرة)،

فإنّني ما زلتُ مرتبطًا على نحوٍ عميقٍ لا بالنصّ الحرفيّ -الذي لم أستطع فهمه أبدًا- وإنّما بإلهام ماركس الماديّ.

إنّني متفائلٌ: فأنا أعتقد أنّ هذا الإلهام سوف يجتاز القفار جميعها، حتى وإن توجّب عليه أن يأخذ أشكالًا أخرى -وهو أمرٌ لا مناص منه في عالم مليء بالتغيّرات-، وأنّه سوف ينبعث من جديد. كما أنّني متفائلٌ لسببٍ قويٍّ دونكم إيّاه: إنّ الفكر الرّاهن ضعيفٌ جدًّا من الناحية النظريّة على نحوٍ يجعل فيه مجرّد التذكير بمتطلّبات فكرٍ أصيلٍ -الدقّة، والتناسق، والوضوح- الوقت مناسبًا من أجل حسم هذه القضيّة المتعلّقة بروح العصر، الذي يصدم مظهره اليتيم تلك العقول التي يصيبها مسار العالم بالحيرة. لهذا السبب، فإنّني أثمّن عاليًا على سبيل المثال جهود ريجيس دوبري لكونه يذكّر -مع ذلك- أولئك الذين يتنطّعون لإطلاق الأحكام بحقائق أساسيّة جدًّا كهذه الحقائق: حقيقةُ أنّ أيّام معتقل الكولاج (Goulag) في روسيا -بجميع أشكاله الضخمة والمأساوية- قد ولّت في الاتّحاد السوفييتيّ على أيّة حالٍ، وأنّ الاتّحاد السوفييتيّ لديه أشياء كثيرةٌ تستدعي اهتمامه أكثر من التفكير في شنّ الهجوم على الغرب. بالطبع، فإنّ دوبري لم يذهب بعيدًا جدًّا، ولكنّ مجرّد التذكير البسيط بحقائق شديدة الوضوح في مواجهة الإيديولوجيا الهائلة المسيطرة هو أمرٌ يؤدّي وظيفة «السنفرة»، على حدّ التعبير الذي كان يحلو لفوكو استعماله. ولكن ماذا تعني السنفرة؟ إنّها «الكشط» النقدي للطبقة الإيديولوجيّة المؤلّفة من الأفكار مسبقة الصنع، الأمر الذي يسمح في النهاية بإقامة الاحتكاك مع الواقع «من دون إضافات غريبةٍ». إنّه درسٌ بسيطٌ، محدودٌ بالطبع، بيد أنّه درسٌ ماديٌّ بالفعل. وإذا ما كنتُ أعتقد جازمًا أنّنا سنخرج من هذه «الصحراء» الراهنة، فإنّ ذلك سوف يكون وسط الفراغ الفكريّ الذي يخنق أنبه العقول، وإنّ من الممكن لهذا التذكير البسيط -ومن خلال استثنائيّته وشجاعته- أن يحقّق نتائج مضاعفةً عشر أمثالٍ. فمتى امتلكنا الشجاعة على التكلّم بصوتٍ عالٍ وسط الفراغ الأخرس، فإنّ هذا الأمر سيتحقّق بكلّ بداهةٍ.

أحسبُ أنّني بيّنتُ عدم تعصّبي. لقد كانت كلّ فكرةٍ تشغلني، وإن توّهمتْ وادّعت كونها من اليمين -إذ كان ذلك سيّانٌ عندي تمامًا- وذلك متى كانت هذه الفكرة لا تكتفي بصفّ الكلام، بل تخترق الطبقة الإيديولوجيّة التي تسحقنا، من أجل بلوغ الحقيقة -كما لو أنّها تفعل ذلك بواسطة احتكاكٍ جسديٍّ ماديٍّ (ومرّةً أخرى نجد صيغةً أخرى من حضور الجسد)- عاريةً تمامًا. لهذا السبب، أظنُّ أنّ الماركسيّين من خلال سعيهم إلى البحث عن حقيقة الواقع، وسعيهم إلى إعلان هذه الحقيقة، لم يكونوا -ولله الحمد- فريدي عصرهم في ذلك أبدًا، بل لقد كان هنالك كثير من الأفراد المُخلصين -ومن دون أن يُدركوا مدى قربهم من هؤلاء- من الذين اكتسبوا تجربةً حقيقيّةً من خلال ممارستهم، ومن خلال أوّليّة الممارسة على الوعي كلّه، قد أوشكوا أن يصبحوا منذ الآن رفاق دربٍ للماركسيّين في تعرّفهم الحقيقة. فإذا ما عرفنا كيف ندرك من ذلك -وبعيدًا عن سائر التناقضات في الأسلوب- المزاج والسياسة، فسوف نستطيع أن نرى فيه رجاءً معقولًا.

لا أعلم ما إذا كانت الإنسانيّة ستعرف الشيوعيّة أبدًا، هذه الرؤية الأُخرويّة لماركس. لكنّ ما أعلمه على أيّة حالٍ هو أنّ الاشتراكية -هذه المرحلة الانتقاليّة الإجباريّة التي تكلّم عنها ماركس- كانت «خراءً»، وقد نعتُّها بذلك عام 1978 في إيطاليا، وإسبانيا أمام جمهورٍ من المستمعين الذين كانت الحدّة الصادرة عنّي قد أربكتهم. لقد كنتُ هنالك أيضًا أقصُّ حكايةً. الاشتراكيّة نهرٌ عريضٌ جدًّا، واجتيازه مسألةٌ عالية الخطورة. سوف يكون لدينا قريبًا زورقٌ كبيرٌ فوق الرمال: زورق المنظّمات السياسيّة والنقابيّة حيث يستطيع الشعب عامّة أن يركب فوق متنه. بيد أنّه يلزمنا «ربّانٌ»، من أجل اجتياز الدوّامات النهريّة، يلزم أن تكون سلطة الدولة في أيدي الثوّار، كما يلزم في الزورق الكبير، أن تسود سلطة الطبقة البروليتاريّة على سائر المجذّفين المأجورين (فالأجور، والمنافع الخاصّة ما تزال موجودة)، وإلّا فسوف ينقلب المركب من دون سلطة البروليتاريا! وإذ يُبحر المركب الكبير، علينا -وعلى مدار المسير كلّه- أن نراقب المجذّفين، مطالبين إيّاهم بالطاعة العمياء، وأن نعزلهم عن مناصبهم

إذا فشلوا في أداء مهمّاتهم، وأن نستعيض عنهم في الحال، بل ويجب أن نعاقبهم. لكنّنا إذا اجتزنا نهر «الخراء» العظيم هذا في نهاية الأمر، فعندها سوف نصل إلى الشاطئ الذي لا شيء من بعده، وإلى شمس الربيع الفتيّ ونسيمه. سوف ينزل الجميع إلى الشاطئ، حيث لن يعود هنالك من صراع بين البشر وأصحاب المصالح الخاصّة طالما أنّه لن يعد هنالك من علاقاتٍ تجاريّةٍ، بل وفرةٌ من الورود والثمار التي يستطيع كلّ واحدٍ أن يقطف منها ما يحقّق سعادته. وسوف تتجلّى آنذاك «المشاعر السعيدة» لسبينوزا، وكذلك «أنشودة الفرح» لبيتهوفن (Beethoven). في ذلك الوقت كنتُ أدافع عن الفكرة التي تقول بأنّ «الجيوب الشيوعيّة» موجودة منذ الآن، في «الفجوات» الكائنة في مجتمعنا (جيوبٌ، كلمة ماركس التي استعملها -على غرار آلهة أبيقور الموجودة في العالم- لوصف البؤر التجاريّة الأولى في العالم القديم)، هنالك حيث لا تسود العلاقات التجاريّة. إنّني أعتقد حقيقةً -وأظنّ أنّني كنتُ أتّبع في هذه المسألة المنهج الفكريّ لماركس- بأنّ التعريف الوحيد الممكن للماركسيّة -إذا ما قُيِّض لها أن ترى النور ذات يومٍ- هو *غياب العلاقات التجاريّة*، وبالتالي غياب علاقات الاستغلال الطبقيّة، وغياب سيطرة الدولة. كما أعتقد بأنّ في عالمنا الرّاهن بالفعل كثيرٌ من حلقات العلاقات الإنسانيّة التي تختفي فيها سائر العلاقات التجاريّة. فما هي الطرق التي تستطيع من خلالها هذه الجيوب الشيوعيّة أن تكسب العالم بأسره؟ لا أحد يستطيع التنبّؤ بذلك، وعلى أيّة حال فإنّ الطريق السوفييتيّة على سبيل المثال لن تكون هذه الطريق. فهل سيكون ذلك من خلال الاستيلاء على سلطة الدّولة؟ بلا ريبٍ، ولكنّ هذا العمل يندرج في اشتراكيّة (الدولة، الدولة على وجه الضرورة) التي هي بعضٌ «من خراء». إذًا هل سيكون ذلك من خلال اضمحلال الدولة؟ بالطبع، ولكن في عالم رأسماليّ وامبرياليّ يزداد متانةً في بنيانه أكثر فأكثر، والذي يجعل الاستحواذ على سلطة الدولة مسألةً غير ثابتةٍ، إن لم تكن مسألةً وهميّةً-كيف نواجه اضمحلال الدولة؟ بكلّ تأكيدٍ، فإنّ لا مركزيّة جاستون دوفير (Gaston Defferre)، والشعارات الغبيّة للّيبراليّين الجدد لدينا على شاكلة ريغان (Reagan) أو شيراك (Chirac) لن تخلّصنا من دولةٍ لا يمكنها الاستغناء عن سيادة الهيمنة الرّأسمالية العالميّة البورجوازيّة.

فإذا ما كان هنالك من أملٍ، فهو موجود في الحركات الشعبيّة التي طالما اعتقدتُ (بفضل هيلين وآخرين سواها) بأنّ لها الأوّليّة على تنظيماتها السياسيّة. بالطبع، من الملاحظ التنامي العالميّ للحركات الشعبيّة المجهولة وغير المطروقة في فكر ماركس (من ذلك على سبيل المثال تلك الحركات الموجودة في أمريكا اللّاتينيّة، حتى داخل كنيسةٍ رجعيّةٍ تاريخيًّا، تحت مسمّيات حركة لاهوت التحرير، أو في ألمانيا كذلك مع الخضر (Verts)، أو في هولندا التي رفضت استقبال البابا الذي كان قد أمل زيارتها). ولكن ألا تجازف هذه الحركات أن تقع [ضحيّة] قانون المنظّمات، التي وإن كانت، بالطبع، لا تستطيع الاستغناء عنها، إلّا أنّها، كما يبدو، لم تجد بعد -وكما لو أنّها في ذلك أسيرة التقليد والأشكال الماركسيّة الاشتراكيّة القائمة- صيغةً مناسبةً لتنظيمٍ من دون سلطةٍ هرميّةٍ؟ في هذا الصدد، فإنّني لستُ متفائلًا، لكنّني متشبثٌ بعبارة ماركس: على العموم، فإنّ «التاريخ صاحب مخيّلةٍ أكثر منّا»، وعلى العموم فنحن مجبرون على التفكير «بأنفسنا». إنّني لا أوافق على عبارة سورل التي يقتبسها غرامشي: إنّ ريبيّة العقل أكثر تفاؤلًا من العزم والإرادة. فأنا لا أؤمن بالمذهب الإراديّ في التاريخ. في المقابل، إنّني أؤمن ببصيرة العقل، وفي أوّليّة الحركات الشعبيّة على العقل. بهذه الطريقة، ولأنّ العقل لا يمثّل الهيئة الحاكمة العليا، فإنّه يستطيع أن يتتبّع خطى الحركات الشعبيّة، وهذا ينطوي، وقبل كلّ شيءٍ آخر، على عدم خداعه هذا الحراك مرّةً أخرى من خلال التحريفات الماضية، وأن يساعدها في العثور على أشكالٍ تنظيميّةٍ ديموقراطيّة وفعّالة بشكلٍ حقيقيٍّ. وإذا كان في إمكاننا أن نتصوّر -على الرّغم من كلّ شيء- بعض الأمل في تقديم المساعدة على إحداث تغيير في مجرى التاريخ، فمن خلال ما ذكرتُه هنا، ولا شيء سواه. على كلّ حالٍ، فإنّنا لن نبلغ ذلك من خلال الأحلام الأُخرويّة الخاصّة بإيديولوجيا دينيّة نوشكُ جميعًا أن نقضي بسببها.

ولكن، ها نحن نخوض غمار السياسة.

الفصل التاسع عشر

لقد حانت اللحظة التي أرجو أن يترقّبها الجميع مثلما أترقّبها أنا، اللحظة التي أتناول فيها بالشرح تأثّراتي الأوّليّة، و[خطوط إنتاجها] المفضّلة والتكراريّة، والهيمنة الضاغطة لوهم عدم الوجود إلى درجة تأثيره في سائر أوهامي الثانويّة، ولكن ليس ذلك فحسب، بل شرح العلاقة القائمة بين تأثّراتي وحقيقة العالم الخارجي. بالفعل، إذا كان «الفاعل» في الأحلام والاضطرابات -حتّى في أشدّها مأساويّةً- لا يتعامل أبدًا إلّا مع ذاته، أي مع موضوعات داخليّة لا شعوريّة، موضوعات يدعوها المحلّلون النفسيّون: موضوعانيّة (على سبيل تمييزها عن الموضوعات الخارجيّة الموضوعيّة والحقيقيّة)، فإن السؤال *المشروع* الذي يطرحه الجميع آنذاك هو السؤال التالي: كيف يُقيّض لإسقاطات هذه الأوهام وتوظيفاتها أن تسفر عن أفعال أو أعمالٍ موضوعيّة تمامًا (كتبٌ فلسفيّةٌ، وتدخّلاتٌ فلسفيّةٌ وسياسيّةٌ) يكون لها بعض الصدى على الحقيقة الخارجيّة، والموضوعيّة بالتالي؟

أو كي نقول الأمر نفسه بعباراتٍ أخرى أكثر دقّةً، كيف استطاع هذا اللقاء مع التوظيف الغامض للموضوع الخياليّ الدّاخليّ (الموضوعاني) أن يؤثّر على الحقيقة الموضوعيّة، أو بصورةٍ أوضح، كيف استطاع أن «يتكوّن» من خلال هذا اللقاء، مثلما نقول عن المايونيز أو المثلّجات ما «تستلزم [لصنعها]»، أو أنّ عمليّة كيميائيّة «تحصل» تحت تأثر بعض المحفّزات؟ بناءً على هذا الأمر، فإنّه يتوجّب عليّ، ليس فقط حيال نفسي في المقام الأوّل، ولكن حيال أصدقائي والقرّاء جميعًا أيضًا، أن أتقدم بتفسير، وإلّا بمحاولةٍ للتوضيح على الأقلّ.

لذلك فإنّني أحذّر هنا من أنّنا نجتاز أرضًا جديدةً: أرض اللقاء الذي جمع بين أخيلتي اللّاشعوريّة التي توظّف رغبتي الخاضعة لسطوة تحقيق رغبة أمّي من جهة، وبين تلك الخاضعة لواقعيّة المعطيات المؤثّرة والموضوعيّة من جهةٍ أخرى.

إنّني أرغب في البداية أن أقوم بتوضيح مسألةً معيّنةً كان صديقي جاك رانسييه قد كرّس لها كتابًا صغيرًا، لاذعًا جدًّا (*درس التوسير* La Leçon Althusser). باختصارٍ فإنّ ما يلومني عليه هو أنّني بقيتُ داخل الحزب الشيوعيّ على الرّغم من خلافاتي الصريحة معه، وأنّني دفعتُ، بل شجّعتُ، بعض المفكّرين الشباب –في فرنسا، وفي الخارج– على عدم قطع العلاقة مع الحزب، ولكن على البقاء بين صفوفه.

إنّه لمن المعقول أن يكون هذا العتب، وهذا الموقف مرتبطين «بأشياء» خاصّةٍ وداخليّةٍ لدى رانسييه، وأن يكونا بالنسبة إليّ شخصيًّا مرتبطين ببداية علاقتنا، بيد أنّني لا أرغب الدخول –إذ لا أرغب في هذا مع استطاعتي القيام بذلك– في هكذا امتحانٍ خاصّ وحميميٍّ بالنسبة إلى رانسييه.

حقًّا لقد كان رانسييه متسرّعًا جدًّا في استخلاصه النتيجة عن «تناقضي الموضوعيّ» من خلال مغادرتي الحزب، ليس بسبب خيانة قضيّة الطبقة العاملة، بل على العكس تمامًا بسبب البحث عن أحلامها، واستجاباتها، ومشاريعها الأوّليّة، ومن خلال تكريسه عملين رائعين مكتوبين بلغةٍ شعبيّةٍ عن الأشكال الأولى للحركة العمّاليّة. من الناحيّة العمليّة، فأنا لا أعترض على ذلك، لقد كنّا في مواقع قريبةٍ ولكنّها متمايزةٌ فيما بينها، وقد كانت لديه سائر مزايا المنطق الظاهر الذي كان يبعث كتاباتي وتدخّلاتي. لماذا كنت أبقى إذًا داخل الحزب مع سائر النتائج اللاحقة –بالنسبة إليّ كما بالنسبة إلى المفكّرين الشباب– على افتراض أنّني كنتُ أمتلك بعض التأثير الشعبيّ؟

حول هذه المسألة، إنّ من السهولة بمكانٍ (كما بالنسبة إلى رانسيير وأولئك الذين

يقاسمونه هذا الشعور، طالما أنّني كشفتُ أوراقي «الذاتيّة» على الملأ، حيث كان من السهولة أن أبرّر نفسي، أي أن أنكفئ على ذاتي إلى الأبد) أن أكتفي بالإحالة إلى ما انتهيت من عرضه بشكل مطوّل عن «الجذور» و«البنى» المؤثّرة في «ذاتي» اللاشعوريّة. وسوف أقول لماذا.

في البداية إنّني أملك الدليل العيانيّ، وبأيّة مصداقيّةٍ! على أنّ «المريدين» الأكثر قربًا إليّ، تلاميذ المدرسة العليا، وتحت الإدارة الرّائعة لروبيرت رينهارت (ولن أتكلّم عن ريجيس دوبري الذي سرعان ما شقّ طريقه بمفرده بعيدًا عن الحزب كي ينخرط في حرب العصابات البوليفيّة إلى جانب تشي غيفارا)-هؤلاء التلاميذ المريدين وبعد انتسابهم إلى منظّمة الشباب الشيوعيّ داخل المدرسة، سرعان ما انصرفوا عنها (من دون موافقتي) من أجل تأسيس تنظيمٍ جديدٍ خارج الحزب، هو اتّحاد الشباب الشيوعيّ الماركسيّ-اللّينينيّ الذي عرف انتشارًا قويًّا جدًّا، والذي تشكّل في المدارس وضمن مجموعات ذات تكوينٍ نظريّ وسياسيّ، ثمّ انتقلوا إلى الفعل الجماهيريّ، حيث شكّلوا بصفةٍ خاصّةٍ معظم لجان فيتنام (les comités Vietnam) في الأساس، التي عرفتْ قبل أيّار 86 انتشارًا كبيرًا جدًّا. لقد تجاوز الطلّاب الحزب حرفيًّا، إلى درجة أنّه لم يكن هنالك في أحداث أيّار 68 -ونحن نعلم ذلك- سوى حفنةٍ، أقول حفنةً صغيرةً (فيما لم يبارح كاتالا -بصورةٍ طبيعيّةٍ- مكتبه) من الطلّاب الشيوعيّين في الفتنة العظيمة التي وقعت في السّوربون.

إنّ أبناء اتّحاد الشباب الشيوعيّ الماركسيّ-اللّينينيّ لم يكونوا موجودين في تلك الأحداث أيضًا، فما السبب في ذلك؟ لقد كان هؤلاء قد تبّنوا «خطأً» صارمًا جعلهم يخسرون حينها: الذهاب إلى أبواب المصانع في محاولةٍ لتحقيق الوحدة بين الطلّاب-الشغّيلة والعمال. والحال، أنّ عمّال المصانع لم يستجيبوا إلى الطلّاب اليساريّين المتطرّفين، بل إلى ناشطي الحزب الذين جاؤوا يسألونهم الانضمام إليهم في الحيّ اللاتينيّ (Quartier Latin) للمشاركة في الثورة الطلّابيّة. وهنا يكمن الخطأ الرئيس لدى لينهارت ورفاقه. إنّ العمال -ما خلا استثناءات نادرة- لن

يحضروا إلى السوربون لأن الحزب -وهو صاحب السلطة الوحيد- لم يطلب منهم ذلك. إنّ كلمة المرور كانت في محلّها بالفعل لو أنّ الحزب لم يتحوّط -كما لو أنّها الطاعون- من الثورة لجماهير الطلّاب، ولو كان انتهز الفرصة، «الثروة» على حدّ تعبير مكيافيللي، كي يُشعل ويدعم بكلّ قوّة سلطته ومنظّماته (ومنها الكونفدراليّة العامة للشغل (CGT)، قبل كلّ شيءٍ آخر، التي كانت على الدّوام مخلصةً للحزب منذ انشقاق عام 1948) حركةً جماهيريّةً قادرةً على جرّ الطبقة العاملة، ليس ذلك فحسب بل وجرّ طبقاتٍ واسعةٍ من البورجوازيّة الصغيرة التي تستطيع قوّتها وعزمها، موضوعيًّا، تمهيد الطريق إلى الاستيلاء على السلطة وإلى [انتهاج] سياسةٍ ثوريّةٍ. فهل نعلم أنّ لينين كان قد كتب عن فترة قضيّة دريفوس (l'affaire Dreyfus)[168] التي لم تفسح المجال أبدًا لوقوع فتنٍ شعبيّة مفتوحةٍ، ولا لنصب المتاريس، أنّه كان من الممكن لهذه الاضطرابات أن تمهّد الطريق إلى ثورةٍ حقيقيّة في فرنسا لو أنّ الحزب العمّاليّ لم ينأَ بنفسه بالفعل عن هذه الأحداث، إذ رأى جيسد (Guesde)[169] الذي لم يدرك [صراع] «الطبقة ضد الطبقة» أنّ قضيّة دريفوس هي قضيّةٌ «بورجوازيّةٌ» بحتةٌ، من دون أن يُعنى بأيّ عنوانٍ آخر ذي صلةٍ بصراع الطبقة العاملة؟ صحيحٌ أنّ باريس وحدها هي التي كانت ضالعةً في الأمر في عام 1968: لكنّ الرّيف لم يكن على نفس المستوى. فهل نستطيع القيام بثورةٍ في العاصمة وحدها (التي يقطنها ستة ملايين نسمةٍ) في بلدٍ يبلغ عدد سكّانه (ستّين مليون نسمةٍ)؟

والحال أنّه في شهري أيار وتموز من عام 1968، فإنّ عددًا من العمّال في عددٍ من المصانع كان يؤمن بالثورة الفعليّة، وكان يترقّبها، ولم يكن ينتظر من أجل التحرّك

---

(168) قضيّة دريفوس: قضية اتّهام الضابط الفرنسي اليهودي بالخيانة في عام 1895 ومن ثمّ تبرئته وإعادة إدانته وسط انقسام عبّر عن صراع اجتماعيّ وسياسيّ حدث في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر في عهد الجمهورية الفرنسية الثالثة. (المترجم)

(169) جول جيزد (Guesde) 1845-1922: هو الاسم المستعار لجول بازيل، سياسيّ اشتراكيّ فرنسيّ. (المترجم)

سوى كلمة مرورٍ تصدر عن الحزب. ونعلم ما الذي جرى. فالحزب الذي تفوته القطارات الكثيرة، وترعبه الحركات الجماهيريّة كما هي الحال دائمًا، كان يجادل في أنّ هذه الحركات هي رهن قيادة اليساريّين المتطرّفين (ولكنّ من المخطئ في ذلك؟)، وكان شغله الشاغل أن يحول دون حصول صدامٍ من خلال معارك داميةٍ كثيرًا بين قوّات الطلّاب، والجماهير العمّاليّة الملتهبة التي كانت في ذلك الوقت تقود أطول إضرابٍ شعبيٍّ في التاريخ العالميّ، وقد بلغ الأمر حدّ تنظيم الطرفين مواكب منفصلةٍ عن بعضهما البعض. لقد هيّأ الحزب في الحقيقة لهزيمة الحركة الشعبيّة من خلال إجباره الكونفدراليّة العامّة للشّغل (التي لم يكن هنالك -بمشاركتها- من حاجةٍ ملحّةٍ إلى القيام بالعنف، وذلك بالنظر إلى علاقاتها التنظيميّة) على الدخول سلميًّا في مفاوضاتٍ اقتصاديّةٍ، وقد اعترض عمّال مصانع رينو (Renault) على هذه المفاوضات، وثابروا على موقفهم بعض الوقت لاحقًا، وكانوا قد رفضوا أيضًا أيّ لقاءٍ مع مانديس (Mendès) [170] في شارلوتي (Charléty)، وكان ذلك في وقتٍ كانت السلطة الديغوليّة فيه شاغرةً، وكان الوزراء قد تركوا وزاراتهم، والبورجوازيّة قد فرّت من المدن الكبرى إلى الخارج آخذةً معها أموالها. وأذكر مثالًا بسيطًا: في إيطاليا لم يكن في استطاعة الفرنسيّين أن يحوّلوا فرنكاتهم إلى ليرات، فالفرنك الفرنسيّ لم يعد مقبولًا، لم يعد يساوي شيئًا. متى رأى الخصم أن الطرف الآخر ضائعٌ تمامًا حياله، وقد قالها لينين مرارًا وتكرارًا، ومتى تدهورت الأوضاع على جميع المستويات، فإنّ الجماهير سوف تتقحّم، فالثورة ليست أمرًا «يتم برمجته» فقط، بل إن الوضع قد يكون وضعًا ثوريًّا في حقيقة الأمر.

بسبب الخوف من الجماهير، وبسبب الخوف من فقدان التحكّم بها (إذ لطالما كان من المقبول ذلك الهاجس القائل بأوّلية التنظيم على الحركات الشعبيّة)، وأيضًا بسبب [الرغبة] في التوافق (ولأجل ذلك، لم يكن هنالك أيّة حاجةٍ إلى أوامر

(170) بيار مانديس فرانس (Pierre Mendès France) 1907-1982: سياسيّ ورجل دولة فرنسيّ، عضو في المقاومة الفرنسيّة، وكان عضوًا في الجمعية الوطنية الفرنسية في عامي 1967-1968. (المترجم)

صريحةٍ) مع مخاوف الاتّحاد السوفييتيّ الذي كان يفضّل، على صعيد الاستراتيجيّة العالميّة، الأمان المحافظ لديغول على مفاجآت حركةٍ جماهيريّةٍ ثوريّةٍ من الممكن (وهذا لم يكن أمرًا خياليًّا) أن تُتّخذ ذريعةً لتدخّلٍ سياسيّ بل وعسكريٍّ أيضًا من قبل الأمريكيين، وهذا تهديدٌ لم يكن الاتّحاد السوفييتيّ في وضعٍ يمكّنه من مواجهته-لكلّ ذلك فقد فعل الحزب ما استطاع إليه سبيلًا، وقد أثبتت التجربة أنّ قوّته في التنظيم وفي التأطير السياسيّ والإيديولوجيّ لم تكن كلامًا فارغًا في سياق السعي إلى كسر الحركة الشعبيّة، وتوجيهها إلى مفاوضات اقتصاديّةٍ بسيطةٍ. «اللحظة الرّاهنة، الفرصة» (لينين) «التي يجب الإمساك بتلابيبها» (مكيافيللي، لينين، تروتسكي، ماو) والتي لا يمكن أن تدوم سوى بضع ساعاتٍ كانت قد انقضت، ساعاتٌ، كانت تُحيي بوجودها إمكانيّة تغيير مسار التاريخ نحو الثورة، إمكانيّة تغيير ديغول، الذي كان يعلم هو الآخر -وكيف!- ما تطمح إليه هذه السياسة بعد الانتهاء منه بصورةٍ مسرحيّةٍ، والذي سوف يلقي على شاشة التلفاز بضع كلماتٍ خطيرةً واحتفاليّةً، معلنًا إصدار مرسومٍ يقضي بحلّ الجمعيّة الوطنيّة وداعيًا إلى انتخاباتٍ جديدةٍ. لقد استعادت فرنسا بأكملها، من بورجوازيّةٍ وبورجوازيّةٍ صغيرةٍ وطبقةٍ فلّاحيّةٍ محافظةٍ ورجعيّةٍ، زمام أمورها -وإلى ما شاء الله من وقتٍ!- بعد الاستعراض الخياليّ في الشانزليزيه (Champs-Elysées). لقد كانت الجزرات مطهوّةً، أمّا الصراع الطلّابي الدامي والطويل، والإضراب العماليّ الطويل الذي سيمتد إلى عدّة أشهرٍ، فلن يعودا على أصحابهما إلّا بالهزيمة التي سيتجرّعان مرارتها شيئًا فشيئًا من خلال تقهقرٍ طويلٍ ومؤلمٍ. لقد أخذت البورجوازيّة بثأرها الوحشيّ. بقيت اتفاقيّات غرونل (Grenelle)(171) قائمةً (وهي وثبةٌ لا سابق لها في النظام «الاقتصاديّ»)، لكنّها كانت مدفوعة الأجر المتمثّل في هزيمةٍ ثوريّةٍ لا سابق لها منذ أيّام الكومونة. بالتأكيد، ونظرًا إلى الغريزة

(171) اتفاقيّات غرونل (Les accords de Grenelle): هي نتيجة المفاوضات الجماعية التي جرت بناء على مبادرة الحكومة الفرنسيّة في فترة أحداث أيار 68 بين ممثلين النقابات العماليّة الرئيسة، ونقابات أصحاب العمل. (المترجم)

المحافظة لدى الجهاز الحزبيّ قبل كلّ شيء آخر حيال عفويّة الجماهير، فإنّ الحركة الشعبيّة قد انتهت إلى هزيمةٍ نكراء، ومن دون إراقةٍ للدماء تقريبًا (وذلك لأوّل مرّةٍ في تاريخ الحركات الشعبيّة في فرنسا)، كان بعض الطلّاب مثخني الجراح، ولكن من دون القضاء عليهم (طالبٌ غريقٌ في فلينس (Flins)، وعاملان قتيلان بطلقٍ ناريٍّ في بلفورت (Belfort)، وعددٌ آخرٌ في أماكن أخرى)، وبالتالي كانت هذه الهزيمة هي الأثر الوحيد «السلميّ» للهيمنة الرّأسمالية الامبرياليّة البورجوازيّة، وجهاز دولتها المدهش، وجهاز دولتها الإيديولوجيّ الإعلاميّ، و«صورة» والد الوطن القادر على السيطرة على جميع الاحتمالات الممكنة: لقد كان لوجه ديغول وصوته الاحتفاليّ وقعهما على مسرح الحياة السياسيّة في تعزيز مواقع البورجوازيّة. لكنّ الثورة حينما تنتهي إلى الهزيمة من دون ارتكاب مذبحةٍ عمّاليّةٍ في صفوفها، فهذا ليس علامة حسنةً بالضرورة بالنسبة إلى الطبقة العمّاليّة التي ليس بها حاجةٌ إلى نعي شهدائها ولا إلى الاحتفال بهم. لكنّ اليساريّين المتطرّفين كانوا ماهرين في هذه الأمور، إذ كانوا يدركون أو يؤمنون بقدرتهم على «استثمار» شهدائهم النادرين، أمثال ذلك المسكين أوفرني (Overney). أتذكّر تلك الكلمة التي سألهج بذكرها دائمًا من حولي، في ذلك اليوم نفسه الذي جرت فيه احتفالات تأبين مؤثّرةٍ ورائعةٍ لذلك المناصر المسكين *لقضيّة الشعب* (لقد اجتمع مليونا شخصٍ في تلك الجنازات، خاشعين في صمتٍ تحت الأعلام المرفوعة، أمّا الحزب والكونفدرالية العامّة للشغل فكانا غائبين): *«إنّنا لا ندفن اليوم أوفرني، وإنّما اليسار نفسه»*. وسوف تثبتُ بقيّة الأحداث أنّني كنتُ محقًّا.

لكنّ هذا الواقع البسيط يمكّنني من مقاربة حجّةٍ أخرى. فعلاوةً عن كونه تصورًا مميّزًا عن التحديد وعن الايديولوجيا (الشخصية) وعن التاريخ أن يُعدّ فردٌ بمفرده -بعمله وتأثيره المحتمل- قادرًا على أن يدفع الطلّاب الشباب والمفكّرين (وهؤلاء وحدهم المتأثّرون) إلى اتّخاذ قرارات سياسية حاسمة، وقادرًا على التسبّب في مجازر شعبيّةٍ إذا ما ذهبنا بهذا المنطق حتى آخره، فإنّ من الواجب أن ننظر إلى ما

كانت تمثّله أو ما كان يمكنها أن تمثّله -لدى البورجوازيّة الشابّة، أو البورجوازيّة الصغيرة- تجربة الحزب القائمة، ومنظّمته، وممارسات نهجه الاقتصاديّ السياسيّ والإيديولوجيّ. لقد بيّنتُ موقفي لاحقًا من أداء الحزب. إنّه من غير الممكن أن نكوّن فكرةً حقيقيّةً عن الحزب ونحن خارج الحزب، ونحن خارج تجربةٍ طويلةٍ جدًّا مع ممارسات الحزب، كما لن تستطيع القيام بذلك الكتب المعادية للشيوعيّة، مثل كتب فيليب روبريو (Philippe Robrieux) [172]الذي كان، أيّام المجلس المحلّي، أكثر القادة ستالينيّةً، وأكثرهم رعبًا وقدرةً على أن يثير حتى داخل خليّتي المخاوف من إدانات المجلس المحلّي، فهذه الكتب لا تستطيع أن تلقي الضوء على أيّ شيءٍ كان، ما خلا أن تستعيد لدى أولئك الذين انتسبوا إليه بعض المعلومات التي يعرفوها أو يظنّونها. لا شيء يعدل التجربة المباشرة، وأولئك الذين لم تعركهم إذا ما قرأوا تلك الدراسات، أو قُل تلك الكتب الشبيهة بالهجائيّات الفظّة لصحفيٍّ مهووسٍ بالتحريف في النقل مثل روبريّو، فإنّ ما يمكن لهم أن يجنوه من تلك القراءة في أفضل الأحوال هي فكرةٌ مبهمةٌ كُتُبيّةٌ لن تؤثّر فيهم، اللهم ما لم يكونوا بالفعل متأثّرين لأسباب أخرى. ففي الأساس، ما الذي يستطيع هذا النوع من الأعمال أن يقدّمه، إن لم يكن ما عرفه البعض سابقًا من الداخل، أو ما أدركه الآخرون بالفعل منذ وقتٍ طويلٍ -ولكن في صيغٍ أقلّ دقّةٍ بالطبع، من الحملة الواسعة لعداء الشيوعية، المدعومة بقوّةٍ من قبل سولجينتسين (Soljénitsyne)[173] في الماضي ومن مونتان (Montand)[174] في الوقت الحاضر، والتي تفرض منذ أمدٍ بعيدٍ الإيديولوجيا البورجوازيّة لبلدنا وتنشرها في كلّ مكانٍ؟ بالإضافة إلى ذلك، لم يكن هنالك في سنوات الخمسينيّات من يسارٍ سوى الحزب، والكونفدراليّة العامة للشغل، وقد كانتا القوى الحقيقيّة الفعليّة،

---

(172) فيليب روبريو (Philippe Robrieux) 1936-2010: مؤرّخ فرنسيّ متخصّص في الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، وقد كان الأمين العام لاتّحاد الطلبة الشيوعيين. (المترجم)

(173) ألكسندر سولجينتسين (Alexandre Soljénitsyne) 1918-2008: أديب ومعارض روسيّ، لفتت كتاباته النظر إلى الغولاغ خاصّة في روايتيه: أرخبيل غولاغ، ويوم في حياة إيفان دينيسوفيتش. (المترجم)

(174) إيف مونتان (Yves Montand) 1921-1991: ممثّل فرنسيّ، ومؤلّف أغانٍ فرنسيّ. (المترجم)

والمدهشة من جانب آخر، وكان من الواجب «التصرّف»، ولم يكن هنالك أيّ شيء يحلّ محلّهما فيما اتّخذاه من نهجٍ.

لكن، إذا كان لديّ «بعض التأثير»، كما كتب رانسييه في كتابه المجانيّ الصغير الذي استمتعتُ في قراءته بالنظر إلى أنّ رانسييه كان صادقًا في أعماقه، ومخلصًا بشدّةٍ، كما كانت له بعض الشخصيّة النظريّة والسياسيّة (وأقول بعضًا فقط)، فلماذا أمكن لهذا التأثير أن يتجلّى في عدم مغادرة الحزب فورًا –إن لم يكن في دعوة البعض إلى ذلك (بل الكثير، ولكن كيف السبيل إلى معرفة ذلك؟)- وإنّما البقاء فيه؟ والحال أنّني أحسبُ أنّه لم يكن هنالك في فرنسا في ذلك الوقت أيّة منظّمةٍ أخرى، وأؤكّد على القول أيّة منظّمةٍ أخرى، تقدّم للمناضلين المخلصين صيغةً وتجربة سياسيّةً عمليّتين يمكن مقارنتهما بتلك التي تقدمها تجربةٌ نضاليّةٌ طويلةٌ بما فيه الكفاية داخل الحزب الشيوعيّ؟ لا أزعم أنّني كنت على درايةٍ واعيةٍ بهذا الأمر، وأنّه لم تكن لديّ دوافعٌ شخصيّةٌ أخرى للبقاء داخل الحزب (لقد تكلّمت عن هذا بشكلٍ مطوّلٍ كثيرًا، بيد أنّني أرغب في الحديث عن النتائج والحقائق الموضعيّة تمامًا). ولا أزعم أنّني كنتُ واضح الرؤية بقدر رانسييه أو غيره (الذين كانت أسبابهم شديدة الوضوح في حالاتٍ نادرةٍ جدًّا). لكنّها الحقيقة: أنّني تبنّيتُ هذا الموقف. فأنا لم أكتب أبدًا أو، بشكلٍ آخر، لم أقم أبدًا بأيّة حملةٍ عامّةٍ أو خاصّةٍ في سبيل إقناع أيًّا كان بالبقاء داخل الحزب، كما أنّني لم أتبرّأ أبدًا –سواءٌ أكان ذلك بصورةٍ علنيّة أم خاصّةٍ- من أولئك الذين غادروا الحزب، أو أرادوا مغادرته. فلقد كانت قاعدتي في العمل: أن يتّخذ كلّ شخصٍ قراره بملء وعيه. لعلّني كنتُ أمتلك أسبابًا شخصيّةً خبيثةً كي أبقى داخل الحزب، أو أسباب غير بريئةٍ بما يكفي كي أغادر الحزب: فالحقيقة أنّني بقيتُ داخل الحزب، لكنّ سائر كتاباتي تثبتُ بما فيه الكفاية أنّني لم أكن في وفاقٍ مع الحزب بخصوص القضايا الأساسيّة، الفلسفيّة والسياسيّة والإيديولوجيّة، وكذلك بخصوص القضايا المنهجيّة (انظر: حول المؤتمر الثاني والعشرين) ومبادئ التنظيم العمليّة وممارسات الحزب الطائشة. ولقد

كنتُ الوحيد، وأعي ما أقول، الوحيد الذي تكلّم علانيةً في عقر دار الحزب، وقاد نهجًا معارضًا داخليًا: لقد كان علينا القيام بذلك! وقد قمتُ به. ولم تكن قيادة الحزب مخطئةً في ارتيابها أنّني أريد إحداث تغيير، من الدّاخل، في نهج الحزب باتجاهٍ ماويٍّ. ولقد كانوا يخشون ذلك كثيرًا! لا ريب أنّني كنتُ «أسطورةً»، لكنّهم كانوا يرتعبون من أن «يصعد» إلى المكتب الوطنيّ لاتّحاد الطلبة الشيوعيين (UEC) أحد أبناء المدرسة العليا وطالبة قديمةٌ من المدرسة العليا في بلدة سيفر يستطيعان أن يعلمانهم رأسًا، كانوا يفكّرون، بمقاصدي ونشاطاتي! ومن الواضح أنّ السؤال الذي يطرح: لماذا؟

لكنّ القضيّة الجوهريّة ليست هنا. إذ لا ينبغي أن ننظر إلى فرنسا وحدها. فمن سوء حظّي أو من عدمه، أنّني كنتُ مقروءًا في الخارج أيضًا، وعلى الرّغم من أيّ اختلافٍ في السياق! وإنّ كثيرًا من الفلاسفة والسياسيّين والإيديولوجيّين، وأنا أعتذر، كانوا يتذرّعون بي -من خلال كتاباتي النقديّة- في ذلك الوقت في سعيهم إلى الانخراط في طرق شبه ماويّةٍ مفتوحةٍ. وأضربُ على ذلك مثالًا واحدًا: واحدةً من طالباتي، التشيليّة مارتا هارنيكر (Marta Harnecker)، التي أقامت في باريس بين عامي 1960 و1965 -إن لم تخنّي الذاكرة- ثمّ عادت إلى أمريكا اللاتينيّة (كوبا) كي تقوم بتحرير كتيّبٍ صغيرٍ عن الماديّة التاريخيّة. فهل يخفى أنّه قد طُبع من هذا الكتيّب ستّة ملايين نسخة؟ إنّه ليس أمرًا جيّدًا جدًّا، لكنّه يشكّل مع ذلك - ولعدم وجود الأفضل- القاعدة الوحيدة نظريًّا وسياسيًّا من أجل تكوين مئات الألوف -إن لم نقل عشرات الملايين- من مناضلي أمريكا اللاتينيّة لأنّ هذا الكتيّب في ذلك الوقت كان هو العمل الوحيد من نوعه في القارة. والحال أنّه كان يستعيد بالحرف الواحد الأفكار التي كنتُ قد طرحتها أنا وباليبار في كتاب *«قراءة رأس المال»* -وحتى مع سوء الفهم المستمر لها في هذا الكتيّب-! فمتى ادّعينا القيام بتحليل تأثير فردٍ واحد وتأثير أعماله على الحزب، وداخل الحزب، كان من الواجب أن نأخذ بعين الاعتبار ليس ما يجري فقط في المسدّس [الفرنسيّ] -التعيس سياسيًّا-

وحده، ولكن ما يجري أيضًا في بقيّة أنحاء العالم. بالطبع، فإنّ مناضلي أمريكا اللاتينيّة كانوا يعلمون أنّني كنتُ في الحزب، لكنّهم كانوا يعلمون أيضًا أنّني كنتُ ميّالًا وبشدّةٍ نحو الماويّة (حتّى إنّ ماو كان قد وافق على مقابلتي، لكنّني «ولأسبابٍ سياسيّةٍ فرنسيّةٍ» ارتكبتُ الحماقة الأكبر في حياتي بعدم لقائه، وذلك خوفًا من ردّة الفعل السياسيّة للحزب تجاهي -ولكن ما الذي كان يستطيع الحزب أن يفعله- على افتراض أنّ خبر اللقاء مع ماو كان سيشكّل موضوع النقاش العامّ والرّسميّ؟ مع ذلك، لم أكن «شخصيّة» بهذا الحجم!)

في ظلّ هذه الظروف، هل كان هنالك آنذاك من معنى، أيّ معنى، للتمييز بين الداخل والخارج؟ مرّةً أخرى، لا أقلّ من الاكتفاء بفرنسا وحدها، كما هي العادة القديمة لنزعتنا الإقليميّة المتأصّلة، أي لذلك الادّعاء الفرنسيّ العجيب، المتجذّر في تاريخٍ طويلٍ جدًّا من السيطرة الثقافيّة التي يوشك الماء أن يتسرّب إليها من كلّ مكان...

والحال أنّني كنتُ -على الأقلّ- أمتلكُ وعيًا حادًّا بكلّ هذا. فحينما بقيتُ في الحزب، كنتُ أحسبُ (وقد كانت تلك بالطبع -وأنا أقرّ بذلك- وجهة نظرٍ مصابةٍ بجنون العظمة في جزءٍ كبيرٍ منها) أنّني من خلال بقائي في الحزب في موقفٍ معارضٍ معلنٍ جدًّا (وهو الموقف الوحيد الجدّي والمتماسكُ بعض الشيء، الذي كان موجودًا، والذي لن تغفره لي أبدًا -وأبدًا على الإطلاق- الغالبيّة العظمى من المعارضين الذين لم يكونوا معارضين مبدئيّين، بل محتجّين مزاجيّين، كما أنّهم لن يغفروا لي أبدًا، حتّى بعد قراءتهم هذا الكتاب الصغير) أحسبُ إذًا أنّني كنتُ أستطيع أن أبرهن، بصيغةٍ رسميّةٍ على الأقلّ، أن فعل المعارضة داخل الحزب كان فعلًا ممكنًا بناءً على قواعد نظريّةٍ وسياسيّةٍ جادّةٍ، وبالتالي فإنّ عمليّة التغيير في الحزب كانت، على المدى الطويل ربّما، ممكنةً. وبما أنّني حافظتُ على علاقةٍ وثيقةٍ جدًّا مع سائر الشيوعيّين القدامى الذين كنتُ أعرفهم (من المنبوذين أو المغادرين الحزب بعد التدخّل السوفييتيّ في هنغاريا، وأولئك الثمانية والستين بعد التدخّل في

تشيكوسلوفاكيا حيث اطّلعتُ مباشرةً على الجهود الخائبة والمأساوية لفالداك روشيه (Waldeck Rochet) الذي رُكل وأُلقي على أبواب السفارة السوفييتيّة في باريس، في تجربةٍ مؤلمةٍ لن يتعافى المسكين منها، كما عرفتُ كثيرًا من المنبوذين المميّزين الآخرين الذين أصبحوا أصدقاء مقرّبين جدًّا إليّ، مثل تيّون (Tillon))، وبما أنّ علاقاتٍ وثيقةً أيضًا قد جمعتني بجماعات اليسار المتطرّف كلّها الحافلة بطلّابي القدامى، بل وحتّى مع بعض التروتسكيّين الذين لم يبادروا بمعروفٍ تجاهي على الرّغم من أنّني لم أهاجم تروتسكي أبدًا، الذي كنتُ أحترمه على نحوٍ عميقٍ (على الرّغم من هوسه العسكريّ الاستحواذيّ، وسلوكه الغريب المتمثّل في غيابه الدّائم في اللحظات والأماكن الحاسمة في التاريخ السوفييتيّ)، وبما أنّ هؤلاء الأشخاص جميعًا كانوا على درايةٍ بالأمر، وكانوا يعرفون ما كنتُ أفكّر به، وما كنت أقوله وأكتبه (لأنّني لم أكن أخفي على أحدٍ مشاعري- وحدها هيلين كانت تطلب منّي أن أركل الحزب الذي «خان» الطبقة العاملة في أحداث 68 وقد كانت محقّةً تمامًا)، فإنّ أحدًا منهم لن ينخدع بشأني، ولا بمشاعري، ومواقفي، و«استراتيجيّتي»، وأفعالي، وتصرّفاتي. فهل يتوجّب عليّ أن أذكر على سبيل المثال البسيط أنّه قد أصبحت لديّ بعد مأساة المجلس المحلّي أسبابٌ أخرى بالإضافة إلى رانسييه من أجل مغادرة الحزب؟ وأنّني دُهشتُ، حينما استنكرتُ في الباستيل (Bastille) تخلّي الحزب عن دكتاتوريّة البروليتاريا، إذ رأيتُ صحفيًّا من مجلّة «L'Humanité» -وقد كان شاهدًا على «تهجّمي» المؤثّر (فنحن لا نتخلّى عن مفهومٍ بالٍ)- يكتب في الحال تقريره برفقة لوسيان سيف، وأنّ هذا قد أعطاني إيّاه كي أقرأه (فلم أجد فيه ما يُعاب)، وقد نشرته المجلّة في اليوم التالي من دون أن تغيّر فيه حرفًا واحدًا؟

وحدهم أولئك الذين لم يعرفونني عن قربٍ، وأولئك الذين لم يعاشروا اليساريّين المتطرّفين، المنبوذين وسواهم -أقول لعلّ هؤلاء وحدهم ممّن عرفني عن طريق الواسطة فقط يمكنهم أن ينخدعوا بشأني. وفي الحقيقة فإنّ أيًّا من رفاقي

القدماء الذين كانوا قد طُردوا من الحزب، أو غادروه في مواقف انتقاديّة لم يوجّه لي على الإطلاق لومًا على بقائي في الحزب. لقد كان رانسييه هو الوحيد الذي لامني علنًا، وقد أسف عددٌ من الأصدقاء من الشيوعيّين السابقين، ومن اليسار المتطرفين على موقفه المتّخذ حيالي.

بيد أنّ ما أعدّه أمرًا جوهريًّا في الحقيقة، وأكرّر ذلك، والذي لم أكن أدركه في ذلك الوقت بوضوح ولكن بغريزة صمّاء -إذ كنتُ أتصرّف في أغلب الأحيان على هذه الشاكلة- هو أنّ إقامتي داخل الحزب كانت أمرًا استثنائيًا، ذلك أنّني -وطالما لم أشغل موقعًا دائمًا منقطعًا تمامًا عن العالم الخارجيّ- قد حصلتُ من المناضلين على تجربةٍ وتدريبٍ مركّزٍ على السياسة بصورةٍ لا تُضاهى. في المقام الأوّل، يمكننا أن نعرف من داخل الحزب، ويمكننا الحكم على أفعاله من خلال مقارنة أشكال التنظيم، والقيادة، والضغوطات السافرة غالبًا، وباختصارٍ يمكننا الحكم على أفعاله بمقتضى مبادئه. فهل تعلمون أنّه كان أمرًا شائعًا لدى الحزب، في المنافسات الانتخابيّة، في أنتوني (Antony) على سبيل المثال مؤخّرًا، وإن كان المثال بعيدًا عن كونه المثال الوحيد، أن يُزكّى ترشيح أحد الناشطين في المنظّمة العامّة للشغل أو في الحزب ممّن لا يعرفه السكّان المحلّيون بشكلٍ جيّدٍ، وأن يجعل ترشيحه تحت شعار *اليمين المتطرّف* كي يخلق البلبلة داخل اليمين المتطرّف نفسه، وبالتالي أن يسبّب انقسامه في ساعة فرز الأصوات؟ وهل تعلمون أنّ جعل صناديق الاقتراع «محشوّةً بصورةٍ غير طبيعيّةٍ» كان أمرًا مألوفًا في البلدات التي يسيطر الحزب فيها؟ وأنّ الآخرين كانوا يفعلون الأمر نفسه في بلداتهم. (جان باتسيت دومينغ (Jean-Baptiste Doumeng[175]) الذي التقيته مرّتين -إذ كان يريدني أن أشرح له غرامشي- هذا العجوز الستالينيّ المطلق لدى الاتّحاد السوفييتي، كان رجل أعمالٍ صاحب ملياراتٍ بكلّ تأكيدٍ، لكنّه كان ملتزمًا تمامًا بالقوانين جميعها، وعند

(175) جان باتسيت دومينغ (Jean-Baptiste Doumeng) 1919-1987: رجل أعمال فرنسي، وعضو في الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، كان يلقّب "بالملياردير الأحمر". (المترجم)

الاقتضاء، ومثل أيّ رجل أعمالٍ حقيقيّ، كان يلتفُّ عليها ويضلّل مصلحة الضرائب! هذا المسكين دومينغ، الذي كان هدفًا لمجلّتي (Libération) و(Canard): لقد خبر ما يمكن للانتقادات «المراوغة» أن تفعله، وأنّها تستطيع أن تتّخذه هُزوًا كأنّه رجلٌ نكرةٌ: «أنا أعرف من أكون-كان يقول-»، وقد كانت هذه العبارة أفضل -وبمئة ضعفٍ- من سائر الانتقادات البائسة ذات الجدل الفارغ!). لن أخوض في الحديث عن ممارسات المجالس البلديّة، ومكاتب الدراسات العمرانيّة والهندسيّة المنافقة، وشركات التصدير والاستيراد التي كانت نسبةٌ هائلةٌ من أرباحها تنتهي إلى خزائن الحزب - وإذا كانت الأحزاب الأخرى تلتزم الصمت حيال سائر هذه الأعمال المثيرة للرّيبة بدرجاتٍ متفاوتةٍ، فذلك عائدٌ إلى أنّها كانت هي الأخرى تمارس -وربّما على نطاقٍ أصغر، وبقدرٍ أقلّ من المخاطرة (فالدولة كانت بين أيديهم)- أعمال السمسرة القذرة نفسها.

في ضوء ذلك، فإنّ من الممكن -من خلال النشاط الفاعل- أن نكوّن فكرةً حقيقيّةً إلى أبعد حدٍّ عن ممارسات الحزب، وعن التناقض الصارخ بين ممارساته ومبادئه النظريّة والإيديولوجيّة. لقد بيّنتُ كلّ هذا في عام 1978 في مواجهة مارشيه (Marchais) الذي لم يحر جوابًا، بالطّبع. ما الذي كان يمكن أن يقوله؟ لقد كان الرجل «السطحيّ» الأوّل.

لكن، وعلاوةً على معرفة الحزب، وقواه، وطريقة عمله (انتخابات دافعي الخَراج لديه، بنظام الجولات الأربع، إلى المؤتمر والتي انتقدتُها علنًا في عام 1978 في مجلّة (Le Monde) وفي كتيّبٍ لا يمكن العثور عليه)، فإنّه كان بإمكاننا أيضًا اكتساب معرفةٍ عيانيّةٍ عن تعقيد الطبقة العاملة المنظّمة داخل الحزب، والكونفدراليّة العامّة للشغل. وأقول «المنظّمة» داخل الحزب قبل أيّ شيءٍ آخر، وهكذا كان يمكننا أن نكتشف، من دون أن يخلو الأمرُ من دهشةٍ، أنّ النواة الصّلبة للمناضلين الطليعيّين، ومُطلقي الولاء للحزب قد جعلتهم يبقون -حتّى بعد المؤتمر السوفييتيّ العشرين، والمؤتمر الفرنسيّ الواحد والعشرين أيضًا- موالين

مُطلقين، ومدافعين شرسين عن الاتّحاد السوفييتيّ وعن تدخّلاته في هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وفي أفغانستان لاحقًا! وأن نكتشف أنّ هؤلاء الناشطين، والحزب نفسه، كانوا يعيشون في انقطاعٍ تامٍّ عن شرائح العمّال المتسبة إلى نقابة العمال الفرنسيّة (FO)، والكونفدراليّة الفرنسيّة الديموقراطيّة للعمل (CFDT)، وعن العمال غير المنظّمين نقابيًّا، وعن جماهير المهاجرين، والموظّفين، والكوادر، والمثقّفين، والبورجوازيين الصغار من كلّ نوعٍ، والذين سعى الحزب جاهدًا إلى حشدهم في منظّماتٍ مناسبةٍ تبعًا للمبادئ الرّسميّة في منهجيّة اتّحاد اليسار. وقد جرى الأمر على هذا المنوال مع الكاثوليك، الذين حظوا بالقدر الأكبر من العناية، كأمثال رجال الدّين، من قساوسةٍ ورهبانٍ، والذين كانوا يقبلون التوقيع على جميع العرائض والبرامج الانتخابيّة الشيوعيّة (ولقد كنتُ أرفضُ على الدّوام -وبفظاظةٍ- توقيع أيّ شيءٍ يُصنّف في خانة التزكية الانتخابيّة، كما كنتُ أرفض التوقيع على أيّ عريضةٍ من نوعٍ آخر تقريبًا). لقد جرى الأمر على هذا المنوال مع الكاثوليك، الذين كان المسؤولون الحزبيّون في الأساس (انظر غارودي، ومن ثمّ موري، وكازانوفا بعد ذلك) يحتقرون حقيقةَ أسبابهم العميقة، ولا يفهمون شيئًا من ردّة الفعل لديهم، حتّى وإن كان الحزب يحبّذ هذه الأسباب على الصعيد العامّ، وهكذا دواليك. فيا لها من تجربةٍ، ليس فقط بالنسبة إلى سلوك الحزب في علاقته مع طبقاته «الحليفة»، ولكن وفي الوقت نفسه بالنسبة إلى هذه الطبقات نفسها، تجربة تترافق دائمًا مع ميزة إجراء مقارنةٍ نقديّةٍ كانت تتعارض، بشكلٍ سافرٍ وجليٍّ، مع الصورة الرّسميّة التي يريد الحزب -في معقل فابيان (Fabien) الحصين واتّحاداته المُراقبة عن كثبٍ من قبل أعضاء اللجنة المركزيّة، أو المكتب السياسيّ- أن يعطيها عن نفسه، ومع حقيقة إيديولوجيا هذه الطبقات، ومواقفها، وأفعالها. وأنا لا أتكلّم عن الفلاحين، الذين وعلى الرّغم من أنّ حركة الدفاع عن المزارعين العائليين (Modef) كانت قد كرّست نفسها لهم، فإنّ الحزب لم يرغب في فهم شيءٍ أبدًا (وقد كانت هيلين ذات تجربةٍ عمليّةٍ متشدّدةٍ في هذه المسألة، ولقد قامت -في سبيل

التخطيط لطرق السيارات، وكثيرٍ من المشاريع الأخرى- بتحقيقاتٍ ميدانيّة جعلتها مشهورة في وسطها، وفي جمعيّة الدراسات من أجل التنمية الاقتصاديّة والاجتماعيّة (Sedes)، كما كان يُنظر إليها بصورةٍ سيئةٍ جدًّا في اللجنة الزراعيّة للحزب الشيوعيّ).

فهل سمعتم بتجربةٍ ما في أيّ مكان كانت -حتّى داخل الحزب الاشتراكيّ الموحّد، والرّابطة الشيوعيّة وشراذم اليسار المتطرّف- قد أمدّت الناشطين بما يعادل ما استطاع الانتقال إلى الحزب والبقاء فيه أن يمنحه إليهم من دروسٍ اجتماعيّةٍ سياسيّةٍ وإيديولوجيّةٍ عن صراع الطبقات؟ بكلّ تأكيد، لا أحد يستطيع أن يطعن في ذلك. ولكن من الواضح أن تحليل العلاقات الاجتماعيّة وإدراك كنهها يفترض بالحزب أن يقطع علاقته مع أيّ حركةٍ -خاصّةً تلك المرتبطةُ بالأُجراء- تسعى إلى تحسين الأجور فقط، وإلخ... في سبيل شنّ الهجوم على *عمليّة الإنتاج*: والحال أنّ ذلك لم يحدث إلّا من خارج الحزب، وضمن أشكالٍ حمقاء من الإدارة الذّاتيّة! حتّى وإن استطاع بعض الأفراد المنعزلين (من أمثال سوفارين (Souvarine)[176] وكاستورياديس (Castoriadis)[177] الذين كانوا يزوّدون كثيرًا من القضايا بالمعلومات والأفكار الصحيحة، غير أنّهم كانوا يجدون أنفسهم متروكين بمفردهم من دون أيّ اتصّال *عضويّ* (وهي كلمة غرامشي الرئيسة في هذا الصدد) مع الجماهير الفاعلة المنظّمة، أو خارج أيّ تنظيمٍ مقاتلٍ) إبداء الانتقادات، بل واستطاعوا في بعض الأحيان (ولكنّ ذلك كان في حالاتٍ نادرةٍ للغاية) وضع المخطّطات للآفاق النظريّة، وللتنظيم، وللممارسات، وللصراع بما يتناسب مع الحركات الشعبيّة (الغالية على قلب صديقي آلان تورين (Alain Touraine)

(176) بوريس سوفارين (Poris Souvarine) 1895-1984: سياسي ومؤرخ فرنسي من أصل روسي، وأحد المؤسسين للحزب الشيوعي الفرنسي. (المترجم)

(177) كورنيليوس كاستورياديس (Cornelius Castoriadis) 1922-1997: فيلسوف وناقد اجتماعي واقتصادي ومحلل نفسي وكاتب يوناني فرنسي. (المترجم)

الذي كان له فضلٌ كبيرٌ، نظريًّا وسياسيًّا، بخصوص هذه المسألة)، فما هو[178] التأثير الذي كان يمكن لهؤلاء الأفراد المنعزلون أن يمارسوه على العمّال والجماهير؟ وإنّ من الواجب أن نميّز تمييزًا كبيرًا بين المُحبطين والساخطين الذين *خرجوا* من الحزب لأنّ معرفتهم بالحزب ولّدت لديهم نفورًا منه، وأولئك الذين هم -تحت تأثير دعايةٍ إيديولوجيّة منتشرةٍ- منذ الأبد محبطين، وساخطين ومعارضين، من دون أن يكونوا قد التجؤوا إلى الحزب أبدًا. فالساخط الذي كانت لديه تجربةٌ مباشرةٌ وملموسةٌ مع ممارسات الحزب، ومع التناقض غير المحتمل بين مبادئه الرّسميّة وممارساته الفعليّة، هو ناقمٌ لديه معرفةٌ كافيةٌ بالحزب كي يستطيع التفكير -إذا شاء- في أسباب خيبته، لأنّ لديه من العلم ما يكفي كي يتكلّم. أحسبُ أنّني كنتُ واحدًا من هؤلاء، كما كان سائر أولئك الذين نبذهم الحزب، أو غادروه بعد تجارب مُسخطةٍ، إن لم تكن تجارب مروّعةٍ بصورة شخصيّةٍ (حالاتٌ نادرةٌ في فرنسا لحسن الحظّ، ولكن فكّروا في *مارتي وتيّون* (Marty Et Tillon)[179]!): التفكير، وبالتالي -وبعد احتياز معرفةٍ تامّةٍ بالموضوع المقارن- إمكانيّة اتّخاذ موقفٍ و«نهجٍ» شخصيٍّ. الساخط الذي هو ساخطٌ قبل أيّ احتكاكٍ مع الحزب، وقبل أن تكون لديه أيّةُ تجربةٍ مع الحزب، ليس سوى مُحبطٍ وساخطٍ *مزاجيٍّ*، لا عن تجربةٍ، وهو لا يفعل سوى التفكّر -في راحة باله فقط، التي يزوّقها بأهوال معتقل الغولاغ[180] التي يردّدها أمثال غلاكسمان[181]، وبرنارد هنري ليفي (B. H. Lévy)

---

(178) آلان تورين (Alain Touraine) 1925-؟: عالم اجتماع فرنسي. (المترجم)

(179) *مارتي وتيّون (Marty Et Tillon)*: أهم قادة الحزب الشيوعي الفرنسي، وقد طردا منه في العام 1952 بعد اتهامهما (اتهامات من المؤكّد تقريبًا أنّها كانت كاذبة) بأنّهما جاسوسان لشرطة. (المترجم)

(180) الغولاغ: أو معتقل سيبيريا، وهو الاسم الذي كان يطلق على معسكرات الاعتقال السوفييتيّة. (المترجم)

(181) أندري غلاكسمان (André Glucksmann) 1937-2015: فيلسوف وكاتب فرنسيّ، انخرط في شبابه في الماويّة، لينتقل من ثمّ إلى ما عرف "بالفلاسفة الجدد"، ولينتقل بصورة تدريجيّة إلى مواقع أطلسيّة ونيوليبراليّة. (المترجم)

[182]إلخ...- بماذا؟ التفكير بخصوص الإيديولوجيا الغامضة التي هو حاملٌ لها، إيديولوجيا جاءته من الخارج، ومن بعض المنشقّين السوفييت النادرين، والمنفصلين تمامًا عن شعبهم، إيديولوجيا يقبلها بوصفها مُعطىً من دون القيام بأدنى نقدٍ لها، وهو الأمر الذي يجعله غير قادر على القيام بتفكير حقيقيٍّ حول السياسة بالقدر الذي يستطيع سواء الحزب، أم أيّ تنظيم أو حركةٍ شعبيّةٍ عفويّةٍ، حتى وإن كان محقًّا أو محكم البنيان.

وهنا لا أملك أن أتوقّف عن رؤية السبب العميق للفشل المدوّي الذي مُني به اليساريون المتطرّفون المنحدرين من أحداث أيّار 68 في فرنسا وإيطاليا، وقبل كلّ شيءٍ في ألمانيا وإيطاليا حيث انتقل اليسار المتطرّف إلى سياسة شنّ الهجمات المروّعة، التي ربّما كانت متأثّرة بعض الشيء ببلانكي (Blanqui) [183]وما تزال! لكنّها كانت متأثّرةً أكثر بكثيرٍ بالمناورات الخفيّة وغير المريبة حينها لأجهزة المخابرات الدوليّة (وقد بدأنا نلحظ بعض ملامحها) حيث كان العملاء الأمريكيّون، والسوفييت، والفلسطينيّون، والإسرائيليّون، يلتقون على أرض واحدةٍ، ويتّبعون الأساليب نفسها: الأساليب المتعلّقة بتخريب مجنونٍ في الظاهر لكنّ نتائجه السياسيّة (وقبل كلّ شيءٍ زعزعة وتخفيض نسبة مشاركة الطبقات المضطهدة العلنيّ شرعًا وقانونًا) لم تكن -وإلى حدٍّ بعيدٍ- نتائج قليلة الأهميّة. لكنّ هذه النتائج -ومن دون امتلاك أبحاثٍ جدّيةٍ عنها- لن نجدها بتاتًا في المكان الذي نتوقّعه: إنّ زعزعة استقرار هذه البقعة من العالم لكي يمّهد الطريق إمّا لثوراتٍ من النمط الماركسيّ اللينينيّ، والماويّ أيضًا لا مستقبل لها (كمبوديا، وجماعة الدرب المضيء في البيرو)، وإمّا لديكتاتورياتٍ صارخةٍ وقمعيّةٍ بتفويضٍ من امبرياليّة الولايات

(182) وبرنارد هنري ليفي (B. H. Lévy) 1974-؟: كاتب ومفكّر فرنسيّ، من أهم قادة حركة "الفلاسفة الجدد". (المترجم)

(183) لوي أوغست بلانكي (Louis Auguste Blanqui) 1805-1881: شيوعيٌّ اشتراكيٌّ خياليّ، وثائرٌ فرنسيّ، قضى ما يقارب نصف حياته مسجونًا، وقد أثّرت فلسفته على الحركات الثوريّة في بلدانٍ أخرى. (المترجم)

المتّحدة الأمريكيّة. لا، إنّ «اليساريّين المتطرّفين»، ومن خلال انقطاعهم عن الحزب الذي كان يكرههم -وأنا لا أطمح إلى تقديم العذر له أبدًا- قد حرموا أنفسهم من الطريقة الوحيدة الموجودة *آنذاك* للعمل سياسيًّا، أي للعمل الحقيقيّ على مدى المسار التاريخيّ، والذي كان *آنذاك* يمرُّ من خلال الصراع داخل الحزب. اليوم، فإنّ الأمور -وكما هو واضحٌ جدًّا- قد تغيّرت.

هذا هو بالمختصر ما يتوجّب عليّ قوله عن «آثار» فترة وجودي داخل الحزب، وعن تناقضات الأخير الظاهرة. فإذا ما أخذتُ أدرسُ جيّدًا كلّ هذا، فإنّ الحجج المقبولة لدى رانسييه وأصدقائه -في المقام الأوّل- تبدو لي واهيةً جدًّا. وأحسب أنّني -شاء من شاء وأبى من أبى- قد خدمت في ظروف صعبةٍ للغاية، بل وخدمتُ كثيرًا ليس جهاز الحزب الذي لم أكن أطيقه -ولكن ليس أكثر ممّا كانت هيلين تشعر حياله- وإنّما الشيوعيّة، فكرة شيوعيٌّ لا تتوافق مع النموذج الكريه «للاشتراكيّ الحقّ»، وانحطاطه السوفييتيّ، وبالتالي فكرة وأمل هؤلاء الذين في فرنسا، وفي أنحاء العالم كذلك (وهذه حقيقةٌ، وليست وهمًا متسلّطًا أبدًا)، الذين كانوا يؤمنون، وما زالوا يؤمنون بأن يظهر ذات يومٍ مجتمعٌ متحرّرٌ من العلاقات التجاريّة، ولكن متى؟ لأنّ هذا هو التعريف الذي أواظب على تكراره: هذا المجتمع هو الشيوعيّة من دون لفٍّ أو دورانٍ، مجتمعٌ إنسانيٌّ مجرّدٌ عن سائر العلاقات التجاريّة.

لقد تغيّرت الأمور في الوقت الحاضر كثيرًا. ولقد كانت هيلين محقّةً منذ زمنٍ بعيدٍ: إنّ الحزب -إن لم يكن بصورةٍ مباشرةٍ، فبصورةٍ غير مباشرةٍ على الأقلّ- «قد خان الطبقة العاملة» التي كان يتذرّع بها. وأنا لم أستعد بطاقتي منذ مقتل هيلين في عام 1980. لقد كانت قصّتي المؤلمةُ حاضرةٌ بتمامها، وكان موقف الحزب ومجلّة «L'Humanité» صائبًا جدًّا في أثناء هذه النكبة. لقد كنتُ محرومًا من الناحية القانونيّة من القيام بأيّة مبادرةٍ، ولم أكن راغبًا في تحميل الحزب عبء «قاتلٍ» خطيرٍ لم يقصّر أحدٌ في إرهاقه.

أستطيع أيضًا أن أشرح أسبابي الذّاتيّة «للقائي» الاستثنائي (بالنسبة إليّ) مع مكيافيللي، وهوبز، وسبينوزا، وروسّو، بيد أنّني أترك هذه الإيضاحات لكتاب آخر صغير.

لقد كنتُ أرغب أن أتحدّث هنا عن أغلى شيءٍ تعلّمته من سبينوزا، ألا وهو طبيعة «المعرفة من النوع الثالث»، إنّها المعرفة التي تتعلّق بحالةٍ مفردةٍ وكونيّةٍ في الوقت نفسه التي يقدّم لنا سبينوزا عنها مثالًا باهرًا ومغمورًا في الغالب في التاريخ المنفرد لشعبٍ منفردٍ، هو الشعب اليهوديّ (في كتاب «رسالة في اللاهوت والسياسة»). لقد كانت «حالتي» من هذا القبيل، كما هي كلّ «حالةٍ طبّيةٍ»، «تاريخيّةٍ»، أو «تحليليّةٍ»، وهذا يوجب الاعتراف بها ومعالجتها في فردانيّتها، ولكن أن تكون هذه الحالة الفردانيّة هي حالةٌ كونيّةٌ، فهذا يُظهر ثوابت متكرّرةً (وليس قوانين بوبر (Popper) القابلة للتحقّق-الدحض) تطفو في كلّ حالةٍ، وتسمح أن نستقرأ منها العلاج النظريّ والعمليّ لحالاتٍ أخرى مفردةٍ. لم يتّخذ مكيافيللي وماركس سبيلًا مختلفًا، من خلال اتّباع منطق غير ملحوظٍ تقريبًا، وهو منطقٌ يتوجّب تطويره.

كما أنّ ما أدينُ به أيضًا بصفةٍ مباشرةٍ وشخصيّةٍ إلى سبينوزا هو مفهومه المذهل عن الجسد (Corps)، الذي ينطوي على «قدراتٍ مجهولةٍ لدينا»، وعن الرّوح (mens)، التي هي أكثر حريّةً من الجسد لذلك فهي تنمّي أكثر أفعال مجهودها (conatus)، وفضيلتها (virtus)، أو قوّة نفسها (fortitudo). على هذا النحو، فإنّ سبينوزا يقدّم لي فكرةً عن التفكير الذي هو تفكير الجسد، وبصورةٍ أفضل، إنّه تفكيرٌ مع الجسد، وبصورةٍ أفضل، إنّه تفكير عن الجسد نفسه. كان هذا الحدس ينضاف إلى تجربتي في امتلاك جسدي و«إعادة تركيبه»، في ارتباطٍ مباشرٍ مع تنمية تفكيري، واهتماماتي النظريّة.

ما أدين به إلى مكيافيللي بشكلٍ مذهلٍ تمامًا هو الفكرة التي تقول إنّ الثروة ليست في جوهرها شيئًا سوى الفراغ، وخاصّة الفراغ الداخليّ للأمير، ما يجعل الأهميّة

الأولى لدور الرجل الماكر في توازن عواطف الأمير والعبث بها، الذي يتيح بالضبط خلق مسافةٍ بين الذات-الأمير وبين عواطفها، مسافةٍ يتوجّب فيها على الكائن إمكانيّة الظهور كأنّه اللا-كائن، وعلى اللا-كائن إمكانيّة الظهور بوصفه الكائن. هذا المفهوم المذهل، وحسبنا تبيينه، ينضاف حقيقةً إلى التجربة التحليليّة الأكثر عمقًا، إنها تلك المتعلّقة باتّخاذ مسافةٍ عن بعدٍ من أجل النظر إلى مشاعره [الأمير] الخاصّة، ولنقل بعبارةٍ أدقّ، النظر إلى التحويل-المقلوب عنده. لقد عشتُ فعليًّا ما كنتُ قد قرأته عند سبينوزا ومكيافيللي، ولعلّ ذلك هو السبب في اهتمامي الكبير بما «وجدته» عندهما. لأنّ مكيافيللي، في الأساس، يُشيد -قبل تشيرنيشيفسكي (Tchernitcheski) [184] ولينين- إذن بإشكاليّة وقضيّة كتاب: ما العمل؟ كما يبيّن لنا مكيافيللي بالفعل هذه الواقعة الرئيسة -التي تتّخذ صورة الأمير نفسه- المتمثّلة في أنّ الأحزاب السياسيّة، ومن بينها الحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، هي أجزاءٌ لا تتجزّأ من جهاز الدولة الإيديولوجيّ، الجهاز السياسيّ الإيديولوجيّ الدستوريّ البرلمانيّ، مع كلّ ما يفترضه هذا بشأن التكوين الإيديولوجيّ للجماهير الشعبيّة التي تقترع و«تؤمن»، بمعاونة الحزب، بالانتخابات العامّة؟ بالتأكيد، بالنسبة إلى مكيافيللي ليس هنالك من انتخاباتٍ عامّةٍ، ولكن هنالك الجهاز الإيديولوجيّ للدولة القائمة، ذلك الجهاز الذي تجسّده الصورة العامّة- الشعبيّة لشخصيّة الأمير. فارق بسيطٌ فحسب، بيد أنّ دراسةً متأنّيةً لها سوى تكون غنيّة بالتوجيهات من أجل أحزابنا نفسها، وفي مقدّمتها الحزب الشيوعيّ، الذي يسعى -وقد أدرك غرامشي ذلك جيّدًا- إلى السيطرة الإيديولوجيّة، إلى منفذٍ للإمساك بجهاز الدّولة مطلقًا، ليس من خلال تطويق هذا الأخير بما يُدعى «بالمجتمع المدنيّ»، ولكن من خلال صراعٍ سياسيٍّ مباشر للمنظّمات السياسيّة العمّاليّة ضد جهاز الدولة نفسه.

(184) نيكولاي تشيرنيشيفسكي (Nicolaï Tchernitcheski) 1828-1889: فيلسوف ماديّ، وناقدٌ، واشتراكيّ، وثوريّ روسيّ. كان زعيم الحركة الديموقراطيّة الثوريّة في ستينيّات القرن التاسع عشر. (المترجم)

الفصل العشرون

كانت تلك سنة 1979-1980 وقد أطلّت علينا بطوالع خيرٍ. لقد قاومتُ بنجاحٍ في أشهر تشرين الأوّل/ أكتوبر-كانون الأوّل/ ديسمبر بداية اكتئابٍ، ومن ثمّ تغلّبتُ عليه بنفسي، ومن دون استشفاء. وعلى الرّغم من شجاراتنا المستمرّة، التي كانت تتخلّلها فترات سلامٍ طويلةٍ وتفاهمٍ عميقٍ، فإنّ الأمور كانت تتحسّن بشكلٍ ملموسٍ، بالقرب من هيلين بكلّ تأكيدٍ: التي أفضت نقاشاتها مع محلّلي النفسيّ بالنسبة إليها إلى نتائج رائعةٍ انعكست على الجميع. لقد كانت أكثر صبرًا بما لا يُقاس، وأقلّ خشونةً في الحديث، وكانت تتحكّم كثيرًا، وعلى نحو جيّدٍ، في ردّة فعلها ضمن عملها، الذي اكتسبت فيه -وبمجهودها وحدها- أصدقاء كانوا يقدّرونها، ويحبّونها، وكانوا يحدّثونني عنها بوصفها شخصيّةً استثنائيّةً كانت قد حقّقت تحوّلًا من خلال تجربتها، وإدراكها لآليات العمل الاجتماعيّة، والسياسيّة، والإيديولوجيّة، وكذلك مناهج العمل، والتحقيقات الاجتماعيّة التي كانت واحدة من التخصّصات التي تمارسها في المنزل أيّام جمعيّة الدراسات من أجل التنميّة الاقتصاديّة والاجتماعيّة. كانت قد طوّرت إجراءً أصيلًا في التحقيق الميدانيّ، وهو ما جعل لديها عدد من المناصرين بين أصدقائها في العمل. ولم أعد أنا وحدي من «يعرضها» على الأصدقاء، بل أصبحت هي تدعوني لدى أصدقائها. وحينما أُحيلت إلى التقاعد (كي تفسح المجال أمام الشباب) قامت بشجاعةٍ كبيرةٍ بتنظيم نشاطٍ فرديٍّ، غير مأجور، يتعلّق بالتحقيق الميدانيّ في بلدة فوس سور مير (Fos-sur-Mer)، حيث كانت تتوجّه إلى هنالك مرّةً كلّ خمسة عشر يومًا. وهنالك كانت المفاجأة، لقد انتهى الأمر بهيلين إلى أن أصبحت تحبُّ صديقاتي، مثل فرانكا، التي

قامت هيلين بمفردها -وبمبادرةٍ شخصيّةٍ منها- بزيارتها في إيطاليا، حينما سقطت هذه الأخيرة إثر مرضٍ خطيرٍ. وحينما كانت نسيبتها جيوفانا (Giovanna) مُحبطةً على نحوٍ جدّيٍّ، قامت هيلين بتنظيم رحلةٍ من أجلها إلى البندقيّة (Venis) التي كانت تعرفها جيّدًا: كانت جيوفانا تحدّثني عن هذه المبادرة الكريمة بتأثّرٍ. لقد كانت تحبّها، مثل سائر أولئك الذين لم يبذلوا سوى القليل من الجهد في التعرّف إليها، لكنّها لم تتخيّل أبدًا أن تلقى من قبلها رعايةً كهذه، غايةً في الرقّة.

من جهتي، كانت الأمور تتحسّن أيضًا. بالطبع -ومن دون أن أعرف السبب- كنتُ أشعر أكثر فأكثر بالصعوبة في إلقاء المحاضرات، لقد بذلت الجهد الكبير في ذلك طويلًا، ولكن من دون تحقيق نتيجةٍ تُذكر. كنتُ أعتكف في تصحيح بحوث الطلّاب وشروحهم، التي كنتُ أعلّق عليها باختصارٍ من خلال بعض المداخلات الدقيقة حول هذه المسألة أو تلك من تاريخ الفلسفة، بيد أنّ علاقاتي مع الصديقات من النساء كانت قد تغيّرت على نحوٍ جدّيٍّ.

أفكّر في واحدةٍ منهنّ كنتُ أعرفها منذ عام 1969. كنتُ قد بدأتُ -مخمّنًا أنّها كانت تكنّ لي مشاعر قويّةً- وتبعًا لاستجابتي ولأسلوبي في حماية نفسي، باتّخاذ الخطوات الأولى منها، واتّخاذ موقف الدفاع بشدّةٍ في الوقت نفسه. ولمّا كانت هي ذات شخصيّة قويّةٍ، وكانت -مع ذلك- ذات حساسيّةٍ مفرطةٍ، وشديدة القلق، وقادرة على التصرّف بردّة فعل عنيفةٍ، لذلك فقد كانت العلاقات بيننا وعلى مدى طويل علاقات صاخبةً، ومن جهتي على وجه الخصوص، وأقرّ بذلك طواعيّةً. في وقتٍ لاحقٍ، وسواء أكنتُ قد تغيّرتُ على نحوٍ مرضٍ بتأثيرٍ من قيامي بالتحليل والمراجعة، أم بإدراكي أنّها لم تكن تريد في الحقيقة أن «تضع يدها عليّ»، ولا أن تكوّن «أيّة فكرةٍ عنّي»، فقد أخذت سريعًا أرى فيها صديقةً حقيقيّةً، كما أنّ علاقتنا التي كانت بين بين أخذت تتحسّن، لا أقول أنّها أصبحت علاقةً سلسةً لكنها أصبحت أقلّ حدّةً بكثيرٍ. لقد قدّمت لي خدماتٍ هائلةً -وهي خدماتٌ لم تقدّر أيضًا من قبل سائر أصدقائي (فتبعًا لهؤلاء، وتبعًا لكثيرٍ من الممرّضات، فقد كان

من الضروريّ أن تكون أكثر حزمًا بكثيرٍ في علاقتها معي)- خلال مرحلة استشفائي الطويلة (1980-1983)، كما أنّها قد ساهمت بشكلٍ كبيرٍ في مساعدتي على النجاة. لقد تحوّلت علاقتنا فأصبحت صالحًا مشتركًا بيننا.

لكنّني أصبحتُ، إضافةً إلى ذلك، مفرط العناية حيال طريقتي في التعاطي مع النساء. ولقد رغبتُ في أن أُثبت ذلك لنفسي، واستطعتُ القيام بذلك قرابة عام 1975، حينما لمحتُ عَرَضًا -في آخر مركزٍ لبيع الكتب، وقد أصبحت الأجنحة شبه فارغةٍ، والصالة الكبيرة خاليةً تقريبًا- شابّةً صغيرةً، سمراء، وذات وجه معروف. نحيلةً، خجولةً، مُحتشمةً، كانت تتقدّم في فراغ الصالة الكبيرة إلى الجناح الذي أشغله. اشترت أحد الكتب منّي، ثمّ شرعنا في الحديث، حيث أكّدتُ لها أنّني إذا ما استطعت مساعدتها في أبحاثها ودروسها، فإنّني سأفعل ذلك تطوّعًا. ومن دون أيّة كلمةٍ أو إشارةٍ أخرى. وجدتُ نفسي راغبًا فيها على نحوٍ مخيفٍ، وقد كنتُ مقتنعًا بشدّةٍ بضرورة ألّا أقع مرّةً ثانيةً في [حفرة] أخطائي القديمة، بل أن أتعامل معها بمنتهى الاحترام، من خلال احترام إيقاعها الخاص. في الحقيقة، فإنّ الشيء الهامّ هو أنّني استطعتُ أن أغيّر موقفي إلى هذه الدرجة، ما يشكّل إشارةً إلى أنّ شيئًا هامًّا، بل وحاسمًا، في قرارة نفسي كان قد «تغيّر». لقد اتّصلت بي، ومن ثمّ قابلتها، من دون أن يحصل شيءٌ بيننا في الحال، لقد كان هذا أمرًا جديدًا كلّيًا بالنسبة إلي، وهكذا بدأت حكايةٌ طويلةٌ بين شخصين اثنين يمضيان في الدرب على غير هدى، بصورةٍ بطيئةٍ بيد أنّها موثوقةٌ، ومن دون أن أفرض شيئًا. لقد شعرتُ بأنّني بدأت أفهم في النهاية معنى أن تحبّ.

لقد كنّا، أنا وهيلين، سعداء حقًّا كذلك، حينما دعانا أحد أصدقائها في العمل (وهو ابن رجل الاقتصاد رينيه دياتكين (René Diatkine)) إلى غراس (Grasse)، إلى منزل أحد أصدقائه، جان بيير غليمان (Jean-Pierre Glayman) -وهو ابن السكرتير الشهير لخليّة عام 1939!- من أجل عيد الميلاد؛ ولاحقًا في عيد الفصح، حينما قمنا برحلتنا الثانية والأخيرة إلى اليونان. كنتُ قد استأجرتُ في

أثينا، حيث وقع الحادث الذي ذكرته سابقًا، سيّارةً وانطلقنا في المغامرة، كما نحبُّ، كي نكتشف في الساحل الشماليّ الشرقيّ شاطئًا عجيبًا بحصاه الملوّنة، وتحت أشجار الكينا العالية، وأشجار الصنوبر التي غضّنتها أشعّة الشمس والرياح. يا لها من سعادةٍ!

ثمّ عدنا إلى باريس، وآنذاك، بدأت المشاكل في التراكم. وقد كان البعض منها مفاجئًا، ولا يمكن التكهّن به بتاتًا.

يتعيّن عليّ أن أقرّ بأنّ مشاكلي لم تظهر من جهة مبادراتي الفكريّة، فلقد كنتُ في مرحلةٍ مريحةٍ للغاية: إذ لم يكن هنالك من شيءٍ يعارضني. فمن خلال تفكّري في المجالات الضيّقة التي نعمل ضمنها بخصوص فكر ماركس والماركسيّة، وفي سبيل أن أستخلص من نقدي الذّاتيّ المعادي للتنظير المُفرط، نتائجه العمليّة، فقد دعوتُ إلى تشكيل مجموعةٍ بحثيّةٍ لا تقوم بدراسة النظريّة الاجتماعيّة والسياسيّة المُعطاة فقط، بل تقوم بتجميع العناصر المُقارنة على نحوٍ واسعٍ المتعلّقة بموضوعة العلاقة الماديّة العشوائيّة بين «الحركات الشعبيّة» من جانبٍ، وبين الإيديولوجيّات التي تتّخذها، أو توظّفها، وأخيرًا المذاهب النظريّة التي تناسبها من جانبٍ آخر. من هنا فإنّ من الممكن أن نرى أنّني كنتُ أعتزم اقتراح القيام بعملٍ استقصائيٍّ حول العلاقة العيانيّة بين *الجانب العمليّ* للحركات الشعبيّة، وحول علاقة هذه الحركات (المباشرة، وغير المباشرة، والمنحرفة؟) بالإيديولوجيّات، أو بالمذاهب النظريّة التي كوّنتها، أو التي استمرّت مرتبطةً بها في المسار التاريخيّ. إنّ قضيّة تأسيس هذه الحركات من خلال منظّمات لا يمكن -بصورةٍ تلقائيّة- أن تغيب عن بساط البحث المتعلّق بتكوين الإيديولوجيّات، والمذاهب النظريّة أو بتغييرها: لقد كانت هذه القضيّة متضمّنةً فيه. لقد تمّ البدء بهذا المشروع الشامل على نحوٍ واسعٍ جدًّا، والذي كنتُ أثمّن وجوده من أجل البحث ومن أجل الحياة النظريّة والسياسيّة كذلك، تحت شعار CEMPIT (مركز دراسات الحركات الشعبيّة، وإيديولوجيّاتها، ومذاهبها الفكريّة). لقد حشدتُ إلى جانبي إدارة المدرسة التي خصّصتني ببعض

الأموال، كما وعدتني الوزارة بذلك، وقد استطعتُ تأمين موافقة أكثر من مئةٍ من المؤرّخين، وعلماء الاجتماع، وأساتذة العلوم السياسيّة، وعلماء الاقتصاد، والإبيستمولوجيين، والفلاسفة من مختلف الكفاءات والاتّجاهات، الذين اجتمعوا في المدرسة في شهر آذار/ مارس من عام 1980 في مؤتمر تأسيسيّ، وشرعت عدّة مجموعات في العمل. لقد قصدنا العمل، على نحوٍ متعمّدٍ، على «حالات» متنوّعةٍ، من قبيل الحركة العماليّة الغربيّة، والإسلام، والصين، والمسيحيّة، والمزارعين، من أجل التوصّل إلى نتائج مقارنةٍ قدر الإمكان. ولقد عقدنا عدّة اجتماعات بالتعاون مع اختصاصيّين كنت قد استقدمتهم من الرّيف ومن الخارج. ولقد كانت لديّ صلاتٌ شخصيّةٌ مع ثلاثةٍ من المؤرّخين، والسوسيولوجيين، والفلاسفة السوفييت الشهيرين جدًّا: أحدهم كان يعمل على الحركة العماليّة في روسيا قبل الثورة، والآخر على الأديان في إفريقيا، والثالث حول الإيديولوجيّات الرّسميّة وغيرها في الاتّحاد السوفييتي. لقد انطلق المشروع انطلاقةً حسنةً -وسط خشيةٍ كبيرةٍ لدى واحدٍ أو اثنين من أصدقائي المقرّبين اللذين، وقد أصبحتُ مهوسًا بذلك بعض الشيء، كانا يخشيان وقوع الأسوأ- وكانت المجموعات المشكّلة تعمل بأقصى نشاطها، حينما توجّب عليّ أن أواجه صعوبةً شخصيّةً صغيرةً، ومفاجئةً تمامًا، بيد أنّها تسبّبت بعواقب وخيمةٍ.

في أواخر عام 1979، كنت قد أخذتُ في الحقيقة أعاني من آلامٍ مبرّحةٍ في المريء، وكنت ألفظ في أغلب الأحيان ما أبتلعه. جعلني الدكتور إتيان، وهو طبيبٌ عامٌّ بالطبع، لكنّه ذو خبرة في الاختصاص المعديّ المعويّ، أقوم بالتنظير، وأمام النتائج المقلقة، جعلني أقوم بالتصوير بالأشعة: فتاقٌ مع قرحةٍ. كان عليّ الخضوع لعمليّةٍ جراحيّةٍ، وإلّا فيمكنني أن أخشى على المدى الطويل ظهور تقرّحاتٍ مريئيّةٍ، والتي يعني تشخيصها الطبّي في أغلب الأحيان خطورةً عاليةً. تم تحديد موعد العمليّة، بعد قيامي بالمراجعة الطبّيّة مرّتين، قبل عيد الفصح من عام 1980، وقد قمتُ بتأجيل العمليّة مرّتين، إذ كنتُ كمن تملّكه توجّسٌ مخيفٌ (وكنتُ أقول لم يريد

الاستماع أنّ «التخدير سوف يقلب كلّ الأمور». بيد أنّني أذعنت أمام إصرار الأطباء. تمت العمليّة بعد رحلتنا السعيدة إلى اليونان، في منزل حرّاس السلام (la Maison des gardiens de la paix) في جادّة سانت مارسيل (Saint-Marcel)، وقد كنت أعمل بنشاطٍ محموم حتى اللحظة الأخيرة من على سريري الصغير في المشفى منكبًّا على ملفّات الـ CEMPIT التي كنت قد أحضرتها معي.

جرت العمليّة على نحوٍ جيّدٍ من الناحيّة التقنيّة. كنتُ قد أُعطيتُ عقاقير تخديرٍ عميقٍ، فأفقتُ منه وأنا مأخوذٌ بقلقٍ كاسحٍ (في حين أنّني كنتُ قد خضعتُ في سنواتٍ أبكر، وبسبب الفتاق الإربيّ والتهاب الزّائدة الدّوديّة، إلى التخدير من دون حصول أيّة عواقب). لكنّ هذا التخدير، وهذا القلق الأوّل قد دفعاني شيئًا فشيئًا إلى «إحباطٍ» من نوعٍ جديدٍ، إذ لم يعد، وللمرّة الأولى، إحباطًا ذا مظهرٍ عُصابيّ، «مريبٍ»، ولكن غير واضحٍ، وإنّما كان اكتئابًا حادًّا، من النمط التقليديّ تمامًا، وقد جعلت خطورته محلّلي النفسيّ يحذّرني بصورةٍ جديّةٍ: «إنّها المرّة الأولى على حدّ معرفتي، لقد قال لي ذلك فيما بعد، التي تُظهر فيها سائر أعراض الاكتئاب التقليديّ الحادّ، وهو فوق ذلك، اكتئابٌ خطير ومقلقٌ».

لقد واصلتُ حياتي بقدر ما أستطيع، محاولًا القتال بكلّ قواي كما جرت العادة دائمًا، و«مقاومًا» الوقت الذي لا ينتهي، وكان ذلك بدعمٍ من هيلين، ومن محلّلي النفسيّ وإلخ...في مواجهة قلقي، ورغبتي في الالتجاء إلى إحدى العيادات. لكنّني كنتُ أحسّ بوضوحٍ هذه المرّة، أن الأمر لم يعد كما كان في الماضي.

مع ذلك، كانت حالتي تزداد سوءًا بشكلٍ متواصلٍ. وفي الأول من شهر حزيران/ يونيو من عام 1980، دخلت المستوصف من جديد، بيد أنّني هذه المرّة دخلت مستوصف بارك مونتسوري (Parc-Montsouris) في شارع دافييل (Daviel)، وليس مستوصف فيزيني (Vésinet) كما كان الأمر في السابق. كان مديرا هذا المستوصف الأخير، السيّد والسيّدة لولييه (M. et Mme Leullier) قد

أحيلا على التقاعد، وقد كانا كلاهما من المعالجين النفسيين، كما كانا من الأصدقاء القدامى لمحلّلي النفسي، الذي لم يكن كذلك على معرفةٍ بسلفهما. لكنّ ذلك لم يكن هو السبب الجوهريّ: لقد كان محلّلي النفسيّ يريد أن يجنّب هيلين تلك التنقّلات التي لا تنتهي في المترو (ساعة ونصف تقريبًا، وعلى الأقلّ ثلاث ساعات ذهابًا وإيابًا) بين المدرسة ومستوصف فيزيني.

يجب أن ندرك الحالة التي كانت هيلين تجد نفسها فيها. لقد تعيّن على هيلين، وعلى مدى سنواتٍ، أن تحمل على عاتقها عبء وهاجس حالات الإحباط التي أعيشها، وحالات الهوس الخفيف عندي، وليس حالات الإحباط فحسب، بل ما هو أشدّ وطأةً للغاية منها، وهي تلك الأشهر (أو الأسابيع) المديدة التي كنتُ أعيشها في قلقٍ متزايدٍ، مستغرقًا في الصراع، والاستدعاء الدّائم لهيلين قبل أن أعقد العزم على دخول المشفى. حينما كنتُ أتعالج في المشفى، كانت هيلين تعيش الوحدة، وكان هدفها الوحيد هو زيارتي كلّ يومٍ عمليًّا، ثم العودة إلى منزلها الفارغ، وحيدةً مع هاجسها. لكنّ الاختبار بالنسبة إليها، والذي أصبح اختبارًا لا يُحتمل على المدى الطويل، فقد كان الاتّصالات الهاتفيّة التي كانت تردها من أصدقائي العديدين، ومن معارفي الذين لا يُحصون، الذين لم يكونوا ينقطعون عن الاستفسار عنّي، وعن المطالبة بأخبارٍ مفصّلةٍ حول حالتي. كان على هيلين أن تردّد العبارات نفسها من دون كللٍ أو مللٍ، وقد كانت تتألّم بصفةٍ خاصّةٍ لأنّ شخصًا لم يكن يتقصّى أخبارها، ويسأل عن حالها، وعن بؤسها المعنويّ: لقد كانت هيلين، وفيما خلا استثناءات نادرةٍ جدًّا، غير موجودة بالنسبة إلى سائر هؤلاء الأصدقاء، أو أنّها لم تعد موجودةً. لم يكن موضوع الحديث في تلك الاتّصالات الهاتفيّة يتعلّق بأحدٍ سواي، ولم يكن الحديث يتطرّق إليها على الإطلاق. لستُ أدري من كان ليستطيع أن يطيق على المدى الطويل –ولقد كان هذا الأمر يجري على نحوٍ متقطّعٍ بالطبع، بيد أنّه كان يجري على المنوال نفسه دائمًا منذ قرابة الثلاثين عامًا!– هذا النظام. لقد كانت تختبر هذا الأمر، على أيّة حالٍ، كما لو أنّه عذابٌ، وفوق ذلك كما لو أنّه سوء

فهم وحيفٌ لا يُطاق يُمارس نحوها. وبما أنّها كانت تعلم بأنّني عرضةٌ للانتكاس، لذلك فقد كانت تعيش فترات الصحو كأنّها فتراتُ ترقّبٍ مستمرٌّ لمعاودة السقوط، وبصفةٍ خاصّةٍ حينما كنتُ أجد نفسي في حالةٍ من الهوس الخفيف والتي أكون فيها حقيقةً شخصًا لا يُطاق بالنسبة إليها، سواء أكان ذلك من خلال تصرّفاتي الاستفزازيّة أم من خلال عدوانيّتي المتواصلة التي كانت جارحةً لها، وشبه مميتةٍ. لقد كانت تختبر ذلك بمفردها، ولم يكن هنالك -من باب الحماقة أو اللامبالاة أو أيّ سببٍ آخر- أحدٌ من أصدقائي، في الظّاهر أو في الواقع، يقدّر ذلك ما خلا استثناءاتٍ قليلةٍ. على الأقلّ، فإنّ رينيه دياتكين كان قد فكّر بتجنيبها عذابًا يوميًّا طويلًا مدتّه ثلاث ساعاتٍ كانت هيلين لتقضيها في المترو.

لقد مكثتُ في مستوصف مونتسوري منذ شهر حزيران/ يونيو وحتى شهر أيلول/ سبتمبر وسط ظروفٍ مرهقةٍ للغاية: طاقمٌ هزيلٌ من الموظّفين، وطبيبٌ مجهولٌ وغير متاحٍ تقريبًا، كان يبدو لي شخصًا غريبًا حينما كنتُ أراه، وحديقةٌ قذرةٌ مؤلّفةٌ من ستّة أمتارٍ مربّعةٍ أسفل المبنى الذي لم يكن يطلّ على شيءٍ، باختصارٍ لقد كان ذلك تغيّرًا قاسيًا وصادمًا بالمقارنة مع «الرّفاهية»، والرّاحة في مستوصف فيزيني حيث كانت لديّ حديقةٌ كبيرةٌ، وكانت لديّ -إذا صحّ التعبير- «عاداتي»، وممرّضاتي، وأطبّائي الذين كانوا يكنّون الحبّ لي في الظاهر، أو الذين كنتُ أعرف كيف أستميلهم منذ أن عرفتهم.

بشكلٍ سريعٍ تمّ وصف دواء نياميد (وهو دواءٌ من مثبّطات الاكتئاب الحادّ) لي. لقد كان هذا الدّواء -الذي كان يُوصف نادرًا بسبب الخطورة التي أظهرها (لاسيّما تأثير الجبن (cheese effect) الشهير، على وجه التحديد)، وبسبب التأثيرات الجانبيّة الملحوظة- في السابق ناجحًا في حالتي على الدّوام بصورةٍ عجيبةٍ، وبشكلٍ استثنائيٍّ تمامًا، وسريعٍ جدًّا ومن دون أيّ تأثيرٍ جانبيٍّ. والحال، أنّ نتائج الدّواء في هذه المرّة كانت مختلفةً إلى حدٍّ بعيدٍ، وهو الأمر الذي شكّل مفاجأةً كلّيّةً لأطبّائي. لم يقتصر الأمر على أنّني لم أشعر بالنتيجة السريعة المتوقّعة، بل لقد سقطتُ وبشكلٍ

سريعٍ في حالةٍ حرجةٍ من الاختلاط العقليّ، ومن الهذيان الحُلميّ، وهذيان الاضطهاد «الانتحاريّ».

لن أدخل هنا في التفاصيل التقنيّة التي يستطيع أصحاب الفضول الحصول عليها من أولّ وثيقةٍ ظهرت في الطبّ النفسيّ أو في علوم الصيدلة. إنّ أدوية مضادّات الاكتئاب قد تخلق، فعليًّا، آثارًا من هذا القبيل، وهي الآثار التي تُلاحظُ غالبًا في حالات الاكتئاب الحادّ. وبالنظر إلى أنّني في هذه المرّة لم أكن «أؤلّف» اكتئابًا لا نمطيًّا، أو مُريبًا، ولا اكتئابًا «مزيّفًا» يُسمّى «اكتئابًا عُصابيًّا»، فإنّ الاستشفاء لم يحقّق لي التسكين المباشر الذي كنتُ أعرفه دائمًا فيما مضى، *وفي سائر الحالات*. لقد كان سائر الأطباء الذين تمكّنوا من متابعة حالتي في مستوصف متونتسوري متّفقين على هذا الأمر، ليس فحسب الأطباء العاملون، بل الدكتور آنجيليرك (Dr Angelergues) الذي كنتُ أعرفه، والذي كان يأتي لرؤيتي غالبًا، ومحلّلي النفسي الذي كان يعرف، قبل الجميع، ومنذ تاريخٍ طويلٍ، ردّات فعلي المُعتادة.

بعد موت هيلين، أسرّ لي محلّلي النفسيّ بفرضيّةٍ لم يكن هو من قام بوضعها، لكنّه كان قد أخذها عن لسان الدكتور برتران فايل (Dr Bertrand Weil) الذي كنتُ قد استشرته في السابق حول متاعب عضويّةٍ في الظاهر، وقد كان هذا الأخير ذي ثقافة طبيّة وبيولوجيّةٍ واسعةٍ جدًّا. كان هذا الطبيب يعتقد بأنّ العمليّة التي أجريت لي، وقبل كلّ شيءٍ التخدير الثقيل الذي خضعتُ له، استطاع أن يحرّض لديّ «صدمةً بيولوجيّةً»، والتي سوف يشرح لي فيما بعد آليّة عملها بالتفصيل (وقد كان يرتكز في ذلك إلى عملية استقلاب الكبد للعقاقير)، وهو تفصيلٌ سوف أعفي القارئ منه: كان الأمر يتعلّق باضطراباتٍ خطيرةٍ في «توازناتي البيولوجيّة» -التي كانت صدمة العمليّة، ولا سيّما صدمة التخدير قد حرّضتها-التي تسبّبت في إحداث آثارٍ عكسيّةٍ ومتناقضةٍ.

على أيّة حالٍ، لقد دخلتُ في حالةٍ من شبه الوعي، وفي بعض الأحيان في حالةٍ

من انعدام الوعي الكلّي ومن الاختلاط الذهنيّ. لم أعد أسيطر على حركاتي الجسديّة، وكنتُ أسقط بشكلٍ متواصلٍ، وأتقيّأ على الدّوام، ولم أعد أرى بشكلٍ واضحٍ، وكنتُ أتبوّل بصورةٍ فوضويّةٍ؛ كما أنّني لم أعد أتحكّم بلغتي فكنت أخلط كلمةً بأخرى، ولم أعد أتحكّم بتصوّراتي التي أصبحتْ غير قادرٍ على متابعتها أو جعلها متسلسلةً، ناهيك عن عدم تحكّمي بالكتابة حيث كنتُ أقدّم صيغًا خطابيّةً مهلوسةً. إضافةً إلى ذلك، كنتُ، وعلى نحوٍ متواصلٍ، أعيشُ في الليل كوابيس مروّعةً، وكانت هذه الكوابيس تستطيل لفترةٍ طويلةٍ جدًّا فتستمرّ حتّى في حالة اليقظة، كما كنتُ «أعيش» أحلام يقظتي، بمعنى أنّني كنتُ أتصرّف تبعًا لمواضيع هذه الأحلام ومنطقها، خالطًا بين الواقع ووهم هذه الأحلام، لأجد نفسي في ضوء ذلك عاجزًا عن التمييز في حالة الصحو بين هلوساتي الحُلميّة والواقع البسيط. في هذه الأوضاع، كنتُ أعرض بصورةٍ مستمرّةٍ على من كان يقوم بزيارتي مواضيع تتعلّق باضطهادٍ انتحاريّ. كنتُ أعتقد بشدّةٍ أن هنالك بعض الأشخاص الذين كانوا يريدون موتي، وأنّهم كانوا يتأهبون كي يقتلونني: رجلٌ ملتحٍ بالتحديد، لا بدّ أنّني كنتُ قد رأيته في مكانٍ ما في أثناء العمل، وأكثر من ذلك، محكمةٌ تعقد جلستها في غرفةٍ جانبيّةٍ كي تقضي عليّ بعقوبة الإعدام، وأكثر من ذلك، رجالٌ مسلّحون ببنادق مزوّدةٍ بالمناظير يوشكون أن يقضوا عليّ باستهدافهم لي من خلال نوافذ بعض القاطنين في الجهة المقابلة؛ وأخيرًا جماعة الألوية الحمر (les Brigades rouges) التي حكمت عليّ بالإعدام، توشك أن تقتحم غرفتي ليلًا أو نهارًا. لم أكن أحتفظ في ذاكرتي بسائر هذه التفاصيل المهلوسة، فقد كانت محتجبةً بالنسبة إليّ بفعل فقدان ذاكرةٍ ثقيلٍ، ما خلا بعض الومضات، بيد أنّني كنت أستعيدها من خلال أصدقائي العديدين الذين كانوا يقومون بزيارتي، ومن خلال الأطباء القائمين على رعايتي، ومن خلال المقارنة الدقيقة والمتطابقة لملاحظاتهم وشهاداتهم التي كنتُ أقوم بتجميعها لاحقًا.

لقد ترافق كلّ هذا النظام «المرضيّ» بهذيانٍ انتحاريٍّ. فأنا، المحكوم عليه

بالإعدام والمهدّد بتنفيذه، لم يعد لديّ سوى وسيلةٌ واحدةٌ: استباق هذا الموت المفروض، من خلال قتل نفسي على سبيل الاحتياط. لقد فكّرتُ في جميع هذه الأمور القاتلة، وأكثر من ذلك، لم أكن أرغب في تدمير نفسي جسديًا فحسب، بل وأن أمحو أيضًا كلّ أثرٍ لعبوري فوق وجه البسيطة: وتحديدًا أن أدمّر في نهاية المطاف كتبي، وسائر ملاحظاتي، وأن أحرق المدرسة العليا كذلك، وأن أشطب «قدر الإمكان» هيلين نفسها في هذه الأثناء. على أيّة حال، لقد أسرّيتُ بهذا الأمر ذات مرّةٍ إلى أحد الأصدقاء، فأعاد ذكره عليّ بهذه الكلمات (وأنا بخصوص هذه المسألة الأخيرة، قد ضممتُ هذه الشهادة العجيبة).

لقد كنتُ على درايةٍ بأنّ الأطبّاء كانوا قلقين للغاية بخصوص مصيري. لم يكن هؤلاء يخشون أن أقتل نفسي –فالظّاهر أنّني كنتُ في مأمنٍ من ذلك، بحسبان ما اتّخذه المستوصف من تدابير رقابةٍ وحمايةٍ، على الرّغم من عدم معرفتنا بحالةٍ مماثلةٍ– بل إنّهم كانوا يخشون على وجه التحديد أن تخلق هذه المشاكل الخطيرة لديّ حالةً لا رجعة *فيها*، فتجعلني قيد الاستشفاء مدى الحياة.

تقرّر بعد مدّة طويلةٍ من اتّباع هذا النظام، الاستغناء عن أدوية الاكتئاب (أدوية الإيماو: وهي الأدوية المثبّطة للمونو أوكسيداز) بحسبانها مسؤولةً عن هذه النتائج الثانويّة المقلقة، وبعد فترة ترقّبٍ نظاميّةٍ (خمسة عشر يومًا) تقرر لي علاج الأنافراني واحد (Anafrany1) عن طريق الوريد. لقد تبيّن بعد مدّةٍ معيّنةٍ نجاعة هذا الدواء الجديد في حالتي، وقد تقرّر أنّني أصبحتُ قادرًا على الخروج من المستوصف. في ضوء ذلك، غادرتُ المستوصف إلى المدرسة، بيد أنّ أصدقائي جميعًا كانوا متّفقين على إخباري بأنّني غادرتُ المستوصف وأنا في حالةٍ سيّئةٍ جدًّا.

لقد عثرتُ على هيلين، وكما هي العادة، رحلنا باتّجاه الجنوب بحثًا عن السلام، والنسيم العليل والبحر. لكنّنا لم نقضِ هنالك سوى فترة الليل، حيث كنّا نعود على مدى عشرة أيّام: وكانت حالتي تزدادُ سوءًا.

كانت تلك هي المرحلة التي عرفنا فيها، أنا وهيلين، أصعب الامتحانات في حياتنا. لقد بدأت مثل هذه الأمور في الرّبيع الماضي، لكنّها كانت متقطّعة وتتخلّلها استراحاتٌ حقيقيّةٌ، ما جعل الأمل قائمًا. لكنّ الأمور، في هذه المرّة، اتّخذت مجالًا قاسيًا واستمرّت كذلك حتّى النّهاية من دون هوادةٍ. لستُ أدري ما نوع نظام الحياة الذي فرضته على هيلين (لكنّني أعلم أنّني قد استطعتُ أن أكون على أرض الواقع قادرًا على ارتكاب الشرّ)، لكنّها أعلنت بكلّ تصميم -وهو الأمر الذي أرعبني- أنّها لم تعد تريد العيش معي، وأنّني «وحشٌ» في نظرها، وأنّها ترغب في هجري إلى الأبد. وقد شرعتْ بشكلٍ جليٍّ في البحث عن منزلٍ آخر، لكنّها لم تعثر عليه في الحال. ولقد اتّخذت حينها بعض الترتيبات العمليّة التي كانت في نظري ترتيباتٍ غير محتملةٍ: لقد هجرتني على مرأىً ومسمعٍ منّي، داخل شقّتنا الخاصّة. كانت تستيقظ قبلي، ثمّ تغيب طيلة النهار. وإذا حدث أن بقيتُ في المنزل، فإنّها كانت ترفضُ أن تتكلّم معي، وأن يتقاطع وجودنا [في المكان نفسه] أيضًا: كانت ترفض ذلك سواء أكان في الغرفة، أم في المطبخ، وكانت تصفق الأبواب محذّرةً إياي من الدخول. لقد كان جحيم شخصين وراء الأبواب المقفلة لعزلةٍ معدّةٍ بشكلٍ مقصودٍ، قد بدأ في التهليس.

لقد كان القلق يمزّقني: والأمر مفهومٌ، إذ لطالما شعرتُ بقلقٍ حادٍّ من أن أكون مهجورًا، لاسيّما من قبلها هي. لكنّ هذا الهجران الجاري أمام عينيّ، وفي عقر داري كان يبدو لي أنّه أكثر الأشياء التي لا يمكن احتمالها طُرًّا.

كنتُ أعلم في الخفاء أنّها لن تستطيع في الحقيقة أن تهجرني، لكنّني حاولتُ عبثًا أن أسكّن قلقي من خلال هذه الفكرة التي لم أكن مع ذلك متأكّدًا منها تمامًا. في ذلك الوقت شرعت هيلين في العمل على موضوعٍ آخر، كان مضمرًا لديها منذ عدّة أشهر، لكنّه هذه المرّة كان يأخذ شكلًا مخيفًا. لقد أخبرتني بأنّه لم يعد لديها من حلٍّ آخر سوى أن تقتل نفسها، وذلك بحسبان أنّني كنتُ «الوحش»، وبحسبان المعاناة اللاإنسانيّة التي جعلتها تكابدها. كانت تقوم بشكلٍ واضحٍ بتجميع الأدوية

الضروريّة من أجل انتحارها وتتباهى بذلك، لكنّها كانت تتكلّم أيضًا عن وسائل أخرى، لا يمكن التحكّم بها: ألم يكن صديقنا نيكوس بولنتزاس (Nikos Poulantzas) قد انتحر مؤخّرًا، في نوبةٍ حادّةٍ من الشعور بالاضطهاد، بإلقاء نفسه من أعلى الطبقة الثانية والعشرين من برج مونتبارناس؟ وألم ينتحر آخر بإلقاء نفسه تحت ثقلٍ كبيرٍ، وثالثٌ تحت القطار؟ لقد كانت تستعرض هذه الوسائل أمامي كما لو أنّها كانت تترك لي أن أختار واحدةً من بينها. كذلك فإنّها كانت تؤكّد لي بقناعةٍ قويّةٍ، وبصفةٍ خاصّة من خلال نبرة صوتها التي كنتُ أعرفها جيّدًا كي تجعلني أشكّ حقًّا في أنّ الأمر لا يتعلّق بأحاديث تُلقى جزافًا، وإنّما بقرارٍ نهائيٍّ. لقد كانت بكلّ بساطةٍ تختار وسيلة انتحارها، وساعة التنفيذ ولكن بالطبع من دون أن تنبئني بذلك.

وهنا أيضًا، كنت أعتقدُ في الخفاء أنّها لن تكون قادرةً على قتل نفسها. كنتُ أقول في سرّي بأنّني أمتلك كثيرًا من الأمثلة وراءنا، وبأنّها في الأساس متعلّقةٌ بي كثيرًا، وأنّها تحبّني حبّاً تملّك منها الشغاف إلى الدرجة التي لن تكون قادرةً معها على المضيّ قدمًا في التنفيذ. ولكنّني هنا أيضًا لم أكن على ثقةٍ مطلقةٍ بذلك. لكنّ القشّة التي قصمت ظهر البعير حدثت ذات يومٍ حينما طلبت منّي بكلّ بساطةٍ أن أقتلها بنفسي، لقد جعلتني هذه الكلمة -غير المعقولة، وغير المقبولة التي بدرت منها في أثناء فزعها- أرتجف كلّيًا ولوقتٍ طويلٍ. وهي ما تزال تصيبني بالرّجفة. ولكن ألم يكن هذا دلالةً بطريقةٍ ما بالنسبة إلي إلى أنّها ليست بقادرةٍ فعلًا على هجري، وليس ذلك فحسب، بل وعلى أن تقتل نفسها بيدها؟ في المجمل، كنتُ أمتلك سبيلًا آخر، ولكن لا شيء سواه: أن أترك الوقت يمضي، مثلما كان يجري في أعقاب كثيرٍ من الأزمات الحادّة في الماضي، حتى نصل إلى أن تهدأ فورتها، وتعود إلى رشدها، وتقبل ما كانت ترغب فيه في أعمق أعماقها: عدم الهجر، وعدم قتل نفسها، وكذلك استئناف حياتها معي، ومواصلة حبّها لي كما كانت دائمًا.

كلّ هذا الوقت الجهنّمي كان يمضي، كما كنت قد كتبتُ للتوّ، وراء أبوابٍ مقفلةٍ.

فما خلا محلّلي النفسيّ الذي كنّا أنا وهيلين نراه، فإنّنا لم نكن نرى أحدًا من الناحية الفعليّة (لم تكن الحياة قد استُؤنفت فعليًّا داخل المدرسة العليا). لقد كنّا عالقين نحن الاثنين وراء أسوار جحيمنا. لم نكن نردّ على الهاتف، ولا على جرس المنزل. وكما يُشاع، فإنّني كنتُ قد علّقتُ على الجدار الخارجيّ لمكتبي نوعًا من الملصق الواضح للعيان جدًّا، حيث كتبتُ بخطّ اليد عبارة: «غائبون في الوقت الحاضر، فلا تلحّوا». لقد أخبرني بعض الأصدقاء -بعد مضيّ وقتٍ طويل- ممّن كانوا قد حاولوا التكلّم معنا، وقد تمكّنوا من قراءة هذه العبارة المعلقّة على جدار مكتبي أنّهم كانوا يلومون أنفسهم بسبب أنّهم لم يحاولوا أبدًا «تحطيم الباب». ولكن، وعلى افتراض أنّهم حاولوا، ماذا كان أمكنهم أن يفعلوا.سوى تحطيمه بحسبان أنّني لم أعد أفتح الباب؟

لقد كان على الوقت أن يمضي من خلال هذا التقوقع الرّهيب، والعزلة الميدانيّة، من خلال هذا «الطريق المسدود» -كما دعاه بعض الأصدقاء لاحقًا- أو «الجحيم المخصّص لاثنين» أو أيضًا، إذا ما أردنا الدقّة في الحساب، «جحيم الثلاثة»؛ وذلك بأن نضيف إلينا شخصيّة محلّلي النفسيّ الذي كان الأصدقاء يعدّونه -من وجهة النظر التي ذكرتها- مسؤولًا عن عدم تدخّله.

مع ذلك، فإنّ محلّلي النفسيّ كان قد تدخّل. كان عليّ أن أراه للمرّة الأخيرة في الخامس عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، وقد قال لي بأنّ هذا الوضع لا يمكن أن يستمرّ، وأنّ من الواجب عليّ أن أقبل دخولي المستشفى. لقد كان قد استعلم عن المدير الجديد لمستشفى فيزيني، الذي لم يكن يعرفه بصورةٍ شخصيّةٍ، وكانت المعلومات التي حصل عليها رائعةً. وكان يقدّرُ، ملتفتًا عن مساوئ فيزيني بالنسبة إلى هيلين، أنّني سأكون محلّ استقبالٍ جيّدٍ بالفعل فيه (كنتُ أعرف فيزيني وأتذكره بشكلٍ جيّدٍ، وكنتُ أجد راحتي فيه وكانت سائر العلاجات بواسطة أدوية الإيهاو تبدي نجاعتها سريعًا وبصورةٍ ملحوظةٍ)، ومحلّ عنايةٍ كبيرةٍ (لم يكن لديه ذكرى طيبةً عن فترة إقامتي في مستشفى مونتسوري، وكان يعدّ أن الظروف فيه لم تكن

تناسبني). كان قد اتّصل بمستشفى فيزيني وأُخبر عن إمكانيّة استقبالي في غضون يومين أو ثلاثة. لم يكن عليّ أن أرفض، وعلى أيّة حالٍ فإنّني لم أعد أتذكّر جوابي بدقّةٍ.

لقد مرّ اليومان أو الأيام الثلاثة من دون أن يحدث أيّ شيءٍ. ولقد علمتُ لاحقًا بأنّ هيلين كانت قد قابلت محلّلي النفسيّ في يومي الخميس الثالث عشر، والجمعة الرابع عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، وتوسّلت إليه أن يعطيها مهلةً من ثلاثة أيّام قبل أي دخولٍ للمستشفى. وبلا ريبٍ فإنّ محلّلي قد أذعن أمام استجدائها، وكان من المفهوم أنّني سوف أدخل إلى فيزيني في يوم الاثنين الواقع في اليوم السابع عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر. سوف يكون عليّ في وقتٍ متأخرٍ جدًّا أن أعثر في صندوق بريدي الموجود في المدرسة على رسالةٍ عاجلةٍ من دياتكين يطلب فيها من هيلين جوابًا تليفونيًّا «للضرورة القصوى». لقد وصلت الرّسالة إلى المدرسة في اليوم السابع عشر، ولستُ أدري السبب في ذلك (هل هو تأخّرٌ في البريد؟ أم أنّ حارس البوّابة لم يستطع العثور عليّ لأنّني لم أكن أرد لا على جرس الهاتف ولا على قرع الباب؟): على أيّة حالٍ، كانت المأساة قد وقعت. أتذكّر بأنّ محلّلي النفسيّ لم يكن في استطاعته لا أن يكلّمني، ولا أن يكلّم هيلين هاتفيًّا: فنحن لم نعد نجيب.

في يوم الأحد الواقع في السادس عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر، وعند الساعة التاسعة صباحًا، أفقتُ من ليلٍ كتيمٍ لا يمكن اختراقه -ليلٍ لم أستطع اختراقه أبدًا منذ ذلك الحين- لأجد نفسي عند أسفل السرير، في ثياب النوم، وهيلين ممدّدةٌ أمامي، فيما كنتُ أتابع تدليك عنقها، مع شعورٍ حادٍّ بأنّ ساعداي يؤلمانني كثيرًا: من الواضح أنّه بسببٍ من هذا التدليك.

ثمّ أدركتُ، ولا أعرف كيف، ما خلا من جمود عينيها ومن طرف لسانها المسكين [المتدلّي] بين أسنانها وشفتيها، بأنّها كانت ميْتةً. هرعتُ خارجًا من شقّتنا قاصدًا المستوصف حيث كنتُ أعلم أن الدكتور إتيان موجودٌ هنالك، وكنتُ أصرخ. لقد

وقع القضاء المقدور.

الفصل الواحد والعشرون

بعد أن قام الدكتور إتيان بإعطائي حقنةً، وبعد إجرائه بضع اتّصالاتٍ هاتفيّةٍ، أخذني بأقصى سرعةٍ في سيارته إلى أن بلغنا سانت آن، وهنالك أدخلتُ المستشفى بصفةٍ عاجلةٍ. في ذلك الوقت، دخلتُ في ليلٍ جديدٍ، وما سوف أقوم بسرده، لم أفهمه إلّا في وقتٍ متأخرٍ كثيرًا عن طريقه هو، وعن طريق محلّلي النفسي، وأصدقائي.

إنّ «القاعدة» تقضي بأنّ المريض المصاب «بمشاكل نفسيّةٍ» يُقاد أوّلًا إلى أقسام الشرطة (الملحقة بسانت آن) من أجل إجراء التحقيقات المُعتادة. وهناك يُترك الظّنين بصورةٍ عامّةٍ في غرفة احتجازٍ مزوّدةٍ بفرشةٍ واحدةٍ على أرض الغرفة لمدّة أربع وعشرين ساعةً، وهو عارٍ تمامًا، قبل إجراء أوّل استجوابٍ له، وقبل استشارة الطبيب النفسيّ العامل لدى الشرطة، والذي هو من يقرّر الاستشفاء في سانت آن القريب جدًّا. لكنّ هذا الاجراء، المتّبع قانونًا، يخضع لاستثناءاتٍ في حال العجلة الزّائدة والخطورة العالية. وقد علمتُ في وقتٍ متأخّرٍ جدًّا بأنّ وزير العدل آلان بيرفيت (Alain Peyrefitte) -وهو من طلّاب المدرسة العليا القدامى- قد استشاط غضبًا حينما علم بأنّني قد حُوّلتُ مباشرةً إلى سانت آن من دون المرور بأقسام الشرطة، فاتّصل هاتفيًّا بمدير المدرسة جان بوسكيه (Jean Bousquet)، ليوبّخه كأنه رجلٌ نكرةٌ. ولقد أجاب بوسكيه، البريء تمامًا من كلّ هذه القصّة، بأنّني كنتُ تحت تصرّفه، وبأنّني كنتُ مريضًا جدًّا، وبأنّه يتبنّى بصورةٍ كلّيّةٍ مبادرة الدكتور إتيان -الذي كان بيرفيت يشعر بالغضب نحوه أيضًا- بيد أنّ أحدًا لم يتدخّل في هذا الأمر.

لا ريب أنّ أصدقائي كانوا قد علموا من خلال أحد محرّري الـ«أ ف ب» (وكالة الأنباء الفرنسيّة A F P) بخبر موت هيلين، وقد أذاعوا الخبر فيما بينهم، ليصل سريعًا إلى محلّلي النفسيّ. كان الجميع في صدمةٍ، ولم يكن في إمكانهم أن يصدقّوا – ومحلّلي النفسيّ أوّلهم– أنّني قد قتلتُ هيلين إلى أن ظهرت نتائج تقرير الطبابة الشرعيّة (التي تخلص إلى وقوع الوفاة عن طريق «الخنق»)، بل كانوا يتصوّرون بأنّني اتُّهمتُ على نحوٍ وهميّ بموتٍ عرضيٍّ لم يكن لي يدٌ فيه.

لقد تصدّر الخبر، وهو «سبقٌ صحفيٌّ» جميلٌ، صفحات الجرائد الفرنسيّة والأجنبيّة، وقد أصبح على نحوٍ سريعٍ محلًّا لمئات الآلاف من «التحليلات» والتفسيرات التي يمكن تخيّلها.

كنتُ معروفًا جدًّا في ذلك الحين؛ خرّيج المدرسة العليا، وفيلسوفٌ، ماركسيٌّ، وشيوعيٌّ، ومتزوّجٌ من امرأةٍ غير معروفةٍ، لكنّها امرأةٌ رائعةٌ على ما يبدو. وبوجهٍ عامٍّ، كانت الصحافة الفرنسيّة (والعالمية) دقيقةً جدًّا، بيد أنّ بعض الصحفيّين قد روّحوا عن أنفسهم من دون أن يقصّروا في ذلك: وأنا لن أذكر أسماءهم، ولا إمضاءاتهم –المشهورة في بعض الأحيان– التي كانت تذيّل مقالاتٍ خبيثةً ومتوهّمةً في الوقت نفسه. لقد توسّع الكتّاب في خمسة مسائل، وسط ارتياحٍ ورضىً عن النفس واضحٍ: الرضا الذي يحقّقه انتقامٌ سياسيٌّ لمن جعلت هذه «الجريمة» أخيرًا الفرصة سانحةً أمامه من أجل تسوية حسابٍ قديمٍ، وبصورةٍ نهائيّةٍ، ليس معي بصفةٍ شخصيّةٍ وحسب، ولكن مع الماركسيّة، والشيوعيّة، ومع الفلسفة، ناهيك عن المدرسة العليا. لن أكون قاسيًا في ذكر هذه النصوص العجيبة، أو ذكر أسماء مؤلّفيها المشهورين في بعض الأحيان، عسى أن يطوي الصمتُ على الأقلّ هذيانهم، وتنفيس انفعالاتهم. ومن جانبٍ آخر، كي يتعرّفوا فيما يلي إلى أنفسهم، إن كان لديهم أدنى قدرٍ من النزاهة. وكي يتصالحوا مع أنفسهم قدر الإمكان. يمكننا قراءة الموضوعات التالية فيما ظهر بالفعل من مقالاتٍ داخل فرنسا وخارجها: 1- الماركسيّة= جريمة؛2-الشيوعيّة= جريمة؛ 3-الفلسفة= جنون؛ 4- فضيحة أنّ

مجنونًا -وهو مجنونٌ منذ وقتٍ طويلٍ- استطاع أن يعلّم في المدرسة العليا لمدّة تربو على الثلاثين عامًا أجيالًا من الفلاسفة ممّن نجدهم في سائر المدارس، فوق رؤوس «أطفالنا»؛ 5- فضيحة أنّ مجرمًا استطاع أن يستفيد من الحماية المفتوحة «للمؤسّسة»: تخيّلوا أيّ مصير كان قد عاناه جزائريٌّ بسيطٌ لو كان في مثل حالته، كما تجاسرت صحيفةٌ «وسطيّةٌ» على القول؟ لقد تملّص ألتوسير بفضل «الحماية القويّة» التي كان قد تمتّع بها: لقد تكاتفت مؤسّسة الجامعة والمفكّرين من شتّى المشارب بصورةٍ أوتوماتيكيّةٍ من أجل التعتيم على قضيّته، ومن أجل حماية واحدٍ منهم من قسوة «النظام»، بل ومن القانون ربّما. وباختصارٍ، لقد كنتُ محميًّا من قبل جمعيّة الصحفيّين للهيئة التعليميّة التي كنتُ عضوًا فيها. وحينما نعلم أنّ التعليقات كانت مستمرّة على الدّوام -إذ اقتضى الأمر وقتًا كي تصدر نتائج التشريح، وقرار منع المحاكمة- فلنا أن نتصوّر جوّ «المطارة»، الذي كان جوًّا رهيبًا أكثر من كونه إذاعةً لما يشبه الإشاعة العامّة التي كانت ترافق طعنات بعض الصحافة، والذي توجّب أن يعيشه أصدقائي الحائرون. وأقول أصدقائي، لأنّه لم تكن لديّ عائلةٌ. كان والدي قد توفّي في عام 1975، وكانت والدتي هرمةً جدًّا مع أنّها كانت واعيةً كثيرًا وغير مباليةٍ تمامًا. لقد كان على بوسكيه، الرجل الفاضل جدًّا، أن يتدخّل بصفةٍ شخصيّةٍ في مجال الصحافة من أجل تصحيح المعلومات الخاطئة تمامًا، والتشهيريّة. لقد كان شجاعًا في ذلك، وقد أخذ على عاتقه القيام بمخاطرةٍ علنيّةٍ. لقد أكّد أنّني كنتُ على الدّوام منجزًا للعمل، وللتعليم بطريقةٍ لا تشوبها شائبةٌ ونزيهةٍ كلّيًا، وأنّني كنتُ لديه في المدرسة العليا متعاونًا مثاليًّا، وكان عارفًا على نحوٍ أفضل من أيّ تلميذٍ من تلامذتي، وأنّ للمريض الحقّ في أن يدافع عنه مديره. لقد أثبت عالم الآثار اللطيف هذا، الذي لم يكن قد عاش ولن يعيش إلا من أجل أعمال التنقيب في معبد ديلفي (Delphes)، أنّه رجل شجاعةٍ، وفعلٍ، وسخاء. بالطبع، لم يتّخذ موقف الدفاع عنّي تماسيح المدرسة العليا فحسب، ولكن سائر الفلاسفة أيضًا، الذين «تكاتفوا من حول ألتوسير»، على حدّ تعبير أحد الصحفيّين.

بالطبع، لم أكن أعلم شيئًا عن كلّ هذا في ذلك الوقت، وكذلك في أثناء فترةٍ طويلةٍ. لقد حرص الطبيب الذي اعتنى بي في سانت آن، بعنايةٍ وسخاء كان لهما بالغ الأثر في نفسي، على ألّا يكون في الإمكان أن يصلني أي خبرٍ جديدٍ: لقد كان يخشى، بحقٍّ، أن يصدمني ذلك، وأن تزداد حالتي سوءًا. لهذا السبب فقد «منع» ذلك الكمّ الهائل من الرّسائل التي كانت تأتيني، في أغلب الأحيان من قبل أناسٍ مجهولين، وقد كانت تمطرني بالشتائم (شيوعيّ مجرمٌ!)، وكانت في أغلب الأحيان محمّلةً بتلميحاتٍ قاسيّةٍ، بل وبتهديداتٍ جنسيّةٍ. ولهذا السبب أيضًا فقد اتّخذ القرار بحظر كلّ زيارةٍ عنّي، لعدم معرفته بمن قد يزورني، وما الخبر الذي قد يحمله إليّ. وقد كان يخشى فوق كلّ شيءٍ (وسوف يكون لهذه الخشية أن تلهم سائر الأطباء، ليس فقط أولئك الموجودين في سانت آن، بل وأولئك الموجودين في سوازي، وذلك بعد وقتٍ طويلٍ جدًّا، حيث سيتمّ تحويلي في شهر حزيران/ يونيو من عام 1981) أن يتمكّن أحد الصحافيّين من التسلّل إلى المستشفى، وأن يلتقط بعض الصور، ويلملم بعض المعلومات المبهمة، لينشر في الصحافة مقالةً مخزيةً. لم تكن هذه الخشية متخيّلةً. لقد علمتُ منذ مدّةٍ أنّ أحد الصحفيّين العاملين في أسبوعيّةٍ فرنسيّة شهيرةٍ نجح في الحصول (وربّما من خلال رشوة أحد الممرّضين الموجودين) على صورةٍ فوتوغرافيّة لي أظهر فيها جالسًا على السرير أمام أربعةٍ من رفاق الغرفة. لقد كانت المجلّة الأسبوعيّة تعتزم نشر هذه الوثيقة تحت عنوان: «الفيلسوف المجنون لوي ألتوسير يتابع في سانت آن، أمام السجناء الآخرين، إلقاء دروسه حول الماركسيّة اللينينيّة»، ولحسن الحظّ فإنّ المحامي، الذي كان أصدقائي قد استشاروه (للاستعلام عن أصول الإجراءات القانونيّة)، قد تدخّل -ولعلّه أُبلغ عن طريق أحد الصحفيّين ممّن وجد الطريقة غير لبقة- فلم تظهر الصورة المرفقة بذلك التعليق. بيد أنّ الخشية من صحفيّي الفضائح سوف تطارد سائر أطبّائي حتّى النهاية، وحتّى بعد انتهاء فترة استشفائي، ولم يكونوا في ذلك مخطئين: فلقد استمرّت التفاصيل المتخيّلة المتعلّقة بوجودي هنالك، والتي قلّما كانت تفاصيل

متسامحةً، في الظهور في الصحافة بعد انقضاء أمدٍ طويلٍ على استشفائي. وبما أنّني غير معنيٍّ بتصفية أيّ حسابٍ شخصيٍّ بعد انقضاء الأمر، إذ لا أجد في نفسي الهوى أو الرّغبة في ذلك، فسوف يُؤذن لي في عدم الحديث عن هذا الجانب من الأمور، التي سوف تكون، مع ذلك، سيّئة التأثير على شروط استشفائي وعلى شعوري بالقلق، ولا سيّما على أصدقائي وأطبّائي.

في ضوء ذلك، لم يكن لديّ الحقّ في الزيارات، التي قضت عليها سائر أنواع الحجج العالية الخطورة. في المقابل، فإنّني أتذكّر أنّني كنتُ أستطيع التحدّث، في كلّ يومٍ تقريبًا قرابة منتصف الظهيرة، إلى صديقةٍ مقرّبةٍ كثيرًا منّي ومن هيلين، كانت تعمل في سانت آن، وكانت تأتي لرؤيتي بحكم حرّيتها في التحرّك. كان العزاء في استطاعتي أخيرًا أن أتكلّم مع أحدٍ ما كان يعرفني ويعرف هيلين بشكلٍ جيّدٍ! لقد أخبرتني فيما بعد بأنّها كانت تجدني في البداية خائر القوى بشكلٍ كاملٍ تقريبًا، وغير قادرٍ على متابعة الحديث، وأنّني كنتُ مع ذلك سعيدًا لرؤيتها. في المقابل، فإنّني أحتفظ بذكرى واضحةٍ عن مقابلاتي مع الخبراء المعيّنين من أجل القيام بفحص حالتي. كان ثلاثة رجالٍ مسنّين، في ثيابٍ داكنة اللون، يأتون إليّ تباعًا فيأخذونني من غرفتي ويصحبونني إلى ما يُشبه المكتب الكائن تحت الجملون [سقف البناء المسنّم] (غرفةٌ ضئيلة الحجم، إذا ما رُفع الرأس من دون حذرٍ، فإنّه يصطدم بعوارض السقف الخشبيّة). كانوا يجلسون أمامي على نسقٍ واحدٍ، ويخرجون من حقائبهم رزمةً من الأوراق وقلم حبرٍ، ثمّ كانوا يطرحون عليّ الأسئلة، ويشرعون في الكتابة زمنًا طويلًا. لا أتذكّر شيئًا من أسئلتهم ولا من إجاباتي عليها. كان محلّلي النفسي يأتي لرؤيتي كثيرًا، في ذلك المكتب العلويّ نفسه على الدّوام. أتذكّر سؤالي المتكرّر بلا نهايةٍ: ولكن، كيف يمكن أنّني قتلتُ هيلين؟

لقد علمتُ فيما بعد أنّ قاضي التحقيق المكلّف بقضيّتي كان، بعد يومين من احتجازي، قد حضر إلى سانت آن من أجل استجوابي تبعًا للقوانين، بيد أنّ من الظاهر حينها أنّني كنتُ في حالةٍ سيّئةٍ إلى درجة أنّه لم يستطع أن يحصل منّي على أيّ

تصريح.

لا أعلم فيما إذا كنت قد أعطيتُ أدويةً مضادّةً للاكتئاب (سوى أدوية الإيماو) في سانت آن. أتذكّر فقط أنّني في كلّ مساءٍ وبعد أن أكون قد ابتلعتُ جرعاتٍ هائلةً من الكلورال[185] -هذا الدواء القديم والفعّال دائمًا، والذي كان يريحني كثيرًا- فإنّني كنتُ أنام جيّدًا جدًّا (على الرّغم من نوافذ المستشفى العالية التي كانت من دون ستائر) حتّى إنّني كنتُ أجد صعوبةً كبيرةً في الاستيقاظ كلّ صباحٍ. لكنّ هذا الاستغراق الطويل في النوم كان رائعًا بالنسبة إليّ: فيا حبّذا كلّ ما يمكن فعله للهرب من انتكاسةٍ قاسيةٍ نحو القلق. في المقابل، فإنّني أعلم بأنّني خضعتُ إلى دزّينةٍ من الصدمات الكهربائيّة: إذًا لا بدّ من أنّني كنتُ محبطًا إلى حدٍّ بعيدٍ. بالطبع، فإنّ هذه الصدمات كانت تجري تحت تأثير المخدّر والكورار[186] -كتلك الصدمات التي أجريت لي في فالي أو لو (Vallée-aux-Loups)، وفي فيزيني نفسها في مرّاتٍ أخرى- قبل اكتشاف أدوية الإيماو. لا أزال أتذكّر ذلك الطبيب الشابّ ذا الوجه الورديّ تمامًا، الذي كان يحضر «الآلة» الكهربائيّة إلى غرفتي، وكان يحدّثني، قبل البدء بالعمل، أحاديث طويلةً و-إذا جاز لي القول- أحاديث ممتعةً حول الصدمات الكهربائيّة وفوائدها. بهذه الطريقة كنتُ أدخل في «موتٍ صغيرٍ» من دون كثيرٍ من المخاوف، بيد أنّ رعبًا قديمًا مع ذلك كان يتملّكني.

بالفعل، لقد كانت الشروط المادّيّة القائمة في سانت آن شروطًا لا يمكن تصوّرها، لاسيّما قاعة الطعام الكبيرة حيث كان يتعيّن الحصول على صحنٍ وتوابعه (كان من المتعيّن أن تغسل أدوات الصحن بعد الانتهاء من تناول الطّعام في حوضِ ماءٍ مُنتنٍ، وليس الصحون، ولم أفهم السبب أبدًا)، وكنّا نجلس إلى المائدة إلى جانبِ آخرين لا نعرفهم، ليقوم العاملون بإحضار أطباقٍ من الطّعام الرديء بكمّياتٍ كبيرةٍ. مع ذلك فقد حصلتُ هنالك على صديقٍ حقيقيٍّ: مدرّسٌ قديمٌ أصبح غير

(185) الكلورال: سائل زيتيٌّ عديم اللون قويّ الرّائحة يستخدم مخدّرًا.
(186) الكورار: سمٌّ نباتيٌّ من فصيلة الجوز المقيّء. (المترجم)

قادرٍ على التعليم، مريضٌ «مزمنٍ» تبعًا للكلمة الرّهيبة التي توصّف حالته، والذي كان يحقُّ له أن يخرج من المستشفى، ليعود لي بالجرائد فيها بعد. كان دومينيك مريضًا، وكان مدرّسًا مثلي، وكان يمنحني فسحةً واسعةً للحديث ويتفهمّني: صديقٌ حقيقيٌّ كنتُ أستطيع أن أبوح له بكلّ شيءٍ وأنا على ثقةٍ من كتمانه السرّ. لن أنسى اهتمامه وكرمه. لقد حاولتُ العثور عليه لكنّني لم أصل إليه. فإذا ما كان له أن يقرأ هذا الكتاب الصغير ذات يومٍ فليته يترك لي دلالةً على ذلك. سوف أوّرطه لاحقًا بمبادرةٍ بريئةٍ جدًّا، بيد أنّها أثارت ضجّةً في المستشفى.

لقد علمتُ فيما بعد أنّ أصدقائي الأقربين كانوا طيلة هذه المدّة -ومن دون أن يعرفوا ما يمكنني المخاطرة به، وهم في انتظار نتائج الخبرة أوّلًا، ومن ثمّ قرار منع المحاكمة (الذي لم يصدر إلّا في بداية شهر شباط/ فبراير، كما أظنّ)- يعيشون أشدّ درجات الاضطراب، وأنّهم بذلوا كلّ إمكاناتهم من أجل مساعدتي، من الخارج، بقدر ما يستطيعون. كان ذلك هو الوقتُ الذي سيتعيّن فيه أن يتكشّف أكثر الأصدقاء وفاءً، وأكثرهم تفانيًا.

إنّه أمرٌ ملفتٌ أنّ يأخذ أكثر المقرّبين بصورةٍ عامّةٍ -ولكن ليس دائمًا- والبعض من بين المقرّبين في الابتعاد بشكلٍ ظاهرٍ. سوف يدفعني هذا الانقسام لاحقًا إلى التفكير. فالجنون، ومستشفى الطبّ النفسيّ، والاحتجاز، أمورٌ قد ترعب البعض من الرّجال أو النساء، هؤلاء الذين لا يطيقون أن يقاربوها أو يتحمّلوا فكرتها من دون أن يتملّكهم قلقٌ داخليٌّ عظيمٌ، قد يبلغ بهم درجة امتناعهم إمّا عن زيارة أحد أصدقائهم، وإمّا عن التدخّل في أيّ أمرٍ كان. بهذا الصدد، لا يسعني الامتناع عن استحضار بطولة عزيزنا نيكوس بولانتزاس، الذي كان لديه رعبٌ مروّعٌ من كلّ ما يتعلّق بمشفى الطبّ النفسيّ، وعلى الرّغم من ذلك، فقد كان يأتي لزيارتي بصورةٍ منتظمةٍ في أماكن احتجازي، فيلاقيني بحفاوةٍ، والمفروض -على الرّغم من ذلك- أنّ القلق كان يصيبه بالجنون، بيد أنّني لم أعلم بذلك سوى لاحقًا. وأتذكّر أيضًا أنّه كان الشخص الوحيد تقريبًا الذي قبلتُ رؤيته في السنة السابقة على موت هيلين.

لم أكن أعلم حينها أنّه كان قد حاول بالفعل أن يقتل نفسه ذات مرّةٍ، لقد قصّ الأمر عليّ كما لو أنّه حادثٌ بحتٌ حينما صدمته جانبًا شاحنةٌ كبيرةٌ كانت تسير ليلًا في شارعٍ عريضٍ...والحقيقة أنّه رمى بنفسه تحت عجلاتها، وقد كان على رفيقته أن تخبرني بالأمر. وحينما التقيت بنيكوس في شارعٍ قريبٍ من المدرسة العليا، وليس في شقّتنا، فقد علمتُ لاحقًا بأنّه كان يعاني بالفعل من أزمةٍ مروّعةٍ من الشعور بالاضطهاد الذي كان عليه أن يضع حدًّا له من خلال قيامه بانتحار مذهلٍ. والحال أنّه كان مرحًا أمامي، ولم يكن يخبرني شيئًا عن معاناته، ولا عن محاولته الأولى التي كان يتستّر عليها تحت بند الحادث العرضيّ، لقد حدّثني عن أعماله ومشاريعه البحثيّة، وسألني عن مشاريعي ثمّ غادرني في عناقٍ حارٍّ، كما لو أنّه سيراني في اليوم التالي. حينما علمتُ لاحقًا بما كان يدور في رأسه فإنّني لم أستطع إخفاء إعجابي به، ليس فقط ببادرة الصداقة الاستثنائيّة التي كانت لديه، بل وببطولته الحقيقيّة. والحال أنّ أحدًا لم يتصرّف على هذه الشاكلة. فلقد علمت لاحقًا، على سبيل المثال، أنّ إحدى الصديقات قد اختفت تمامًا بعد كلمةٍ جاءت على لسان أحد الصحفيّين الذي كان يتحدّث عن علاقاتي مع «منظرّةٍ»: وبما أنّها كانت مختصّةً في تاريخ الأفكار (لكنّها ليست منظّرةً على الإطلاق!)، فقد حضر إليها أصدقاؤها، الذين لم يكونوا يعرفون سوى اسمي، وقد تملّكهم الخوف (وليس هي) ليبيّنوا لها الخطر المحدق: استجواباتٌ لا تنتهي، ودعوى عامّة سوف تُدعى إلى الشهادة فيها حتمًا، إلخ. لقد أردوا أيضًا حمايتها. ولقد اختفت من الفرقة الصغيرة لأصدقائي الفاعلين. وقد اختفى آخرون من دون أن أعرف السبب. وأخيرًا فإنّ البعض -وأنا أفكّر في واحدٍ منهم، كان هو الأكثر قربًا ووفاءً خلال سنوات إقامتي في المدرسة العليا، وكان يأتي لرؤيتي كلّ يومين- قد اختفى بعد أن أدّى لي خدمات ماديّة كبيرةً، وكان ذلك بين ليلةٍ وضحاها، من دون سابق إنذارٍ، وبصورةٍ قاسيةٍ لتبقى رسائلي واتّصالاتي من دون ردٍّ حتّى الآن. وإذا ما قرأ الصديق هذا النصّ، فهو يعلم أنّ بابي مفتوحٌ أمامه، وإذا لم يحضر، فسوف أذهب ذات يومٍ وأقرع بابه. إنّني أحسب نفسي، بعد أن عشتُ

ما عشته، قادرًا على فهم الجميع، حتّى أولئك الذين اختفوا في لحظةٍ معيّنةٍ، ونؤوا بأنفسهم من دون أن يقدّموا أسبابهم. ولكن، وإضافةً إلى ذلك اللقاء المدهش مع نيكوس، فإنّ الزيارة التي كان لها بالغ الأثر في نفسي من هذا القبيل، هي الزيارة التي تلقّيتها ذات يومٍ في *سوازي*: أحد «تلامذتي القدامى» الذي أصبح صديقًا عزيزًا جدًّا، رجلٌ استثنائيٌّ جاء لرؤيتي. لقد طلب منّي ألّا أنطق حرفًا، بل الإصغاء. لقد تحدّث عن نفسه فقط على مدى ساعتين، تحدّث عن طفولته المروّعة، وعن والده الذي كان على علاقةٍ مع مشافي الطبّ النفسيّ، ثمّ انتهى إلى مخاطبتي قائلًا: لقد جئتُ لرؤيتك كي أشرح لك لماذا، وهو أمرٌ يفوق طاقتي، لا أستطيع الحضور لرؤيتك. بعد سنةٍ خلت -بتحليل الأمر، كان قد استعدّ بصورةٍ مفصّلةٍ لانتحار لم يخبر أحدًا أبدًا بمشروعه، ولا حتى المرأة الشابّة الشجاعة التي كان يعيش ويعمل معها- قام برمي نفسه داخل مياه نهر المارن (la Marne) بشرايين مفتوحة، ومثقّلًا بأوزانٍ كبيرةٍ من الحجارة.

إذا ما كنتُ أنقل هذه الوقائع فليس السبب في ذلك كونها قد وقعت لي بعد الصدمة العميقة والمزلزلة، ولكن لكونها قد جعلتني أرى على نحوٍ فريدٍ سلوك أصدقائي المقرّبين جدًّا حيال المأساة التي خبرتها: وليس فقط حيال هذه المأساة، بل حيال قلقهم أيضًا، وربّما حيال «الشائعة» العامّة المشوّهة، والمثابِرة التي جمعها من حولي عددٌ من رجال الإعلام، غير الواعين أو غير المبالين لمعاناة ومأساة الآخرين، هؤلاء الرجال الذين وجدوا ضالّتهم الشخصيّة (ولستُ راغبًا في معرفتها) في العناية بهذه الشائعات وملابساتها الشاذّة.

لا بدّ أيضًا من أن نأخذ هذه الظروف في الحسبان في سبيل فهم بعض المظاهر في سلوك أطبّائي.

أخيرًا، لقد وافق الطبيب -بعدما جرى لي من أمورٍ ومن تحسّن- ولكن بحذرٍ لا ينتهي، وبصورةٍ متدرّجةٍ، أن أتلقّى الزيارات في نهاية المطاف. اثنان في البداية، ثمّ

ثلاثةٌ، ومن ثمّ خمسة، ولكن ليس أكثر من ذلك، وأن يكون هؤلاء من الأصدقاء الذين يستطيع الطبيب أن يكون على يقينٍ من كونهم موثوقين بصورةٍ مطلقةٍ. على هذا النحو عدتُ إلى رؤية أصدقائي الأعزّاء، واثنتين من صديقاتي العزيزات، التي كانت لدى واحدةٍ منهما صعوباتٍ كبيرةً في تقبّل الأمر، والتي لم تتوصّل إلى ذلك إلّا ببذل الكثير من الجهود والتدخّلات. لم تكن هذه الزيارات مربحةً جدًا بالنسبة إليّ دائمًا: إذ كان الماضي، برفقة هؤلاء الأصدقاء والصديقات، ينتصب أمام عينيّ مجدّدًا، وكذلك العالم الخارجيّ مع الخوف الفظيع الذي كان يثيره في نفسي (كنتُ أحسب نفسي ضائعًا إلى الأبد، وكان العالم الخارجيّ -الذي لم أكن أفكّر في معاودة رؤيته ثانيةً- يبعث في نفسي قلقًا عظيمًا). لقد كان طبيبي محقًّا بطريقةٍ ما: إذ كان من الممكن لهذه الزيارات أن تعيد تفعيل مشاعر القلق لديّ، وأن تزيد من خطورتها. لكنّني لم أكن أطيق معاناة البقاء وحيدًا، فهذا وسواسٌ قديمٌ كان ليفتك بي لاحقًا، لقد توسّلتُ أن يُسمح بقدوم أصدقائي: وقد قبل طبيبي بالتسوية التي سوف أعيش بناءً عليها حتّى نهاية مدّة إقامتي في سانت آن.

بيد أنّني فكّرتُ ذات مرّةٍ أن أحتال على طبيبي حيلةً محرّمةً. لقد أعطيتُ صديقي دومينيك، الذي كان يستطيع الخروج من المستشفى، لائحة أرقامٍ هاتفيّةٍ، وكلّفتُه أن يتّصل بأصدقائي الآخرين من أجل أن يثبّت معهم مواعيد الأيّام والساعات التي أرغب في رؤيتهم بها. لقد أنجز دومينيك المهمّة، بيد أنّني لستُ أدري كيف علم الطبيب بالأمر، إذ رأيته منتصبًا في غرفتي وقد بدا عليه الغضب الشديد (وهي المرّة الأولى)، لقد قال لي أنّني لا أملك الحقّ في دعوة الأصدقاء على هذا النحو من غير إذنه، ثمّ طلب منّي أرقام هواتفهم ليتّصل بهم ويخبرهم بعدم المجيء. لقد كان هذا هو «البرود» الوحيد الذي عرفته في علاقتي معه، بيد أنّه سرعان ما انتهى على أيّة حال.

كان الوقتُ يمضي، وكنتُ أشعر بالتحسّن. مع ذلك، فقد انقلب كياني حينما علمتُ بأنّ إدارة المدرسة العليا، بضغطٍ من أصحاب الملك، وقبل أن أُسأل في شيءٍ

أو أستشار فيه، قد أخلت شقّتي الكبيرة الكائنة في شارع أولم بصورةٍ كلّيّةٍ، هذه الشقّة التي أمضيتُ فيها حياتي كلّها! (وبما أنّني كنت، من وجهة نظرٍ إداريّةٍ في «إجازةٍ مرضيّةٍ» بسيطةٍ، فقد كنتُ أستطيع إذًا أن أعود إليها متى تعافيتُ...)، لقد صعقني هذا الإجراء كما لو أنّه كان حكمًا عليّ بالاحتجاز مدى الحياة، بحسبان أنّ الخارج، وعلى الرّغم من حقوقي، قد قرّر في داخل شقّتي الخاصّة، أي داخل جسدي، أن يشطبني من الوجود بكلّ بساطةٍ، وبصورةٍ رسميّةٍ ومجرّدةٍ! إنّ قضيّة الشقّة المخلاة هذه سوف تؤرّقني زمنًا طويلًا، وعلى مدى سنواتٍ، أمّا الآن فإنّني قد ألفتُ الأمر فقط.

ثمّة خبرٌ آخر قد أزعجني أيضًا. فأنا إذ كنتُ محتجزًا تلقائيًّا بموجب قرارٍ من قائد الشرطة، ومجرّدًا من سائر حقوقي، التي على رجل القانون أن ينهض بها، لذلك فقد كنتُ تحت تصرّف قائد الشرطة -كما هو الأمر دائمًا في حالات الاستشفاء المديدة- الذي كان يستطيع أن ينقلني، وبالتالي أن يحرّكني إلى مؤسّسةٍ أخرى. فهذا هو النظام المتّبع كما يبدو. والحال، أن قضيّة تحويلي إلى كاركاسّون قد كانت مدار بحثٍ لمدّةٍ طويلةٍ! فتخيّلوا مدى حيرتي، وحيرة أصدقائي: إذ كيف سيؤثّر ذلك حينها على زياراتهم، وعلى وجودهم في القرب منّي؟ لقد كان ذلك الأمر كارثةً.

لكنّ الحقيقة الحقّ كانت أكثر هولًا بما لا يُقاس، وقد خبرتُ بها في الأشهر الأخيرة فقط، من على لسان طبيبي في *سوازي* أوّلًا، الذي قال لي أنّه أخذ الخبر عن طبيبي في سانت آن، وقد أكّد هذا الأخير الخبر من دون مواربةٍ. لقد كان الأطبّاء في سانت آن في ذلك الوقت محلًّا لضغوطٍ «شديدة الإلحاف» من قبل «أعلى مستويات السلطة الإداريّة» التي كانت تستهدف احتجازي «في المشفى الإلزاميّ» في المحافظة، وذلك إلى أن تُسوّى قضيّة التوسير بصورةٍ نهائيّةٍ. بيد أنّه من المعلوم أنّ الخارجين هم قلّةٌ قليلةٌ من هذه المشافي الإلزاميّة التي هي أسوأ بكثيرٍ من سجون التوقيف: عمومًا، كان البقاء فيها مدى الحياة أمرًا واردًا. لكنّ أطبّائي في سانت آن، ولله الحمد، قد كانت لديهم الشجاعة (لأنّها الكلمة المناسبة، فقد كان لهم الحقّ

الطبّي المقرّر لصالحهم، بيد أنّه كان يلزم أيضًا امتلاكهم مجرّد الشجاعة في استحضار هذا الحقّ) كي يدافعوا عنّي من خلال قولهم أنّني لستُ خطرًا ولا عنيفًا (وهذه هي الحجّة نفسها)، وقد استطعت بذلك، ومن دون أن أعرف بالأمر، أن أفلت من المصير الأكثر تطرّفًا، والذي لم أكن قادرًا على مقاومته ربّما، أو -وذلك في أقلّ الأحوال- على الإفلات منه، ولمدى الحياة ربّما. لا ريب أنّ أصدقائي قد كان لهم رأيًا تحذيريًّا بكلّ تأكيدٍ، وأنّ الأشياء لم تجرِ كما كانت ترغب لها «الجهة التي في أعلى المستويات». إضافةً إلى ذلك، كانت الانتخابات قد جرت في عام 1981، وكان وزير العدل -«رفيقي» في المدرسة العليا- قد أُبدل بروبير بادينتي (Robert Badinter). لقد تنفّس أصدقائي الصعداء، فقد أصبح من الممكن أن أُرسل إلى سوازي سور سين (Soisy-sur-Seine).

مع ذلك، فإنّ مشاكل أطبّائي لم تنته: لقد كنتُ راغبًا عن مغادرة سانت آن! وسوف أقارع بضراوةٍ أعذار محلّلي النفسيّ الذي لا أدري إلى متى سوف يلّح في طلباته من أجل تحقيق غايةٍ في نفس يعقوب. كنتُ في الحقيقة أجد نفسي في وضعٍ جيّدٍ في سانت آن، هنالك حيث استطعت أن أُحدث «خرقًا»، كما جرى في الكثير من المرّات سابقًا، وأن أحصل على صديقٍ لم أكن راغبًا في فقدانه، ولقد كنتُ أشعر بالحياة في تلك الدّارة الهائلة المغلقة، حيث كانت الوجوه تتغيّر باستمرار، وحيث اتّخذتُ لنفسي صديقًا مليئًا باللّطافة والتفهّم بين الممرّضين، واحدًا من جزر الأنتيل، كان صريحًا دائمًا وذا مزاج سعيد. لقد كنتُ أخشى التغيير كثيرًا، وكانت جعبتي طافحةً بالأعذار طبعًا: لقد كنتُ أعرف سوازي بكلّ تأكيدٍ، لكنّها كانت تبعد أربعين كيلومترًا عن باريس، إذًا كيف سيكون في إمكاني أن أستقبل الزيارات هنالك؟ وعلى الرّغم من كلام محلّلي النفسيّ -وهو كلامٌ كنتُ أعرفه بحكم التجربة- بأنّني سوف أتلقّى بعيدًا عن باريس ومخاوفها علاجًا أفضل، كما ستكون إقامتي أكثر راحةً، وأنّني سوف أحظى بمزيدٍ من الحريّة في الحركة -وليس في الحديقة الكبيرة فحسب- وأنّه سيتابع حالتي بسهولةٍ أكبر، وأنّه سيأتي لرؤيتي

بصورةٍ منتظمةٍ من جانبٍ آخر، ولكنّ ذلك كلّه كان عبثًا. لقد تشبّثتُ بقراري على نحوٍ حازمٍ: لم أكن أريد أن أغادر سانت آن. ولكن، وبما أنّ الأمر أصبح في النهاية: إمّا أن أكون في كاركاسّون أو سوازي -أو هكذا حسبتُ الأمر- فقد أذعنتُ له، غير أنّ الجذوة في روحي قد انطفأت.

في حزيران/ يونيو من عام 1981، غادرتُ إذًا سانت آن في سيارة الإسعاف. وكتدبيرٍ احترازيٍّ، فإنّ طبيبي أعلن أنّ موعد انطلاقي سوف يكون في الساعة الخامسة من بعد منتصف الظهيرة، لكنّ سيارة الإسعاف مضت بي في الساعة الثانية. لقد تمّ بذلك الالتفاف على الصحفيّين والمصوّرين المُحتملين.

الفصل الثاني والعشرون

هكذا إذًا وصلتُ إلى سوازي في شهر حزيران/ يونيو من ربيع عام 1981، إلى ذلك المرج الشاسع الأخضر المجزوز حديثًا، والمرصّع بأجنحةٍ بيضاء اللون تنتصب وسط الأشجار العالية. لقد تمّ قبولي في الجناح رقم 7 الذي سيكون محلّ إقامتي حتى شهر تموز/ يوليو من عام 1983.

لم أكن فخورًا بذلك. تغييرٌ في المكان، وأطبّاء وممرّضون جددٌ، وبصفةٍ خاصةٍ ليس هنالك من أصدقاء في متناول اليد. لقد كانت الصدمة قاسية. لقد اقتضى الأمر منّي بعض الوقت كي أتقبّل «نقلي» وأتحمّله، بعض الوقت كي أقدّر أنّ أطبّائي كانوا على حقٍّ، وفي الحقيقة لقد اقتضى ذلك الكثير من الوقت. السبب في ذلك أنّ عالم المرضى كان مكوّنًا بصورةٍ جوهريّةٍ من «المرضى المزمنين»، المساكين الذين يدفنون غالبًا مدى الحياة في الغرفة نفسها، وضمن الاجترار نفسه، من دون زياراتٍ أبدًا. لقد كان هنالك الفصاميّون، والذاهلون في الأساس، وبصفةٍ خاصّةٍ كانت هنالك شابتين بائستين، واحدةٌ منهما كانت تبحث عن العذراء، والأخرى كانت تكرّر على الدّوام غرائبها الخاصّة بها، وكان هنالك كحوليّون قدماء، ولكنّ قلّةً من الحالات الحادّة كانت موجودة، في حين أن سانت آن كانت تضمّ أعدادًا أكبر، وبما أنّ الكثير من الحالات الخطرة كانت تعود وترحل، فقد كانت هنالك حالة ذهابٍ وإيابٍ مستمرّةٍ. وقد كان هذا الجناح بصفةٍ خاصّةٍ مكوّنًا من مسنّين خرفين يُرثى لهم، ممّن كانوا يتسكّعون تحت أشعّة الشمس ويظلّون في مكانهم، وهم عالقون في صمتهم.

لقد تعرّفتُ إلى كبير الأطبّاء المعالجين، الشاب، الذي سيقوم على رعايتي حتى النهاية، وسوف يتابع حالتي منذ ذلك الحين. لقد تمّ تحليل الأمر: كان «إصغاؤه» يزعجني. ولقد استغرقت زمنًا طويلًا حتى ألفته، وألفتُ الممرّضين أيضًا الذين كانوا يعملون كجسدٍ واحدٍ تبعًا لمبادئ «الفريق المعالج»، وكانوا يتناقشون مع الطبيب على أساسٍ من ملاحظاتهم، وهم لم يكونوا يتّفقون دائمًا -وقد كنتُ أعرف ذلك- مع الطرائق التي كان طبيبي يتّخذها. ولقد كان البعض منهم يلومه على اهتمامه الكبير بي، وعلى أنّه يخصّني بامتيازاتٍ لم يكن يعطيها للمرضى الآخرين. وقد وجّه له بعض الزملاء من الأطبّاء النفسيّين العتب نفسه، فأقرّ بالأمر قائلًا: «هذا صحيحٌ، فأنا لا أعالجه مثل الآخرين. والسبب في ذلك أنّني أعالجه تبعًا للمبدأ الذي أطبّقه على جميع مرضاي، الذين أعالجهم وأعطيهم تبعًا لما هم عليه، وتبعًا لحالتهم، ولمتطلّباتهم، ولمخاوفهم. فإذا ما تغاضيتُ عن واقع أنّه رجلٌ مشهورٌ، وأنّه يخضع لاعتباراتٍ تتعلّق بوضعه هذا، بين الآخرين من الأعداء، فأحسب أنّ هذا التجاهل سيكون مزيّفًا بالكامل». لذلك فليس بعيدًا عن هذا الاعتبار أنّه كان يخصّني دائمًا بكلّ ما أطلبه منه، وكذللك كانت الحال أيضًا في إذعانه المطلق لطلبات أصدقائي، ولمتطلّباتهم أحيانًا. لقد عرف على الدوام أن يحافظ على «النهج» الذي اختطّه لنفسه، وأن يحترم بدقّةٍ وحتّى النهاية في تعامله معي (كما في تعامله مع سائر الآخرين، فلقد كنتُ أعرف طريقة عمله) هذا المبدأ الذي كان يبدو لي مبدأً عادلًا لا يمكن النيل منه.

لقد توجّب في البداية أن أعالج بالأنافراني واحد، ولكن من دون نتيجةٍ. فتمّ الانتقال حينها مرّة ثانيةً إلى دواء النياميد (وهو دواءٌ من مثبّطات الاكتئاب الحادّ)، فحصلت النتائج السابقة نفسها. لقد سقطتُ في حالةٍ حرجةٍ من الاختلاط العقليّ، ومن الهذيان الحُلميّ، وهذيان الاضطهاد «الانتحاريّ»، تمامًا مثلما حدث في مونتسوري. لكنّني لن أعود إلى هذه الأعراض التي تفاقمت بشكلٍ ملحوظٍ حينما تقرّر، ولعدم وجود خيارٍ أفضل، مضاعفة الجرعة من أدوية الإيهاو. لقد أصبحت

النتيجة حينها كارثيّةً. لم أعد أستطيع أن أتناول الطعام أو أشرب شيئًا من دون أن التقيّؤ حالًا، وكنتُ أقع دائمًا، حتّى إنّني كسرتُ ذراعي، وكنتُ أواصل كوابيسي المؤرقة خلال قسمٍ كبيرٍ من النهار، وكنتُ أبحث بصورةٍ بائسةٍ في الغابة المجاورة عن الغصن الذي سوف أدلّي نفسي منه، ولكن أين الحبل؟ لقد جرّدتُ كتدبير احترازيٍّ من حزام ثياب النوم، ومن أربطة أحذيتي. أمّا الليالي التي كنتُ أنتظر فيها دائمًا في هذه الأحوال الحصول على قسطٍ من الراحة والنسيان، فقد كانت مخيفةً. كنتُ أشعر أنّني لا أستطيع النوم، وقد كانت المعاناة الأكبر فوق ذلك هي مع ممرّضي الليل، الذين كان عليهم أن يعطونني أدويتي (الكلورال مجدّدًا، وما هو أسوأ) في الساعة الثامنة مساءً، بيد أنّهم كانوا يتابعون مشاهدة التلفاز كغالبية المرضى، ولم يكونوا يتركونه إلّا في الساعة العاشرة، أي بعد ساعتين مخيفتين من التأخير بالنسبة إليّ، عن جدول المواعيد المحدّد على الرّغم من ذلك. كانت تلك هي المناسبة التي أدركتُ فيها أنّ الطبيب لم يكن يملك تمام السيطرة على ممرّضيه، وأنّه كان عليه أن يتصالح معهم، بل وأن يغلق عينيه عنهم (لم يحدث أن حصلت على دوائي ليلًا في الوقت المحدّد إلّا مرّةً واحدةً حينها كانت طالبة طبّ شابّةٌ، لطيفةٌ جدًّا تناوب ليلًا، لكنّ هذا لن يدوم طويلًا). لقد بلغ بي الأمر حدّ التفكير، وكان في ذلك شيئًا من المبالغة، أنّ الطبيب في هذا القطاع الخدميّ، ومع أنّه قطاعٌ كثير التساهل وحسن التنظيم -فما بالك في قطاعاتٍ أخرى أقلّ «تقدّمًا»، مع ممرّضين أقلّ حذرًا بلا ريبٍ- كان خاضعًا «للديكتاتوريّة كتلة الممرّضين». فإذا ما كان هذا الانطباع تفصيلًا دقيقًا، فإنّني أحسب مع ذلك أنّه تفصيلٌ جوهريٌّ من أجل فهم العلاقات والبيئة السائدة في كلّ محتجز طبّنفسيّ. فمع أيّة أضرارٍ!

لم أكن أنتظر طويلًا سوى الوقت الذي يظهر فيه طبيبي صباحًا في غرفتي، حينها كنتُ أتهالك بين ذراعي عنايته. كنتُ في ذلك الحين أبذل الكثير من الجهد محاولًا أن أخرج كوابيسي الليليّة، المستمرّة منذ الليلة السابقة، وكنتُ أقصّ عليه أحلامي المخيفة في الحلم، وكان الطبيب يصغي إليّ، متكلّمًا ببعض الكلمات، بيد أنّ الأمر

الجوهريّ الذي كنتُ أترقّبه منه هو ذلك «الإصغاء». فإذا ما كان يجازف أحيانًا بشيءٍ من التأويل، فإنّ ذلك كان يجري في حرصٍ شديدٍ دائمًا. لقد كنتُ في الظاهر ملتزمًا كليًّا بكلامه. بيد أنّ ما كان يجري غالبًا أنّني كنت أذهب بعد ذلك للبحث عن إحدى الممرّضات كي أسالها: «ولكن، هل يعرف الطبيب ما يفعل؟ هل يعرف ما يقول؟» كان الشكّ والقلق يتملّكاني من جديدٍ: في الواقع إنّه رهاب أن أكون وحيدًا، من جديدٍ، وأن أكون مهجورًا كما هي الحال دائمًا.

كان محلّلي النفسيّ يأتي لزيارتي مرّةً واحدةً في الأسبوع، صباح الأحد، وكان ذلك في الجناح المُقفر من الجميع تمامًا (لم يكن هنالك سوى رقابةٌ من حرس الطوارئ). وكان الحديث معه يدور دائمًا، ولكن من دون أن أشعر أبدًا بأنّني مدانٌ، حول السبب العميق وراء جريمة القتل. أتذكّر نفسي أعرض أمامه الفرضية التالية (وهي الفرضيّة التي كنتُ قد طرحتها سابقًا أمامه في سانت آن): إنّ مقتل هيلين ما هو إلّا «انتحارٌ بمساعدة شخصٍ وسيطٍ». وكان محلّلي يصغي إليّ من دون تأييدٍ أو معارضةٍ. لقد علمتُ فيما بعد من طبيبي أنّ محلّلي النفسيّ كان يراه بصورةٍ دوريّةٍ وأنّه كان يساعده. لقد حدث سابقًا، وكنتُ قد دخلتُ إلى غرفة الإنعاش في سانت آن، أن تمكّن محلّلي النفسي -مقابل مفاوضاتٍ عجيبةٍ- من زيارتي داخل خدمة الإنعاش، وأن يتحدّث إلى الاختصاصيّ الذي كان يقوم بالعناية بي، لقد اعتقد محلّلي بصورةٍ جديّةٍ بأنّ تلك هي النهاية، وبأنّني لن أنجو من المحنة جسديًّا. لقد كانت تلك هي اللحظة الوحيدة التي خامره الشكّ فيها حول نجاتي. بيد أنّه -إذا ما استطعتُ النجاة جسديًّا- لم يشكّ أبدًا في «شفائي» من الناحية النفسيّة. وحينما كان الطبيب يُصاب بالقلق الشديد (وقد حدث ذلك أحيانًا)، فإنّ محلّلي النفسيّ كان يساعد في إقناعه بأنّني سوف أخرج من المأزق، وبأنّني لن أستسلم أبدًا. لعلّ طبيبي من دونه كان قد استسلم نهائيًّا (؟)، ولعلّي كنتُ قد أصبحتُ واحدًا من هؤلاء «المرضى المزمنين» الذين كنت أستطيع أن أشاهد بؤس حياتهم في محيطي القريب.

لقد قذفت بي أدوية الإيهاو في حالةٍ كهذه (بكلّ وضوحٍ، لقد نسيتُ كلّ شيءٍ عن هذه الفترة) حيث كان عليّ أن أدخل من جديد إلى غرفة الإنعاش في إيفري (Evry). بيد أنّني خرجتُ منها من جديدٍ. لقد أُلغيت أدوية الإيهاو المشؤومة وبدأتُ في التعافي، حتّى إنّني عرفتُ في سوازي فترةً من الحماس، فذهبتُ إلى شقّتي لمدّة شهرين، وقد عدمتُ تقريبًا جميع أشكال النوم ذي الحالات المهلوسة التي كنتُ أعرفها، وقمت بطباعة مخطوطةٍ فلسفيّةٍ (بين شهري تشرين الثاني/ نوفمبر 1982 وشباط/ فبراير 1983) مؤلّفةٍ من مئتي صفحةٍ كنتُ أحتفظ بها. لم تكن المخطوطة جنونيّةً أبدًا، بيد أنّها كانت مفكّكةً إلى حدٍّ بعيدٍ. لقد كنتُ أعبّر فيها للمرّة الأولى، إذا صحّ التعبير، كتابةً عن عددٍ من الأفكار التي كنتُ أحتفظ بها بعنايةٍ في رأسي منذ أكثر من عشرين سنةً، ومن دون أن أبوح بها إلى أحدٍ بقدر ما كانت تبدو لي غير مهمّة (!)، وكنتُ أحتفظ بها من أجل نشرها في المستقبل حينها تكون قد نضجت. والأمر الأكيد: أنّها لم تكن قد نضجت بعد.

وعلى العكس ممّا كنتُ أخشاه، فقد كنتُ أستقبل زياراتٍ لا تُعدّ من أصدقائي: واحدةً كلّ يوم. لقد كان هؤلاء الأصدقاء قد اتّفقوا فيما بينهم على ألّا يدعوني بمفردي ولو يومًا واحدًا. وبهذا فأنا مدينٌ لهم! بيد أنّه يلزمني القول إنّني كنتُ أطالبهم -أصدقائي والطبيب- بهذه الزيارات على نحوٍ آمرٍ، واستبداديّ. فالطبيب الذي أدرك أهميّة الأمر، وأنّ ظروف الحياة في سوازي ليست هي الظروف نفسها في سانت آن، سمح بهذه الزيارات على نحوٍ واسعٍ. على هذا النحو، كنتُ أمضي فترات ما بعد الظهيرة الطويلة برفقة الأصدقاء والصديقات. كان حضورهم هو الأمر المهمّ. وهكذا كانت إحداهنّ تقوم بالحياكة وهي جالسةٌ إلى جواري في صمتٍ، وأخرى كانت تأتي وقد أحضرت كتابًا معها. كنتُ أحتمل صمتهم جيّدًا، طالما أنّني لم أعد وحيدًا. ولكن لماذا كنتُ متطلّبًا كثيرًا، ومستبدًّا (نعم، وبكلّ معنى الكلمة) كثيرًا في مسألة الزيارات؟ لعلّ السبب في ذلك هو «الاكتئاب ذو القدرة الكلّيّة»، وإنّني كنتُ قادرًا على ممارسة هذه «القدرة الكلّيّة» كي أضع، بصورةٍ

مؤقّتةٍ، نهايةً لرهاب الوحدة، والهجر، الذي كان يتملّكني بشدّةٍ. فمتى كنتُ أفتقد الناس، ومتى ترك لديّ صديقٌ أو صديقةٌ انطباعًا بالهجر، فإنّني كنتُ أتردّى في شكلٍ من أشكال الاكتئاب أشدّ خطورةً.

لقد حصل هذا معي في مطلع عام 1983، حينما نجحتُ في قضاء بضعة أسابيع في شقّتي، ليس بمفردي، طبعًا، ولكن مع أصدقائي الذين كانوا بناء على أوامر طبيبي الحريص على هذا التدبير (فلقد كنتُ أخبره بأنّني سوف أرمي بنفسي من الطابق السادس) حاضرين ليل نهارٍ. لكنّ إحساسي بأنّني مهجورٌ رمى بي في اكتئابٍ حادٍّ أجبر طبيبي على إدخالي إلى المستشفى من جديد. ثمّ بدأ بإعطائي دواء فيفالان (Vivalan)، الذي كان له أن يعطي تحسّنًا غير كاملٍ على المدى البطيء، والذي انتهى بخروجي بصورةٍ مؤقّتةٍ جدًّا من المشفى في شهر تموز/ يوليو من عام 1983 من أجل قضاء إجازاتٍ ريفيّةٍ في الشرق.

لكنّ الأشياء كانت تتغيّر في غضون ذلك! لقد كان إحساس طبيبي (وقد باح لي بذلك لاحقًا) بأنّني سوف أكون مريضًا جدًّا لمدّةٍ طويلةٍ وخطيرةٍ، وبأنّ الأمل في الخروج من ذلك معدوم كما لم يحدث سابقًا، وبأنّني لن أستطيع الخروج أبدًا عن رقابة المستشفى وحمايتها، وهذا هو الأمر الذي كان يثير أكبر مخاوفه. لكنّه أحسن «ضبط الأمور»، وقد كان ذلك هو النّهج الرئيس الوحيد الذي تمكّن منه سريعًا، «ضبط الأمور» من خلال متابعة سائر التحوّلات في حالتي، ومع المحافظة على النّهج دائمًا، وعلى الرّغم من أنّ الأمور لم تكن سهلةً بالنسبة إليه، فإنّني -وعلى العكس من ذلك- لم أفعل سوى كلّ ما يزيد الطين بلّةً.

كنتُ أرتعب من العالم الخارجيّ رعبًا فظيعًا. لم أكن أرتعب كثيرًا من التعليقات والتدخّلات الخبيثة التي كانت هاجسًا لدى أطبائي والممرّضين (في حين أنّ هذه القضيّة لم تكن مطروحةً في سوازي)، والتي كان طبيبي يتابعها من باب الخوف عليّ، مع أنّني لم أعد أحفل بها كثيرًا فيما يتعلّق بي، لكنّني كنتُ أرتعب من حقيقة

العالم الخارجيّ نفسها، التي كنتُ قد قرّرتُ إلى الأبد بأنّها فوق استطاعتي. لقد اتّخذ هذا الرّهاب شكلًا محدّدًا لمدّةٍ طويلةٍ من الزمن. في ضوء ذلك، كانت أغراضي جميعها قد نُقلت (وقد أمضى أصدقائي أيامًا كاملةً في ذلك) من المدرسة العليا إلى شقّةٍ في الدّائرة العشرين كنتُ قد اشتريتُها أنا وهيلين استعدادًا لمرحلة التقاعد. كان الأصدقاء قد وصفوا لي حال المكان: اكتظاظٌ هائلٌ في صناديق الكتب ما يجعل الدخول إلى الشقّة مستحيلًا من النّاحية العمليّة. لم أكن أفكّر فقط في أنّه لم يعد باستطاعتي الخروج من المستشفى والانضمام إلى العالم الخارجي، ولكن هل كنتُ سأتمكّن من الدخول إلى شقّتي. لذلك فقد تقرّر أن أذهب لألقي نظرةً على المكان. وفي أحد الأيّام قام أحد الممرّضين، والذي كنتُ أحبّه كثيرًا، باصطحابي إليه في شاحنةٍ صغيرةٍ خارج المستشفى. لقد كنتُ مذهولًا لدى رؤيتي أكداس الكتب وقد بلغت سقف الشقّة، فرفضت الدخول. ومنذ ذلك الحين، وأنا أحمل ذلك الرّعب الذي لن يكف عن مطاردتي، ليس في صورةٍ فارغةٍ محتملةٍ، وإنّما في صورةٍ ملموسةٍ مرعبةٍ. لقد كنتُ هالكًا لا محالة.

كان ذلك هو الوقت الذي أخذ فيه طبيبي يتخيّل ما يجب استحضاره لاحقًا من «حلولٍ خياليّةٍ»، لاسيّما الحلّ التالي، وهو لعبةٌ حقيقيّةٌ، لعبةٌ «بيروقراطيّةٌ طبّيّةٌ» سخيفة: كانت شاحنة المستشفى قد ذهبت لإحضار صناديق كتبي، وكانت الكتب قد أُفرغت في قاعةٍ فارغةٍ من المستشفى، كنتُ أغربل منها كتبي التي كان يعاد نقلها إلى شقّتي كي ترتّب فوق الرفوف. ولكن من أين نأتي بالرّفوف؟ لقد عرض ثلاثةٌ من أصدقائي أن يأخذوا إلى غرفتي مجموعةً من الرفوف المعروضة للبيع في سوق أوتل دو فيل (Hôtel-de-Ville)، وينقلون الأخشاب بواسطة المترو. لكنّني لم أتجرّأ مع ذلك. فمن سواي سيقوم بفرز كتبي، أنا الذي أشعر بأنّني عاجزٌ تمامًا عن القيام بذلك؟ لقد كان المشروع برمّته يتأرجح في رأسي. لكنّ أصدقائي، ومن دون أن يخبروني شيئًا، أحضروا الرّفوف، وقاموا بتنضيد سائر كتبي فوقها على أفضل نحوٍ ممكنٍ، ثم جاؤوا يخبرونني في أحد الأيّام بأنّني: أستطيع أخيرًا أن أدخل إلى

شقّتي متى أشاء. في الحقيقة، لقد أمكنني الدخول إليها، كما كنتُ قد ذكرتُ، في أثناء «خروجي» الأوّل في شهري تشرين الثاني/ نوفمبر-كانون الأوّل/ ديسمبر من عام 1982، ذلك الخروج الذي كان قد انتهى على نحوٍ سيّئ. لكنّني لم أستطع العثور على أيّ كتابٍ من كتبي: كان عليّ إذًا أن أشرع في ترتيبها، ولكن كيف لي أن أتمّ هذه المهمّة التي لا تنتهي؟ لقد كانت لديّ آلافٌ من الكتب التي لم أقرأ منها أبدًا سوى بضع مئاتٍ من الصفحات، وكنت قد أجّلت قراءتها (المفترضة) إلى أوقاتٍ أفضل. ومن جديدٍ، كنتُ مرعوبًا. بيد أنّ الاختبار كان في إمكانيّة العيش وسط الكتب المبعثرة، فقد حصل خيرًا أنّني لم أكن قد استطعت حتّى الآن أنْ أرتّب هذه الكتب –سوى البعض– من أجل العثور عليها، وأنّني استطعتُ في النهاية أن أتعايش على نحوٍ جيّد مع هذه الفوضى. لقد كان ذلك دليلًا إضافيًّا على أنّ كلّ شيءٍ «يجري في العقل».

لكنّ ذلك لم يكن الأمر الأسوأ. وسوف أقارب الآن شيئًا مرعبًا بصورةٍ محدّدةٍ، ولكنّه كان أيضًا فريدًا جدًّا في الوقت نفسه. بكلّ تأكيدٍ، كنتُ أعيش فترة استشفائي كما عشتُ دائمًا مراحل استشفائي السّابقة: أي بوصفها ملاذًا مطلقًا تقريبًا ضدّ أشكال الرّهاب القادمة من العالم الخارجيّ. لقد كنتُ هنالك كما لو أنّني داخل قلعةٍ حصينةٍ منكفئةً على نفسها في عزلتها التي تؤمّنها أسوار مستغلقة: هذه الأسوار هي أسوار الرّهاب الخاصّ بي، ولكن كيف الطريق إلى الخروج منها بصورةٍ نهائيّةٍ؟ لقد كان طبيبي يتحسّس الأمر جيّدًا، لذلك فقد دخل بصورةٍ واعيةٍ إلى ميدان لعبتي: لعبة رهابي، ليصبح هو نفسه مصابًا بالرّهاب عن طريق العدوى، مثل سائر الممرّضين الذين لم أنقطع عن نقل رهابي إليهم. إنّني أتذكّر أيضًا ذلك اليوم الذي طرحتُ فيه على طبيبي ذلك السؤال المخيف، وقد كنتُ أفكّر بصورةٍ محدّدةٍ في صديقةٍ حدث أنّني كنتُ –ذات يومٍ– أتأمّل بفزعٍ في منبت رقبتها، وكنتُ أتساءل في نفسي والرّهاب يأخذني: فهل سوف أفعلها من جديد (أي أن أقوم بخنق امرأة)؟ لقد طمأنني طبيبي قائلًا: كلّا! ومن دون أن يعطيني أيّ سببٍ آخر. بيد أنّني علمتُ

منذ ذلك الحين بأنّ الممرّضات كنّ يخشين الدخول بمفردهنّ إلى غرفتي حينما يحلّ المساء، خشية أن أقفز على أعناقهنّ وأقوم بخنقهنّ... كما لو أنّهنّ قد «التقطن» رغبتي المروّعة، والمغلّفة بالرّهاب. وأنا إذا ما كنتُ أتكلّم عن هذه العدوى، فذلك لأنّ الانغلاق كان يحرّضها بصورةٍ لا مفرّ منها. إنّ رهاب المريض، والطبيب، والممرّضين، والأصدقاء الزائرين ينتشر، وهو إذ ينتشر بحدّةٍ تتضاعف آثاره، بصورةٍ كان طبيبي يجد نفسه في مرّاتٍ عديدةٍ محلّ انتقادٍ، إن لم يكن من جانب ممرّضيه (وهو لم يخبرني عن ذلك شيئًا)، فعلى الأقلّ من جانب أصدقائي الذين كانوا قد انتقدوه كثيرًا. كيف يستطيع الطبيب آنذاك أن يتخلّص من لعبة الرّهاب المتعدّد الأطراف هذه، وهو في حقيقة الأمر الخصم والحكم في الوقت نفسه؟ إنّه وضعٌ استثنائيٌّ عسيرٌ، لا يمكن أن يُحلَّ إلا بطريق التسويات. ولقد عرف طبيبي العثور عليها، ولكن ليس من دون وقوع آثارٍ جانبيّةٍ.

أحسب أنّ في استطاعتي أن أحدّد المكان الرّئيس لهذه الآثار الجانبيّة. إنّه مرتبطٌ «بالطبيعة» الموضوعيّة والمتخيّلة في الآن نفسه «للقلعة» التي كنتُ أعيش فيها، بوصفها حمايةً وملاذًا ضدّ رهاب التواصل المستحيل مع العالم الخارجيّ. والحال أنّ هذا العالم الخارجيّ لم يكن موجودًا إلّا في خيالي: فحقيقة الأمر أنّه كان يحضر إليّ في كلّ يومٍ من خلال أصدقائي الذين كانوا يأتون من العالم الخارجيّ، ويعودون إليه كلّ يومٍ. وسوف أعطي مثالًا واحدًا: لقد حضر فوكو بنفسه لزيارتي مرّتين، وأتذكّر أنّنا تحدّثنا في مناسبتين عن كلّ ما كان يجري في العالم الفكريّ -وقد كنتُ أفعل الأمر نفسه مع سائر أصدقائي من الناحية العمليّة- وعن الشخصيات التي كانت تشغل هذا العالم، وعن مشاريعها، وأعمالها، وصراعاتها، ومواقعها السياسيّة. لقد كنتُ إذن «طبيعيًّا» بالمطلق، وكنتُ أعرف كلّ شيءٍ بصورةٍ كاملةٍ، ولقد كانت الأفكار تحضرني، كما كنتُ أجعل الكرة أحياناً -وبصورةٍ خبيثةٍ- في مرمى فوكو، ليعود هذا مقتنعًا بأنّني على خير ما يرام. وذات مرّةٍ كنتُ في صحبة الأب بروتون، حينما جاء فوكو لرؤيتي. لقد جرت حينها بين الرجلين مداولةٌ استثنائيّةٌ قوامها

الأفكار والخبرات، مداولةٌ لن أنساها مدى الحياة. كان فوكو يتكلّم عن أبحاثه حول قيم «المسيحيّة» في القرن الرّابع، وكان يسجّل تلك الملاحظة المهمّة كثيرًا القائلة بأنّ الكنيسة إذا كانت قد أعلت على الدّوام من الحبّ، فإنّها كانت ترتاب بشدّةٍ في الصداقة، التي كان الفلاسفة الكلاسيكيّون -وأبيقور في أوّلهم- يضعونها، مع ذلك، في مركز أخلاقيّتهم الملموسة. بالطبع، لم يكن فوكو، المثليّ، قادرًا [أو لم يكن له] على أن يقرّب كراهية الكنيسة للصداقة من الكراهية، بمعنى (وهو تناقضٌ آخر) تفضيل كامل جهاز الكنيسة وحياة الرّهبنه للمثليّة الجنسيّة. حينها تدخّل الأب بروتون، بطريقةٍ رائعةٍ، ليس من أجل أن يعرض على فوكو مراجع لاهوتيّةً، ولكن من أجل أن يخبره من واقع تجربته الشخصيّة. لقد ولد من دون أن يعرف والديه، وقد استقبله كاهنه الذي جعله يدخل إلى مدرسة آخن -وقد لاحظ عقله النبيه- التي أمضى فيها جزءًا من دراساته الثانويّة. ثم قُبل في عمر الخامسة عشر في المدرسة الدينيّة [الرهبنة]، التي أمضى فيها حياةً متقشّفةً لراهبٍ مبتدئٍ، حياةً لاشخصانيّةً مجرّدةً عن الأنا (فالمسيح لم يكن شخصًا، وإنّما كان لاشخصانيًّا يندرج تحت الكلمة (le Verbe)(187))، حياةً مؤلّفةً من المناسك الصّارمة. في خضمّ الطاعة والانصياع، كان ينسى نفسه [في] الأسمى: «الناموس يفكّر من أجلكم، وبما أنّ التفكير هو من أجلكم، لذلك فإنّ كلّ فكرةٍ شخصيّةٍ تتحول إلى خطيئة الكبرياء».

إنّ السعي إلى احترام الأصالة لدى كلّ فردٍ -وبقدر إضافيٍّ قليلٍ جدًّا- لم يحصل إلّا مؤخّرًا، وذلك بالنظر إلى تطوّر الأخلاق، ومن خلال ما كان يُدعى بالشخصيّة المسيحيّة، ولكن أيضًا إلى أيّ مدىً! بهذا المعنى كان بروتون يقتبس عبارة فوكو القائلة بأنّ «الإنسان ليس سوى اكتشافٍ حديثٍ جدًّا» في الأديرة. لم يكن لدى بروتون صديقًا واحدًا في حياته، فالصداقة كانت موضع شبهةٍ على الدّوام بحسبان أنّها كانت تتطوّر إلى صداقةٍ حميميّةٍ، وهي شكلٌ مستترٌ من المثليّة الجنسيّة: فلقد كان هنالك داخل الكنيسة، بالطبع، جاذبيّةٌ مكبوتةٌ حيال المثليّة الجنسيّة، يمكن تفسيرها

(187) الكلمة: وهو الأقنوم الثاني من الثالوث المسيحيّ: الآب، والابن، والرّوح القدس. (المترجم)

من خلال إقصاء النساء. وما كان ليكون هذا القدر الكبير من التأكيد على خطر الصداقات الحميميّة، لو لم تكن المثليّة الجنسيّة خطرًا وغواية دائمين. لقد كانت الصداقات الحميميّةُ هاجسًا [متمكّنًا] لدى الرؤساء، ورعبًا من شرٍّ مستطيرٍ. إلى ذلك، ثمّة الكثير من الحالات التي كان فيها لدى الكهنة، بل والكهنة المقدّسون أيضًا، رعبٌ من النساء، ومن هنا منبت فطرتهم الطاهرة بحسبان أنّ المرأة كائنٌ دنسٌ، وكثيرٌ من الكهنة كانوا يؤمنون برفض النجاسة من خلال رفض المرأة «والاكتفاء بالصبيان». مثل هذا الكاهن المقدّس الذي كان يلتزم بسائر المناسك، وكان يتلو صلاته، كان لديه خادم مذبحٍ صغيرٌ وحلوٌ، وقد حدث أن استدعاه ذات يومٍ إلى غرفة الموهِف (سكرستيّا)[188] بعد أن تلا صلاته، ثمّ فكّ له فتحة سرواله، وقصّ بضع شعيراتٍ من العانة، ووضعها فيما يشبه صندوق الذخائر (وهي كبسولة توضع فيها القرابين). في هذه الحالات، فإنّ الصداقة كانت موضع شبهةٍ على الدّوام، وإنّ كلام فوكو كان واضح المعنى. فالحبّ حينما يخاطب البعيد والقريب، هو طريقةٌ للتملّص من الصداقة، ولاسيّما بالمعنى الواسع جدًّا للمصطلح.

أمّا أنا، فقد كنت هنالك أصغي بين الاثنين إلى حديثهما: فوكو والأب بروتون، وكنتُ أشارك في الحديث الذي لم يعد له علاقةٌ بالمستشفى وقلعتها، وبعيدًا جدًّا عن رهابي المتعلّق بالاحتجاز وبالحماية. لقد كان الأمر يجري على هذا المنوال نفسه *مع سائر أصدقائي*، الذين كانوا يمكّنونني من العيش من خلال العقل، ومن خلال الحوار بعيدًا عن «أمان» السجون الشهير، يمكّنونني من العيش، في حقيقة الأمر، في خضمّ العالم الخارجيّ.

بالتأكيد، فإنّ طبيبي لم يكن على درايةٍ فعلًا بهذا الجانب من حياتي: فأنا لم أكن قد بحتُ به إليه. لم أكن قد بحتُ إليه إلّا برهابي. وقد كان الطبيب قد بنى تصوّره عن

(188) الموهف: حجرةٌ مجاورةٌ لهيكل الكنيسة تحفظ فيها الأواني المقدّسة وزخارف الكنيسة، وحيث يبدّل الكهنة ومساعدوهم فيها ملابسهم، ويضعون فيها ما يلزم للخدمة المقدّسة (عن المعجم). (المترجم)

احتجازي في قلعة المستشفى الحصينة بناءً على هذا الرّهاب. فهل أستطيع، في آخر الأمر، أن أقول أنّ طبيبي كان أكثر انهمامًا وأكثر قلقًا منّي بكثيرٍ، بسبب هاجس الاحتجاز هذا، وبسبب رعبي من العالم الخارجيّ؟ لقد تحدّثتُ معه مؤخّرًا حول هذه الأشياء من الماضي مطوّلًا، وقد تبيّن لي بأنّه كان عليه أن يُسقط قلقه الخاصّ عليّ، وذلك انطلاقًا من مؤشّراتٍ لديّ، وأنّه في ضوء ذلك كان يعيرني أشكال قلقه الحادّة. بالطبع، كنتُ أشعر بأنّني ضائعٌ إلى الأبد، بيد أنّ هذا لم يكن بسبب رعبي من العالم الخارجيّ، بقدر ما كان لأسبابٍ أخرى أشدّ عمقًا، سوف أذكرها لكم.

لكنّني أرغب قبل ذلك في التأكيد على الأضرار التي تتسبّب بها مؤسّسة الطبّ النفسي من تلقاء نفسها. فالحقيقة المعروفة أنّ عددًا من المرضى، المصابين بتحلّلٍ حادٍّ، ومؤقّتٍ بالتالي، والذين يدخلون إلى المحتجز الطبّنفسي تلقائيًّا، وبما يشبه العمليّة الميكانيكيّة، من الممكن أن يتحوّلوا، بسبب ذلك، وبسبب العقاقير والانغلاق إلى «مرضى مزمنين»، إلى مرضى عقليّين بصورةٍ حقيقيّةٍ، وعاجزين أبدًا عن الخروج خارج نطاق المستشفى. إنّ هذه النتيجة معروفةٌ كثيرًا لدى سائر أولئك الذين يحاولون أن يعطّلوا آلية العمليّة الاستشفائيّة، وهم يفضّلون عليها تدخّلات متغيّرةً، سواء عن طريق الاستشفاء النهاريّ، أم عن طريق المستوصفات، وسواها. وهذا هو المعنى العميق للإصلاح الذي حقّقه (أو دعا إليه بالأحرى) باساغليا (Basaglia)[189] في إيطاليا. فما كان يرغب فيه باساغليا هو حماية الحالات الحادّة، «والمتحوّلين إلى مرضى مزمنين» من المساوئ الآليّة للاحتجاز، وذلك بإغلاق مشافي الطبّ النفسيّ، والعهدة بالمرضى إمّا إلى العيادات، أو إلى الأسر التطوّعيّة. بالطبع، لا يمكن تصوّر هذا الإصلاح إلّا في مرحلة الحركات الشعبيّة الكبرى، وبمساعدةٍ من النقابات والأحزاب العمّاليّة. وفي فرنسا، فإنّ من الصعوبة بمكان تصوّر هذا الإصلاح، وذلك بالنظر إلى ثوابت العقليّة العقابيّة. وكما نعلم، فإنّ

(189) فرانكو باساغليا (Franco Basaglia) 1924-1980: طبيب نفسي وعالم عصبيّ وأستاذ إيطاليّ، اقترح تفكيك مستشفيات الطبّ النفسيّ، وهو رائد المفهوم الحديث للصحّة العقلية. (المترجم)

إصلاح باساغليا قد أخفق بكلّ معنى الكلمة في إيطاليا نفسها. فما هو العمل منذ الآن فصاعدًا من أجل الخروج من جحيم التحديدات المشتركة لدى سائر أجهزة الدولة الإيديولوجيّة ذات الصلة؟

بيد أنّنا لا نعلم سوى القليل، ولا نعرف سوى القليل، عن آثار الاحتجاز الطبّنفسيّ على الأطبّاء أنفسهم، وعلى تمثّلاتهم عن مرضاهم، وعن أشكال الرّهاب لدى مرضاهم. إنّه لأمرٌ صادمٌ أنّ الطبيب في حالتي، وهو أسلم الأطبّاء طويّةً في العالم، وأفضلهم عدّةً من أجل «الإصغاء» إلى مريضه، كان يُسقط على هذا الأخير (أي عليّ أنا) رهابه المتعلّق «بالقلعة» الكلّيّة، وقد كان ينخدع بحقيقة ما كان يجري في أعماقي، بسبب هذا الإسقاط والالتباس. لم يكن العالم الخارجيّ هو الذي يعزّز رهابي ويتسبّب به بقدر ما كان هلعي العظيم من أن أكون فيه وحيدًا، ومهجورًا، من أن أكون عاجزًا عن حلّ بعض المصاعب مهما كانت، عجزي عن الكون، وعن الوجود بكلّ بساطةٍ. وفيما كان اهتمام طبيبي منصبًّا حينها على رهابٍ معيّنٍ كان ينسبه إليّ أكثر ممّا كان يلاحظه في نفسي، ليجعل من «موضوع هذا الرّهاب» -أو بالأحرى غياب أيّ موضوعٍ، فقدان أيّ موضوعٍ- تمثّل رهابه الخاصّ وتصوّره الذي كان يُسقطه عليّ، فإنّ «ديالكتيكًا» من نوعٍ آخر تمامًا كان يتنامى في قرارة نفسي ذلك الديالكتيك المتعلّق بالحِدَادِ.

لقد أخبرني العديد من الأصدقاء بالحقائق نفسها، حقائقٌ شديدةُ الإرباك كلّها. ففي أثناء فترةٍ بأكملها، فترة لا متناهيةٍ، كنتُ أفقد كلّ شيءٍ: ملابس النوم، وأحذيتي، وجواربي، ونظّاراتي، وكنزاتي، ومفتاح خزانتي، ودفتر عناويني، وماذا أيضًا: كلّ شيءٍ. إنّني أدرك الآن بوضوحٍ كبيرِ الدلالة اللاشعوريّة لهذا السلوك الغريب، المحمول على أغراضٍ-موضوعيّةٍ. لقد كان عبارةً عن «عمليّة سكٍّ» لفقدانٍ مختلفٍ تمامًا، لاشعوريٍّ، فقدان الموضوع-الموضوعانيّ[190]، أي الموضوع

(190) الموضوع-الموضوعانيّ: في سبيل توضيح الفارق بين المصطلحين وجدتُ من المفيد أن أنقل هنا ما ورد في متن الصفحة 216 من الفصل التاسع عشر من تعريف لمصطلح الموضوعانيّ: "موضوعات داخليّة

الداخليّ، فقدان الكائن المحبوب، هيلين التي كانت تحيي فقدانًا آخر، في وقتٍ مبكّرٍ أكثر، وهو الفقدان المتعلّق بوالدتي. على هذا النحو، فإنّ الفقدان الرحميّ للموضوع-الموضوعانيّ، الداخليّ، كان ينسكُ بصورةٍ لاشعوريّةٍ من خلال آلية عملٍ تكراريّة لا متناهيةٍ إلى أغراضٍ-موضوعيّةٍ بسيطةٍ. كما لو أنّني، من خلال فقدان الموضوع-الموضوعانيّ الذي كان يحكم سائر توظيفاتي، ومن خلال فقدان الرّحم اللاشعوريّ لسائر توظيفاتي، كنتُ أفقد في الوقت نفسه كلّ قدرةٍ على توظيف الأغراض-الموضوعيّة البسيطة، وإلى الأبد. لقد كنتُ أفقد كلّ شيءٍ، لأنّني كنتُ قد فقدتُ [قبل ذلك] الكلّيّ في حياتي، وكنتُ أعيش فترة الحداد. لقد كانت عملية الفقدان اللامتناهية هذه تعبّر عن الفاعلية النفسيّة للحداد، فاعليّة الفقدان المبنيّة على فقدان الموضوع-الموضوعانيّ الأوّليّ.

كما كنتُ في أثناء هذه المرحلة مريضًا في سائر أنحاء جسدي: في العينين، والأذنين، والقلب، والمريء، والأمعاء، والساقين، والقدمين، وما أدراني؟ كنتُ أفقد جسدي بدقّةٍ في خضم اعتداءات شرٍّ كونيٍّ كان يبتر منه قدرته على العمل: وعلى هذا النحو كنتُ أتردّى ثانيةً في «جسدي المقطّع أشلاءً».

مع ذلك، كان لديّ تصرّفٌ آخر، غريبٌ وفريدٌ في الوقت نفسه. وقد أكّد لي سائر الأصدقاء الذين كانوا يزورونني في ذلك الحين حقيقته بطريقةٍ مذهلةٍ. لقد كنتُ أحدّثهم بأحاديث انتحاريّةٍ على مدار الساعة. ولقد بحثتُ مع أحدهم، طيلة فترة ما بعد الظهيرة، عن مختلف الوسائل الكفيلة بقتل نفسي، ابتداءً من أقدم الأمثلة الكلاسيكيّة في العصور الغابرة، وانتهاءً بأن أطلب منه بإلحاحٍ، في آخر الأمر، أن يحضر لي سلاحًا. وقد بلغ بي الأمر أن سألته بإصرارٍ: «ولكن، هل أنت حاضرٌ؟»، بيد أنّني في الوقت نفسه لم أكن أكفّ عن تدمير -وهي كلمةٌ مهمّةٌ- كلّ أفقٍ للخروج من الحالة المزرية التي كنتُ أشعر نفسي مختصرًا فيها. لم يكن رصيد

لا شعوريّة، موضوعات يدعوها المحلّلون النفسيّون: موضوعانيّة (على سبيل تمييزها عن الموضوعات الخارجيّة الموضوعيّة والحقيقيّة)". (المترجم)

الحجاج لديّ خاويًا على الإطلاق، بل على العكس من ذلك، فالظّاهر أنّني كنتُ في حجاجي عنيدًا على نحوٍ لا هوادة فيه، وكنت أقضي الوقت في *التدليل* للمتحاورين معي على التفاهة المطلقة لكلّ مطعنٍ، سواءٌ أكان فيزيولوجيٌّ، أم عصبيٌّ، أم كيميائيٌّ، أم طبيٌّ نفسيٌّ، أم تحليليٌّ نفسيٌّ، ولاسيّما تحليليٌّ نفسيٌّ. لقد كنتُ أدلّل، باستخدام حججٍ فلسفيّة الملامح، أوجه القصور المطلقة لكلّ أشكال التدخّل، ولطابعها الاعتباطيّ، وعديم الجدوى كلّيًا في نهاية المطاف، على الأقلّ في «حالتي». لقد كان يُسقط في يد المتحاورين معي، فيمسكون عن الكلام أخيرًا، حتّى أكثرهم حنكةً ودربةً في «ديالكتيك» الحوار الفلسفيّ (إذ لطالما وجدتُ في قبالتي فلاسفةً ذوي مواهبَ فذّةٍ)، وقد كانوا، من ثمّ، يغادرون في حالة قنوطٍ وحيرةٍ. وكانوا يتهاتفون فيما بينهم لاحقًا، ليتحقّقوا فيما بينهم من عدم وجود ما يمكن فعله، وبأنّني ضائعٌ، وبأنّ الأمر سيكون على هذا النحو. ولكن، ماذا يمكن أن يكون هدفي من خلال هذه البراهين التي كانت تبدو مثل مواجهاتٍ كنتُ أخرج منتصرًا فيها بلا منازعٍ؟ فمن خلال تدمير وجود الآخرين، والتخطئة القاسية لسائر أشكال المساعدة، والدعم، وبسبب سعيهم إلى تقديم شيءٍ لي، كنتُ أعثر على الدليل الواضح جدًّا، الدليل_المعاكس المتعلّق *بتدميري لنفسي موضوعيًا، الدليل على عدم وجودي*، الدليل على أنّني كنتُ ميتًا في الحياة، تبعًا لأيّ متوسّطٍ متوقّع في الحياة، وفي الخلاص. في حقيقة الأمر، لقد كنتُ أبحث، من خلال هذه التجربة والدليل، كي أثبت لنفسي وبنفسي الاستحالة خلاصي المتجذّرة، وبالتالي *موتي*، مضيفًا على هذا النحو، وبطرق أخرى، إلى رغبتي في قتل نفسي، رغبتي في تدمير نفسي. بيد أنّ تدمير نفسي كان يمرّ رمزيًّا من خلال تدمير الآخرين، وقبل كلّ شيءٍ أعز الأصدقاء وأكثرهم قربًا إليّ، المرأة التي كانت أكثر من أحببتُ.

حقًا كان هذا هو «عمل الحداد»، العمل المتّصل بتدمير الذّات، العمل على تدمير الذّات، من خلال تدمير هيلين الذي كان بسببي. وليس فقط تدمير هيلين. فقد جاءتني في أحد الأيّام زيارةٌ من صديقٍ، وهو محلّلٌ نفسيٌّ، كنتُ أعرفه منذ زمنٍ

طويلٍ: لقد أخبرته بهواجسي، وسؤالي الأبديّ: ولكن، ما الذي حدث إذًا من خلال مقتل هيلين؟ لقد قال لي، في تأويلٍ لعلّ فيه شيءٌ من «الهمجيّة» -أقلّه على صعيد الشكل- بأنّني كنت أريد بصورةٍ لاشعوريّةٍ من خلال هيلين أن أقتل محلّلي النفسيّ، وكم كانت دهشتي لدى سماع ذلك. لم أكن على معرفةٍ بهذا الأمر الذي أدهشني كثيرًا، وجعلني مرتابًا. لكنّ التدمير الذي ارتكبته، وبالنظر بصفةٍ أساسيّةٍ إلى حقيقة التحليل النفسيّ، كان يتوافق جيّدًا مع المعنى نفسه. ولو أنّني ارتبتُ في ذلك حينها أدنى ارتيابٍ، لكنت قد استطعت التحقّق منه، وذلك من خلال المضي قدُمًا في عزمي على التخلّص حرفيًّا من محلّلي النفسيّ بتركه من أجل أن أختار محلّلًا آخر، وبالتحديد محلّلةً امرأةً من أصولٍ بولونيّة روسيّةٍ (مثل هيلين) التي كنتُ قد أخبرتُ بها. لقد جرى الأمر برمّته عن طريق الهاتف والأصدقاء الوسطاء الذين كانوا لي شركاء في ذلك. لقد بلغ بي الأمر أن حدّثتُ محلّلي النفسيّ بذلك ذات مرّةٍ، وقد قال لي هذا بأنّني أملك كامل الحقّ في اتّخاذ القرار بكلّ حرّيّةٍ، وأنّه لن يبدي أيّ اعتراضٍ على مبادرتي. لم أكنّ أفكّر في أقلّ من ذلك! بيد أنّ الأمور طالت، ولم يكن في استطاعتي الخروج من المستشفى عمليًّا من أجل هذا الموعد البعيد، وفي نهاية الأمر فإنّني لم أتابع هذه الخطّة، مع أنّها كانت قيد تأمّلٍ وتنفيذٍ جذريّين.

لديّ الآن متّسعٌ كي أفكّر في أنّ كلّ شيءٍ كان يترابطُ على نحوٍ وثيقٍ: إنّ فقدان الموضوع-الموضوعانيّ المسكوك في فقدان أعدادٍ لا تُحصى من الأغراض-الموضوعيّة الحقيقيّة، بوصفه سوداويّةً متفشّيةً لديّ، كانا [أي هذين الفقدانين] يتكشّفان عن أنّهما في الوقت نفسه رغبةٌ في فقدان كلّ شيءٍ، وفي تدمير كلّ شيءٍ، من هيلين، إلى كتبي، إلى أسبابي في الحياة، إلى المدرسة العليا، وإلى محلّلي النفسيّ، وأنا نفسي. لقد كانت كلمة تلك الصديقة التي كنتُ أحبّها حبًّا جمًّا هي التي نبّهتني إلى هذه المسألة، وهي التي دفعتني عمليًّا إلى كتابة هذا الكتاب الصغير. فهذه الصديقة -التي لم يحدث أن وجّهت لي شيئًا من اللّوم قطُّ، ولم يحدث أن باحت لي بما كانت تظنّ بشأني في قرارة نفسها- قالت لي منذ فترةٍ وجيزةٍ جدًّا كما لو أنّها كانت تقول

بالحدس: «ما لا أحبّه فيك، أنّك حريصٌ على تدمير نفسك». لقد فتحت هذه الكلمة عيناي، وأنعشت ذاكرة تلك الأوقات العسيرة كلّها. حقيقة الأمر، أنّني كنتُ أرغب في تدمير كلّ شيء؛ تدمير كتبي، وهيلين التي كنتُ قد قتلتُها، ومحلّلي النفسيّ، ولكن من أجل أن أكون على ثقةٍ من تدميري لنفسي، كما كنتُ أتخيّل في مشاريعي الانتحاريّة. ولكن لماذا هذه الرّغبة الشّديدة في التدمير الذّاتيّ؟ لقد كنتُ أرغب بأيّ ثمنٍ في تدمير نفسي لأنّني لم أكن موجودًا منذ زمنٍ بعيدٍ، وأيّ سببٍ سوى ذلك، سوى هذا السبب الموجود في أعماق نفسي، لا شعوريًّا (وقد كان هذا اللّاشعور مسكوكًا في عددٍ لا متناهٍ من الحجج). وما هو أفضل دليلٍ على عدم وجودي سوى استخلاص هذه النتيجة من خلال تدمير نفسي بعد أن أكون قد دمّرتُ سائر الأقربين، وسائر الدّاعمين، وسائر مصادر العون لي؟

حينها توصّلتُ إلى التفكير بأنّني طالما كنتُ قد وجدتُ مع ذلك، وفي الوقت نفسه، الوسيلة للوجود -كأستاذٍ، وفيلسوف، وسياسيّ- فإنّه كان يعود إليّ القهر القديم الأوّلي -عن طريق رهاب الاكتئاب الأوّلي الفظيع، وفي خضمّ النكوص العجيب الذي كنتُ أعيش فيه- المتكرّر كثيرًا من المرّات (انظر مرحلة البندقيّة)، وتحت أشكال كثيرةٍ، بأنّني لم أكن شيئًا آخر سوى وجودٍ من الخداع، والتدجيل، وبمعنىً دقيق لم أكن سوى وجودٍ خالٍ تمامًا من الأصالة، وبالتالي من الحقيقة والواقعيّة. وكذلك بأنّ الموت كان مكتوبًا عليّ منذ البداية: لقد كانت نظرات والدتي وهي تعبر من خلالي لتتركّز على موت لويس ذاك -وهو موتٌ سابقٌ عليّ- تحكم عليّ بذلك الموت الذي عرفته سماء *فيردان* العالية، والذي لن تكفّ عن استعادته قسريًّا في أعماق روحها، ومن خلال تلك الرّغبة الكريهة التي لن أنقطع عن تحقيقها.

لقد أدركتُ حينها (وقد توصّلتُ إلى هذا الإدراك انطلاقًا من الكلمة المتبصّرة جدًّا لتلك الصديقة) بأنّ الحِداد الذي كنتُ أعيشه على هيلين، لم يكن منذ موت هيلين (أو تدميرها) الذي كنتُ أعيشه وأعمل عليه، بل لقد كان منذ الأزل. وفي

الحقيقة، لقد كنتُ دائمًا في حدادٍ على نفسي، على موتي من خلال أمّي والنساء الوسيطات. ولكي أحصل على الدليل الملموس على عدم وجودي، فقد كنتُ أرغب على نحوٍ يائسٍ في تدمير كلّ الأدلّة التي تثبت وجودي، ليس هيلين فقط، وهي الدليل الأسمى، بل الأدلّة الثانويّة أيضًا: أعمالي، ومحلّلي النفسي، وأنا نفسي في نهاية المطاف. مع ذلك، فإنّني لم ألاحظ بأنّني قد قمتُ باستثناءٍ في غضون هذه المذبحة العامة: استثناء تلك الصديقة التي كان عليها أن تفتح عينيّ، حينما قالت لي منذ عهدٍ قريبٍ جدًّا ما لم تكن تحبّه في شخصيّتي، أي رغبتي في تدمير نفسي. لعلّ ذلك لم يكن من قبيل المصادفة: إذ لشدّ ما حاولتُ أن أحبّها بطريقةٍ مختلفةٍ تمامًا عن حبّ النساء الأخريات في ماضيّ. لقد كانت الاستثناء الوحيد في حياتي.

نعم، إنّني لم أنقطع منذ الأزل عن أن أكون في حدادٍ على نفسي، ولعلّ هذا الحداد هو ما عشته في تلك الاكتئابات الانتكاسيّة الغريبة، التي لم تكن أزمات كآبةٍ حقيقيّةٍ، بل لقد كانت طريقةً مفارقةً للموت داخل العالم من خلال ممارسة السلطة المطلقة التي كانت، السلطة المطلقة نفسها، تأسرني في أطوار الهوس الخفيف. العجز المطلق معادلٌ للسلطة المطلقة على كلّ شيءٍ. دائمًا هو ذلك التناقض الفظيع، الذي نجد له مكافئًا من جهةٍ أخرى في التصوّف المسيحيّ القروسطيّ: كلٌّ=عدمٌ (totum = nihil).

هل يمكنني المضيّ إلى التالي؟ إنّ التالي لا يعني أحدًا. بيد أنّني الآن أدرك معنى التغيّرات التي كانت تحصل في نفسي: لقد كانت تمضي في سياق امتلاك زمام وجودي من جديد. سوف يبدأ هذا الأمر في المقام الأوّل من خلال المبادرة التي اتّخذتُها في استدعاء «محاميّ» من أجل تخليص نقابيّ ممّا كنتُ أحسبّ أنّه اعتقالٌ سياسيٌّ (الحزب الشيوعيّ). لم يكن طبيبي يعلم شيئًا عن هذه المرحلة، حينما طلبتُ منه لاحقًا أن يصف لي دواءً جديدًا، الأوبسن (l'upsène)، الذي كان يجعلني أشعر بالتحسّن فعلًا. لقد خرجتُ من *سوازي* في شهر تموز/ يوليو عام 1983، وأمضيتُ إجازاتٍ عسيرةً في منزل ريفيٍّ عائدٍ لأصدقاء في شرق البلاد مقرّبين

جدًّا، ولكنّني قلّما كنتُ قويًّا. بيد أنّني قد نجحتُ، وقد كان في ذلك مخاطرةً (كبيرةً) يأخذها طبيبي على عاتقه، في عدم دخولي ثانيةً إلى المستشفى لدى عودتي في شهر أيلول/ سبتمبر عام 1983. لقد ضرب أصدقائي من حولي حراسةً نهاريّة وليليّة ضمن شقّتي. وبفضلهم أصبحتُ معتادًا على إقامتي الجديدة التي لم تعد تخيفني. منذ ذلك الحين، أسندتُ إلى محلّلي النفسيّ، وبشكلٍ مقصودٍ، دور المحلّل النفسيّ، ولم أعد أطلب منه أيّ شيءٍ يدخل في عداد مهمّات الطبيب النفسيّ، أو حتّى مهمّات الطبيب [العام]. ومنذ ذلك الحين أخذتُ أستعيد شيئًا فشيئًا زمام أموري، وزمام صداقاتي، وأمراضي. ومنذ ذلك الحين أحسبُ أنّني قد تعلّمتُ ما هو الحبُّ: إنّه لا يعني المضيّ في خطوات الإعلاء المُفرط من قيمة النفس، «والمغالاة»، بل أن تكون قادرًا على العناية بالآخر، واحترام رغبته، وإيقاعه، وألّا تطلب منه شيئًا، ولكن أن تتعلّم التلقّي، وأن تتلقّى كلّ هبةٍ كما لو أنّها مفاجأة الحياة، وأن تكون قادرًا، من دون أيّ ادّعاءٍ، على [إتيان] الهبة نفسها، والمفاجأة نفسها في سبيل الآخر، ومن دون أن ترتكب أدنى بادرة عنفٍ حياله. وبالمختصر، إنّه الحريّة ببساطةٍ. فلماذا قام سيزان إذًا برسم جبل سانت فيكتوار (Sainte-Victoire) في كلّ لحظةٍ؟ هذا لأنّ الضوء هو نعمةٌ في كلّ لحظةٍ.

إذًا، تستطيع الحياة أن تكون جميلةً أيضًا رغم مآسيها. إنّني أبلغ السابعة والستّين، لكنّني أشعر بنفسي أخيرًا، أنا الذي لم أحظَ بفترة الشباب لأنّني لم أُحَبُّ لنفسي، أشعر أنّني شابٌّ كما لم أشعر من قبل أبدًا، حتّى وإن كان على المسألة أن تنتهي قريبًا.

حقًّا، إنّ المستقبل في هذه الأوقات يدوم طويلًا.

الفصل الثالث والعشرون

لقد عرضتُ هذا النصّ على صديقٍ قديمٍ، وهو طبيبٌ، كان يعرفنا أنا وهيلين منذ زمنٍ طويلٍ. ولقد طرحت عليه بكلّ عفويّةٍ السؤال التالي:

«ماذا جرى إذًا في يوم الأحد ذاك، في السادس عشر من شهر تشرين الثاني/ نوفمبر بيني وبين هيلين كي نخلص إلى تلك الجريمة المريعة؟».

وهاكم جوابه بالحرف:

لقد قلتُ بأنّه قد وقع لقاءٌ غير معقولٍ بين حوادث عرضيّةٍ بحتةٍ بالنسبة إلى البعض، وليست عارضةً بالنسبة إلى البعض الآخر، ولقد كان اجتماع هذه الحوادث أمرًا لا يمكن التنبّؤ به أبدًا، ولكان في الإمكان تجنّب هذا الاجتماع بسهولةٍ جدًّا وببذل القليل من الجهد، لو أنّه بالتحديد...

في رأيي، فلقد حكمت هذا الوضع ثلاث حقائق:

من جانبٍ أوّل، وكما تبيّن ثلاثة أطبّاء خبراء، فقد كنتَ في «حالة جنونٍ»، وبالتالي «حالة عدم مسؤوليّةٍ»: اختلاطٌ عقليٌّ، وهذيانٌ حُلميٌّ، وقد كنتَ غير واعٍ على الإطلاق قبل وفي أثناء القيام بالفعل، بالاستناد إلى أزمة كآبةٍ حادّةٍ، وبالتالي كنتَ غير مسؤولٍ عن أفعالك. من هنا فإنّ قرار منع المحاكمة كان قرارًا قانونيًّا في هذه الحالة.

2. من جهةٍ أخرى، فإنّ ثمّة أمرًا قد صدم محقّقي الشرطة في مسرح الجريمة: لم يكن هنالك أيّ أثرٍ للفوضى، لا في غرفتيكما، ولا فوق سريرك، ولا على ملابس

هيلين.

إنّ قصّة «غطاء السرير» الذي كان ليحمي عنق هيلين من الآثار المرئيّة لعمليّة الخنق كان فرضيّةً صحفيّةً تهدف بالضبط إلى تفسير غياب الآثار الخارجيّة لعمليّة الخنق. والحال أنّ تحقيقات الشرطة قد كذّبت رسميًّا هذه الفرضيّة، والتي لا نجدها فوق ذلك إلّا في مقالةٍ وحيدةٍ، كان الكثيرون قد رفضوها. لم يكن هنالك من أيّة آثارٍ خارجيّة لعمليّة الخنق باديةً على بشرة عنق هيلين.

3. أخيرًا، فقد كنتما أنتما الاثنين الوحيدين الموجودين في الشقّة، ليس منذ عشرة أيّامٍ فقط، ولكن في ذلك الصباح أيضًا.

بالتأكيد، لم يكن هنالك من أحدٍ كي يتدخّل. والأهمّ من ذلك: إنّ هيلين، لسببٍ أو لآخر، لم تكن تنوي أن تبدي أيّة علامةٍ على الدفاع. ولقد أشار أحدهم، وليس من دون سببٍ، إلى ما يلي: لقد كان يكفي في حالة الاضطراب وعدم الوعي التي وجدتَ نفسك فيها (ولعلّك كنتَ واقعًا أيضًا تحت التأثير المضرّ لأدوية الإيماو، في أعقاب صدمةٍ بيولوجيّةٍ كانت قد أحدثت لديك آثارها «العكسيّة») أن توجّه لك هيلين لطمةً قويّةً، أو أن تأتي بحركةٍ جدّيّةٍ كي تنتشلك من عدم وعيك، وكي توقف على أيّة حالٍ تصرّفاتك غير الواعية. حينها كان من الممكن أن يتغيّر مسار المأساة كلّها.

ألا يعني هذا أنّها كانت تترقّب الموت الذي كانت تتمنّى أن تتلقّاه على يديك، وأنّها تركت نفسها تقتل باستسلامٍ؟ ليس الأمر مستبعدًا.

ألا يعني هذا على العكس أنّها لم تُدرك شيئًا من [مغزى] حركتك الطيّبة في التدليك، والتي كانت قد اعتادت عليها؟ ألا يلزم أن نذكر أنّك، وحسب ظنّك، لم تكن قد دلّكت لها رقبتها أبدًا، وإنّما القذال فقط. إنّ هذا أيضًا أمرٌ غير مستبعدٍ. لقد كنتَ تعلم (كما يعلم هذا الأمر جيّدًا سائر الاختصاصيّين في التشريح، وكذلك الفنون القتاليّة واللّصوص القتلة) أنّ الرقبة منطقةٌ ضعيفةٌ جدًّا: لقد كان يكفي

صدمةً خفيفةً كي تنكسر الغضاريف والعظيمات، وأنّ هذا كان يعني حصول الوفاة.

ألم تكن لدى هيلين، في حقيقة الأمر، رغبةٌ في إنهاء حياتها (هي التي لم تنقطع طوال مدّة شهرٍ عن حديث أن تقتل نفسها، لكنّك كنتَ تعلم أنّها عاجزةٌ عن القيام بذلك) وأنّها كانت قد قبلت بصورةٍ سلبيّةٍ الموت على يديك، الموت الذي كانت تتوسّل إليك أن تعطيها إيّاه؟ إنّ هذا أيضًا أمرٌ غير مستبعدٍ.

أو، ألم تكن لديك رغبةٌ كبيرةٌ -كما كنتَ في حياتك كلّها- في تقديم العون لها، في مساعدتها في أشدّ رغباتها إلحاحًا وانهزاميّةً، وأنّك كنتَ، بصورةٍ غير واعيةٍ، لتحقّق رغبتها في إنهاء حياتها؟ إنّها الحالة التي تُدعى «بالانتحار عن طريق شخصٍ وسيطٍ، أو الانتحار الإيثاريّ»، وإنّها حالةٌ شائعةٌ في أحوال الكآبة الحادّة مثل حالتك؟ إنّ هذا أيضًا أمرٌ غير مستبعدٍ.

ولكن، كيف نختار بين هذه الفرضيّات؟

في هذا السياق، فإنّ من الممكن تصوّر كلّ شيءٍ، أو تقريبًا كلّ شيءٍ. بيد أنّنا، وعلى أساسٍ من هذا الأمر، لن نعرف أبدًا شيئًا من اليقين المطلق، بالنظر إلى أنّ العناصر المتراكمة عند ابتداء هذه المأساة هي عناصر عديدةٌ، عناصرٌ معقّدة لا يمكن التحقّق منها من الناحية الذاتيّة، وعناصرٌ احتماليّةٌ في جزءٍ كبيرٍ منها من الناحية الموضوعيّة.

ماذا كان حدث، في الواقع، لو أنّ هيلين مثلًا -وهذا أمرٌ موضوعيٌّ تمامًا- لم تتوسّل إلى محلّلكَ النفسيّ -الذي كان يريد أن يدخلكَ إلى المستشفى حالًا- كي يمنحها مهلة ثلاثة أيّامٍ من «التفكّر في الأمر»؟ ولماذا في أعماقها نفسها توسّلتْ إلى محلّلكَ النفسيّ كيّ يوفّر لها هذه المهلة؟ وبوجهٍ خاصٍّ، وعلى الأخصّ، ماذا كان ليحدث لو أنّ *الرسالة العاجلة* من محلّلكَ النفسي -التي أرسلت في البريد يوم الجمعة الواقع في اليوم الرّابع عشر عند الساعة السادسة عشر والتي تطلب من

هيلين الاتّصال به *للضرورة القصوى*، من أجل إدخالك إلى المستشفى حالًا على الرّغم من طلبها المتوسّل في التأجيل- كانت قد وصلت إلى المدرسة ليس في يوم الإثنين الواقع في اليوم السابع عشر، بعد أن كانت المأساة قد وقعت، ولكن في يوم الجمعة الرّابع عشر مساءً أو في صباح السبت الخامس عشر عند الساعة التاسعة؟ لم يكن البريد، على الأرجح، موضع خلافٍ. بيد أنّ من الواضح أنّ حارس المدرسة، الذي استقبل الرّسائل والبريد العاجل، لم يستطع أن يصل إليك من خلال الهاتف الداخليّ، ولا أن يفتح بابك بالقرع عليه، وذلك بحسبان أنّك منذ عشرة أيّامٍ على الأقل -وقد شهد بذلك سائر أصدقائك (بما فيهم أولئك الذين كانوا يرغبون أن يتمكّنوا من تحطيم بابكَ)- لم تعد تردّ لا على الهاتف ولا على قرع جرس الباب؟ فلو أنّك، بمعجزةٍ ما أو استثناءٍ ما، كنتَ قد أجبتَ على الهاتف، أو فتحتَ بابك، أو لو أنّ هيلينَ كانت قد تلقّت *رسالة* محلّلك النفسيّ *العاجلة*، إن كانت ترغب في ذلك، واستطاعت الاتّصال به: فإنّ كلّ شيءٍ -ومن دون أن يكون هنالك أيّ اعتراضٍ ممكنٍ- كان قد تغيّر بكلّ تأكيدٍ.

لقد كانت التفاصيل الدقيقة -الموضوعيّة وغير المتخيّلة- التي لا يمكن وزنها حاضرةً في مأساتك منذ البداية وإلى النهاية، وحتّى في اللحظة الأخيرة.

إنّ جلّ ما يمكن قوله، إذا ما تمّ تجاهل هذه الدقائق العديدة -ولكن أنّى يكون لنا التغاضي عنها؟ - هو أنّ هيلين كانت لتقبل الموت من دون الإتيان بأيّة حركةٍ كي تمنع وقوعه، أو كي تحترس منه، كما لو أنّها كانت ترغب في الموت، بل كانت ترغب أن تتلقّاه على يديك خاصّةً.

ونستطيع أن نقول أيضًا، بأنّك أنت -الذي أعطاها الموت بلا ريبٍ، ولعلّ ذلك من خلال رغبتك في تمسيدها بعنايةٍ فقط طالما أنّه لم تلاحظ أيّة آثارٍ خارجيّةٍ لعمليّة الخنق- كنتَ لتطمح إلى تحقيق رغبتك في الموت، مع تقديم الخدمة الجليلة إليها من خلال قتلها بالنيابة عنها (لأنّها كانت عاجزةً طبعًا عن أن تقتل نفسها بنفسها)،

وكنتَ لتطمح في الوقت نفسه، وبصورةٍ لا واعيةٍ، في تحقيق رغبتك الخاصّة في التدمير الذّاتيّ من خلال موت الشخص الذي كان أكثر المؤمنين بك، كي تكون بذلك على يقينٍ من أنّك لستَ سوى هذه الشخصيّة المصنوعة من الخداع، والتدجيل التي طالما طاردتك. بالفعل، فإنّ أفضل دليلٍ يمكن أن تقدّمه لنفسك على عدم وجودك هو تدمير نفسك طبعًا من خلال تدمير تلك التي تحبّك، والتي كانت، فوق كلّ شيءٍ، مؤمنةً على نحوٍ مطلقٍ *بوجودك*.

إنّني أعلمُ بأنّه سيكون هنالك على الدّوام أناسٌ، بل وأصدقاء حتّى، ليقولوا: لقد كانت هيلين مرضه، ولقد قتل هو مرضَه. لقد قتلها لأنّها كانت تجعل حياته مستحيلةً. لقد قتلها لأنه كان يكرهها، إلخ. أو، بشكلٍ أكثر متانةً، لقد قتلها لأنّه كان يعيش وهمه المتعلّق بالتدمير الذّاتيّ، وبأنّ هذا التدمير كان يتحقّق «منطقيًّا» من خلال تدمير أعماله، وشهرته، ومحلّله النفسيّ، وأخيرًا هيلين التي كانت تختصر حياته.

والحال، إنّ أكثر الأمور إزعاجًا في هذا النمط من التعليلات (المنتشرة جدًّا بسبب من يقينيّتها، والتي يُلمس فيها «موقفٌ» وثوقيٌّ لا يدع مجالًا للشكّ) هو مفردة: «لأنّ»، التي تقدّم إلى ضرورةٍ لا مطعن لها، ومن دون أن يُؤخذ في الحسبان تراكم تلك العناصر الاحتمالية الموضوعيّة.

والحال، أنّنا جميعًا، الجميع، نملك تخيّلاتٍ غير واعيةٍ عدائيّةً، بل وقاتلةً إجراميّةً. فإذا ما كان على جميع هؤلاء الذين يرعون في دواخلهم هذه التخيّلات أن ينتقلوا إلى تنفيذها، لكان علينا أن نتحوّل جميعًا وعلى وجه الضرورة لنصبح قَتَلَةً، هل تدرك الأمر؟ والحال أنّ الغالبيّة العظمى من البشر يستطيعون التعايش تمامًا مع هواجسهم، وحتّى القاتلة منها، ومن دون أن ينتقلوا إلى مرحلة الفعل كي يحقّقوا هذه الهواجس.

هؤلاء الذين يقولون: لقد قتلها ***لأنه*** لم يعد يستطيع تحمّلها، ***لأنه*** كان يرغب،

وإن بصورةٍ غير واعيةٍ، في التخلّص منها، لا يفهمون من الأمر شيئًا أو لا يدقّقون ما يقولون. وإذا ما قيّض لهؤلاء أن يطبّقوا على أنفسهم هذا المنطق، هؤلاء الين يرعون في دواخلهم إضافة إلى هذا المنطق هواجس عدائيّةً وإجراميّةً (ومن منّا لا يرعى أمثالها في أعماق نفسه؟)، والتي هي في النتيجة هواجس ***لا شعوريّة ميّتة،*** لكانوا قد أصبحوا ليس في مشافي الطبّ النفسيّ، بل في غياهب السجون منذ أمدٍ بعيدٍ.

أنت تعلم، أنّه لا توجد في حياة الفرد كما في حياة الأمّة –بعبارة سوفوكليس (Sophocle)– حقيقةٌ نهائيّةٌ إلّا بعد وقوع الموت، أي بعد وقوع النهاية التي لا رجعة فيها، النهاية التي لا يعود في استطاعة أيّ شخصٍ، والميْت في المقام الأوّل، أن يغيّر فيها شيئًا. إنّ هذا التوقّف المفاجئ للموت هو الذي يتسبّب في حدوث الأثر الرجعيّ[191]، الذي يمكن بناءً عليه أنّ نقرّر (في مثال سوفوكليس) ما إذا كان الشخص الميْت سعيدًا أم غير سعيدٍ، وأن نقرّر في حالة هيلين من «تسبّب» في موتها.

لكنّ الأمور لا تجري على هذا النحو في الحياة. فمن الممكن أن نقضي في الحياة نتيجة حادثٍ بسيطٍ، ومن دون تحقيق أيّة «رغبةٍ» فيها. ولكن متى كان هنالك «رغبةٌ ما» أو متى اشتبهنا في وجودها، فسوف يكون هنالك أعدادٌ كبيرةٌ من البشر –وهو أمرٌ ضروريٌّ من أجلهم لأنّهم في حاجةٍ ليس إلى إدراك الفكرة، بل إلى الدفاع عن الفكرة التي ينشغلون بها من أجل حماية أنفسهم، حماية صديقهم، أو اتّهام شخصٍ ثالثٍ من قبيل ذلك الطبيب الذي لم يكن ليقوم بكلّ ما كان يفرض نفسه من الخارج، من خارجٍ «يُفترَضُ أنّه موضوعيٌّ»، «ومثبتٌ تمامًا»– ممّن يختلقون بأثرٍ رجعيٍّ، بأثرٍ رجعيٍّ لأمرٍ مُنجزٍ لا يمكن مقاومته، قاتلًا متخيّلًا «تاليًا» يجعلونه

(191) الأثر الرجعيّ (L'Après-coup): المصطلح الذي استخدمه لاكان في ترجمة المصطلح الفرويديّ (Nachtraglichkeit)، هذا المصطلح الذي يترجم أيضًا بعبارة (العمل المؤجّل)، وهذه المصطلحات تشير إلى الطريقة التي تؤثّر فيها في النفس الأحداث التي وقعت في الماضي على الأحداث اللاحقة، بحسبان أنّ الماضي موجود في النفس فقط كمجموعةٍ من الذكريات التي تجري صياغتها وإعادة تفسيرها باستمرار في ضوء الخبرة الحالية. (المترجم)

حينها «السبب» في وقوع جريمة القتل، بل في *تعمّلها [تعمّد ارتكاب الجريمة] اللاشعوريّ*. إنّ كلمة التعمّد كلمةٌ محمّلةٌ بالمعاني لأنّها تشير في المجمل إلى *تحسّبٍ وترتيب لا شعوريّ لآليّة ارتكاب الجريمة* من خلال التصوّر اللاشعوريّ لمرحلة الانتقال إلى ارتكاب فعل القتل.

والحال أنّ هؤلاء الأصدقاء الطيّبون جدًّا حيال صديقهم، و/ أو حيال أنفسهم، يخلطون بين *الأثر الرجعيّ العرضيّ* والنهائيّ للحياة القصيرة جدًّا، وبين *الأثر الرّجعيّ للحياة النفسيّة*، حياة المعنى. في الحالة الأولى، فإنّه من الصحيح بالنسبة إلى جميع البشر، وبالنسبة إلى جميع الأصدقاء، أن يكون من الواجب عليهم إعادة تشكيل الأثر الرّجعيّ الشخصيّ الذي يناسبهم (وأنا لا أتلفّظ بهذه الكلمة بأي معنى تحقيريّ على الإطلاق) والذي يسمح لهم بتحمّل صدمة المأساة، ومواجهتها علنًا. بيد أنّ لدى كلّ واحدٍ من هؤلاء الأصدقاء (أو لدى معظمهم) تفسيره الخاص به، وهو الأمر الذي لا يخلو من إفساد علاقة هؤلاء الأصدقاء بصديقهم القاتل، أو حتّى علاقات الأصدقاء فيما بينهم. كما أنّهم يتشبّثون كالفولاذ *بالأثر الرّجعيّ الشخصيّ*، الذي يبنون من حوله صورةً عن الشخص القاتل، وهم يدركون في كثيرٍ أو قليلٍ من السرّيّة بأنّ هذا الشخص المذكور لن يأتي من تلقاء نفسه ذات يومٍ كي يكذّب، أو يصحّح تأويلاتهم الشخصيّة. بهذا المعنى فإنّ طبيبك كان محقًّا في قوله لك بأنّ من الممكن لتفسيراتك نفسها، تمامًا مثل غياب هذه التفسيرات، أن تجازف أيضًا في إبعادك عن أصدقائك المقرّبين جدًّا. وإنّني لأتأمّل من أعماق قلبي ألّا يقع شيءٌ من هذا، بيد أنّنا هنا أيضًا لا نستطيع التكهّن بشيءٍ على وجه اليقين.

لن يجري الأمر هكذا على الإطلاق في أعقاب التأويل الدّاخليّ. بدايةً لأنّ هذا التأويل سوف يطبّق على حياة المريض نفسها. ولكن أيضًا، وبوجهٍ خاصٍّ، لأنّه لن يكون هنالك أبدًا خيالٌ «أحاديّ المعنى»، بل خيالاتٌ متناقضةٌ دائمًا. فالرّغبة في القتل على سبيل المثال، أو في تدمير النفس، وتدمير كلّ شيءٍ من حول الذّات، تجمع

دائمًا بين الرّغبة الكبيرة في الحبّ وبين أن تكون محبوبًا رغم كلّ شيءٍ، بين رغبةٍ كبيرةٍ في الانصهار مع الآخر وبالتالي في نجاة الآخر. وإنّه ليبدو لي من خلال قراءتك بأنّ هذا ينطبق بشكلٍ واضحٍ جدًّا على حالتك. فكيف يمكن الزّعم إذًا أنّ من الممكن أن نتحدّث فقط عن المحدّد «السببيّ» لخيالٍ واحدٍ، من دون أن نستحضر في الوقت نفسه المحدّد «السببيّ» الآخر، المحدّد النقيض الذي يتجلّى في الخيال نفسه بحسبانه الرغبة المتعارضة جذريًّا مع رغبة القتل في هذا الخيال، ألا وهي الرّغبة في الحياة، وفي الحبّ، وفي النجاة؟ حقيقة الأمر، فالقضيّة لا تتعلّق إذًا بمحدّدٍ *سببيٍّ*، ولكن بانبثاق *معنًى متناقضٍ* في وحدة الرّغبة المنقسمة، والتي لا يمكن أن تتحقّق حينها، في التباس تناقضها الكلّي، إلّا من خلال «الفرصة» الخارجيّة التي يمكنها «اتّخاذها»، كما كنتَ تقول عن مكيافيلّي. لكنّ «انتهاز الفرصة» نفسه، الذي يعتمد بصورةٍ فظيعةٍ على ظروف اعتباطيّةٍ (رسالة محلّلك النفسيّ التي لم تصل إلى هيلين، الغياب المطلق للمقاومة عند هيلين، عزلتكما الثنائيّة أيضًا-إذ لو قيّض لك شخصٌ آخرٌ بين يديك، ماذا كان ليحدث؟ وما أدراني؟) لا يمكن أن يحصل في الواقع الموضوعيّ إلّا في ظلّ شروطٍ اعتباطيّةٍ جدًّا. هؤلاء الذين يزعمون أنّهم يقبضون على التفسير *السببيّ* لا يفهمون شيئًا عن تناقض الخيالات، وعن *المعنى* الدّاخليّ، *خلال الحياة، وليس بعد الوقوع القاطع للوفاة*، وكذلك فإنّهم لا يفهمون شيئًا عن دور الظروف الخارجيّة الموضوعيّة الاعتباطيّة التي إمّا أن تمكّن من «القبضة» القاتلة أو (وهذا هو القسم الأعظم، والغالبيّة الإحصائيّة الهائلة من الحالات) من الإفلات منها.

حقيقة الأمر، فإنّه يلزم إذًا من أجل إدراك هذا الأمر غير المفهوم، أن نأخذ في الحسبان، وفي الوقت نفسه، الاحتمالات غير المتوقّعة (وهي كثيرةٌ جدًّا في حالتك) وكذلك تناقض الخيالات، الأمر الذي يفتح الطريق أمام سائر الاحتمالات المتناقضة.

أحسب أنّ سائر الأوراق على هذا النحو قد أصبحت مكشوفة على سطح الطاولة. وبأنّ البعض منها سيكون كافيًا من أجل إعلان عدم مسؤوليّتك عن

ارتكاب فعلتك، في لحظة ارتكابك لها.

هذا يعني، أنّك لا تستطيع أن تمنع أيّ شخصٍ عن التفكير على نحوٍ مختلفٍ. بيد أنّ الأمر الجوهريّ هو أنّك ستكون قد فسّرت نفسك على نحو واضحٍ وعلنيّ من وجهة نظرك. ولكلّ واحدٍ، وقد أصبح مطّلعًا على نحوٍ أفضل قدر الإمكان، أن يتّخذ مذهبه إذا ما كان يرغب في ذلك بعد.

على أيّة حالٍ، إنّني أفهم تفسيرك العلنيّ بوصفه مراجعةً لنفسك في فترة الحداد وفترة الحياة. وكما كان أجدادنا يقولون: فإنّ هذا هو فعل وجودٍ (actus essendi).

كلمةٌ أخيرةٌ: هؤلاء الذين يظنّون أنّهم يعرفون المزيد، وأنّ لديهم المزيد من القول، لا تخشوا أن تتكلّموا فيه. هؤلاء لم يعد في استطاعتهم سوى إعانتي على العيش.

ل.أ.

ويدوم المستقبل طويلاً

أقدم لويس ألتوسير يوم 16 نوفمبر 1980 على قتل زوجته نتيجة نوبة جنون حادة. كان ذلك الحدث هو النقطة المفصلية في حياة فيلسوف نذر حياته في الدفاع عن القضايا العادلة، ليجد نفسه في النهاية، أمام قضية من نوع آخر، قضية الفيلسوف القاتل والمتهم بقتل أقرب الأشخاص إليه. ظل لويس ألتوسير فترة في المستشفى، ليجد نفسه بعد مغادرته أمام كوابيس من نوع آخر. يقول ألتوسير إن هذا الكتاب هو فرصته الأخيرة للنجاة من ذلك الكابوس، لهذا ألف هذا الكتاب على أمل أن يتخفف ولو قليلاً من صورة زوجته «هيلين» وهي تحتضر بين يدي فيلسوف، في فترة زمنية تحتضر فيها الأفكار والمفاهيم والإيديولوجيات والقضايا العادلة.

هذا الكتاب ليس محاكمة فيلسوف لنفسه فحسب وإنما هو مرافعة طويلة لإدانة قرن من المفاهيم والأفكار والصراعات الإيديولوجية التي لا تنتهي.

النَّاشر

WWW.PAGE7.COM
ISBN 978-603-8387-22-1
9 786038 387221
Designed by Safa Nabil

صفحة ٧